



علوم اجتماعية

٢٠١٥



مسجد فى ميونيخ

النازيون ... وكالة الاستخبارات المركزية وبزوغ نجم «الإخوان المسلمين» فى الغرب

تأليف: إين جونسون

ترجمة: أحمد جمال أبو الليل



الهيئة المصرية العامة للكتاب



مسجد فى ميونيخ

النازيون ... وكالة الاستخبارات المركزية
وبزوغ نجم «الإخوان المسلمين» فى الغرب



تصميم الغلاف
وليد طاهر

الإشراف الفنى
على أبو الخير
صبرى عبد الواحد
هشام متولى حامد

تنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب



مسجد فى ميونيخ

النازيون ... وكالة الاستخبارات المركزية وبزوغ نجم «الإخوان المسلمين» فى الغرب

تأليف

إين جونسون

ترجمة

أحمد جمال أبو الليل

مكتبة الأسرة ٢٠١٥

جونسون، إين.
مسجد فى ميونيخ: النازيون .. وكالة الاستخبارات
المركزية وبزوغ نجم الإخوان المسلمين فى الغرب/
تأليف إين جونسون؛ ترجمة أحمد جمال أبو الليل .ـ
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٥.
٤٤٠ ص، ٢٤سم.
تدمك ٢ ـ ٣٠٨ ـ ٩١٠ـ ٩٧٧ـ ٩٧٨
١ ـ ميونيخ ـ المساجد.
٢ ـ الإخوان المسلمون.
أ ـ ابو الليل، أحمد جمال (مترجم).
ب ـ العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٥/٩٩٤٠
I.S.B.N 978- 977- 910-308-2
ديوى ٢١٥,٩

توطئة

الحقيقة المؤكدة التى تنطلق منها «مكتبة الأسرة»، هى أن تجليات الارتقاء فى الممارسات المجتمعية، تتحقق عندما ينشط النسق المعرفى والفكرى والثقافى للمجتمع ويتسع، بوصفه أهم الدوائر المؤثرة فى استمرار المجتمعات وتطورها واستقرارها، حتى لا يصبح المجتمع أسير أجوبة متخشبة جاهزة متوارثة فى مواجهة ضغوط احتياجاته، باجترار ثوابت معرفية تجاوزتها فتوحات الزمن المعرفى الراهن، بتنوعات إنجازاته المتجددة، فى حين أن رهانات المجتمع لتحقيق تجدده تتطلب ليس فقط أن يعرف المجتمع نفسه؛ بل أن يصنع نفسه، ويؤسس ذاته فى سياق إدراك دائم أن المجتمع لا يمكن أن يكون إلا بتحرير العقل العام، ليقرأ، ويتمعن، ويستوعب، ويدرك، ويعرف وتتحول مقروءاته، ومعارفه المستجدة إلى شبكة ممارسات يومية تسود كل مظاهر وآليات البنيات الاجتماعية والفردية وعلاقاتها، التى تواجه الصدوع اللامعقولة، وحالات التسلط المغلق التى تغلف وعى الناس بشطحات الارتداد والعزلة.

كما تستند «مكتبة الأسرة» إلى يقين أن إمكانات الإنسان أكثر ثراءً من الواقع، وأيضًا أن لا شىء يتأبد فى الحياة الاجتماعية، ليمنع العقل من بناء المعرفة الجديدة؛ إذ شحذ العقل باستخدامه الحر العام ـ بوصفه أداة الانتصار الإنسانى ـ يشكل إدراكًا معرفيًا عماده القراءة، يحرر المجتمع من عطالته، ويفتح نوافذ التأمل التى تدفع المجتمع إلى رؤية أشد تحولاً، وتؤسس لتفعيل إرادته وتحرير مصيره، وتضعه إيجابيًا فى مواجهة صورة الوجود الحقيقى أمام الممكنات المفتوحة التى ينتجها التواصل، والحوار مع الآخر، واستيعاب الاكتشافات الجديدة؛ إذ غياب القراءة يمنع المجتمعات من تحولها المتواصل، وينفيها من التأسيس الفعلى لزمن اجتماعى، فالقراءة هى البداية الكبرى التى إن ظلت مغلقة يصاب المجتمع بالخرس والصمت، حيث فى غياب القراءة تتجلى

علامات العجز عن إحداث شيء، استنادًا إلى أن الصمت عن القراءة يبقى صاحبه خارج موضوع المعرفة، محجوبًا عن التكوين الذاتى، والفعل الاجتماعى، إذ المعارف المستجدة تجعل الفرد يتمكن من أن يكون ، وأن يفعل، وتؤسس مسيرة إدراك المجتمع لمصيره الآمن، بأن تثرى امتلاكه قدرة إيقاظ ينابيع تخيل صورة وجوده، وإمكانية تحقيقها تصويبًا للواقع.

إن «مكتبة الأسرة» تسعى إلى فك احتكار فعل القراءة بالانتشار المتشعب للكتاب، وتقريبه للناس حتى تتحقق جدارة اكتساب الجميع مشروعية المعرفة، ومشروعية الفهم وتداولها، وذلك ما يشكل صميم جهد «مكتبة الأسرة» وتطلعه، تحقيقًا لحيوية مجتمعية تعقلن قبول التغيير باستباق الفهم، وتمارس التحرر من فكرة المعرفة المطلقة، التى تخلق حالات من حصر التفكير وانحصاره، نتيجة هيمنة أفكار مطلقة متسيدة، تؤدى إلى الانغلاق، وعدم الانفتاح على المستقبل.

لا شك أن ثمة تناقضًا بين الدعوة إلى القراءة، وغياب الكتاب عن متناول شرائح اجتماعية لا تسمح ظروفها الاقتصادية باقتنائه، وذلك ما شكل معضلة أصبحت المحك الموضوعي فى تحقيق الدعوة إلى القراءة على المستوى المجتمعى، وقد نجحت وزارة الثقافة عام ٢٠١٤ بتفعيل التكاتف المؤسسى، وذلك بتجاوز الأطر التقليدية، فى دعم «مكتبة الأسرة»، لتبدد التمايز فى ممارسة حق القراءة بالنشر المدعوم، الذى يحرر الكتاب من استحالة وصوله إلى شرائح المجتمع، وقد استجابت لهذا التكاتف المؤسسى فى دعم «مكتبة الأسرة»، كل من وزارة التربية والتعليم، ووزارة التخطيط، ووزارة السياحة، انطلاقًا من أن دعم حق اكتساب المعارف يخلق تغييرًا يلبى طموحات الأجيال الشابة الصاعدة والمجتمع بأسره، وهو ما ينعكس فكريًا وثقافيًا فى ممارسات المجتمع الحياتية.

رئيس اللجنة

فوزى فهمى

«وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ [١٠٧]»

سورة التوبة

في عام ١٩٤٧ ذهبت مارغريت دولينغر[1] لتستحم في نهر "الإيزار" الذي ينبع عند جبال "الألب" في التيرول مخترقا ميونيخ ... وهناك أبصرت رجلا تضرب بشرته إلى اللون البرونزي وتشي قسمات محياه بانحداره من أصول آسيوية. أما الرجل فكان "حسن قصايب": لاجئ سوفييتي في الثلاثين من العمر راغب في استهلال صفحة جديدة من صفحات حياته. وإذ تقاسم الاثنان نظرة خفر وحياء، أدركت مارغريت "أنه الرجل" ... ذلك الرجل الذي لم يفارقها إلا عند موته الذي وافاه قبل عام واحد فصلهما عن الاحتفال باليوبيل الذهبي لزواجهما.

والكتاب إهداء إلى "الزوجين" ... وإلى لاجئين مسلمين آخرين خاضوا غمار معارك غامضة حيث واجه كثيرون منهم خيارات أخلاقية عسيرة لينتهى بهم المطاف آلاف الأميال بعيدا عن موطنهم الأم، وليحيوا فى بلدان استغلقت على الأفهام ... وكان أملهم أن تفضى أعمالهم إلى تغيير وجه التاريخ ... ولقد كان لهم ما رموا إليه وإن تقولب فى مسارات لم يخالوها البتة.

تلك نغمة تاريخية متكررة على نحو موصول مفادها الخلوص إلى عواقب لم تكن قط فى الحسبان. بيد أننى - والحال كتلك - قد استشعرت غصة فى الحلق وصدمة كأنها البرق ... إذ قدر لى التعرف إلى أولئك البشر - حميميا - من خلال مكاتباتهم وتصاويرهم، بل لقد حالفنى حسن الطالع فى أحايين فالتقيت أناسا منهم كمارغريت كساچيب وجهاً لوجه ... طاعنين ينتمون إلى

حقبة من الزمان غابرة، ظاعنين أمضوا أعمارا حزينة يحيون فى سرية وغموض ... أناساً نادراً ما باحوا بمكنون صدورهم عما قدمت أيديهم لاستشعارهم خجلا من تعاون مع أنظمة غريبة مريبة وخيانتهم مودة خلان وأحباء مثلاً... وكذا لاستشعارهم التقيد بضرورة الكتمان وعدم الإفصاح ... ذلك القيد المفروض صراحة أو المفهوم ضمنيا فى العمليات المغطاة المتوسدة بالسرية المتدثرة بالغموض. هذا، وقد تزيا سوادهم بمسوح قد نافت الحقيقة ... فتارة يكون الإهاب إهابَ عالم أو باحث، وتارة يكون إهاب مناضل لإعلاء راية الحرية ... وحينا يكون مسوح ناشط دينى، وحينا يكون مسوح رجل أعمال. وهنا يلاحقنى سؤال ... ماذا يبقى للمرء من حياة جردت من وضوح وعلانية ومضت فى غيابات السرية ومسارب الغموض؟!

وتأتى الإجابة، فى حالة شخوص الكتاب، بأن ما تبقى كثير. فرغما عن

أن كثيرا منهم قد قضى نحبه، وما تزال حيواتهم يكتنفها غموض لم يمط عنها لثام، إلا أن أفعالهم لها أصداء واسعة اليوم حين تواجهنا حالات مماثلة وأمور مشابهة. فكما الضياء ينبعث من كوكب قصي، تنير سيرتهم ذواتنا وجنبات حياتنا.

برلين ... نيسان (أبريل) ٢٠٠٩

توطئة

على حافة المدينة

فى شتاء عام ٢٠٠٣، كنت أتجول بين صفوف لكتب حوتها إحدى مكتبات لندن من تلك التى تبيع أدبيات "الإسلام الراديكالى" ... مكتبة تنتمى لفصيل من مكتبات أكسبت العاصمة البريطانية اسما ذا دلالة ومعان : "لندنستان" ... والمكتبة مكدسة بلافتات وملصقات تدعو لسقوط "المجتمعات الحرة"، ولسان حالها التشكك فى مدى انطباق مفهوم "حرية التعبير" ، ومن ثم ما يسمه من نقائص وعوار، فضلا عن انطوائها على تجسيد للمصاعب والمشاكل التى تواجه المجتمعات المسلمة فى أوربا.

وكأحد مرتادى المكتبة المنتظمين، رحت أتجول خلالها فاسترعى نظرى خريطة للعالم ... خريطة غريبة[٢] غير مألوفة لونت بلدانها وفقا لنسبة المسلمين بها. فالأخضر المدهام للبلدان ذات الأغلبية المسلمة، أما الأخضر الأخفت ظلا، وكذا الأصفر و"البيج" فللبلدان الأقل كثافة فى أعداد المسلمين بها ... ذلك الطابع النمطى للإسلام السياسى الذى ينحو إلى تقسيم العالم إلى "هم" و"نحن"، حيث عامل التقسيم الأوحد : "الدين". أما حواف الخريطة فترصعها تصاوير للمساجد الأكثر شهرة - المسجد الحرام بمكة المكرمة (مهوى أفئدة الملايين من الحجيج كل عام)، والمسجد الأقصى وقبة الصخرة فى فلسطين (إلى حيث أُسرِى بالنبى محمد من المسجد الحرام، ومعراجه إلى السماء)، والجامع الأزرق وهو جامع السلطان أحمد فى اسطنبول بتركيا، والمركز الإسلامى فى ميونيخ.

المركز الإسلامى فى ميونيخ؟! ما أغرب هذا! إننى أكتب فى أمور "الدين" فى أوربا وأرجاء أخرى من المعمورة منذ سنوات ليست بالقليلة، كذا فقد أمضيت سنوات عديدة فى ألمانيا. ولقد علمت بأمر هذا المسجد كمقر لواحدة من المنظمات الإسلامية الصغيرة هناك، إلا أنه يصعب تخيل أن يدرج المسجد مع تلك المساجد الجليلة المهيبة كتفا بكتف. إذ ليست ميونيخ مركزا للإسلام، وليس المسجد هو الأكبر فى ألمانيا، ناهيك عن أوروبا بأسرها. بيد أن مسجد ميونيخ ذو قامة باسقة وهامة سامقة ... لذا فقد عزمت على زيارة المدينة لاستجلاء الأمر.

وبعد أسابيع قلائل حللت ميونيخ، وأطلقت العنان للسيارة لتخترق الطريق القديم شمال وسط المدينة بمحاذاة طريق أنيق يفضى إلى المطار الجديد و"استاد" الألعاب الرياضية ذى الطابع الحداثى. وبعد مرورى بتلك النماذج الصارخة من المنشآت الألمانية، مضت رحلتى لتخترق بعضا من ضواحى العاصمة الباڤارية.

وانطلاقاً من قلب المدينة مرورا بضواحيها انتهى بى المطاف ليسلمنى إلى مشارف ريفها. وهناك تبدى لناظرى مسجد ميونيخ ... مئذنة رشيقة باسقة وكأنما اخترقت هامات أشجار الصنوبر لترنو إلى السماء، وقبة كالبيضة كأنها منطاد هوائى مشدود إلى الأرض.

ولدى المسجد أبصرت حارسا قصير القامة نحيفا ... رجلا قد بلغ الستين فيما بدا لى، ذا رداء أبيض وقد انتعل خفين. سألته عن سبب شهرة المسجد فهز كتفيه دونما أدنى اهتمام لينفى عن المسجد أية شهرة ... سألته متى بُنِى المسجد فأردف مجيبا بأنه لا يعلم ... سألته من أنشأه، فاعتذر منى ولاذ بالصمت.

ولقد راعتنى أجوبة الرجل ... إذ زرت العديد من المساجد فى أوروبا. ولدى كل مسجد شنفت مسامعى أحاديث متعبدين فخورين عن تفاصيل وقائع بنائه ... بناء اضطلع بجله مهاجرون عمدوا إلى تجميع أمواله فيما بينهم. أما جهل حارس المسجد بما سألته ... أم عساه نسيان وغفلة؟ - فكان مريبا.

واقتربت لأجيل البصر وأمعن النظر فى مسجد ميونيخ ... فبدا لى أنه بناء قديم شيد من خرسانة وآجرة، وقد أصابته يد البلى وبعض من التشققات. أما الأشجار المحيطة به فكانت كما لو أنها تبتلعه ... مسجد ميونيخ، أحد مساجد العالم الكبرى؟! ... ترى أية وقائع احتضنها بنيان كهذا؟!

إنه سؤال أفضى إلى "مشروع بحثى" أخذنى إلى أماكن لم تكن فى حسبانى البتة ... مشروع التهم أوقاتا طالت كثيرا وأربت على ما كنت أخالها تستدعيه. فلقد دار بخلدى أننى حتما مدرك إجابة سؤالى دونما إبطاء إذا عمدت إلى الحديث مع ثلة من أفراد المجتمع المسلم فى ألمانيا ممن هاجروا إلى أوروبا خلال ستينيات القرن العشرين ... تلك الهجرة التى مثلت تحولا ديموغرافيا وسكانيا كبيرين مما

أسهم فى تغيير وجه "الخريطة الديموغرافية" لأوروبا، فذهبت أخمن أن المركز الإسلامى بميونيخ قد بزغ نجمه إبان تلك الحقبة.

بيد أن تخمينى قد جانبه التوفيق ... فما كانت الستينيات، بل كانت ثلاثينيات القرن العشرين نقطة البدء. أجل ... لقد أجريت لقاءات مع كثير من مسلمى ألمانيا حيث دارت حوارات فى هذا الشأن، بيد أننى أمضيت جانبا كبيرا من الوقت أنقب فى خبايا مواد أرشيفية أمريكية وأوروبية. وهناك ... وبين صناديق وملفات حوت وثائق ما برحت محابسها إذ ظلت أسيرة التناسى ورهينة الإهمال، وأخرى قد أفرج عنها مؤخرا ... للمت خيوط القصص وجمعت شتات الوقائع ... قصص ووقائع تفصح عن أناس ذوى منزلة وشأن أرسيت على أيديهم الدعائم الأيديولوجية للمسجد، ليعقب ذلك حرب اشتعل فتيلها واستعر أوارها فيما بينهم حول مدى أحقية فصيل دون آخر فى الاستئثار بالمسجد والتحكم فيه.

أما الواقع فقد جاء منافيا للتوقعات، فلم يكن لمؤسسى مسجد ميونيخ ما يربطهم بكتلة المهاجرين إلا لماما ... إذ خلصت إلى قيام مجموعات ثلاث بدعم المسجد وتوطيد أركانه بغية بلوغ مآرب بعينها. فكانت طائفة تضم مفكرين نازيين عمدوا إلى التخطيط لاستخدام "الإسلام" سلاحا سياسيا إبان الحرب الكونية الثانية ليستأنفوا الاستراتيجية ذاتها خلال سنى "الحرب الباردة". وطائفة كان سوادها أفرادا من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، شرعوا فى انتهاج المنحى النازى ذاته والإفادة منه أملا فى استخدام "الإسلام" لمحاربة "الشيوعية" وكسر شوكتها. وطائفة ثالثة كان قوامها حفنة من إسلامويين راديكاليين رأوا فى المسجد موطئ قدم لهم فى الغرب. هذا، وقد انتظم تلكم الطوائف عنصر مشترك : لم يكن الهدف إنشاء دار عبادة بقدر ما كان إرساء قاعدة لأنشطة سياسية قد لا تخلو من عنف ممنهج.

ولوهلة أولى، يبدو الأمر ذا نبرة مألوفة ونغمة معروفة. فخلال سبعينيات القرن العشرين وثمانينياته عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى محاولة تعبئة المسلمين لمجابهة السوفييت فى أفغانستان، الأمر الذى أفضى إلى نشأة "تنظيم القاعدة". أما مسجد ميونيخ فقد اختمرت فكرة إنشائه قبل ذلك بثلاثة عقود ... لدى مفتتح الحرب الباردة لا عند قرب نهايتها. كذا، فقد كان الهدف من وراء إنشاء المسجد جد مختلف. ففى بلدان كأفغانستان، تم توظيف الإسلام لخوض حرب انتظمت جنودا وعتادا. أما هنا، فى ألمانيا، فقد سيق المسلمون نحو "حرب سيكولوجية" - حرب مذاهب وأفكار لا حرب دروع وأوتار. وهنا تبدى لى جليا أن وقائع ميونيخ وأحداثها كانت نذيرا بتطورات ستجرى أحداثها لاحقا ... مستجدات أيديولوجية وعسكرية شمل نطاقها العراق وأفغانستان.

وما أشبه الليلة بالبارحة ... تكتيكات أتت بنتائج عكسية بمثل ما قد جنت على نفسها براقش. فالحرب التى خاضها مسلمو ميونيخ قد تمخض عنها أيديولوجية خبيثة بوجه الغرب : "الإسلاموية" ... وما أدراك ما هى؟! إنها ليست العقيدة الإسلامية التليدة كدين، بل هى نظام فكرى شديد العنف بالغ التسييس ... نظام خرجت نبتة الإرهاب البغيض من بين ثناياه. إنه الإرهاب والعنف اللذان اكتوت كل من نيويورك وواشنطن بنيرانهما خلال هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، ذلك العنف الذى كانت له سابقة تلو الأخرى طالت الغرب عبر تاريخ طويل من إرهاب لم يسلم منه العالم بأسره خلال عقود خلت. أما التنظيم "الإسلاموى" الأبرز فهو جماعة "الإخوان المسلمين" ... تلك الجماعة التى جعلت مسجد ميونيخ "خلية سياسية" لخدمة أهدافها ومآربها. وفى الأغلب الأعم، فقد تولد الجانب الأكبر من أنشطة جماعة "الإخوان المسلمين" فى الغرب جراء ممارسات حفنة قليلة من أناس عُهدت إليهم مهمة إدارة المسجد. لقد كانت ميونيخ نقطة انطلاق تلك الجماعة

وتوغلها فى داخل المجتمعات الغربية.

إن الأشباه والنظائر فيما بين خمسينيات القرن العشرين ويومنا هذا تعد مذهلة بحق. فعلى حين تبقى مجتمعاتنا أسيرة أحداث تجرى وقائعها فى ساحات القتال كتلك التى جرت فى العراق، فإنها الحرب الأيديولوجية ... تلك التى هى مناط تحديد الظافر والمدحور. فاليوم، وبمثل ما كان عليه الأمر فى ميونيخ منذ خمسة عقود خلت، تسعى المجتمعات الغربية إلى استقطاب حلفاء مسلمين يحدوها أمل أن تلقى أناسا يشاطرونها قيمها فى معركة الصراع مع عدو لازم جاثم. ولقد جسدت ميونيخ مغبة هذا النهج وأخطاره دون ترو وإنعام نظر.

إن المجتمعات الغربية قد جعلت إنعام النظر هذا تبعة ثقيلة ومهمة وبيلة. وعلى العموم، فإن وثائق وكالات الاستخبارات وملفاتها حول "الإسلام" لم يفرج عنها بعد. لقد كان من حسن الطالع بما يعد ظرفا استثنائيا أن تمكنتُ من الحصول على أوراق ومستندات تسرد وقائع الأحداث. ففى الولايات المتحدة الأمريكية استلزم الأمر استصدار قرار من الكونغرس للإفراج عن ملفات وكالة الاستخبارات المركزية عن النازيين الذين نجوا من ويلات الحرب الكونية الثانية، أو أولئك الذين دارت حولهم شكوك بضلوعهم فى جرائم حرب. ولعل الأمر يستلزم قراراً مماثلاً للوصول إلى رؤية شاملة بشأن تعامل الولايات المتحدة مع الجماعات الإسلاموية وتعاطيها مع شئون تلكم التنظيمات.

وعلى هذا، فالكتاب يعمد إلى سد ثغرة هنا وتجسير فجوة هناك. ولعل أحد الأسباب التى دفعتنى إلى كتابته فى الوقت الحالى أن شهود عيان تلك الحقبة بات يحصدهم الموت واحدا تلو الآخر، فضلا عن كون الوثائق والملاحظات التى راكمها الكثيرون من أولئك الشهود قد صارت نهبا للضياع وعرضة للفناء. إن كثيرين ممن

أجريت معهم لقاءات وحوارات كانوا قد تجاوزوا الثمانين بل والتسعين، وآخرين كثراً قد قضوا نحبهم مذاك ... فإذا ما انتظر المرء سنوات - وإن كانت قلائل - لكان الأمر يعني خسارة وهدرا لرؤى ونصائح.

إن أولئك الشهود ... وتلك الوثائق ... يسطرون رواية تأخذنا فى تطواف ما بين هوليوود وجاكارتا ... وواشنطون ومكة. بيد أن الرواية - وكما جرت أحداثها فى ألمانيا - تبدأ فى ساحات الحرب الكونية الثانية.

حروب ساخنة

الفصل الأول

الجبهة الشرقية

فى خندق به مدفعية آلية، رقد "غريب سلطان" على بطنه مادا عنقه إلى الأمام ليستطلع العدو بين ثنايا العشب المحيط ... إذ تلقى أوامر من رؤسائه بتولى مهام الدفاع عن إحدى "الجبهات الأمامية" للجيش الأحمر على أطراف مدينة "خاركوف" الأوكرانية[3] ... كان ذلك فى أيار/مايو ١٩٤٢ حين عمد الألمان إلى شن هجوم مضاد، فاشتملت الأجواء قرع القانفات ودمدمتها وهدر المدرعات وقعقعتها. وشرع سلطان، نو التسعة عشر ربيعا، يوجه منظاره الميدانى يمنة ويسرة مستطلعا السهوب الأوكرانية نون أن يرى شيئا لافتا، فأسقط فى يده.

عندها ... أجال سلطان فكره كسيفا ليتذكر كيف آلت به الحال هاهنا. لقد كان فردا ضمن إحدى الأقليات بالاتحاد السوفييتى إبان حكم ستالين ... تترياً من "ستيرليتاماك" ببشكيريا[٤]، ذلك الإقليم الذى استقرت به الشعوب الطورانية فى آخر موجات الغزاة "الرحل" من آسيا الوسطى على يد "جنكيز خان" فى القرن الثالث عشر الميلادى. ومع المد الروسى، فقد التتريون استقلالهم، ليصبحوا أحد الشعوب "غير الروسية" العديدة التى تمثل قرابة نصف تعداد سكان البلاد.

وإبان الحكم السوفييتى، ازدادت وطأة قمع تلك الشعوب، وبخاصة من على شاكلة والد سلطان ووالدته ممن امتلكوا وأداروا مشاريع تجارية صغيرة الحجم. إذ أطلقت عليهم الكوادر السوفييتية لفظة "الرأسماليين"، وجردتهم من جميع ممتلكاتهم. هذا، وقد عمدت تلك الكوادر إلى "تأميم" مشروع والد سلطان، وكان مشروعا للنقل والمواصلات، إلى جانب قيامهم بمصادرة بيت العائلة، حتى أن

الفَرس المملوك للعائلة لم يسلم من أيدى السوفييت. أما العائلة، التى كانت ميسورة الحال آنفا، فقد استطاعت الاحتفاظ بقطعتى أثاث كانت قد جلبتهما خلال رحلة لها إلى بريطانيا، ولم تكن القطعتان سوى "مرآة" صارت مشروخة، و"منبه" أضحى مهشما!! هذا، وقد عمد الأب، قبيل وفاته، إلى تشجيع ابنه على الانضمام لعضوية منظمة الطلائع - "طلائع لينين"، ثم اتحاد الشبيبة الشيوعية - "الكومسومول"، فالحزب الشيوعى لاحقا. فوفقا للأب، فإن ذلك كان هو السبيل الوحيد للنجاة فى ظل الحكم الستالينى. وبالفعل، فقد أذعن "سلطان" لنصيحة والده، فالتحق بالكومسومول، وانضم إلى صفوف المدرسة العليا وكان تخطيطه أن يدرس "علم المعادن" ... وبذل جهده لكى يضحى "مواطنا سوفييتيا".

ثم جاء حزيران/ يونيو ١٩٤١ ... وجاء معه الغزو الألمانى. حينها ... لم يكن الجيش الأحمر قد أضحى تلك الآلة العسكرية الهائلة التى ستنتجح - لاحقاً - فى

تدمير جانب كبير من الجيش الهتلرى. فخلال السنة الأولى من الحرب الكونية الثانية، منى الجيش الأحمر بإصابات وخسائر عديدة، وانسحب متقهقرا من أراض شاسعة. لذا، فقد تم استدعاء كل فرد متاح وتكليفه بمهام قتالية على الفور. وتم تجنيد "سلطان" إجباريا، وإلحاقه بجماعة مكونة من أمثاله من "غير الروس" ... جماعة هزيلة العتاد رديئة القياد، صدرت لها الأوامر بانتشار أفرادها حين ملاقاة العدو.

وحين أخذت الوحدة العسكرية التى ضمت "سلطان" موقعها خارج "خاركوف"، شعر "سلطان" شعورا طاغيا كونه أحد أفراد "أقلية" ما، وما لذلك من دلالة دونية. وحين اصطف أفراد الوحدة لأغراض التفتيش، أمر القائد - وكان روسيا - كل من ينتمى إلى أقلية ما بأن يتقدم خطوة إلى الأمام، ليلى ذلك قيامه بتكليف أربعة منهم، من بينهم "سلطان"، بالمهمة الانتحارية المتمثلة فى التسلل إلى المنطقة المشاع غير الآهلة التى تفصل الجيشين المتحاربين أحدهما عن الآخر، وإلقاء منشورات كتبت باللغة الألمانية باتجاه صفوف العدو. ووفقا للمخطط "الدون كيخوتى" هذا، سيقوم الجنود الألمان بقراءة ما حوته المنشورات، والتمرد بوجه قوادهم والانسحاب. ولم يكن أحد ليتوقع أن الألمان قد قاموا بزراعة أسلاك شائكة. أما جماعة "سلطان" فقد قُطِعت إربا تحت وابل قصف المدفعية الألمانية، ولم ينج منهم أحد سوى "سلطان" الذى عمد إلى الاختباء ليومين داخل الحشائش المرتفعة فى السهوب، ليزحف عائدا أدراجه. وتقديرا لبسالته وشجاعته وعده قائده بتقليده وساما. بيد أن سلطان قد استشعر أن هذا الشرف ما هو إلا شرف أجوف، إذ أخذ ولاؤه للنظام السوفييتى يتضاءل - ذلك النظام الذى حاول مخلصا المساعدة فى تدعيم أركانه وتمديد رقعته.

تلا ذلك أن أُمِرت "الوحدة" أن تأخذ أهبتها للتصدى للهجوم الألمانى، حيث لمس

"سلطان" -ثانية- وحشية النظام الستالينى ... إذ أجبر القادة السوفييت سجناء المعتقلات ومعسكرات العمل الإلزامى على حفر خنادق مضادة للدبابات دون تأمين أدنى حماية لهم من قصف النيران الألمانية. وفى أثناء إحدى فترات الراحة تحدث سجين عجوز إلى "سلطان"، وكان تتريا مثله. لقد أخبره ذلك السجين الهزيل الضعيف كيف حارب خلال الحرب الكونية الأولى حيث أوقعه الألمان فى الأسر. وأردف العجوز قائلا إن الحياة فى معسكرات الأسر الألمانية كانت خيرا من الحياة فى صفوف الجيش القيصرى وأخف وطأة، لدرجة أن الأسرى قد حاربوا ضمن صفوف الألمان فى قتالهم للروس. وفيما كان العجوز يقص روايته، أرهف "سلطان" السمع ثم عاد للعمل من جديد. أما القادة فقد كانوا قد انتهوا للتو من انتقاء بعض الجند لتحصين عدة مواقع من جبهة المواجهة. وهنا ... راود "سلطان" شعور بأن الجنود المنتمين إلى الأقليات هم من اختيروا لأكثر المهام صعوبة وخطورة ... مهام كان إحراز النصر فيها أقرب إلى حلم بعيد المنال، بيد أنه رجع إلى موقعه كالا مجهدا.

كان "سلطان" مستلقيا فى حفرة إلى جوار جندى ينتمى إلى إحدى الأقليات حيث اتخذ الأخير وضع الاستعداد. وكانت لسلطان إمرة شكلية صورية إذ قد خدم سابقا فى اتحاد الشبيبة الشيوعية، بيد أنه لم يكن يملك أدنى معرفة عن كيفية مجابهة الدبابات وإيقافها باستخدام المدفعية الآلية، أو أدنى إدراك لمغزى الدفاع عن قطعة أرض بعينها ضمن جبهة قتالية تتغير باستمرار - مهما كان ثمن التضحية المرتبطة بدفاع كهذا. هنا ... وضع سلطان منظاره الميدانى لبرهة قصيرة ليصيخ السمع ... إذ تنامت إلى أذنيه أصوات طلقات نارية تقترب باتجاهه، إلا أنه لم ير أية تحركات قط.

وفجأة، وكلمح بالبصر، انشقت الحشائش المحيطة عن فرقة من الجنود الألمان

ما جعل رفيقه يتأرجح قليلا فى الوقت نفسه الذى اندفعت خلاله جماعة ألمانية أخرى من الجهة المقابلة ... وبهت السوفييتيان فأضحيا مشدوهين، إذ لو فتحا نيران مدفعيتهما صوب إحدى الجماعتين، لقامت الأخرى بتمزيقهما إربا فى التو ... هو موت "بطولى" إذا ... موت خال قادة "سلطان" جنودهم ملاقيه. أما "سلطان" فلم يكن لديه إلا ثوان معدودات تحدد مصيره.

"كلا ... أمسكوا عن هذا"، صيحة جأر بها قائد الفرقة الألمانية مدوية حين أقعى رجاله متقاطرين وشرعوا فى التصويب تلقاء العدو ... "تراجعوا ولا تطلقوا النيران". عندها أضحى "سلطان" حائرا يترقب، إذ طافت بمخيلته مشاهد العبودية فى معتقلات السوفييت، وكذا ذكرى عائلته التى أبعدت عن بيتها قسرا، فاستشعر أن الحرب ليست حربه، إذ ليست النائحة كالثكلى... لذا، فقد قام ورفيقه برفع أياديهما استسلاما ... لقد أصبحا أسيرين.

"أطلقوا النيران عليهما" ... صيحة أخرى أرسلها عديد من الألمان، وكان أمرا كثيرا ما يحدث ... فالجبهة الشرقية قد اتسمت بالوحشية، فضلا عن تجاهل طرفى القتال البروتوكولات الدولية الخاصة "بأخلاقيات الحروب".

وخلال تشاور الجنود وجدالاتهم، تقدم ضابط ألمانى باتجاه الأسيرين فاستشعر "سلطان" مخرجا، إذ كان قد تعلم قدرا يسيرا من الألمانية فى المدرسة العليا، فقرر مخاطبة الضابط بها.

"سيدى، إنك رجل متعلم ... ما دراستك؟"، سؤال افتتح به "سلطان" حديثه إلى الضابط الذى دهش أن يتحدث جندى سوفييتى الألمانية، فأردف باسما : "القانون".

"حسنا، وبما أنه يعول على أن يبدى القضاة الرحمة ... لا تقتلنا".

فما كان من الضابط إلا أن أطلق ضحكة كأنها كانت إجابته. لقد كان مرتديا شارة "الصليب المعقوف" - شعار النازية - إلا أنه كان من مدرسة "پروسيا" القديمة. أما الرجلان فكانا أسيريه وتلك مسئوليته. وإنفاذا للواجب المقيد به، أرسل الرجل أسيريه إلى الصفوف الخلفية كى يتم التعامل معهما.

مثّل استسلام "سلطان" صورة مصغرة للانهيار المدوى للجيش الأحمر إذ استسلم ثلاثة ملايين جندى سوفييتى أمام الألمان[5]. إن الجنود السوفييت - أولئك الذين انهارت معنوياتهم جراء رعب الحكم الستالينى الدموى - كانوا يستسلمون بالجملة فى أفواج تلتها أفواج. إذ ذهب عديد منهم إلى أن النازيين لن يكونوا، بحال، أكثر سوءا من الشيوعيين. كذا، فإن الأقليات غير الروسية بالاتحاد السوفييتى كانت، على وجه الخصوص، غير متحمسة ألبتة للقضية الروسية. فوفقا لتلك الأقليات، فما الاتحاد السوفييتى إلا "نسخة" أكثر وحشية من الإمبراطورية القيصرية الغابرة[6]. فخلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر توسعت روسيا جنوبا وشرقا، وحين تم عزل القيصر الروسى الأخير، نيقولا الثانى، على يد البلاشفة عام ١٩١٧، كان ما يقرب من نصف تعداد البلاد مكونا من عناصر "غير روسية".

كان الاتحاد السوفييتى قد ورث عن روسيا القيصرية إقليمين كبيرين كان الروس فيهما فى عداد الأقليات ألا وهما إقليم "آسيا الوسطى"، وإقليم "القوقاز". أما آسيا الوسطى فكانت تشمل قازاخستان، وقيرغيزستان، وطاجيكستان، وتركمانستان، وأوزبكستان. وكان الإقليم يعرف، آنذاك، بإقليم تركستان ... إقليم مسلم تتحدث شعوبه العديدة صنوفا من لهجات تركية، وتضم أرجاؤه شعوبا "رُحّلا" ومدنا عظيمة مثل "سمرقند" و"طشقند". ولم يكن الإقليم ذا جاذبية للنازيين إذ كان بعيدا عن ساحات القتال.

أما إقليم القوقاز فيقع قريبا من مصالح "النازية"، وهو الموطن الأسطورى للشعب القوقازى. كذا، فالإقليم يحظى بأهمية فى الثقافة الشعبية النازية ... فهو إقليم الأساطير العجيبة والجبال الحصينة ... تلك العصية على من رام لها اختراقا. وتذهب الأقاويل إلى أن إقليم القوقاز هو مهبط النبى "نوح" بعد انحسار الطوفان، وذلك على جبل "أرارات"، فيما عده الإغريق أحد أعمدة العالم، فجباله تمسك السماوات من أن تهوي ... تلك الجبال التى تنتهى إلى حدودها الحضارات. أما من الوجهة الجغرافية، فكانت جبال القوقاز تعد الخط الفاصل ما بين أوروبا والشرق الأوسط.

وفوق ذلك، كان القوقاز إقليما لم تُخضِعه "موسكو" ألبتة، إقليما ينطوى على "فسيفساءات ديموغرافية". فالقوقاز الجنوبى ينقسم إلى قطاعات ثلاثة: جورجيا وأرمينيا المسيحيتين، وأذربيجان المسلمة. أما القوقاز الشمالى فغالبية سكانه من المسلمين، وتنتشر فى ربوعه شعوب صغيرة ولكنها مستقلة ... الداغستانيون[٧]، والكالميك[٨]، والشيشان[٩]، والأوسيتيون[١٠].

إن الأطماع النازية كانت واضحة جلية. فمدينتا "باكو" الأذربيجانية، و"غروزنى" الشيشانية كانتا مركزين هامين لإنتاج النفط ... وكانت ألمانيا تخطط للاستيلاء على آبار النفط بالمدينتين، وذلك لإمداد "الرايخ" بحاجته من البترول. بيد أنه خلافا لأقاليم عديدة فى الاتحاد السوفييتى، لم يدرَج "القوقاز" كإقليم استهدفه الغزو الألمانى ... الأمر الذى أتاح لأولئك الألمان الظهور بمظهر "المحررين" أو "المخلّصين"!! – حيث نظر إليهم كثير من أهالى الإقليم على أنهم كذلك. فحتى لو كان الأهالى يتشككون بشأن نيات "النازى" المضمرة، إلا أنهم كانوا فرحين بأن قيض لهم من يقف فى وجه مستعبديهم الذين ساموهم الخسف.

لقد أعطت ردة الفعل المحلية تلك لمحة عن هشاشة النظام السوفييتى ... ذلك النظام الذى بدت دعائمه وكأنها خشب مسندة - وهو الأمر الذى ستسفر عنه الأحداث واضحا جليا حين انهيار الاتحاد السوفييتى بعد عدة عقود من آنذاك. ففى مستهل تسعينيات القرن العشرين، تشظى هذان الإقليمان ذوا الأغلبية العددية المسلمة إلى العديد من البلدان المستقلة. كذا، فخلال الحرب الكونية الثانية، حدث انقسام مشابه بين صفوف أفراد شعروا بولاء تجاه دينهم وأوطانهم الأم بأكثر من ولائهم "للإمبراطورية السوفييتية". إذا، فقد كان هناك مئات الآلاف من الرجال من أمثال "غريب سلطان": تتر، وجورجيين، وشيشان، وقازاخستانيون، وأوزبك ... رجال كان جلهم من المسلمين الذين ابتهج سوادهم بالقتال ضد الاتحاد السوفييتى.

حينذاك، وفى مدينة ميونيخ الألمانية، ستعمد مجموعة من مناهضى الشيوعية المستشعرين مرارة طعمتها إلى الاجتماع بالمدينة ... تلك المجموعة التى ستَضْحى ذات أهمية للغرب. وكمجموعة نظمت صفوفها ودربت كوادرها من قبل النازيين إبان الحرب، فقد اعتُبرت، بعد أن وضعت الحرب أوزارها، ذخيرة وقوة فى الجهود الرامية إلى مناهضة الشيوعية ودحرها. كذا، فقد وُضِع للإسلاميين أدوار ومهام، إذ أضحى أولئك الذين انتظمتهم عقيدة واحدة أداة من أدوات الغرب فى تصديه للشيوعية للحد من غلوائها. إلا أنهم، إبان الحرب، كانوا جماعة رجال - أو بالأحرى فتيان - يفتقرون إلى التنظيم وتنقصهم الدربة والمران. أما "سلطان" فقد أُرسِل إلى معسكر لأسرى الحرب خصص للمتعلمين من السجناء السوفييت ... هنالك، فطن الألمان إلى أنهم يملكون سلاحا ذا مضاء.

فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١، قام رجل من الأوزبك يدعى "ولى قيوم عليم خان"[١١] بزيارة معسكر لأسرى الحرب من المسلمين فى مقاطعة "بروسيا" الشرقية

بألمانيا ... كان المعسكر ذا أجواء مرعبة وأحوال مقبضة، إذ كان التيفوس فاشيا والسجناء قاب قوسين أو أدنى من الموت، إذ كان جميعهم يحتضرون احتضارا بطيئا. كذا، فقد تملكتهم الحسرة وشملهم الذهول جراء قيام فرق التصفية النازية بالإجهاز على الآلاف من رفاقهم ... وفى تلك الأجواء الخانقة، جال بخلد جندى أوزبكى شاب سؤال مفاده: "كم يلزم من وقت كى يلقى المرء حتفه؟!"[١٢]

كان "ولى قيوم" يرافقه قائد ألمانى برتبة لواء، ذلك اللواء الذى أثار ذهول الأسرى حين تحدث إليهم بالأوزبكية متعهدا بالعمل على تحسين الأحوال المحيطة. تلا ذلك قيام "ولى قيوم" بتوجيه خطابه إلى الأسرى قائلاً:

"إننى من الأوزبك ... اسمى ولى قيوم خان، ولدت فى طشقند، وقدِمت ألمانيا عام ١٩٢٢ حين التمست الحكومة السوفييتية يد العون للتحكم فى تركستان، وأرسلتْ أناسا من مواطنيها ليتلقوا تعليما فى ألمانيا. أما أنا فقد قررت البقاء فى ألمانيا والانضمام إلى تنظيم سياسى أُسس لتحرير تركستان من قبضة الحكم الروسى ... ولسوف تسمعون منى فى القريب العاجل بعض الأخبار السارة".

ولقد أوفى "قيوم خان" بتعهده للأسرى. فخلال أسبوعين فقط أعقبا حديثه إليهم، تحسنت الأحوال فى المعسكر تحسنا كبيرا ... فقد أضحى الطعام متاحا بوفرة، كذا فقد صارت الرعاية الطبية فى متناول من يحتاج إليها. ثم أعقب ذلك قيام الألمان بانتقاء الأسرى المتعلمين، دون غيرهم، وإرسالهم إلى معسكر حربى ألمانى إلى الجنوب من برلين حيث تم تدريبهم فيه على استخدام الأسلحة الألمانية، وتفكيك البنادق اليدوية وتنظيف أجزائها، وكذا الأمر فيما يخص البنادق الآلية ومدافع الهاون. ولعل الأمر الأكثر أهمية، قيام المهاجرين من أمثال "ولى قيوم" بتثقيفهم سياسيا من خلال دروس التاريخ ... التاريخ، ذلك المجهول الذى كانت

الكثرة من الجنود السوفييت الفتيان جاهلة به. وفى أثناء دروس التاريخ تلك، علم أولئك الفتية أن مواطنهم الأم لها تاريخ تليد يدعو إلى الفخار والتيه ... مواطن يمكن أن تُبعث كَرّة أخرى كانبعاث طائر الفينيق من الرماد ... إذا تم تحريرها من قبضة الحكم السوفييتى الشمولى وسطوته.

وبحلول تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤١، تم دمج أولئك الأسرى المنتقين مع الأسرى السوفييت المسلمين - وقوامهم ١٢٠٠ أسير - الذين بقوا فى معسكر أسرى الحرب. وقد عمت الأجواء مظاهر احتفالية ابتهاجية، وإن مُزِجت ببعض خوف إذ تبين للأسرى أنه قد تم إعدادهم لقتال السوفييت. أجل ... إن جميعهم يمقتون السوفييت، بيد أنها لصدمة كبيرة أن يحدث تحول جذرى فى الوجهة إذ توجب عليهم، عندها، التعاون مع أعداء الأمس - الألمان - ومن ثم خيانتهم موسكو ... لقد كانت تلك نقطة اللاعودة.

كذا، فقد تحدث أوزبكى آخر إلى أولئك الأسرى ... مدرس يدعى "باى ميرزا هاييت"[١٣]، تم أسره بواسطة الألمان الذين عينوه "ضابط اتصال" بالقيادة الألمانية العليا فى برلين وشرق بروسيا ... ووفقاً له، فإنه كان يجب على أولئك الأسرى النظر لأنفسهم باعتبارهم "جيشا للتحرير" ... لذا، فقد خاطبهم بقوله: "إنكم دعامة الفيالق الشرقية وركيزتها، وسيجيء اليوم الذى تتحرر فيه البلدان الشرقية ... يومها ستضحون أنتم العمود الفقرى لتلك البلدان وحجر الزاوية فيها".

أما مخاوف الأسرى فقد تبددت واستحالت بهجة وحبورا. وجاء الشهر التالى ليعطيهم الألمان الزى الخاص بالجيش الألمانى، إلا أنه كان لا يشتمل دعامة الكتف المقواة epaulette. فى المقابل، أُعطى الجنود شارةً أمضى ... شارة للساعد نقش عليها رسم لمزار "شاه زندة"[١٤]، وكتب عليها - بالتركية - Biz Alla Bilen - أى "الله معنا".

لقد كان تدريب الجنود جزءا من خطة حربية أطلق عليها اسم Operation Tiger B – أو "النمر ٢" نسبة إلى إطلاق اسم "النمر البنغالى" أو "النمر الملكى" على نوع من دبابات استخدمت فى هجمات تلك الخطة الحربية ... تلك الخطة التى ربطها "ولى قيوم خان" رباطا وثيقا مع وحدة الاستخبارات Abwehr التابعة للجيش الألماني. وعلى الرغم من أن معتنقى النظريات النازية العنصرية يعتبرون كل "آسيوى" أو "سلافى" أدنى عرقيا، إلا أن الكثيرين من الألمان كانوا حريصين على إرساء تحالفات مع أسرى الحرب هؤلاء. وبالفعل، فقد نظم الألمان – حينذاك – تشكيلات من "القوزاق"[١٥]، حيث كانت خطة "النمر ٢" ضربا من ذلك التوجه.

وفى مطلع عام ١٩٤٢، أرسل الجنود إلى الجبهة الواقعة غرب ستالينغراد ... وهناك أبلوا بلاء حسنا حيث كانوا ردفا للدبابات الألمانية فى المعركة.كذا، فقد قاموا بمهاجمة القوات السوفييتية ووضعها بين شقى الرحى ضمن هجمة انضوى تحت لوائها مئات من السجناء السوفييت. هذا، وقد اعتُبرت عملية "النمر ٢" ضربة ناجحة، ومن ثم فقد تم تبنى فكرة الاستعانة بوحدات ذوات أغلبية مسلمة.

شاركت أقليات سوفييتية أخرى فى صفوف الجيش الألمانى، إلا أن المسلمين قد كانت لهم سمة مميزة ... إذ إن انتماءهم إلى الاتحاد السوفييتى كان هشا واهيا. فحين طفقت أولى أفواج السجناء السوفييت المسلمين ترد وعمد الألمان إلى التحرى عن مشاربهم وانتماءاتهم ... فإن كثيرا منهم لم يربط هويته بكونه قازاخستانيا أو داغستانيا أو عضوا من أعضاء جماعة إثنية أخرى، ناهيك عن كونهم من السوفييت، لقد صرح كل منهم – بالمقابل – بكونه مسلما، وهو الأمر الذى أكسبهم اهتماما خاصا من لدن الألمان ... إذا، فنحن بصدد رجال يقاتلون لأجل عقيدة قد تتعارض بالكلية مع "الشيوعية" ... فكلاهما يقع على طرفى نقيض.

أما فكرة "الوحدات المسلمة" فقد دفع بها ضابطان تركيان ... هما اللواء على فؤاد اردين، واللواء حسين حسنى أمير اركيلت[١٦] . ورغما عن التزام تركيا الحياد أثناء الحرب، إلا أن اللواءين قد ارتحلا إلى برلين حيث حاولا التأثير على بعض كبار القادة العسكريين الألمان من أجل معاملة الجنود من ذوى الإثنيات التركية معاملة أفضل. وسرعان ما عمد الجيش الألمانى إلى تمديد نطاق عملية "النمر ٢" لتضحى وحدة منتظمة هى "الكتيبة ٤٥٠ مشاة"، والتى كان جل قوامها من الضباط والجنود ذوى الإثنية التركية. كذا، فقد أعقب ذلك إرساء ثلاثة فيالق إضافية.

ولم تكن "الوحدات المسلمة" وحدات الصفوة ... إذ تراوحت الروح المعنوية لأفرادها بين صعود وهبوط، وإن ظلت مرتفعة فى أغلب الأحوال ... إلا أنها تدنت حين أزيح الألمان عن المناطق المسلمة. وقد كان الجنود بتلك الوحدات قليلى العتاد. فعلى سبيل المثال، كانت إحدى الوحدات، وقوامها تسعون ألف جندى، مزودة بأربعة آلاف بندقية آلية أو أكثر قليلا إلى جانب ثلاثة آلاف منصة قذائف، وثلاثمائة قذيفة مدفعية. كذا فقد افتقرت الوحدة إلى الدبابات ومدافع "الهاوتسر". وكانت مهمتها الأساسية تتمثل فى محاربة الأعداء والدفاع عن خطوط الإمداد.

وفى هذا الصدد، تبقى الأعداد ذات دلالة وإشارات. فمع نهاية عام ١٩٤٢، كان قرابة مائة وخمسين ألفا من الأتراك (الإثنيات التركية) والقوقاز والقوزاق يقاتلون ضمن صفوف الجيش الألمانى. وعلى مدار سنى الحرب، كان ثمة مليون مواطن سوفييتى - على وجه التقريب - ينتمون إلى معتقدات وإثنيات متباينة منخرطين فى خدمة الألمان، جلهم فى مهام غير حربية. هذا، وقد تنوعت التقديرات فى هذا الخصوص، ولعل التقدير الأقرب تطابقا مع الواقع هو ذلك الذى يذهب إلى كون عدد المسلمين ربع مليون فرد انخرط سوادهم فى أدوار ومهام حربية.

لقد كان تفضيل المسلمين أمرا جليا منذ البداية. ففى آذار/ مارس ١٩٤٢، أصدر الجيش الألمانى مرسوما أتيح بمقتضاه للأقليات السوفييتية أن تنخرط فى الخدمة بالوحدات المسلحة للشرطة وقطاعات مجابهة الاعتداءات. إلا أنه كان محظورا على تلك الوحدات أن تؤدى مهاما على جبهة القتال، أو أن تحوز أسلحة ثقيلة. وكان الاستثناء الأوحد خاصا بالإثنيات التركية ... تلك الإثنيات التى نالت قدرا كبيرا من ثقة أهلتها لقتال السوفييت.

بل لقد كان هتلر ذاته يعضد تلك السياسات ويدعمها، إذ يبدو أنه كان مفتتنا بالمسلمين، ولعل ذلك يعزى - فى الأغلب - إلى كون الديكتاتور النمساوى المولد قد تعامل مع "مسلمين" فى الإمبراطورية النمساوية-الهنغارية، أو لكون تركيا إحدى القوى المركزية إبان الحرب الكونية الأولى، والتى شهدها هتلر وقاتل فيها. كذا، تبقى حقيقة أن المسلمين كانوا يسيطرون على بعض البقاع التى رغب الألمان فى احتلالها. وعلى أية حال، فقد بارك هتلر بقوة الإفادة من المسلمين واستخدامهم فى تحقيق المآرب الألمانية. فخلال عام ١٩٤٢، صرح هتلر أثناء حوار دار فى مقر القيادة العسكرية الألمانية أنه "يعتبر المسلمين، فحسب، مأمونى الجانب فيما لا يأمن غائلة من عداهم". هذا، وقد عمد هتلر إلى التشديد على القيادة العسكرية بتوخى الحذر حين القيام بتشكيل وحدات عسكرية من أشخاص تم استهدافهم، إلا أنه قد سمح باستثناء وحيد تمثل فى قوله: "إننى لا أرى أية مخاطرة أو مجازفة إذا تم تشكيل وحدات عسكرية يكون قوامها من المسلمين ليس إلا".

وسرعان ما احتاجت "أسراب الدفاع"[١٧] Schutzstaffel إلى قوات عسكرية غير ألمانية. وحين شكلت الكتيبة ٤٥٠ مشاة ووحدات أخرى مجتمعة وحدة بذاتها عام ١٩٤٣، عمدت "أسراب الدفاع" إلى الاستحواذ عليها وإعادة تسميتها لتصبح "سلاح الشرق التركستانى". وقد قامت الوحدة بالقتال فى أوكرانيا واليونان

وإيطاليا، وأضحت "سيئة السمعة" لما لحقها من عار جراء مشاركتها في إخماد "انتفاضة وارسو" عام ١٩٤٤.[١٨]

أما "غريب سلطان"، فما أن أُرسل من الجبهة إلى معسكر لأسرى الحرب حتى وفد إلى المعسكر فريق للتحقيق قادم من برلين. وكان على رأس الفريق "هاينتس اونغلاوبه" - محام ألماني مغرم بلغة التتر وثقافتهم. وكان "اونغلاوبه" قد جند في الجيش الألماني، إلا أن القادة ارتأوا أن علمه لذو نفع أكبر في موقع آخر. لذا، فقد أرسل للعمل في وزارة الرايخ للأقاليم الشرقية المحتلة (الأوستمنستريوم) Ostministrium، وعهد إليه بتولي مهام مكتب الاتصال التتري.

وسرعان ما لفت "سلطان" انتباه "اونغلاوبه" ... فهنا شاب لم يتجاوز الحادية والعشرين بعد، يتحدث الألمانية ويبغض السوفييت. إذا، فهو نواة حليف جيد. وهنا ... أخرجه "اونغلاوبه" من الصف للحديث إليه، حيث سأله كيف تعلم الألمانية وكذا رأيه في "الروس" ... عندها عزم سلطان على استعراض "لسانه الألماني" بسرد شذرات من تاريخ عائلته.

"لقد تعلمت الألمانية لأن أحد أقربائي البعيدين قد تزوج امرأة ألمانية".

"مثير"، أردف اونغلاوبه

وهنا استشعر "سلطان" عدم اهتمام اونغلاوبه بما قاله، بيد أنه استأنف حديثه.

"إن أحد أقرباء أمي البعيدين تزوج امرأة ألمانية عملت كممرضة أثناء الحرب الكونية الأولى حيث قامت بتمريضه والاعتناء بشأنه، ونشأ بينهما حب كلاه بالزواج".

"مثير".

"لقد كانت الزوجة تحمل لقبا غريبا".

وهنا أرهف اونغلاوبه السمع، : "ما اللقب؟"

"فون منده".

إنه اللقب ذاته الذى يحمله رئيس اونغلاوبه فى العمل. أما "سلطان" فقد اختير ليؤدى مهاما أرفع شأنا من مهمته المتواضعة بإحدى "الوحدات المسلمة". أعقب ذلك مباشرة أن أرسل فى قطار إلى برلين حيث كانت الوجهة: "الأوستمنستريوم" ... اللقاء غرهارد فون منده – مهندس "تجنيد المسلمين" لحساب ألمانيا النازية.

الفصل الثانى

خبير «اللسان التركى»

فى القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، أسهم المفكرون الألمان فى تشكيل ملامح العالم "المعاصر". إن ألمانيا لم تحقق وحدة أراضيها إلا فى عام ١٨٧١، ولم تكن إمبراطورية كولونيالية بما تعنيه الكلمة إذ لم تدان - فى هذا الصدد - غيرها من كولونياليات شهيرة ... إلا أن عقول أبنائها وقرائحهم قد عوضت ذلك، عقول وقرائح ذرعت أربعة أركان المعمورة فكان لها صيت وذيوع.

لقد جاءت النظريات وتواترت الأفكار تغزو هذا البلد وتغمر ذلك القطر لتعيد كتابة تاريخ المجتمعات وتطبع "بصمة" ألمانية على غير جزء من أجزاء البسيطة لم تطأها سوى قلة من أقدام "جرمانية". فعلى سبيل المثال، قاد "الكسندر فون هومبولت"، خلال القرن التاسع عشر، حملات استكشافية إلى أمريكا اللاتينية، حيث كان له قصب السبق فى إعطاء وصف "علمى" لبلدان القارة، فضلا عن إرسائه لقواعد علمي "الجغرافيا الفيزيائية" و"الأرصاد الجوية".

هذا، وقد شغف الباحثون الألمان كثيرا بالمشرق - ذلك الامتداد الهائل من أراضى المعمورة الممتد ما بين تركيا واليابان. واليوم، فإن قلة فقط هى من تذهب إلى استخدام لفظة "المشرق"، وذلك الاستخدام المحدود للفظة يرجع إلى كونها تجمع فى كفة واحدة أناسا وأماكن لا ينتظمهم رابط مشترك سوى وجودهم إلى

الشرق من القارة الأوروبية. ولكن - قدما - كانت اللفظة تلهب الخيال. فحين صك الجغرافى الألمانى "فرديناند فون ريشتهوفن" مصطلح "طريق الحرير" خلال القرن التاسع عشر ليصف طريق التجارة القديم الذى كان يربط ما بين الصين وأنطاكية التركية مرورا بآسيا الوسطى ... عمد المستكشفون الألمان إلى تسيير حملات استكشافية لإثبات وجود ذلك الطريق. كذا، فقد انضم علماء الآثار والأحفوريات إلى الركب حيث قاموا بسلب مواقع الحج الخاص بالبوذيين ومراكمة بعض محتوياتها بالمتحف الإثنوغرافى ببرلين. ثم أعقب ذلك انتعاش الطموح بل المطامع السياسية. ففى بدايات القرن العشرين، سعى القيصر الألمانى "فيلهلم الثانى" إلى بسط نفوذ ألمانيا فى "المشرق"، حيث قام بزيارة كل من اسطنبول ودمشق. أما خلال الحرب الكونية الأولى، فقد سعى دبلوماسى ألمانى يدعى "فيلهلم فاسموس" Wilhelm Wassmuss، أو "لورانس العرب الألمانى"

- إلى إقناع الخليفة العثمانى بإعلان النفير إلى الجهاد ضد الحلفاء. وقد ذهب بعض المؤرخين من أمثال "بيل برايس" إلى اعتبار ذلك أول استخدام معاصر لمفهوم الجهاد - وذلك كما ورد فى كتابه "جواسيس الحرب الكونية الأولى".

أما الملمح المسيطر على هذا النسق فكان ما أفرزته "القرائح الألمانية" من بحوث ودراسات. إذ سبرت العقول الألمانية الفذة أغوار العديد من المناحى بالمشرق. فقد كتب "اغناتس غولدتسيهر"، المستشرق اليهودى الهنغارى، واحدا من أوائل ما كتب عن تاريخ التقاليد الإسلامية. أما شيخ المستشرقين الألمان "تيودور نولدكه"، فقد كتب تاريخا للقرآن حيث أورد طروحات ذهبت إلى أنه ليس وحيا من السماء ... فهو ينطلق من كون القرآن نصا أدبيا بشريا ... (وهو ما يعد أمرا محظورا محرما فى بلدان العالم الإسلامى). وفى ثلاثينيات القرن العشرين، انضم إلى زمرة ذلك الهيكل عضو جديد ... إنه "غرهارد فون منده".

لم يكن لفون منده بنيان يميزه، إذ افتقر إلى التناسق الجسدى بقامة بلغت ١٧٣ سم، ووزن لم يتعد الـ ٦٤ كيلو جرام. أما شعره فكان أشقر وأما عيناه فزرقاوان، ذو أسنان غير منتظمة ووجه مستدير منتفخ. وكانت إحدى عينيه غير قادرة على متابعة ما تقع عليه، أما الأخرى فكانت كأنما تبالغ فى تعويض هذا العيب، الأمر الذى جعله يبدو ناظرا إلى اتجاهين فى آن واحد.

كان ميلاد فون منده فى الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٤ فى مدينة "ريغا" عاصمة "لاتفيا" حيث الأقلية الألمانية ذات النفوذ، التى هى سليلة الفرسان والتجار "الجرمان" الذين استقر بهم المقام على سواحل بحر البلطيق إبان العصور الوسطى، وظل بأيديهم زمام الحياة التجارية والثقافية حتى حلول القرن العشرين. وكغيره من أفراد الأقليات الإثنية العديدة، كان فون

منده يتحلى ببعض من مآثر تليدة لامرئ نأى به المقام عن موطنه الأم ... كان دمثا جم الأدب شديد الانتباه لما يقول محدثوه. أما لباسه فكان محافظا – فبزاته مكونة من قطع ثلاث تشى بملمح ذى مسحة إنكليزية. ولم يكن يروق فون منده أن يكون حليق الفودين على الغرار العسكرى أو أن يعمد إلى محاكاة النمط "الهتلرى" فى الهيئة، إنما احتفظ بشعره قصيرا مرجلا إلى الخلف، وهو مظهر حرص على استدامته حرصه على استدامه اتساق سلوكياته وأخلاقه ... ذلك المظهر الذى جعل الناس يصفونه بأنه متأنق حسن الهندام. "لقد كان طويل القامة نحيفا ذا شموخ" قالها "ايرنفريد شوته" – زميله القديم بالأوستمنستريوم واصفا إياه ... "كان رجلا بحق، خفيض الصوت ولكن ماضى العزم".

كان فون منده شعلة من نشاط كأنه جذوة نار لا تفتر عزيمته ولا تلين قناته ... دءوب فى عمله لا يكل ولا يمل، وكان جانب من نجاحاته نابعا من كونه اجتماعيا منفتحا على الآخرين ... إذ كان دائم الانطلاق يستهويه أن يعب بعضا من كئوس "الفودكا" صحبة رفاقه. لقد كان –بحق– مهندس العلاقات الاجتماعية وخبير التواصل مع الآخرين أيا ما كانت مشاربهم أو انتماءاتهم ... فتارة تجده حاضرا فى أعلى الدوائر الثقافية حضور الند للند، وأخرى تلفاه رفقة سائق السيارة متبسطا سمحا لا تعروه غضاضة. إن تجارب حياته الباكرة جعلته أريحيا يهش للناس كافة على تباين أقدارهم واختلاف منازعهم، كذا فإن عددا غير قليل من مآس وخطوب قد أنضجت عزيمته وجلمدت شكيمته فصار عازما على النجاح لا يرضى عنه بدلا ولا حولا.

وحين بلغ فون منده الرابعة عشرة – عقيب هزيمة ألمانيا فى الحرب الكونية الأولى – قام الجيش الأحمر بغزو "لاتفيا" وعمد البلاشفة إلى تطويق "الطبقة

البورجوازية" هناك، وإرغام أفرادها على التقاطر فى صفوف للبت فى أمرهم ... وفى صف من تلك الصفوف كان والد فون منده - ذلك المصرفى - الذى أمر بالتنحى عن الصف ليرديه البلاشفة قتيلا. وكغيرها من عائلات ألمانية-بالطيقية عديدة، نزحت عائلة فون منده صوب ألمانيا، إلا أن البلد لم يكن - بحال - أفضل من لاتفيا، بل كادا يستويان ... فالإمبراطورية القيصرية قد مزقتها يد الفوضى وخيم عليها شبح التضخم ... ما جعل العائلة تتراجع كثيرا إلى مستويات دنيا بالسلم "الطبقى". أما الأم، واسمها لويز فون منده (روسية ولدت فى سان بطرسبورغ فى الحادى والعشرين من شباط/ فبراير ١٨٧٩) والتى صارت ألمانية عام ١٩٢٤ - فقامت برعاية الأسرة وإعالتها عن طريق العمل سكرتيرة ومدرسة خصوصية لبعض من أبناء النبلاء الألمان، بينما اختلف فون منده إلى مدرسة تجارية انتظم ضمن صفوفها بفضل معاونة جمعيات التضامن الألمانى/ البالطيقى فى تكافلها لخدمة المهاجرين من ذوى الإثنية الألمانية ممن نزحوا إلى البلاد.

حين كان فون منده شابا كدح كثيرا وأكدى كبحار وعامل بمنجم للفحم وعامل بأحد خطوط التجميع ... ليلى ذلك قيامه بالعمل على مدار سنوات أربع كعامل مبتدئ بإحدى الشركات التجارية الألمانية. وفى عام ١٩٢٧، تحصل لديه قدر من المال يكفى للوفاء بمصروفات للتعليم فترك عمله والتحق بجامعة برلين. حينها ... كان قد بلغ الثالثة والعشرين ما جعله يكبر معظم طلاب السنة الأولى بأربعة أعوام، إلا أن ذلك لم يكن ليحول دون صعود نجمه فى سماوات "الأكاديميا" الألمانية العليا.

فى ذلك الوقت كانت برلين مركزا عالميا للدراسات الروسية، فقد قام المؤرخ

والسياسى الألمانى "أوتو هويتسش" بتحويل جامعة برلين إلى بؤرة جذبت العديد من الأكاديميين الموهوبين من أمثال الدبلوماسى الأمريكى الشاب "جورج فروست كينان"، الذى دشن لاحقا سياسة "الاحتواء" مع الاتحاد السوفييتى، فضلا عن كونه أحد أقطاب سياسة "الحرب الباردة" ومهندسيها. أما البلاشفة فقد قصدوا المدينة، بصورة منتظمة، حيث خالطوا اللاجئين والمهاجرين هناك فأضفوا ملمحا خلافيا مثيرا للجدل ضمن الأروقة الأكاديمية. هذا، وقد انصب اهتمام فون منده على "الدراسات الروسية المعاصرة" وعلم الاقتصاد. وفى خلال ستة أعوام فقط حصل على الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى. كذا، ففضلا عن إجادته الروسية والسويدية واللاتفية، فقد أبهر من حوله بقدرته الفطرية على اكتساب لغات جديدة قام بتعلمها. ففى أثناء دراسته، أتقن فون منده التركية تماما بما فيها تلك اللهجات "التركية" المختلفة المتحدث بها فى الاتحاد السوفييتى، ناهيك عن العربية والفرنسية والإنكليزية. وبعد ذلك بسنوات قلائل حين التقى امرأة نرويجية ستصبح زوجته لاحقا - عمد إلى تعلم لغتها لدرجة إيهام المارة عند المعبر المؤدى إلى العاصمة النرويجية، أوسلو، أنه من بنى جلدتهم.

لقد كان زواج "غرهارد فون منده" من "كارولين اسبيزيت" أمرا انطوى على مخاطرة للزوج ... ذلك الزوج الذى شرع يرقى مدارج الشرائح الطبقية أعلى فأعلى. أما الزوجة فكانت قد اكتسبت تعليما جيدا فضلا عن جاذبيتها وجمالها، إلا أنها كانت اختيارا غير مأمون العاقبة، إذ اتسمت بالاستقلالية وتغليب العاطفة فقد كانت ترى نفسها ... "فنانة". وقد وفدت كارولين - (المولودة فى "هاوغسند" بمقاطعة "روغالاند" النرويجية فى الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٠٢) - إلى ألمانيا فى نهايات العقد الثالث من القرن العشرين فى

تطواف ثقافى حيث تأثرت كثيرا بالفورة الإبداعية فى مجالى الفنون والأفكار، وأعجبت بذلك المنحى أيما إعجاب. وقد كانت مدرسة "الباو هاوس" فى المعمار والمدرسة التعبيرية فى التصوير والتأويلات الجديدة للتاريخ - لتبدو جميعها مخرجا من نفق "القومية" المظلم. وعقب عودتها إلى أوسلو، حفزتها "مدرسة التحليل النفسانى" ... تلك المدرسة التى جادت بها قرائح العالم المتحدث الألمانية ... كى تكتب رواية تقدمية طليعية عن مآسى الحرب وما خلفته من دمار. لقد تناولت "كارولين" فى روايتها "جروح ما تزال نازفة"، التى كتبتها بالنرويجية، والصادرة عام ١٩٢١ - قيام أحد الضباط الألمان ممن خاضوا غمار الحرب الكونية الأولى ببث مكنون صدره لطالبة نرويجية صغيرة من طلبة بعثات التبادل. وأوردت "كارولين" كيف كان الرجل السادى يضرب الفتاة التى كانت تجعله - تحت إلحاحها - يطارحها الغرام. هذا، وقد أحدثت الرواية فضيحة مدوية فى النرويج حيث دينت "كارولين" بتلطيخ سمعة البلاد.

وإزاء استشعارها مرارة وألما، ارتحلت "كارولين" ثانية إلى ألمانيا، حيث حصلت على وظيفة تمثلت فى مرافقة بعض الطلاب والأكاديميين الفرنسيين فى تطوافهم فى وادى "الراين". أما المرشد فكان "فون منده" الذى كان يتكسب معاشه بالتوازى مع قيامه بإعداد أطروحته للدكتوراه ... وهنا جمع الحب بين قلبيهما فتبعت "كارولين" حبيبها إلى برلين ثم إلى "برسلاو"[١٩]، حيث استكمل دراسته. وفى أعقاب علاقة غرامية حفلت بزوابع وتقلبات - إذ أحيانا ما دفعه مزاجها المتقلب إلى الابتعاد - عقد الاثنان قرانهما ... حيث كانت "كارولين" ضمير زوجها ومرآته عند مفتتح زواجهما، لتصبح لاحقا نصيرته المتفانية وكاتبته وناصحه الأمين.

وفيما كانت ممارسات "كارولين اسبيزيت" الكتابية تخبو وتنطفئ جذوتها،

كان نجم "فون منده" صاعدا فى هذا المجال ... إذ نال درجة الدكتوراه من جامعة برسلاو عام ١٩٣٣، وكان موضوع أطروحته "دراسات حول الكولونيالية فى الاتحاد السوفييتى"[٢٠]، حيث تناول بنية الاتحاد السوفييتى المكونة من فسيفساءات إثنية متشابكة. أما عام ١٩٣٦، فقد شهد صدور أهم كتبه وأبعدها أثرا، وهو كتاب "الكفاح القومى للشعوب التركية فى روسيا"[٢١]. كذا، فقد نال "فون منده" لاحقا دكتوراه أخرى من المعهد العالى للعلوم الاقتصادية ببرلين، وكانت حول "الدراسات السلافية".

أما أطروحة كتاب "الكفاح القومى للشعوب التركية فى روسيا" فقد كان لها أثر مدو ... تلك الأطروحة الذاهبة إلى تشكيل الأقليات غير الروسية فى الاتحاد السوفييتى لكتلة من المواطنين الساخطين المهمشين ... وكان الكتاب أول كتاب - بلغة غير روسية - يصف الوعى السياسى المتنامى لتلك الأقليات. أما "فون منده" فقد رأى الصراع الرئيسى صراعا بين "الإثنيات التركية" (وهم اليوم الأوزبك والقازاخستانيون والقيرغيز والتتر) من جهة، وبين الدولة البلشفية من جهة أخرى. وفى هذا الصدد، حذر "فون منده" من أنه ما لم يوجد دعم خارجى لتلك "الإثنيات التركية"، فلن تقوى على تحقيق استقلالها - قائلا إنه "نظرا للوحدة السياسية للاتحاد السوفييتى ذات الملمح الصارم، واتسام سلطاته بالمركزية الشديدة، والروابط الاقتصادية التى تنتظم أرجاءه كافة ... فإنه لا يمكن توقع حدوث تغير فى أوضاع تلك الإثنيات التركية إلا فى حالة تعرض الاتحاد السوفييتى نفسه لصدمة جذرية مروعة. حينها سيكون واضحا ما إذا كانت سياسة الانفصال السوفييتية قد حققت هدفها أم لا ... ذلك الهدف المتمثل فى تشظى الشعوب ذات الإثنية التركية إلى العديد من البلدان الصغيرة غير ذات الشأن".

وقد كان ما خلص إليه "فون منده" نبوءة صدقت - سواء فيما يتعلق بالحرب الكونية الثانية التى اندلعت لاحقا، أو فيما يتعلق بما جرى بعدها بعقود قلائل. فوفقا لتوقعاته، فقد نالت تلك الشعوب استقلالها فقط بعد "الصدمة الجذرية المروعة" التى تنبأ بها - والتى تمثلت فى انهيار الاتحاد السوفييتى وانفراط عقده - لا عن طريق جهودها فى هذا الصدد. كذا، فقد كان "فون منده" بعيد النظر فى تشككه فى مدى فاعلية تلك البلدان الناشئة - وهنا يجدر بالمرء التمعن فى أحوال ذلك الإقليم وديكتاتورياته العقيمة التى تثبت أركانها وتعضد عروشها بواسطة ما تتحصل عليه من إيرادات النفط والغاز الطبيعى.

فإذا ما كان "فون منده" قد واصل مسيرته تلك كباحث فى ذلك المجال، لكان قيض له شأن وشأو عظيمان ... إذ كان ليضحى أحد كبار الخبراء العالميين فى سياسات كل من الاتحاد السوفييتى وآسيا الوسطى. إلا أنه، وبالمقابل، قد سلك دربا مغايرا. إذ إنه حين أمسك النازيون بزمام السلطة فى عام ١٩٣٣، كان فون منده قد شرع فى قرع أبواب "السياسة" ليدلى فيها دلوه. ففى ذلك العام، انضم "فون منده" إلى "كتيبة العاصفة"[٢٢]. وقد كتبت "كارولين اسبيزيت" فى مذكراتها أنه أقدم على ذلك لأنه كان بحاجة إلى دعم سياسى ومؤازرة فى ألمانيا فى حالة هجوم السوفييت أو حملهم عليه لكونه يتناول موضوعا ذا حساسية فى كتاباته. وبالفعل، كان السوفييت قد رفضوا طلبه الحصول على فيزا (تأشيرة) بحجة أنه جاسوس وليس أكاديميا بحق.

وعلى جانب آخر، فلربما كانت دوافع "فون منده" ذات طبيعة انتهازية. فرغما عن أخلاقه الدمثة، إلا أنه قد عانى العديد من الشدائد فضلا عن كونه قد شهد تقويض السوفييت لأركان أسرته. أما النازيون فقد كانوا تواقين إلى بناء

"إمبراطورية ألمانية جديدة" على أراض يحتلها السوفييت ... وقد كان فون منده واحدا من خبراء العالم القلائل فى الاتحاد السوفييتى خاصة فيما تعلق بنقاط ضعفه التى يمكن استغلالها. كذا، رأى فون منده فى "الحركة النازية" ظهيرا ذا سطوة ونفوذ فرغب حينها فى الانضمام إلى صفوفها والانخراط فى ركابها.

إلا أن الانضمام إلى "النازى"، حينذاك، لم يكن بالأمر اليسير، فبحلول عام ١٩٣٣ عمد "الحزب النازى" إلى عدم قبول أعضاء جدد فى محاولة منه لمنع أولئك الذين رغبوا فى "ركوب الموجة" فحسب. إن الأشخاص التواقين إلى الانضمام للحركة النازية غالبا ما كانوا يلتحقون بكتيبة العاصفة ... تلك الكتيبة التى اشتهرت بقواتها "العاصفة"، وقوامها فتية مستأسدون ينتمون إلى الطبقة العاملة قاموا بمذابح وهجمات ضد الأعداء ... وفضلا عن هؤلاء الفتية، فقد انضم إلى الكتيبة كثيرون آخرون. ومع إمساك النازيين بزمام السلطة، ازدادت معدلات الانضمام إلى الكتيبة زيادات مهولة من ٦٠٠٠٠ فرد عام ١٩٣٠ إلى ٢٠٠٠٠٠ فرد عام ١٩٣٣ .

وفى عام ١٩٣٦، ترك فون منده "كتيبة العاصفة". فوفقا لما تداولته العائلة، فإن "كارولين اسبيزيت" قد اشترطت عليه ترك الكتيبة لإتمام زواجها منه. وبالفعل، فقد تزوج الاثنان فى الحادى والثلاثين من آيار/ مايو ١٩٣٦ فى مسقط رأس "كارولين" بالنرويج عقيب أن ترك الكتيبة. أما وفقا لأوراق سيرته الذاتية، فقد أورد "فون منده" أنه ترك الكتيبة لأن مهاما تدريسية جديدة (إضافية) لم تترك له وقتا لممارسة أى نشاط سياسى. إلا أنه سرعان ما هوى نجم "كتيبة العاصفة". ولعل "فون منده" قد فطن، آنذاك، إلى أن اختياره لذلك "الحزب الفاشستى" قد جانبه الصواب. هذا، وعقيب انضمام "فون منده" إلى صفوف

الحزب، قام هتلر بإطاحة "ارنست غونتر روم" - زعيم "كتيبة العاصفة" فى انقلاب دموى عرف بـ "ليلة السكاكين الطويلة" ... Nacht der langer Messer ذلك الانقلاب الذى جرت أحداثه ما بين الثلاثين من حزيران/ يونيو والثانى من تموز/ يوليو ١٩٣٤ ... وسرعان ما فقدت "كتيبة العاصفة" نفوذها وسلطتها.

وعلى أية حال، جعلت تلك التجربة "فون منده" مهددا سياسيا. فبعيد صدور كتابه "الكفاح القومى للشعوب التركية فى روسيا"، عرض عليه وظيفة أستاذ مساعد فى جامعة برلين. أما العرض فقد هوجم فى الحال من رجل تغمره الحيوية بيد أنه غير مأمون النقيبة - "أوسكار ريتر فون نيدرماير" (١٨٨٥ - ١٩٤٨) - وهو عسكرى ومغامر سعى إلى إشعال فتيل الجهاد فى وجه بريطانيا إبان الحرب الكونية الأولى. ويعرف "نيدرماير" - شأنه فى ذلك شأن "فيلهلم فاسموس" المذكور آنفا - بأنه "لورانس العرب الألمانى". هذا، وقد شغل "نيدرماير" منصب رئيس معهد "الجغرافيا العسكرية والسياسة" التابع لجامعة برلين حيث اعتبر من زمرة ذوى الولاء للحكومة الألمانية.

وقد ارتكن "نيدرماير" فى اعتراضه على "فون منده" إلى أساسين اثنين. الأول، وهو أساس شائع فى المعارك الأكاديمية فى كل عصر ومصر: أن "فون منده" باحث أكاديمى ضعيف لا يؤبه له. أما الثانى، فكان أساسا تكتنفه الأخطار فى ألمانيا النازية، ومؤداه كون "فون منده" غير لائق سياسيا. وفى خطابه الذى عارض فيه تعيين "فون منده" فى جامعة برلين، قال "نيدرماير": "إن فون منده لديه جماعة من الداعمين له، وإنه غير موثوق ... وبناء عليه فإننى أرى ضرورة أن تخضع أيديولوجيته لمحاكمة للكشف عن كنهها". إن "الجماعة" التى أشار إليها "نيدرماير" هى - على الأرجح - "كتيبة العاصفة". أما الأمر الأكثر

إضرارا بفون منده فكان وضع أيديولوجيته تحت المجهر. ففى ألمانيا النازية، يجب على المرء - ابتداء - حتى يعلو كعبه فى إحدى جامعاتها أن يتبع المنهج الذى خطه "الحزب النازى".

فإما لكونها ردة فعل من "فون منده" إزاء الهجوم الذى تعرض له، أو لمجرد انبعاثها من روح الانتهازية التى اتسم بها، فإن "فون منده" قد اعتنق تماما الأيديولوجية النازية ... إذ توضح خطاباته أنه كان دائم الكتابة لجماعات مناهضة الشيوعية، أو الكتابة لمنظمات "الحزب النازى" التى انخرطت فى الدعاية المناهضة للشيوعية. كذا، فقد شرع "فون منده" فى إعداد عروض كتب للمطبوعات النازية، إلى جانب إسدائه للنصح لمدرسة نازية من مدارس الصفوة - وهى مدرسة أدولف هتلر فى زونتهوفن/ ألغاو فيما تعلق بقرارات التعيين، وذلك بموجب خطاب أرسله "فون منده" فى السادس عشر من آذار/ مارس ١٩٣٨ . كذا، فقد حرص "فون منده" على أن يبقى على اتصال منتظم بجورج لايبرانت، رئيس مكتب الشئون الخارجية بحكومة النازى، وذلك نظرا لأهمية منصبه لفون منده فيما تلا ذلك من مهام.

فى سيرتها الذاتية التى وردت بين دفتى كتاب عنون: "وتمضى الحياة" - ذكرت "كارولين اسبيزيت" أنها كانت تكره "النازى"، وأنها سألت "فون منده" ذات مرة حول ما إذا كان بإمكانهما معارضتهم ... فأردف الزوج بالنفى، إذ كان يعلم من خبرته فى دراسة الاتحاد السوفييتى أن المرء عاجز عن الوقوف فى وجه النظام الشمولى - أيا ما كان. إذا، كان عليهما الطاعة والإذعان.

لذا، فلا عجب أن نشهد أن "معاداة السامية" قد أفردت لها مساحة واسعة من أعمال "فون منده" ... الذى طلب إليه، عام ١٩٣٨، أن ينجز ملصقا ليصدر

عن "حلف مناهضة الكومنترن"[٢٣] ليصف "التهويد الاستثنائى للجهاز الشيوعى فى الاتحاد السوفييتى". كذا، وانطلاقا من شعوره بالواجب، قام "فون منده" بالرد على أسئلة واردة من "وزارة التعليم" حول زميل يهودى، حيث اقترح على المسئولين ما يمكّنهم من العثور على بيانات ومعلومات موثقة أكثر عنه[٢٤].

وقد وردت أصداء من هذا العمل السياسى ضمن كتاب "فون منده" الثالث والمعنون "شعوب الاتحاد السوفييتى" الصادر عام ١٩٣٩ – وهو كتاب خلا من أية أفكار جديدة فكان أقرب ما يكون إلى "تذكرة" لمشايعى النازية. هذا، وقد اشتملت صفحة العنوان على العديد من الشعارات التى أدرجت لتوضيح أفكار "فون منده" الرئيسية ... شعارات من أمثال: "الشعوب غير الروسية العظيمة فى الاتحاد السوفييتى تسعى لإقامة بلدانها المستقلة"، و"الوعى القومى لدى الشعوب غير الروسية العظيمة قد صحا من رقدته اعتبارا من عام ١٩١٧".

علاوة على ما سبق، فإن الكتاب غاص بمعاداة السامية ... إذ يحتوى على عدد من الشخوص الكاريكاتورية البدائية التى ترصد الجماعات الإثنية فى الاتحاد السوفييتى مخصصا فصلا واحدا عنوانه "اليهود"، وهو الفصل الذى قام "فون منده" فيه ببحث انتشارهم الجغرافى واسع النطاق مترامى الأطراف. ثم يذهب "فون منده" – مستخدما كلمات طنانة جياشة – إلى القول: "إن البلشفية قد أعطت دفعة لتمدد تلك الدوائر اليهودية والتى ترفض كل أشكال التحالفات إلا أن تكون كونفدرالية عصبوية عمادها رابطة الدم ... كونفدرالية تدمر، خلال رغبتها المحمومة لامتلاك السلطة واستخدامها، أى تحالف عضوى فى محيط نفوذها، وبخاصة أية وحدة ما بين الشعوب". ويمضى "فون منده" ليقول: "إن الأرجح هو أن خطر اليهودية الأساسى على الشعوب الأخرى يكمن فى أنها

وحدة لا تقارن "بالدولة"، بيد أنها - فى وحدتها - تفوق وحدة بعض البلدان ... إنه لا يمكن، بحال، إعادة وضع اليهودى فى دائرة جماعته، إذ إنها لا توجد بالأساس، لذا تتوافر - حينها - العوامل التى تخلق منه كائنا انتهازيا، فهو يهودى يريد فى الوقت ذاته أن ينظر المجتمع إليه على أنه روسى أو إنكليزى ... إلخ".

وفى غمار هذا الوابل الصيب من الكلمات، يظل أمر من المرجح أن "فون منده" لم يكن راغبا فى إيراده ... ألا وهو أن سبب كراهيته لليهود هو، ذاته، سبب احتضانه للمسلمين السوفييت. لقد رفض "فون منده" اليهود بسبب ارتباطاتهم "فوق القومية"، إلا أنه قد دافع عن استخدام المسلمين السوفييت بسبب عدم ولائهم للدولة السوفييتية. هذا، ولم يكن كتاب "شعوب الاتحاد السوفييتى" لفون منده جهدا تحليليا على الإطلاق ... إذ عمد فيه إلى إخماد الأسئلة حول مدى موثوقيته السياسية. كذا، فقد أدى الكتاب المذكور إلى تدمير مستقبله الأكاديمى فى فترة ما بعد الحرب، ومن ثم إعادة تشكيل مسار حياته المستقبلية على مدار ربع القرن الذى تلاها.

وعند نشوب الحرب الكونية الثانية عام ١٩٣٩، عمد فون منده إلى تصعيد وتيرة نشاطه السياسى. فبعد أن سقطت فرنسا عام ١٩٤٠، وتأهب النازيون لاجتياح الاتحاد السوفييتى - قام "فون منده" بمساعدة النازيين عن طريق تنظيم صفوف اللاجئين فى برلين لكتابة تقارير عن الاتحاد السوفييتى ... والتى ذهبت رأسا إلى "جورج لايبرانت" - رئيس مكتب الشئون الخارجية بحكومة النازى - والذى كان "فون منده" على اتصال منتظم به.

وفى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤١، نال "فون منده" الشرف المشتهى لأن

يكون أستاذا، إلا أنه لم يكن، حينذاك، فى عداد الأكاديميين. فقبل ذلك بأربعة أشهر، وتحديدا فى الثانى والعشرين من حزيران/ يونيو، قام هتلر بغزو الاتحاد السوفييتى. أما "فون منده"، فقد التحق - فى اليوم نفسه - بالأوستمنستريوم حيث عمد إلى وضع خطط لاستخدام "الإسلام" لمآرب بعينها ... تلك الاستراتيجية التى سيكتب لها الاستمرار طويلا حتى بعد هزيمة النازى.

الفصل الثالث

الأنموذج النازى

إن حديقة حيوان برلين – منذ منتصف القرن الثامن عشر وإلى اليوم – تعد رئة المدينة وجنتها الخضراء الوارفة ... حيث تمتد مساحات شاسعة من أراض تضم خمائل وبحيرات وغابات لتربط ضواحى المدينة فى الغرب بقلبها السياسى والثقافى فى الشرق. أما المعمارى النازى "ألبرت شبير" صاحب الخطة الجنونية لتحويل برلين إلى "جرمانيا" كعاصمة جديدة لرايخ "الألف عام" – فقد خطط لإجراء بعض التعديلات الطفيفة فحسب، وارتأى تحويل الحدود الجنوبية للمدينة إلى حى دبلوماسى بديع.

لقد كانت الأراضى المتاخمة لحديقة الحيوان مرتفعة الثمن، إلا أن "شبير" أمكنه الركون إلى السياسات النازية أملا فى منقولات عقارية ذات أسعار زهيدة. فعلى سبيل المثال، وفى عام ١٩٣٨، قامت إحدى أكثر العائلات اليهودية شهرة فى برلين (عائلة مندلسون بارتولدى التى ينتمى إليها الموسيقار الألمانى الشهير فيلكس مندلسون) - بالارتحال عن المدينة وبيع منقولاتها العقارية بمبلغ باهظ للغاية (١٧٠٠٠٠ مارك ألمانى). وبذا، استطاع "شبير" الحصول على قطعة أرض جديدة بيد أنها صغيرة. لذا، فقد أهدتها الحكومة الألمانية إلى إحدى القوى الأوروبية الصغرى - آنذاك - مملكة يوغوسلافيا.

أما بلدية المدينة فقد عمدت إلى تقويض بيت عائلة مندلسون بارتولدى، وأسندت إلى المعمارى "فرنر يوليوس مارش" مهمة بناء السفارة اليوغوسلافية. هذا، ويعد مجمع الألعاب الأوليمبى ببرلين أكثر أعمال "مارش" شهرة. فالاستاد

ذو الحجارة غير الصقيلة والخطوط الهندسية الحادة والمدخل الجليل المهيب ليعد إحدى العلامات المعمارية البارزة لألمانيا النازية. وقد عمد "مارش" فى بنائه للسفارة اليوغوسلافية إلى اعتماد خطوط مماثلة ... فجدرانها ذات الحجارة الجيرية الرمادية تستدعى صرامة متناهية وصلابة بالغة، أما نوافذها الصغيرة بقضبانها الحديدية السوداء فتجعلها أشبه بقصر إيطالى نمطى. وقد افتتحت السفارة فى عام ١٩٤٠، ولم يمض سوى عامين حتى اجتاح هتلر يوغوسلافيا ليقوم النازيون بمصادرة السفارة وإعطاء المبنى لوزارة الرايخ للأقاليم الشرقية المحتلة (الأوستمنستريوم).

كان الدور المنوط بالأوستمنستريوم ذا أهمية قصوى فى فكر هتلر ورؤيته. فجماع ما تم إحرازه فى الحرب حتى ذلك الحين من غزو لأوروبا الغربية وهجوم على بريطانيا ومعارك فى الشمال الإفريقى، كان وسيلة لغاية أبعد ... إذ تمثل

الحلم الهتلرى فى تدشين إمبراطورية ألمانية مترامية الأطراف ... إمبراطورية يمكن أن تمتد حدودها شرقا لتشمل بولندا وروسيا البيضاء وأوكرانيا وروسيا. ولقد كان يحلو لهتلر أن يطلق على روسيا اسم "الهند الألمانية"، فروسيا بلد بحجم قارة ذو موارد ما لها من نفاد ... فالحلم الهتلرى، آنذاك، كان مؤداه أن تصير مجمل الأراضى الممتدة إلى حدود الأورال تحت السيطرة الألمانية، على أن تعمل ألمانيا على إعادة ترسيم الحدود السياسية وتنظيم هياكل الجماعات الإثنية داخل الأراضى المحتلة. أما باقى الأراضى الروسية فيترك النظر بشأنها إلى مرحلة لاحقة. وكان مخططا للأوستمنستريوم أن يشرف على ذلك التحول الهائل، إذ كان التفكير بشأنه قد شُرع فيه فى نيسان/ أبريل ١٩٤١، حين كانت ألمانيا تضع خططها للغزو. ومن الوجهة النظرية، لم يكن للجيش الألمانى إلا القليل ليضطلع به بشأن الأراضى المحتلة، إذ توجب عليه سرعة تسليم إدارتها إلى الأوستمنستريوم.

هذا، وقد عُهد بإدارة الأوستمنستريوم إلى واحد من أصدقاء هتلر القدامى، ألا وهو "ألفريد روزنبرغ" الذى ولد فى الثانى عشر من كانون الثانى/ يناير ١٨٩٣ فى ريفال (وهى اليوم تالين فى استونيا التى كانت جزءا من الإمبراطورية الروسية). وقد هاجر روزنبرغ إلى ألمانيا فى أعقاب الحرب الكونية الأولى، وتحديدا فى عام ١٩١٨ ... وسرعان ما انضم إلى حركة "القوميين الاشتراكيين" أو "النازيين"، بل لقد قاد الحركة بنفسه نيابة عن هتلر الذى سجن لفترة وجيزة بعد انقلاب فاشل شارك فيه عام ١٩٢٣ عرف باسم انقلاب "حانة البيرة" ... Bierkeller Putsch تلك الفترة التى كتب فيها هتلر كتابه الشهير "كفاحى". إلا أن روزنبرغ لم يكن لتتلاءم طبيعته والمنازعات البيروقراطية داخل الحركة. لذا، فقد تم إقصاؤه على نحو متمهل حيث أضحى يشار إليه فى سخرية بلقب "الفيلسوف". هذا، وقد قام روزنبرغ

بتحرير جريدة الحزب النازى Volkischer Beobachter، كما كتب دفاعا عن العنصرية فى مؤلف سماه "خرافة القرن العشرين: تقييم المواجهات الروحانية/ الثقافية فى عصرنا الحالى". وحين أمسك النازيون بزمام السلطة عام ١٩٣٣، لم يعهد لروزنبرغ بإدارة أى من الوزارات المكونة، إلا أنه قد واصل إدارته لمكتب السياسة الخارجية.

لقد كان لروزنبرغ أفكار ورؤى محددة بشأن ما استولى عليه النازيون من أراض. فلكونه ألمانياً ذا أصول بالطيقية، تعاطف روزنبرغ مع الأقليات غير الروسية فى الاتحاد السوفييتى ... إذ كتب فى مرحلة مبكرة (١٩٢٧) أن التعامل مع الاتحاد السوفييتى يجب أن يأخذ بعين الاعتبار الحركة الانفصالية الفتية فى أوكرانيا والقوقاز. كذا، فقد أزمع أن يستخدم وزارته لإنشاء حاجز من البلدان ليحيط بباقى الاتحاد السوفييتى ... وهو الأمر الذى يعنى، على الأقل، استقلالا اسميا (صوريا) لأوكرانيا وروسيا البيضاء، وبلدان البلطيق، والقوقاز وتركستان.

ثم شرع روزنبرغ يستوزر أفرادا لوزارته الجديدة التى ضمت قسما سياسيا للإشراف على نطاقات جغرافية عديدة كأوكرانيا والقوقاز ودول البلطيق. كذا، فقد انتظمت الوزارة عدة من أقسام أخر للإشراف على الثقافة والصحافة والشباب والمرأة والصحة والقانون والمالية والزراعة والغابات - أى الإشراف على سائر مناحى الإمبراطورية الجديدة.

كذا، فقد بحث روزنبرغ كثيرا فى أروقة "الحزب النازى" وضمن كوادر وزارية أخرى سعيا لانتقاء قيادات واعدة ... إذ كان يدير منظومة ذات نفوذ، ومن ثم وجوب اجتذاب خيرة المواهب والخبرات لها، إلا أن قلة فقط هى من ألقت للأمر بالا. هذا، وقد تمركز النفوذ فى المؤسسات النازية كأسراب الدفاع لا فى الوزارات

الحكومية. وعلاوة على ذلك، فقد كانت مخططات روزنبرغ تتعارض والكثير من أفكار هتلر الشخصية ... هتلر، الذى رغب فى استعباد كثير من الشعوب التى أراد روزنبرغ إقامة تحالفات معها. وسرعان ما كانت الكفاءات والخبرات التى حرص روزنبرغ على انتقائها تستبعد ويتم إقصاؤها، تلك الكفاءات التى كانت ضحية الصراعات السياسية وضعف روزنبرغ ... إلا أن "غرهارد فون منده" كان استثناء من القاعدة.

وقد كان "فون منده"، آنذاك، يقطن الحى الراقى المتاخم لقصر شارلتونبرغ، وهو المقر الصيفى القديم لملوك بروسيا. أما الرحلة فتقطعها العربة فى نصف الساعة للانتقال إلى مقر الوزارة، إذا فهى رحلة أكثر يسرا من تلك التى يستغرقها الذهاب إلى برلين الشرقية حيث توجد الجامعة. وفى ذلك الوقت، كان "فون منده" وزوجته قد رزقا مولودين: ابنة (برغليوت ١٩٣٧/١٢/٢٧)، وابن (ايرلنغ ١٩٤٠/١٠/١٠).

عُهِد إلى "فون منده" الإشراف على "إدارة القوقاز" بالوزارة، وذلك تحت إشراف "جورج لايبرانت". وكان "فون منده" قد استقطب جماعة من رجال ظلوا فى المنفى لسنوات، حيث كان جلهم منتميا إلى إحدى الحركات المناهضة للاتحاد السوفييتى، وهى حركة "بروميثيوس" التى أنشئت عام ١٩٢٥ بواسطة رجال راودهم الأمل فى أن يؤدى تقويض أركان الإمبراطورية القيصرية الروسية إلى تحرير أفراد الشعوب المنتمين إلى الإمبراطورية من قبضة الحكم الروسى. وحين جرت الرياح بما لم تشتهيه سفنهم، عمد أفراد الحركة إلى تحرير المنشورات والتحريض على الثورة ضد موسكو، وذلك من العاصمة البولندية وارسو، ثم من باريس. وبحلول الثلاثينيات، كانت الحركة تتلقى دعما ومؤازرة من كل من الاستخبارات الفرنسية والبولندية والبريطانية والألمانية. وقد أدى الغزو الألمانى لفرنسا إلى إخضاع الحركة

بالكامل للسيطرة الألمانية.

وكان "فون منده" يعرف بعضا من رجال تلك الحركة، بل قام بتجنيدهم حتى قبل أن يعمل لدى الأوستمنستريوم. وفى أعقاب الحرب، سيضطلع بعض "البرومثيين" من أمثال "ميخائيل كيديا" من جورجيا و"على قنطمير" من تركستان بأدوار بالغة الأهمية ارتبطت بعلاقات فون منده المتشابكة بالولايات المتحدة الأمريكية. كذا، فسيضحى "قنطمير" لاعبا رئيسيا فى أحداث مسجد ميونيخ.

إلا أن رجلا واحدا سيبزهم ويفوقهم أهمية خلال الحرب، وما بعدها ... ألا وهو "ولى قيوم" - ذلك الناشط السياسى الأوزبكى الذى وجه خطابه إلى الأسرى المسلمين، بمن فيهم "غريب سلطان"، فى مخيم أسرى الحرب كما أوردنا آنفا. وفى البدايات، لم يكن "ولى قيوم" ذا أهمية تذكر فى حركة "برومثيوس"، إلا أنه سرعان ما صعد نجمه وعلا كعبه كأبرز لاجئى آسيا الوسطى فى أعقاب وفاة "مصطفى شوقاى"[٢٥] - الذى كان وزيرا للخارجية بحكومة ثورية بطشقند لم يطل عهدها. ورغبة منه فى تعزيز مكانته، أضاف "ولى قيوم" لقب "خان" الشرفى إلى اسمه. هذا، وقد سر الألمان صعود نجم "ولى قيوم خان" بسبب تعاونه مع النازيين منذ الثلاثينيات، إذ اعتبروه مخلصا وموثوقا. وقد تبنى النازيون الرؤية ذاتها: بناء جيوش تركية مسلمة لمحاربة السوفييت.

كان "فون منده" مدنيا، إلا أنه مع دوران عجلة الحرب اعتبره النازيون عنصرا أساسيا فى نجاحهم. وفى عام ١٩٤٣، قام قائد "أسراب الدفاع" -" هاينريش هيملر" بإطاحة "لايبرانت" بعيدا عن الأوستمنستريوم، وتنصيب أحد الموالين له أملا فى السيطرة على ذلك التنظيم المنافس. أما "فون منده" فلم يتأثر بالسلب جراء إعادة تنظيم الأوستمنستريوم، بل تمت ترقيته من رئيس "قسم القوقاز" إلى رئيس

"الشعوب الأجنبية" – حيث كانت مهمته، بالأساس، تتمثل فى الإشراف على سياسة الأوستمنستريوم تجاه الأقليات السوفيتية. أما لماذا ... فلأن "فون منده" قد تبنى نهجا عبقريا لتحفيز تلك الأقليات ودغدغة مشاعرها، وهو الأمر الذى ستكون له أصداء واسعة خلال سنى ما بعد الحرب الكونية الثانية.

أما "غريب سلطان"، فقد ورد برلين حين كانت خطط فون منده آخذة فى التبلور. ففى عام ١٩٤٢، أرسى فون منده "مكاتب اتصال" لمنح الجنود بعضا من تمثيل فى التراتبية الهرمية النازية ... تلك المكاتب التى سرعان ما انخرطت بشدة فى مجريات النشاط السياسى. وفى أوائل العام ذاته، عمد الأوستمنستريوم والجيش الألمانى إلى تدشين حملة دعائية فى شبه جزيرة القرم التمسا فيها جنودا من التتر. ولكم كانت النتائج عظيمة: فمن بين قرابة مائتى ألف تترى يحيون فى شبه الجزيرة، كان عشرة آلاف مجندين فى صفوف الجيش الأحمر ... إلا أن عشرين ألفا قاموا بالتطوع استجابة لتلك الحملة الدعائية، ويمثل هذا العدد قرابة مجمل تعداد الذكور فى الفئة العمرية الممتدة من ١٨ عاما حتى ٣٥ عاما ممن لم يكونوا منخرطين بالفعل فى القتال لصالح السوفييت ... وما كان للألمان قدرة على حشد أعداد كتلك إذا ما عمدوا إلى التجنيد الإجبارى.

لقد ارتكن هذا النجاح إلى إقناع الجنود فى الميدان بأن "مكاتب الاتصال" تلك، هى –بحق– أشباه حكومات فى المنفى ... تلك المكاتب التى أحيت الأمل لدى مختلف الجماعات الإثنية غير الروسية بأن الاستقلال لابد آت ذات يوم، حتى ولو كان النازيون، فى حقيقة الأمر، غير عازمين على منحهم استقلالهم المنشود. هذا، وسوف تعمد ألمانيا الغربية ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى مضاعفة حجم "مكاتب الاتصال" تلك، وزيادة أعداد العاملين بها، بعد نهاية الحرب، سعيا منهما إلى تنظيم صفوف المسلمين وحشد أفرادهم.

وقد التحق "سلطان" بمكتب الاتصال التترى كبوق للدعاية ... ذلك المكتب الذى أدار محطة إذاعية وفرقة للرقص ومسرحا، فضلا عن بعض من صحف عهد إليها بدور محورى فى تلك الجهود. ففيما عدا صحيفة وجهت للجورجيين، وأخرى خاطبت الأرمن ... صدرت الصحف الأخرى آخذة الجنود المسلمين بعين اعتبارها. وقد تضمنت تلك الصحف، صحيفة "الكلمة الجديدة"، وصحيفة "المتطوع"، وصحيفة "الحرب المقدسة" أو "الجهاد". كذا، فإن صحفا كثيرة أخرى كانت تستهدف - بالأساس- الجنود من ذوى الإثنيات التركية ... من بينها صحيفة "مللى تركستان" - أى تركستان الوطن، وصحيفة "ينى تركستان" - أى تركستان الجديدة، والصحيفة التى كان يصدرها "غريب سلطان" واسمها "ايديل أورال" - أى أورال الفولغا. كذا، فقد أدار "سلطان" لاحقا الصحيفة الألمانية التترية.

إن صحيفة "ايديل أورال" كانت تراقب من قبل مكتب الدعاية النازية التابع للجيش الألمانى ... ذلك المكتب الذى كان يرفدها بمعظم الأخبار والمعلومات الواردة بها. إن كثيرا من المقالات بالصحيفة كانت مستقاة رأسا من صحف نازية كصحيفة "المراقب الشعبى" Volkischer Beobachter، وصحيفة "الهجوم" Der Sturmer. وكثيراً ما كانت تلك الصحف تحوى كتابات معادية للسامية وعلى سبيل المثال، زعمت صحيفة إيديل أورال أن رؤساء العمال اليهود كانوا يستغلون أعضاء الاتحادات العمالية الشرفاء المُجدين فى المجتمعات الغربية - وهى مزاعم نمطية معيارية سادت آنذاك.

وبعد ذلك بسنوات قلائل، وعقب أن وضعت الحرب أوزارها - شرع "سلطان" يدون خاطراته فى مذكرات مطولة ... وكتب يقول: "إن الغالبية العظمى من المواضيع (الألمانية) التى وردت فى تلك الصحف كان خطئا أُقترِف ... ليس لكون ترديد الدعاية النازية عملاً لا أخلاقياً، وإنما - ووفقاً لأسس براغماتية - لم ير

الفيلقيون التتر فَرقا بين الدعاية النازية وتلك السوفييتية. لقد كان بإمكان تلك المطبوعات أن تكون أجدى وأبعد أثرا، إن كانت قد اعتمدت نهجا أكثر حيادية وموضوعية.

على أن الأقليات السوفييتية لم تكن جميعها قلقة بشأن أمور تكتيكية كتلك. إذ رأى عدد من تلك الأقليات مأزقاً أخلاقياً معضلا فى القتال ضمن صفوف النازى. ولعل أشهر أفراد تلكم الأقليات - الشاعر البارز "موسى جليل" الذى قاد مجموعة سرية تترية لمقاومة النازيين، إلا أنه اُعتقِل مع رفاق له فى سجن "موبايت" سيئ السمعة حيث أُعدِم فى الخامس والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٤٤ ٢٦.

لاقى النازيون صعوبات جمة فى اختيار أفراد لإدارة مكاتب الاتصال ... إذ كان ينظر إلى رئيس الجماعة التترية على أنه سكير يفتقر إلى الخبرة. أما "سلطان"، فكان يعد ملائما لذلك المنصب، إلا أنه كان لا يزال قاصرا، آنذاك، (إذ لم يكن قد أكمل الحادية والعشرين بعد)، ومن ثم لم يُقبل فى المنصب المذكور. أما اللجان فكانت تترنح متخبطة إذ لم يكن لديها بعد قوة حقيقية ... قوة تشير إلى كيفية قيام الدين أو الهوية القومية - (والأمل الضعيف فى تحقيقها) - بتحفيز البشر ... وهو درس غال وعبرة بالغة سيعمد آخرون إلى الإفادة منه لاحقا.

فى العشرين من كانون الثانى/ يناير ١٩٤٢، وخلال مؤتمر عقد فى ضاحية Wannsee البرلينية، تبلورت مخططات الهولوكوست. ورغما عن أن اغتيال اليهود قد بدأ قبل ذلك، فإن المؤتمر قد استدعى ما للدولة من قوة بيروقراطية وشمولية تضافرتا ضدهم. أما الحضور فتمثل فى لفيف من وزراء قياديين ومسئولين نازيين. هذا، وقد استغرق المؤتمر تسعين دقيقة فحسب، إلا أن رسالته كانت واضحة جلية: لقد بات فى مقدور الدولة تنسيق الجهود صوب رافد جليل بعينه.

أما الأوستمنستريوم، فقد كان ممثلا فى المؤتمر فى شخص جورج لايبرانت، وألفريد ماير الذى كان، آنذاك، نائبا لألفريد روزنبرغ. هذا، وقد تباحث المسئولون حول تعريف يتاح بمقتضاه تحديد من يمكن اعتباره يهوديا، بحيث يتم إعداد الأراضى الشرقية وتهيئتها لإقامة الألمان بعد أن يتم طرد اليهود وآخرين من غير المرغوب فيهم.

وبعد انقضاء المؤتمر بتسعة أيام، عقد الأوستمنستريوم الاجتماع الأول من ضمن عدة اجتماعات لاستبعاد التفاصيل القانونية التى نشأت عنه. وعلى الرغم من أن قوانين نورمبرغ العرقية قد حددت بدقة من يمكن اعتباره يهوديا، إلا أن الأوضاع فى الأراضى الشرقية قد انطوت على بعض تعقيدات: فالتوثيق غير الكفء فى السجلات قد جعل من تتبع الجذور العرقية لشخص أو آخر أمرا صعبا، ولكن النازيين كانوا يريدون قتل اليهود بسرعة دون ترو أو تحقق ... إذ رغب العديد منهم فى معايير سلسة مرنة تتيح للمسئولين القتل ما ارتأوا ذلك مناسبا. وكان "فون منده" واحدا من عديد من بيروقراطيى القيادة الوسطى ممن شاركوا فى الاجتماع. أما محضر وقائع الاجتماع فقد خلا من أية تعليقات ربما كان قد أوردها. كذا، فإن سجلات الأوستمنستريوم لا تسفر عن أية جهود من قبل "فون منده" لاستخدام نفوذه فى إبطاء وتائر قتل اليهود، أو إبداء أية اعتراضات فى هذا الشأن. هذا، ويبقى فى حكم المؤكد أن "فون منده" كان يعلم بشأن "الإبادة الجماعية لليهود" بحلول كانون الثانى/ يناير ١٩٤٢ .

هذا، ولا يتناسق سلوك كهذا مع صورة "فون منده" بعد الحرب ... إذ كان يحلو له، آنذاك، تصوير نفسه بأنه الصديق الأوفى للأقليات الإثنية السوفييتية. وقد كان "فون منده" أحد المصادر الهامة للمعلومات للمؤرخ "الكسندر دالين" من جامعة هارفارد الأمريكية، والذى يعد كتابه "الحكم الألمانى فى روسيا"، الصادر عام

١٩٥٦، واحدا من المراجع الأساسية التى تناولت الاستيطان النازى. وكان "دالين" دائما ما ينعت "فون منده" بأنه "نصير الأقليات الأول وحاميها" - طراز فريد لشخصية خيرة تسعى للذب عن مصالح تلك الأقليات ولا تألو جهدا فى تعهدها بالرعاية. إلا أن "دالين" لا يذكر مطلقا كتابات "فون منده" المعادية للسامية فى فترة ما قبل الحرب، كذا فهو يتغافل عن مشاركة "فون منده" فى الاجتماعات التى تناولت "الهولوكوست"، إما عن جهل أو غفلة، وإما حرصا منه على التستر عليه.

ولقد كان يحلو لفون منده وللمسلمين المحيطين به بعد انقضاء الحرب إيراد بعض القصص عن يهود الجبال، الذين يعرفون أيضا بيهود "التات"[٢٧] ... ويشكلون فيما بينهم قبيلة تحولت إلى الديانة اليهودية. هذا، وتعضد الدراسات الحديثة مزاعم "فون منده" من أن يهود الجبال كانوا مُشتَملين بالحماية، إلا أن أوراقه الخاصة لتسفر عن مدى تورطه فى "الهولوكوست". وبعد الحرب، كتب "فون منده" يقول: "إننى ما أزال أذكر، ببعض من هلع، مؤتمرا لليهود الشرقيين كان قد عقد فى برلين إبان الحرب ... إذ أوكل إلى، آنذاك، مهمة بغيضة تمثلت فى إرسال التماسات إلى أولئك الشرقيين للمساعدة فى الإجابة عن بعض أسئلة. وقد قمت بإعداد قائمة طويلة بالتماسات نبعت من نهج براغماتى، فكانت الأسئلة على شاكلة: ما تاريخ شبه جزيرة القرم - ومَنْ التات - (كان المفترض إدراجهم كيهود)". وبعبارة أخرى، فقد تناول "فون منده" الاهتمام النازى بالمسألة اليهودية بجدية بما أتاح تحديد من سيُقتل من اليهود، ومن سيترك حيا.

إن تذكر "فون منده"، فى أعقاب الحرب، لأحداث ماضية تذكرا ارتبط "ببعض من هلع" ليمكن النظر إليه على كونه دليل ندم ... أو لعله كان إدراكا منه بأن ضلوعه السافر فى "الهولوكوست" قد أدى إلى تدمير مستقبله الأكاديمى، ما جعل تحوله من "الأكاديميا" نحو عالمى "السياسة" و"الجاسوسية" أمرا لا رجعة عنه.

وفيما كان الجيش الألماني يمضي قدما - عام ١٩٤٢ - إذ اخترق مناطق ذات كثافة سكانية مسلمة، مستوليا على شمال القوقاز في آب/ أغسطس من ذلك العام. وحين أعلن لواء ألماني - هو "ارنست كوسترنغ" - عن إعادة فتح المساجد هناك، قام المواطنون المبتهجون بحمله على الأعناق وقذفه عاليا في الهواء وسط صيحات نشوتهم: "مرحى ... مرحى". إلا أن حقيقة الأمر تمثلت في كون قاطرة الزحف الألماني قد بدأ ينفد وقودها - إذ كانت هزيمة ستالينغراد تلوح في الأفق. أما حينها، فقد بدا الأمر سلسا مطواعا.

أدت الانتصارات العسكرية إلى زيادة اهتمام ألمانيا بالأقليات ... إذ سعت وزارة الخارجية إلى الهيمنة على قادة الأقليات اللاجئة، وبخاصة أولئك الذين بداخل حركة "برومثيوس"، إلا أن النصر كان حليف الأوستمنستريوم في النهاية. وكان الظافر الكبير ... غرهارد فون منده، إذ دانت له - رسمياً - المسئولية عن جميع الأقليات ذوات الإثنية التركية، بمن فيهم أولئك اللاجئون من آسيا الوسطى ... وهو الأمر الذي مفاده كونه مسئولا عن جميع لاجئي ذلك الإقليم فضلا عن مسئوليته عن إيجاد حلول لمشاكل ذات بال، ككيفية توظيف "الإسلام" لتحفيز اللاجئين واستنهاض هممهم للوفاء بالمتطلبات الألمانية المختلفة.

ثم عمد "فون منده" إلى تعضيد "مكاتب الاتصال" وإعلاء شأنها. وكان جل هيكل العمالة بتلك المكاتب من اللاجئين، وذلك خلافا للمعينين حديثا في الجيش الألماني، ووحدات "أسراب الدفاع" القتالية، والذين كانوا جنودا سابقين في "الجيش الأحمر". كذا، فقد قام "فون منده" بإدراج "اللاجئين" على قائمة من يتلقون رواتب من الأوستمنستريوم، وإعادة تسمية "مكاتب الاتصال" لتصبح "مكاتب الإرشاد والتوجيه"، ثم "اللجان القومية" ... وهو تعديل لفظي أريد به أن يقوم اللاجئون بإرشاد الجنود في ميدان المعركة وتوجيه الأهالي نحو أوطانهم، كما لو كانوا

يشكلون حكومات وليدة في المنفى.

أعقب ذلك قيام "فون منده" بالسماح لمكاتب الإرشاد والتوجيه بتسمية العاملين الذين سيعهد إليهم بإدارة الوحدات العسكرية بما يكرس الانطباع بأن الأقليات كانوا يقومون على شئونهم بأنفسهم. وبحلول عام ١٩٤٣، سمح "فون منده" للأذربيجانيين وتتر الفولغا والتركستانيين بعقد اجتماعات من أجل تشكيل لجان "ممثلة" ... أشبه ما تكون ببرلمانات مصغرة تسعى لجعل أصوات تلك الأقليات مسموعة. وكانت لجنة الوحدة القومية التركستانية، التي ترأسها "ولي قيوم خان"، أبرز تلك اللجان.

أما "قيوم" فكان تحت حماية "فون منده" المباشرة ... "قيوم"، ذلك القائد المسلم الذي ردد شعارات النازي ببراعة وإتقان. فمرارا، أبدى "قيوم" إيمانه بألمانيا مهاجماً أعداءها بأنهم أعداء تركستان. ولقد كان للجنة التي ترأسها صحيفة تصدر باللسان "التركي". ومن خلال الصحيفة، واسمها "مللي تركستان" - أي تركستان الوطن - شن "قيوم" هجوما عنيفا على "البلدان الإمبريالية الديمقراطية الليبرالية"!! ... واصفا إياها بأنها عدو من أعداء تركستان.

إلا أن المنحى السياسي الذي انتهجه "قيوم" كان منفرا، إذ جعل الناس ينفضون من حوله ... الأمر الذي ظل يطارده في حقبة ما بعد الحرب. ففي عام ١٩٤٤، اصطدمت جماعة من القيرغيز والقازاخستانيين في لجنة الوحدة القومية التركستانية بولي قيوم، وذهبت لتناشد الأوستمنستريوم ملتمسة تمثيلا مستقلا لها ولفيالقها. وقد واجه "قيوم" ذلك التوجه بانتقام وحشي شاجبا إياها لدى "الغستابو"، وما قد ينطوي عليه الأمر من تقديم خصومه المنشقين عليه إلى منصة الإعدام ... إلا أن "الغستابو" قد ضرب صفحا عن الأمر فأسقط الاتهام معتبرا إياه

مشاحنة بين اللاجئين. وكديدنه فى حالات عديدة لاحقة، سيهرع "فون منده" لمد يد العون إلى "ولى قيوم" المشمول برعايته عامدا إلى تنظيم مؤتمر تركستانى فى فيينا حيث اختير "قيوم" ليترأسه.

لقد اكتست تلكم الأحداث حلة من زيف وغلالة من كذب ... فمع تقهقر قوات الجيش الألمانى، فقدت ألمانيا السيطرة على ذلك الإقليم الذى كان من المفترض أن يقوم الأوستمنستريوم بالإشراف عليه ... بل لقد كان منزل "فون منده" نفسه تحت الحصار. وفى عام ١٩٤٤، عمد الرجل إلى إخلاء منزله وترحيل عائلته إلى إحدى الضواحى الريفية ... ذلك الإخلاء الذى سرعان ما أعقبه تفجير للمنزل جراء غارة جوية استهدفته.

لقد تواكب ذلك مع تنامى وتيرة جهود "فون منده" التى بلغت منحى رابيا. أجل ... قد يكون يأسا، أو لعله المنطق الصارم فى حالة "فون منده" تلك، والذى مؤداه: إن أولئك المسلمين يريدون أن يخوضوا قتالا لمصلحتنا، إذا، فما علينا سوى أن نمنيهم ببعض وعود. دع عنك أن لا نية لدى النازيين للوفاء بأية وعود، إلا أنه يسعدهم أن يتركوا "فون منده" ينظم اجتماعا هنا وآخر هناك، والخلوص إلى خطط "خيالية" إذا كانت تقود الجند المسلمين للقتال بعزيمة أكثر مضاء بغية تحجيم السوفييت وعرقلة تقدمهم.

على أن "غرهارد فون منده" قد يمكنه، فى أعقاب الحرب، الزعم بأن المسلمين السوفييت لم يكونوا "مسلمين" بما تعنيه الكلمة – ربما للحرص على تفادى انتشار المخاوف من كونهم مهووسين دينيا. إلا أن "فون منده" ذاته، بالتوازى مع آخرين، قد حرص جهده على ترسيخ "هوية إسلامية" بين صفوف أولئك الجنود. وقد عمد "فون منده" ورفاقه إلى تحقيق ذلك عن طريق موآزرة قائد مسلم بارز، وعقد ندوات إسلامية.

أما الموآزرة فجاءت من الشيخ/ أمين الحسينى، مفتى القدس ... الذى ينحدر من عائلة ضمت رجال دين مبرزين. وقد ورث الحسينى منصبه كمفت للقدس عقب وفاة أخيه "كامل الحسينى"، حيث شرع يبنى قوته ويرفد نفوذه، وهو الذى رأى فى "النازى" حليفا لبلاده فى وجه البريطانيين الذين كانوا يسيطرون، وقتها، على وطنه الأم، فلسطين. وفى أثناء الحرب الكونية الأولى، قام أمين بالفرار من فلسطين واتخذ طريقه صوب القارة الأوروبية، حيث التقى هتلر ودشن دعاية نازية معادية للسامية، فضلا عن متابعة القوات المسلمة. هذا، وقد أضحى الحسينى، بعد الحرب، معارضا لدودا لإسرائيل، كذا فقد كانت له اتصالات شخصية مع السواد الأعظم من المجموعات الساعية باستماتة للسيطرة على "الإسلام" فى ميونيخ. وفى عام ١٩٤٣، عزم "فون منده" على البحث عن قائد دينى لتتر القرم وذلك ليلبس الحكم النازى إهابا دينيا ... وهنا سعى للبحث عن "أمين الحسينى".

"إن العالم الإسلامى لكتلة متجانسة" ... هذا ما كتبه "فون منده" لاحقا فى معرض تبريره لأفعاله مردفا: "يجب أن يكون التوجه الألمانى إزاء مسلمى الشرق بحيث لا يضر بمكانة ألمانيا بين الشعوب الإسلامية".

وبعبارة أخرى، فإنه يمكن لألمانيا أن تخطب ود العالم الإسلامى عن طريق تنصيب مفتيا لشبه جزيرة القرم. هذا، وقد التقى كل من "أمين الحسينى" و"غرهارد فون منده" ثانية فى تموز/ يوليو ١٩٤٤ . حينها ... كان الجيش الأحمر قد استعاد سيطرته على شبه الجزيرة. أما "الحسينى" فقد ذكر أنه بأخذ العوامل القائمة بعين الاعتبار، يبقى تنصيب مفتٍ أمراً غير ذى موضوع، فى حين ذهب "فون منده" فى دفاعه عن رأيه فجاجا أخر. أما فى حزيران/ يونيو ١٩٤٤، فقد اضطلع "فون منده" بالتعاون مع "برتولد شبولر" - الباحث فى تاريخ أوروبا الشرقية وخبير الدراسات الشرقية واللسانيات الفارسية - بإنشاء مدارس "دينية"

تقدم خلالها دورات لتأهيل الدعاة Mulla-Lehrgange، وذلك فى كل من "غوتينغن"، و"دريسدن".

إلا أن ذلك لم يفلح فى إنقاذ النازيين. ففى بدايات عام ١٩٤٥، تم قصف بنايات الأوستمنستريوم ومقاره، فضلا عن تدمير العديد من الملفات التى كانت مُحفوظة بداخله. أما "فون منده"، فلم يتبق لديه إلا ورقة وحيدة بوسعه استخدامها. فعلى امتداد الأشهر التى سبقت القصف، كان الأرجح أن يكون "فون منده" قد خطط لأن تنتقل الوحدات المسلمة إلى الجبهة الغربية بحيث تتمكن القوات الأمريكية والبريطانية من اقتناصها - إذ كان الوقوع فى أيدى السوفييت - آنذاك - يعنى الموت المحقق لا محالة.

أما الوحدات، فقد تداعت أركان العديد منها وانفرط عقدها ... حيث انضم الكثير من أفراد "أسراب الدفاع" إلى المقاتلين فى تشيكوسلوفاكيا، فى حين تمردت كتيبة جورجية ضد الألمان. وفى شباط/ فبراير ١٩٤٥، أعلنت تركيا الحرب على ألمانيا، فى ضربة عنيفة للروح المعنوية لجنود الأقليات المسلمة. أما "ألفريد روزنبرغ"، فقد ذهب إلى القول بأنه عازم على الاعتراف باللجان القومية واعتبارها "حكومات" - على الرغم من كون وزارته قد ألغيت رسميا. حتى "غريب سلطان" ... قد نال ترقية، إذ شكل التتر حكومة مؤقتة فى بدايات عام ١٩٤٥ جعلوه يترأس إدارتها الحربية.

بيد أن جهود "فون منده" كان لها وظائف هامة، وبخاصة ما ارتبط بالتوظيف السياسى للإسلام بعد انقضاء الحرب الكونية الثانية. إن بمقدور الأقليات المسلمة الزعم بأنها كانت تجاهد فى سبيل إرساء أشبه ما يكون بحكومة منفى، لا فى سبيل تحقيق المصالح النازية. فعوضا عن خليط من دوافع متنافرة لا ينتظمها رابط

تراوحت ما بين رغبة فى الهروب من مخيمات لاجئى الحرب المخيفة، ونزعة انتهازية محضة ... أمكن لتلك الأقليات الزعم بأنقى الدوافع وأرقاها فى تبريرهم لفعلاتهم: "التحرر الوطنى". ودع عنك كون المنظمات والتكوينات المسلمة هى صنيعة ألمانية بالأساس أريد بها بقاء القوات واستمرار وجودها فى ساحات القتال. إن الأساس المنطقى لتحرير شعب ما من القمع السوفييتى ليحكم بلاده بنفسه، ولتكون له حرية المعتقد والممارسة الدينية - يمكن أن يسوغ تلك الجهود برمتها مانحا التمهيد ومشرعا الأبواب أمام الأصدقاء الجدد للمسلمين ... إنهم الأمريكيون - أولاد العم سام.

حروب باردة

الفصل الرابع

إحياء الأوستمنستريوم

فى بداية خمسينيات القرن العشرين كانت ميونيخ مدينة طالتها يد الدمار جراء الحرب الكونية الثانية. وعلى الرغم من كون المدينة بعيدة عن منصات إطلاق القنابل فى بريطانيا ما جنبها أقصى أشكال التدمير، إلا أنها قد قصفت بلا هوادة ... وكان الخراب ماثلا للعيان: فميدان "الأوديون" المهيب قد أمطر بالقنابل، أما القصور الملكية البافارية فدمرت محتوياتها تدميرا، ناهيك عن الكنائس والمسارح التى أضحت أطلالا وأثرا بعد عين. أما من نجا من جحيم القصف ورعوده، فكان يحيا فى هذا المخيم أو ذاك.

ولقد كانت الخسائر فادحة، إذ قتل ما يربو على الستة آلاف، وجرح نحو خمسة عشر ألفا جراء غارات جوية متواترة. هذا، وقد أمطرت المدينة بثلاثة ملايين قذيفة نارية أو يزيد ... قذائف دمرت نصف بنايات المدينة، وأتت على ميونيخ القديمة إلا قليلا. وحين انقشع غبار المعارك فى نهاية الحرب، كان قرابة نصف تعداد المدينة ... ذلك التعداد البالغ ٩٠٠٠٠٠ نسمة قبل اشتعال فتيل الحرب - قد هجرها وارتحل عنها، فيما أضحى ٣٠٠٠٠٠ آخرون بلا مأوى. ولسنوات، قدرت المساكن وإيجاراتها بأعلى من السعر المعتاد ... فتشاركت ثلاث أو أربع بل وخمس عائلات وحدة سكنية واحدة، فكانت لافتات على أبواب أمثال تلكم الوحدات ترشد الزائر ... فمن يبغى عائلة "شميت"، فليقرع الجرس مرة واحدة، ومن يبغى عائلة "براون"، فليقرعه اثنتين، أما من يبغى عائلة "مولر" فثلاث، ... وهلم جرا.

بيد أن إعادة الإعمار كان شغل المدينة الشاغل وهاجسها المخيم الذى سيطر

عليها. ففى الصباح، كان النسوة يعمدن إلى رفع الأنقاض والحجارة من البنايات التى دمرت، فيما شرع آخرون يستخدمون أزاميلهم فى تهيئة الحجارة المختلفة لإعادة البناء بها. أما أطقم البنائين فقد قاموا بتثبيت المصابيح بأسلاك لتضىء لهم الأنقاض وحطام البنايات فى ليل ميونيخ المظلم. وكانت الظلال المنعكسة فى الظلام لحركة عاملى البناء تبدو كما لو أنها أشباح تركض فى سعى دءوب وإرادة لا تكل بين جدران محطمة ... فهذا يزيح حطاما وأنقاضا، وذاك يجلب حجارة جديدة ... وهكذا. وفى مواقع أخرى، كانت البنايات قد سويت بالأرض فأضحى ثمة رقعة أرض خالية هنا، وأخرى هناك - تدعو المهندس والبنّاء للتشييد عليها. أما الأنقاض فكانت الملمح السائد والقاسم المشترك ... أنقاض أحاطت بالمدينة سرادقاتها فبدت كهياكل مشيدة. وكانت ميونيخ - حتى فى سنى الخمسينيات تلك - ترعى "يوم إعادة البناء" ... يوم تلاه يوم تلاه آخر، يمنح الموظف فيه إجازة من عمله للمشاركة

فى رفع حطام الحرب ومخلفاتها، لتدور الكرة فى يوم تال ... وهكذا دواليك. ففى يوم واحد، أزاح سبعة آلاف رجل خمسة عشر ألف متر مكعب من الأنقاض، مدعومين فى ذلك بالجيش الأمريكى الذى أمدهم بـ ٢٦٤ عربة كبيرة للتفريغ وأربعة آلاف لتر من الوقود. أما الجائزة ... والتى نالها كل فرد عند نهاية اليوم، فكانت قطعتين من النقانق، ورغيف خبز، ولترا من الجعة.

لقد تعافت ميونيخ بأسرع مما تعافى غيرها من مدن ألمانية. ففى أعقاب انتهاء الحرب مباشرة، وتحديدا فى عام ١٩٤٦، كان المايسترو الهنغارى الجليل، السير "غيورغ شولتى" يقود أوركسترا "بافاريا" السيمفونى. هذا، وقد كانت برلين، وإلى أن اندلعت الحرب، العاصمة الصناعية والعلمية والتجارية للبلاد، إلا أن "البيزنس" قد هجر المدينة بعد أن أدى تقسيم ألمانيا إلى جعل برلين جزيرة معزولة فى وسط ألمانيا الشرقية وبحرها الشيوعى المتلاطم. هذا، وقد نقلت كيانات هندسية وصناعية عملاقة كشركة "زيمنز" Siemens أنشطتها إلى ميونيخ، وكذا فعلت بيوتات أموال وشركات تأمين، كشركة Allianz. وحين تنامت وتيرة إعادة البناء، وضعت الشركات المحلية أقدامها على الطريق ثانية. وفى عام ١٩٥١، احتفلت ميونيخ بقيام أحد مصانع السيارات بها بتصدير "مركبة" إلى الهند - فى ملمح مبكر إلى الصعود الاقتصادى المذهل لألمانيا الغربية إلى الحد الذى استعارت معه اللغة الإنكليزية مصطلحا ألمانيا يشير إلى ذلك الصعود، ألا وهو Wirtschaftswunder - أى المعجزة الاقتصادية.

لقد شهد عام ١٩٤٩ إنشاء ألمانيا الغربية وعاصمتها "بون" ... تلك العاصمة التى قال عنها مبدع الروايات الجاسوسية "جون لوكاريه": "إنها لا تعدو أن تكون مدينة ألمانية صغيرة". أما ميونيخ، وبفضل حجمها وموقعها، فكانت العاصمة "غير الرسمية" للبلاد. فالمدينة تبعد ١٢٠ ميلا فقط عن "الستار الحديدى" المار بقلب

أوروبا ... ذلك الستار الذى مثل حاجزا سياسيا وأيديولوجيا متخيلا فصل ما بين الاتحاد السوفييتى وغرب أوروبا فى الفترة (١٩٤٥- ١٩٩٠). أما القنصلية الأمريكية فى ميونيخ، فقد تم الزعم أنها حلت ثانية كأكبر هيكل تمثيلى دبلوماسى فى العالم، إذ لم يكن يسبقها - آنذاك - سوى نقاط التجسس والمراقبة الصينية فى "هونغ كونغ". وعلى امتداد قرابة عقدين من الزمان أعقبا الحرب الكونية الثانية، كانت ميونيخ مدينة مواجهة، أو بالأحرى جبهة مواجهة، فى أحد أبرز الصراعات الأيديولوجية على مدار التاريخ.

هذا، وقد نزح مئات الآلاف من لاجئى أوروبا الشرقية صوب المدينة فى أعقاب الحرب ... كان غالبيتهم من ذوى الإثنية الألمانية ممن تم تهجيرهم وإقصاؤهم من أراض استقطعت بواسطة بولندا أو الاتحاد السوفييتى ... إلا أن المدينة كانت، أيضا، نقطة جذب لأناس شتى مثلوا طوائف إثنية عديدة، وآخرين انتظمتهم أهداف وقضايا مشتركة دافعوا عنها وما يزالون. لقد كانت رغبة الكثير من هؤلاء وهؤلاء أن يمضوا أقل وقت بالمدينة ليرتحلوا بعده إلى بلدان أوفر استقرارا وأكثر رخاء. إلا أن كثيرين أخر لم يبرحوها. لقد ضمت ميونيخ أعدادا كبيرة من جماعات التجأت إليها أشبه بحشود ظلت، على الدوام، تتشكل وتندمج وتتشظى وتتعادى. كذا، فقد انتشر المجرمون فى المدينة، وتوالدت الخطط الكبيرة ... تلك التى شهدتها حانات ميونيخ ومقاهيها ... خطط استهدفت استعادة المهاجرين لأوطانهم الأم. أما "البروباغندا" السوفييتية فقد كانت تمقت المدينة واصفة إياها بأنها "مركز الدمار".

لذا، فقد تضافرت جميع تلك العوامل لجعل ميونيخ المقر المثالى لـ "راديو الحرية"، والذى أنشئ فى بدايات عام ١٩٥١ على يد نفر من مواطنى الولايات المتحدة الأمريكية المهمومين اجتمعوا معا للتباحث حول ما يمكن اتخاذه حيال المشكلة الكبرى - آنذاك - الشيوعية. إذ كانت الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى

قد وقع كلاهما فى مأزق حربى. وكانت رغبة الولايات المتحدة إيجاد وسيلة لتقويض أركان الشيوعية من الداخل. وبما أن الولايات المتحدة كانت "مركز الإعلام" على امتداد المعمورة بأسرها، وإذا ما تضافرت جهود ثلة من رجال الإعلام، أفلا يمكنهم توظيف التقنيات الجديدة وأحدث استراتيجيات الإعلان لنشر رسالة "حرية" عابرة للستار الحديدى؟ إنه بالإمكان إحراز النصر فى الحرب دون إسقاط قنبلة واحدة. لقد عمد هؤلاء الأمريكيون المجتمعون إلى تأسيس منظمة غير حكومية أطلقوا عليها اسم "اللجنة الأمريكية لتحرير شعوب روسيا" ... تلك اللجنة التى كان يترأسها "يوجين ليونز" - المحرر الأسبق بالـ Reader's Digest، وعدد من صحافيين مبرزين. ولقد عمدت اللجنة - التى تأسست فى الثامن عشر من كانون الثانى/ يناير ١٩٥١ فى ولاية "ديلاوير" الأمريكية - إلى إنشاء "راديو الحرية". لقد كان الهدف، وفقا لما قاله المؤسسون أنفسهم، "إتاحة محطة إذاعية لعناصر ديمقراطية من مهاجرى الاتحاد السوفييتى يمكنهم من خلالها التحدث إلى بنى جلدتهم فى الوطن الأم".

هذا، وقد اتخذ "راديو الحرية" من مطار "أوبرفيزنفلد" الواقع على أطراف مدينة ميونيخ مقرا له. ويحتل "راديو الحرية" مبنى مستطيلا رماديا كان، نفسه، معلما ذا سمعة سيئة ... إذ هبط فيه رئيساً وزراء كل من فرنسا وإنكلترا فيه للقاء هتلر حين قدما لحضور المؤتمر الذى شهد تقسيم تشيكوسلوفاكيا، ما جعل ميونيخ صنوا للإرادة الدبلوماسية الرخوة[٢٨]. وفى أثناء الحرب، دُمِر المبنى بيد أنه قد أعيد تصميمه على عجل ليكون مقرا للعاملين بالراديو ... الذين ستتضخم أعدادهم لاحقا إلي ما يربو على الألف، ما بين كاتب ومنتج وتقنى ومحاسب وخبير. وحين يجىء الشتاء ... تعصف الريح بنوافذ المبنى، ويسمع هزيم الريح عبر الجدران المتصدعة. أما الأنقاض، فقد روكمت فى ركن من أركان ساحة المطار، فى حين

كان بمقدور الطيارين الألمان استخدام الجزء المتبقى من الممر.

وهنا يستدعى "جيمس كريتشلو"، أحد العاملين السابقين براديو الحرية، ذكريات عن الموقع فيقول: "أحيانا، كنت أنظر من خلال نافذة مكتبى بأحد أركان المبنى لأرى طائرة تتجه مباشرة نحوى، يقودها طيار محبط من سلاح الطيران الألمانى ينحرف فى توقيت مناسب إذ كاد لو تمهل للحظة أو اثنتين ليرتطم بالمبنى".

إن معظم أولئك المغتربين، شأنهم فى ذلك شأن كريتشلو، قد أسكنوا فندق "ريجينا بالاست" أو "القصر الملكى" - الذى كان لا يزال، أنذاك، مهدمة بعض أجزائه. وبداخل الفندق، وفى نهاية كل ردهة، كان ثمة باب محكم الإيصاد - وكان فتح باب أو آخر من تلك الأبواب ليعنى الوقوع فى الحال، وعلى أم الرأس، فى حفرة قد أحدثتها هذه القنبلة أو تلك. أما واجهة الفندق والمطلة على الشارع، فكان يمكن للمارة الراجلين أن يروا حوض استحمام وهو ما يزال معلقا من الطابق الرابع - لا يمنع سقوطه سوى "مواسير" المياه المثبتة بالجدار. إن العديد من الأمريكيين ممن عملوا فى "راديو الحرية" كانوا قد شاركوا فى الحرب الكونية الثانية، فيما تابع آخرون أخبارها من "المنزل" إذ كانوا ما يزالون، آنذاك، فى طور المراهقة. وكانت ميونيخ، وفقا لهم، مدينة غاصة بذكريات عن تلك الحقبة المظلمة. فكما يقول "كريتشلو" مستدعيا بعضا من ذكرى: "كنا، فى بعض الأحايين، نتناول طعامنا لدى نادى الضباط الأمريكيين فى بيت الفن الألمانى ... وهو بناية مهيبة ذات أعمدة حولها هتلر معقلا للفن الألمانى "غير الرمزى" المُعبّر عن النقاء الآرى[٢٩]. وعلى مقربة من ذلكم المعقل كان ثمة بيت كان هتلر ذاته قد أقام به. أما أرقى مطاعم المدينة، فكان مطعم "أوستيريا إيطاليانا" فى شارع "شيلينغ" ... ذلك المطعم الأثير لدى "الفوهر" حيث تتندر النادلات هناك بروايات عن زياراته للمطعم".

كان العديد من العاملين الأمريكيين براديو الحرية حديثى السن ومثاليين كجيمس كريتشلو ... الذى كان تقنيا للرادار أثناء الحرب الكونية الثانية، كذا فقد كان يعمل لدى شركة "جنرال اليكتريك" فى الخمسينيات حين علم أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية كانت فى مسيس الحاجة إلى من يتحدث الروسية. هذا، وكان "كريتشلو" قد أفاد من "قانون حقوق الجنود الأمريكيين"[٣٠]، حيث التحق بجامعة "جورج تاون" ليدرس اللغة الروسية بها. وبعد أن أنهى دراسته الجامعية، التحق "كريتشلو" بإحدى الوظائف بوكالة الطاقة الذرية، إلا أنه حين علم بأن صديقا يعتزم إنشاء محطة إذاعية بميونيخ، تحمس لذلك. وإلى ميونيخ توجه "كريتشلو" فى مهمة كان عَقْدها عاماً واحداً، إلا أنه قد أمضى هناك عقدين من الزمان. وبعد مضى عام على التحاقه بالعمل، أُخبِر "كريتشلو" - على انفراد - بأمر كان بالفعل قد أدركه بحدسه ... ألا وهو أن "راديو الحرية" لم يكن يدار من قبل لاجئين سوفييت، كذا فلم يكن "الراديو" ممولا بواسطة أمريكيين ذوى نيات حسنة ... إنه "جبهة مواجهة" تابعة لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ... جبهة تكرس جهودها لإطاحة الاتحاد السوفييتى وكان مسلكها، فى ذلك، تجنيد أعضاء بارزين من فريق "فون منده" بالأوستمنسستريوم.

حين يجيل معظم الناس الفكر فى سياسة "الحرب الباردة" الأمريكية إزاء الشيوعية، غالبا ما تلتمع كلمة بعينها فى الذهن ... "الاحتواء" ... لقد صك الدبلوماسى الأمريكى "جورج فروست كينان" مصطلح "سياسة الاحتواء" لأول مرة فى عام ١٩٤٦ . إن سياسة الاحتواء قد صممت للحيلولة دون انتشار الشيوعية عن طريق عزلها واتخاذ مواقف متى ما كان ثمة تهديد بتطويقها لبلد أو لآخر. ولقد كان ينظر إلى تلك السياسة على كونها "سياسة صلبة" ... سياسة إيجابية تتعارض وسياسة "استرضاء هتلر" ... تلك السياسة السلبية الرخوة التى انتهجها "نيفيل

تشامبرلين" رئيس الوزراء البريطاني فى حقبة الثلاثينيات. لقد كانت المواجهة المباشرة مع الاتحاد السوفييتى شبه مستحيلة، إلا أن الديمقراطيات بإمكانها اتخاذ مواقف إيجابية تحول دون انتشار الشيوعية التى يدعو إليها ... وبحلول حقبة الخمسينيات، ضاق كثير من الأمريكيين ذرعا بتلك السياسة "الحذرة". فالاحتواء، وفقا لهم، كان يسير فى اتجاه مضاد للمثالية الأمريكية ... إذا، فلابد من تقويض الشيوعية برمتها واجتثاثها من جذورها واستئصال شأفتها. لذا، أضحت مصطلحات سياسية أخرى تتداول، آنذاك، من بينها "التحرير" و"الهجوم الاستباقى" - والتى تعنى الانقلاب على الشيوعية من داخلها عبر إحداث الفتنة والانقسام فى صفوفها.

هذا، وقد شرعت إدارة الرئيس الأمريكى "هارى ترومان" فى نشر أصداء ذاك "المزاج" الجديد. ففى عام ١٩٤٨، عمد "كينان" ذاته إلى تحرير مذكرة تفسيرية تعضد فكرة "العمليات المغطاة" واستخدام "البروباغندا" ... وهو ما حدا بمجلس الأمن القومى الأمريكى إلى تبنى سياسة رسمية أقرت اعتماد طيف واسع من "العمليات المغطاة" مثل البروباغندا - أى الدعاية، وآليات الحرب الاقتصادية، إلى جانب بعض السياسات الوقائية المباشرة. أما "العمليات المغطاة"، فكانت مرتبطة بالحاجة إلى ضمان توفر درجة مناسبة من القدرة على إنكار القيام بالحدث، وكذا القدرة على إخفاء ما من شأنه إثبات ضلوع الولايات المتحدة فى أعمال بعينها أو رعايتها للقائمين بتنفيذها. على أنه لم يكن مقررا أن تكون جميع تلك الأعمال عنيفة بالضرورة ... إذ يندرج الكثير منها فى نطاق "الحرب السيكولوجية" ... تلك الموجهة إلى المدنيين فى الدولة المستهدفة.

إن تقنيات الاتصال ستضحى أدوات فاعلة فى مواجهة التهديد الشيوعى. فقبيل ذلك بسنوات قلائل، سعى النازيون إلى إرهاب البريطانيين وحملهم على

الاستسلام عن طريق قصف العاصمة البريطانية لندن. إلا أن الغرب قد نجح فى تحويل هذا القصف لصالحه، ويرجع بعض الفضل فى هذا إلى "راديو الحرية". إن قرع أجراس ساعة "بيغ بين" الذى تعقبه الكلمتان الشهيرتان "هنا لندن"، والمنبعثتان من إرسال "هيئة الإذاعة البريطانية"، فضلا عن الرسائل الموجهة من "إدوارد روسكو مارو" من إذاعة ... CBS تظل جميعها ذكريات ملهمة للأمريكيين. إذا، فإن التكتيكات الإعلامية المماثلة قد تنجح فى أن تقود إلى الانتصار فى "الحرب الباردة".

إذا ... كيف السبيل لنشر "الرسالة"؟ فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، عمد "هارى ترومان" إلى حل "مكتب الخدمات الاستراتيجية" ... وهو الوكالة الاستخباراتية الأمريكية الرئيسية آنذاك، إلى جانب غلق مكاتب الدعاية الأمريكية ... وما أشبه الليلة بالبارحة ... ففى أعقاب الحرب الكونية الأولى اتخذت خطوات مماثلة، إذ شعر كثير من الأمريكيين، آنذاك، بمثل ما سيشعرون عام ١٩٤٥ - أن الولايات المتحدة الأمريكية يجب ألا "تتورط" فى ممارسات ماكرة خادعة. إلا أن الحرب الباردة كانت قد غيرت هذا التوجه. ففى عام ١٩٤٧، وفى تحول جذرى حاد فى سياسة الولايات المتحدة، وقع "ترومان" قانون الأمن القومى الذى انبثقت بمقتضاه مؤسستان جديدتان: وكالة الاستخبارات المركزية، ومجلس الأمن القومى الأمريكى. أما الأولى فقد عهد إليها بمهمة جمع التحريات الاستخباراتية السرية وتحليلها، وأما الثانية فكانت مهمتها إمداد الرئيس الأمريكى بالاستشارات حول القضايا المرتبطة بالأمن القومى الأمريكى. أما دعاية "الحرب الباردة"، فقد سلكت طريقين اثنين: دعاية "سافرة"، وأخرى "مغطاة". فعلى سبيل المثال، كان دعم وزارة الخارجية الأمريكية لصناعة الأفلام والإذاعة والفنون وبرامج "التبادل" وإذاعة "صوت أمريكا" - يعد "دعاية سافرة"، ذلك أن دعماً كهذا يتم النظر إليه على كونه

"جهودا حكومية". أما العمليات المغطاة، فقد تراوحت ما بين مجلات ممولة لأغراض بعينها، وحملات للتشهير... كذا، فقد اشتملت تلك العمليات على شن "الحرب السيكولوجية" تجاه الخصوم والأعداء، ونشر الأكاذيب، وبث الدعايات المضللة والمعلومات المغلوطة، ونشر الذعر والرعب بين المواطنين، وتسخير أجهزة الإعلام والحملات الدعائية المنظمة، وبخاصة ضد الدول التى تتعارض سياساتها مع المصالح الأمريكية.

وفى الوقت الذى كانت ولاية "ترومان" الثانية على وشك الانقضاء، كانت جهود "الحرب السيكولوجية" وفعالياتها مشتتة بين عديد من الأجهزة، الأمر الذى أثار خلطا وارتباكا. لذا، ففى العشرين من حزيران/ يونيو ١٩٥١ وقع "ترومان" مرسوما يقضى بإنشاء "لجنة الاستراتيجية السيكولوجية" لتوحيد الخطط وتذليل العقبات أيا ما كانت ... إلا أن الهدف الحقيقى لم يكن سوى تقويض أركان الاتحاد السوفييتى باستخدام العمليات السيكولوجية. على أن "العمليات المغطاة" لم تكن لتحصر فحسب فى استهداف العالم الشيوعى، بل امتدت لتشمل "العالم الحر" أيضا. إذا، وبعبارة تخلو من التنميق اللفظى، فإن الحكومة الأمريكية يمكنها تضليل الرأى العام فى الداخل "الأمريكى"، وكذا فى العديد من بلدان غير شيوعية أخرى.

لاقت جهود "ترومان" فى هذا الصدد قبولاً واستحساناً كبيرين من خليفته "دوايت أيزنهاور" الذى اعتمد سياسات مماثلة لتلك التى اعتمدها سلفه. ولكونه أحد القادة بالحرب الكونية الثانية، فقد افتتن "أيزنهاور" كثيرا بمفهوم "الحرب السيكولوجية"[٣١] ... وهو الذى كانت عادته إعطاء أوامر بإسقاط منشورات من الطائرات قبل الشروع فى أى هجوم أملا فى تضليل العدو. ففى أثناء خوضه غمار السباق الرئاسى فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٢، ألقى "أيزنهاور" خطابا فى سان

فرانسيسكو لدعم انتهاج "الحرب السيكولوجية" ... جاء فيه:

"هدفنا فى الحرب الباردة ليس الاستيلاء على أراض أو إخضاع الآخرين بالقوة. هدفنا أكثر براعة وأوسع مجالا وأكثر اكتمالا. نحن نحاول أن نجعل العالم يصدق الحقائق بالوسائل السلمية. والحقيقة أن الأمريكيين يريدون عالما يعيش فى سلام، عالما تكون الفرصة فيه أمام جميع البشر لأقصى تقدم فردى ممكن. والوسيلة التى سوف نستخدمها لنشر هذه الحقيقة تسمى عادة "الوسيلة السيكولوجية". لا تخافوا من هذا المصطلح لمجرد أنه كلمة من خمسة مقاطع. الحرب السيكولوجية هى الصراع من أجل إرادة البشر وعقولهم". هذا، وقد توسل "أيزنهاور" بالحقيقة الخالدة "من أن "بنى البشر هم كائنات روحانية تستجيب للعاطفة والمشاعر بمثل ما تستجيب للمنطق العقلانى والإحصاءات ... فعقول البشر كافة لتتأثر بشدة بالمؤثرات الخارجية".

إن إدارة "أيزنهاور" قد قامت بتصعيد وتيرة "الحرب السيكولوجية" ... حيث تم تعيين الجنرال تشارلز دوغلاس جاكسون[٣٢]، وهو خبير عمليات سيكولوجية بالحرب الكونية الثانية، فى منصب بالبيت الأبيض كمساعد الرئيس لشئون "الحرب السيكولوجية". وكان جاكسون قد عمل بمجلة Time الأمريكية، حيث كان الساعد الأيمن لمؤسسها "هنرى لووس". هذا، وقد ترأس جاكسون، المعروف بكونه عدوا لدودا للشيوعية، "مجلس الاستراتيجية السيكولوجية"، والذى سمى لاحقا "مجلس تنسيق العمليات" ... ذلك المجلس الذى قاد معظم أنشطة "الدعاية المغطاة" فى ميونيخ والعالم الإسلامى خلال خمسينيات القرن العشرين.

علاوة على ذلك، فقد أتى تعضيد إضافى لآلية "الحرب السيكولوجية" من مجلس الأمن القومى الأمريكى" فى ظل ولاية "أيزنهاور"، إذ صادق المجلس على مرسوم

يخول وكالة الاستخبارات المركزية نفوذا أوسع لتضليل الرأى العام. وقد ذهب "ويليام إيغان كولبى"، مدير الوكالة فى ظل ولاية كل من الرئيسين الأمريكيين الأسبقين، ريتشارد نيكسون وجيرالد فورد، - إلى أن قرابة نصف ميزانية الوكالة، إبان ولاية "أيزنهاور"، قد ذهبت إلى أغراض "الدعاية" والممارسات السياسية والعمليات شبه العسكرية. كذا، فإن الوثائق المفرج عنها حديثا قد أوضحت قيام "الوكالة الأمريكية للمعلومات" -وحدها - بإنفاق نحو خمسين مليون دولار أمريكى سنويا على "العمليات المغطاة" خلال حقبة الخمسينيات. وإجمالا، فقد أنفقت الولايات المتحدة الأمريكية، إبان الحقبة المذكورة، نحو نصف مليار دولار سنويا (بأسعار الخمسينيات)، سعيا منها للتأثير على الرأى العام العالمى ... وهو عمل جسيم غير مسبوق. أما الصنيعة التى جاءت بها تلك الحقبة - وهى صنيعة أكثر استغلاقا على الفهم - فكانت المؤسسة الأم لراديو الحرية، تحديدا "أمكومليب".

فى الحادى والعشرين من كانون الثانى/ يناير ١٩٥١، أنشئت "اللجنة الأمريكية لتحرير شعوب الاتحاد السوفييتى" فى ولاية "ديلاوير" الأمريكية. وللاسم صدى ووقع يوحيان بأنها منظمة غير حكومية NGO، إذ كان لها مجلس إدارة وعاملون ... وبالقطع، فقد كان المراد هو إعطاء ذاك الإيحاء، إلا أن اللجنة قد كانت - منذ إنشائها - صنيعة الاستخبارات الأمريكية.

ففى عام ١٩٤٨، قام مجلس الأمن القومى الأمريكى أثناء ولاية "هارى ترومان" بتمرير مذكرة أوضحت الحاجة إلى اعتماد آلية "للحرب السياسية". وقد اشتملت تلك المذكرة على بحث تحليلى موجز للتاريخ الحديث مشيرة إلى نجاح الإمبراطورية البريطانية فى البقاء أحقابا طوالا بسبب إدراكها لذلك الأمر. كذا، فقد ذهبت المذكرة إلى أن "الكرملين الروسى"قد اتسمت استراتيجياته بكونها الأوفر صقلا والأمضى أثرا ونجاعة على مر التاريخ. أما الولايات المتحدة الأمريكية، على حد

زعم المذكرة، فكانت مكبلة على الدوام نظرا لاستمساكها الوثيق، والعاطفى، بقواعد الأخلاق ومتطلبات "اللعب النظيف". لذا، فقد اقترحت المذكرة إنشاء "لجان تحرير" قائلة إن "لجنة أمريكية" لابد وأن تُنشأ للإبقاء على سيرة القادة من المهاجرين ماثلة حية لدى العامة.

هذا، وسيظل "اسم" اللجنة يتغير مرارا إذ كانت تجاهد كيما تتوصل إلى اسم لها يبرز بجلاء مهمتها التى أنشئت لأجلها ... لذا، فقد أصبح اسمها، عام ١٩٥١، "اللجنة الأمريكية لتحرير شعوب روسيا" إذ كان من غير اللائق ذكر "الاتحاد السوفييتى"، وهو ما اعتبره بعض أعضاء اللجنة غير قانونى. إلا أن لفظة "روسيا"، فى ذاتها، قد أضحت مشكلة - إذ بدت "ضيقة" للغاية كونها تقصى "غير الروس" الذين يشكلون، فى مجموعهم، قرابة نصف عدد سكان البلاد. لذا، فقد قامت اللجنة بتغيير اسمها، مرة أخرى، عام ١٩٥٣ - ليصبح "اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية"، إلا أنه قد بدا، بدوره، "عتيقا، بعض الشئ - فحتى أثناء الخمسينيات، لم يكن ثمة من يتحدث عن "البلشفية" اللهم إلا كبار غلاة مناهضى الشيوعية ... إذ "البلشفية" مصطلح يعود إلى عشرينيات القرن وثلاثينياته، لذا فقد تم الاستغناء عن الكلمتين الأخيرتين من اسم "اللجنة"، وذلك فى عام ١٩٥٦، لتضحى اللجنة ذات اسم غير دال على مسماه: "اللجنة الأمريكية للتحرر". أما من هم خارج اللجنة، فكانوا يعرفونها باسم "اللجنة الأمريكية" ... وحسب، وهو ما أضفى عليها "جرسا وطنيا ضافيا". أما بالداخل، فكانت تعرف بـ "أمكومليب" ... وهو اسم ذو رطانة غرائبية محببة بما يتناسب تماما وحقبة كان ديدنها صك أسماء مقتضبة ذات غموض لتطلقها على العمليات الحربية والمهام الاستخباراتية (الجاسوسية). ولعل "أمكومليب" كانت لتصلح رمزا كوديا لإحدى عمليات الإنزال المظلية وراء خطوط العدو.

وبمرور الأيام، أضحت "أمكومليب" بحاجة إلى ميزانية أضخم وعاملين قدروا بالآلاف. وفيما كانت مهمة "أمكومليب" الرئيسية إدارة "راديو الحرية"، فقد كان لها مهمتان أخريان ذواتا أهمية ... إذ كانت تدير مستجمعا للأفكار think tank زعم أنه مستقل، وكان اسمه "معهد دراسات الاتحاد السوفييتي" ... ذلك المعهد الذى كان يصدر أوراقا بحثية بواسطة العاملين بأمكومليب وأناس قريبين من الوكالات الاستخباراتية. كذا، فقد كان لأمكومليب إدارة لعلاقات اللاجئين قامت بتجنيد عملاء (جواسيس)، فى ميونيخ بالأخص، وإرسالهم فى مهام "دعائية" مغطاة عبر أرجاء المعمورة. أما ضلوع حكومة الولايات المتحدة فى الأمر، فقد أمكن إخفاؤه والتستر عليه بعناية، وقد عمد مجلس إدارة أمكومليب إلى تضليل "المستمعين" والمؤيدين فى الولايات المتحدة بجعلهم يحسبون أنها تدار من قبل لاجئين وصحافيين مبرزين، بخلاف الحقيقة من أنها واجهة لوكالة الاستخبارات المركزية. فحين طبعت قوائم بمواقيت البث الإذاعى وتردد الموجات، فإن الدور الأمريكى فى هذا الخصوص قد تم التعتيم عليه عن عمد، وذلك وفقا لمحضر وقائع اجتماعات مجلس إدارة أمكومليب.

ولعل ذلك ما حال دون ورود "راديو الحرية" إلى ذاكرة العامة ألبتة، على خلاف ما جرى فيما يخص شقيقها الأوفر صيتا والأكثر شهرة - راديو أوروبا الحرة". ورغما عن أن كليهما كانا جبهتين أماميتين مقرهما "ميونيخ"، إلا أن الاثنين كانا مختلفين ... إذ يركز "راديو أوروبا الحرة" فعالياته على أوروبا الشرقية فى بلدان كبولندا وهنغاريا وتشيكوسلوفاكيا، وبلدان أخر يهيمن عليها الاتحاد السوفييتى - فيما يبث "راديو الحرية" بداخل الاتحاد السوفييتى ذاته. أما المنظمة "الأم" لراديو أوروبا الحرة - أى "اللجنة الوطنية لأوروبا الحرة"، فقد اجتذبت أموالا من أمريكيين من غير ذوى الشأن بالضرورة، وكذا فإن شخصيات عامة مرموقة قد

شملوها برعايتهم ودعمهم. لقد اخترق "راديو أوروبا الحرة" الضمير الجمعى إلى الحد الذى ألهم فرقة موسيقى الروك Rapid Eye Movement (REM) إطلاق أغنية لها عام ١٩٨١ سميت Radio Free Europe – راديو أوروبا الحرة.

على أن أمكوميليب ربما لم تكن معروفة للكثيرين، إلا أنه لم يَعُزْها المال قط. هذا، ومن العسير بمكان أن يتكهن المرء بحجم ميزانيتها، رغما عن تسرب بعض البيانات من خارج الحصار والتعتيم المعلوماتى المفروض عليها من قبل وكالة الاستخبارات المركزية ... إذ أفصحت السجلات عن أن حجم الميزانية كان قد بلغ، عام ١٩٥٥، مبلغ ٢,٨ مليون دولار (أى نحو ٢٣ مليونا بأسعار عام ٢٠١٠)، لتبلغ ٧,٧ ملايين عام ١٩٦٠ .

لقد أدرك العاملون براديو الحرية – سريعا – أن تمويلا كهذا لابد وأن يكون قد جلب من مصدر ذى شأن. وقد ذهب "جيمس كريتشلو" إلى القول: "إننى لا يساورنى أدنى شك فى أن أيا من العاملين فى بنايتنا بأوبرفيرزنفلد لابد وأن تكون لديه ولو لمحة أو معرفة طفيفة بحقيقة الأحوال".

إن "كريتشلو" قد دافع باستماتة عن "راديو الحرية". ففى عام ١٩٩٥ . كتب الرجل مذكرات ماتعة شائقة عن محطة الإذاعة تلك قام بنشرها فى صورة كتاب. هذا، وقد لاحظ "كريتشلو" أن وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية قد أبقت نفسها بعيدة عن فعاليات البث والإرسال ... كذا، فقد قال: "إنه إذا ما تريث المرء ليفكر مليا بشأن الحجم الهائل للمواد التى ترد يوميا إلى "راديو الحرية"، والسرعة التى يتحتم تناولها بها، والقرارات الفورية التى يتعين اتخاذها ... سيكون جليا – ساعتها – أنه لن يكون بمقدور أية وكالة، بخلاف "الراديو"، أن يكون لها رقابة فاعلة. إذا ... لابد وأنهم يثقون بنا".

وبالقطع ... كانت وكالة الاستخبارات المركزية على قدر من الذكاء لتقوم بذلك. فينبغى ألا تكون الدعاية مغرضة أو مضللة ... فالدعاية تكون أكثر فاعلية وأمضى أثرا حين تكون صادقة، أو أقرب ما تكون إلى الصدق كلما أمكن ذلك. لذا، فإن كثيرا من العاملين بقطاع العمليات قد شعروا بالرضا عما كانوا يؤدون من أعمال ومهام - نشر معلومات عن نظام سياسى كريه.

إنه لمن دواعى فخر "راديو الحرية" أن يكون قد وفق فى اجتذاب كفاءات كبيرة بحجم "كريتشلو" وأضرابه. فمنذ إنشاء الراديو، ضمت قائمة العاملين صحافيين أكفاء من أمثال "ادموند ستيفنز"، وهو صحافى حاز جائزة "البوليتزر"، وتم توظيفه ليقوم بتدريب العاملين بالراديو. أما قلب "العمليات" النابض فكان "بوريس شوب"، المولود لأسرة من "اللاجئين". ولكونه ألمعيا ذا ثقافة رفيعة وذكاء، فقد ألهم زملاءه برؤيته بشأن "روسيا ديمقراطية حرة". ولقد كانت إحدى أفكار "شوب" - التى أضحت إحدى استراتيجيات وكالة الاستخبارات المركزية ذات الشأن - مؤداها استخدام اليساريين المتحررين من "الوهم" للهجوم على الاتحاد السوفييتى. وقد أطلق "شوب" على تلك الاستراتيجية: "برثنه اليسارى".

إن "راديو الحرية" قد أرسى دعائم قوية من "روح الجماعة" فى العمل. إذ ما يزال الكثير من العاملين يذكرون سنوات عملوا خلالها به على أنها أجمل سنى حياتهم ... أوقات كانوا يسافرون خلالها خارج البلاد والعمل رفقة جماعة رائعة من اللاجئين. هذا، وقد قام العديد من العاملين السابقين براديو الحرية بكتابة مذكرات وكتب تناولوا فيها الحياة فى داخل "الراديو". إن الكثير من العاملين السابقين بالراديو قد ذهبوا إلى التقليل من أهمية صلات الراديو بوكالة الاستخبارات المركزية، أو تجنبوا الخوض فى تلك الصلات، وهو عين ما ذهب إليه "كريتشلو" من قبل. وقد كتب "كريتشلو" فى لهجة دفاعية: "سأكون محاطاً بالعديد من الرجال

الأوفياء والنساء المخلصات الذين يذيعون الأخبار براديو الحرية، إذا ما سعيت إلى ربطهم بعالم الاستخبارات الغامض المريب".

وهذه حقيقة لا مراء فيها ... إذ لم يكن "كريتشلو" أو أى من العاملين براديو الحرية عميلا أو جاسوسا. فخلال عقدين من الزمان أمضاهما بالراديو، أضحى "كريتشلو" صحافيا قديرا هناك ... فوكالة الاستخبارات المركزية لا يعنيه أمرها كثيرا، إذ ليست على ذلك القدر من الأهمية.

إلا أن آخرين من أمثال "جين سوسين" قد رأوا الأمر رؤية مغايرة ... إن "سوسين" الذى التحق بالعمل براديو الحرية فى خريف عام ١٩٥٢، وتدرج فى المناصب حتى شغل منصب المدير ... قد ذهب إلى القول بأنه رأى الأمر غريبا أن تقال الأكاذيب باسم إذاعة "الحقائق". هذا، وقد كتب "سوسين"، فى مذكراته التى ضمتها دفتا كتاب عنوانه "شرارة الحرية، ذكريات من داخل راديو الحرية" ... إنه سمع، حين التحاقه بالعمل، أقاويل بأن "راديو الحرية" ما هو إلا أداة من أدوات وكالة الاستخبارات المركزية، وقد تأكد الأمر لديه حين طُلب إليه أن يوقع تعهدا بألا يفشى ذلك السر. كذا، فقد كتب "سوسين": "إن بعض مسئولى الوكالة قد طلبوا إليه، فى نيسان/ أبريل ١٩٦١، أن يذهب إلى جامعة "كورنيل" برفقة كل من "فاليريان أوبولينسكى" و"إسحاق باتش" للقاء البروفيسور الأمريكى، الروسى المولد، "يورى برونفينبرينر" - خبير "التعليم الروسى" ... الذى سافر إلى الاتحاد السوفييتى عن طريق منحة دراسية من "صندوق التنمية البيئية البشرية" ... ذلك الصندوق الذى علم "برونفينبرينر" لاحقا أنه مدعوم فى الخفاء من قبل وكالة الاستخبارات المركزية. وفى أعقاب زيارة له إلى "راديو الحرية" بميونيخ، خشى رجال الوكالة أن يعمد الرجل إلى ربط "الراديو" بأنشطة الوكالة، لذا عُهد إلى "سوسين" وزميليه القيام بتبديد أية شكوك قد تكون قد تطرقت إليه فيما يخص

"الراديو" ... أى أن "سوسين" كان فى مهمة لتبرئة الساحة وإعلام "البروفيسور" باستقلالية "راديو الحرية".

ويستطرد "سوسين" فيذكر كيف أمضى ثلاثتهم سحابة يوم بأكمله مع البروفيسور وعدد من زملائه، حيث أخبروهم عن أنشطة "الراديو" وأهدافة النبيلة !! ليعودوا أدراجهم مؤمنين بأنهم قد نجحوا فى تدارك الموقف. "وبالفعل"، وفقا لسوسين، "لم يحدث شيء بعدها على الإطلاق - إلا أننى لم أطق رؤية العوار فى أن يعمل المرء لدى كيان يذيع "الحقائق"!! للشعوب السوفييتية، فيما يعمد إلى الأكاذيب مع أهله وشعبه". إلا أنه كان لدى "أمكومليب" سر آخر ... سر من الأرجح أن يكون الأمريكيون ليجدوه كريها ... ألا وهو الخاص بالعاملين المهاجرين.

فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، كان معظم الجنود السوفييت ممن تعاونوا مع ألمانيا النازية قد انتهى بهم المطاف فى معسكرات "لاجئى الحرب" الغربية. وقد أرجع الكثيرون الفضل فى ذلك إلى "غرهارد فون منده" قائلين إنه قد خطط عملية انتشارهم غربا فى الأشهر الأخيرة من الحرب. هذا، ومن المستحيل إثبات صحة ذلك الأمر ارتكانا إلى السجلات التاريخية. على أية حال، فإن انتهاء المطاف بهم فى تلك المعسكرات قد أفاد قلة منهم. وخلال مؤتمر "يالطا" - ١٩٤٥ - وافق كل من الاتحاد السوفييتى وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية على إعادة جميع المواطنين إلى أوطانهم. ولم يكن ثمة بأس، بل كان الأمر مستحسنا ... إذ يتوق البشر، فى معظمهم، إلى العودة إلى الوطن الأم. إلا أن الأمر قد مثل كارثة للمئات من الآلاف من المواطنين السوفييت الذين حاربوا ضمن الصفوف الألمانية ... إذ ذهب معظمهم، وبحق، إلى أنهم سيقتلون فى الحال، أو أنهم - إذا كانوا من سعداء الطالع - سيمضون آمادا طوالا داخل المعتقلات والمنافى السوفييتية جزاء خيانتهم للأوطان.

فحين وضعت الحرب أوزارها، سيق الجنود إلى "معسكرات انتقالية"، حيث تم إعادة معظمهم إلى أوطانهم. بيد أن أوروبا كانت فى حالة أقرب ما تكون إلى "الفوضى"، كذا فقد كانت ألمانيا غاصة بالمرحلين. والمرحلون هم مزيج من عمال "السخرة النازية"، وسجناء معسكرات الاعتقال النازى، والألمان الفارين من المذابح السوفييتية، والآلاف من المواطنين السوفييت الذين قاتلوا فى صفوف النازى وأفلتوا من معسكرات لاجئى الحرب. هذا، وقد قدر المسئولون الألمان والصليب الأحمر عدد المرحلين فى ألمانيا بثمانية ملايين مرحل بنهاية الحرب الكونية الثانية، ينتظر معظمهم العودة إلى بلدانهم. وفى غضون زمن وجيز، عمدت السلطات البريطانية والأمريكية إلى إرسال مليونين من أولئك المرحلين إلى الاتحاد السوفييتى وفقا لمقتضيات مؤتمر "يالطا" ومقرراته.

إلا أن القوات المحتلة قد عانت مأزقا. فللألمعى متوقد القريحة ذى الحظ الوافر، كانت فوضوية الموقف تعنى فرصة لبدء "حياة جديدة". وهنا، كان الجنود المسلمون هم الأوفر حظا. فعلى مدار أغلب فترات الحرب، ظلت تركيا على حيادها محتفظة بتمثيل دبلوماسى اعتيادى مع ألمانيا، وكذلك الأمر فيما يخص بعثات التبادل الأكاديمى. كذا، فقد أنشئ - آنذاك - اتحاد للطلاب الأتراك ممن كانوا يدرسون فى ألمانيا أثناء الحرب. ونظرا لغلبة النزعة الوطنية والقومية "الطورانية" على التوجهات الفكرية لأولئك الطلاب، فقد شددوا على حل يسير المأخذ لإنقاذ إخوانهم من ذوى الإثنية التركية ... ذلك الحل المتمثل فى الإعلان عن أن الجنود أتراك، وإمدادهم ببطاقات طلابية لتحقيق الشخصية وإثبات الهوية.

ولم تكن الفكرة بعيدة الاحتمال كما كانت تبدو ... إذ تأرجحت أعمار معظم أولئك الجنود فيما حول العشرين. فإذا كان لديهم ذهن حاضر يقظ، وعمدوا إلى إخفاء ملابسهم وأية أوراق دالة على التحاقهم بأسراب الدفاع والجيش الألمانى قبل

الدخول إلى معسكرات المرحلين ... فلن ينهض أدنى دليل على حقيقة هوياتهم أو طبيعة أعمالهم ونشاطاتهم. وبما أن "لسانهم الأم" هو لسان ذو لهجات تركية، فبقليل من الصقل يكون بمقدورهم ولوج المعسكرات كطلبة "أتراك".

أما اتحاد الطلاب الأتراك، فكان مقره "برلين" - إلا أنه، ومع ازدياد وقع القصف وثقل وطأته، انتقل الاتحاد إلى المدينة القروسطية "توبنغن" ذات الجامعة الشهيرة، حيث تقع المدينة جنوبى ألمانيا ما يجعل الطلبة على مقربة من معسكرات اللاجئين، وبخاصة فى القطاع الذى تحتله الولايات المتحدة الأمريكية. وما هى إلا أشهر قلائل حتى كانوا يصدرون "هويات تركية" بالجملة. وحرصا منهم على تضليل المسئولين المتشككين لإبعاد الشبهات عنهم، فقد زعموا أن بعض الطلبة ينتمون إلى "سينكيانغ"[٣٣] الصينية، وهى مقاطعة تقع غرب الصين تقطنها أقلية "تركية" كبيرة العدد.

إن "سينكيانغ" ستكون الموطن الجديد لغريب سلطان ... الذى أُرسل بعد انقضاء الحرب إلى أحد معسكرات المرحلين. وهناك ... منحه الطلبة "اسما جديدا"، وهو الاسم الذى ظل يحمله ويعرف به، "غريب"، وذلك عوضا عن "النسخة الروسية" من الاسم "غريف". ووفقا لسلطان: "لقد أضحينا ذوى إثنية تركية، إذ أعطيت هوية من "كاشغر"، وهو ما أسهم فى نجاتى".

تلك كانت خدعة وحيلة لجأ إليها العديد من نواب "فون منده" البارزين، من بينهم اثنان سيضطلعان بدور كبير فى أعقاب الحرب، وهما الناشط السياسى "ولى قيوم"، وضابط الاتصال "باى ميرزا هاييت". وقد قام الاثنان بقصدان تشيكوسلوفاكيا حيث استسلما للجيش الأمريكى هناك. تلا ذلك إرسالهما، فى الحال، ليتم استجوابهما من قبل "جهاز مكافحة التجسس" التابع للجيش الأمريكى.

هذا، وقد سعى اتحاد الطلاب الأتراك إلى التدخل لأن يكون ضامنا لهما، إلا أن الأمم المتحدة لم تُعِدْهما إلى وطنيهما.

أما "هاييت"، الذى أصبح - لاحقاً - مؤرخا للكفاح التحررى لآسيا الوسطى، فقد قدر أن ثمانمائة مسلم ينتمون إلى آسيا الوسطى قد أفلتوا من أن يمسك بهم، وذلك باعتماد حيل كتلك، فيما أوردت تقديرات أخرى أعدادا أكبر ... إذ ذهب أحد الكتاب الألمان، ويدعى "باتريك فون تسور مولن"، فى كتابه المعنون: "بين الصليب المعقوف والنجمة السوفييتية"، والصادر عام ١٩٧١ - إلى أنه، وخلال الخمسينيات، كان سبعمائة من الكالميك يحيون فى ألمانيا الغربية. وقد كانت أعداد الكالميك صغيرة، إذا ما قورنوا بجماعات إثنية أخرى. فإذا كان للمرء أن يستنتج باعتماد التناسب، وباستخدام أعدادهم ... فسيخلص إلى أن نحو عشرة آلاف سوفييتى من شتى التوجهات والإثنيات قد بقوا فى ألمانيا الغربية بعد انقضاء الحرب. وبالطبع، فإن هذا الرقم مغال فيه، إلا أنه يظل من الممكن القول ببقاء عدة آلاف هناك.

قد لا تكون آليات الحيلة والخداع التى اعتمدها الطلاب الأتراك قد أحرزت نجاحا - على نحو مطلق -- إلا أنه لم يكن ثمة حاجة إلى انتهاج حيل كتلك طويلا. ففى نهاية عام ١٩٤٥، كانت حركات العودة إلى الأوطان قد توقفت، وهو ما عمد إليه "أيزنهاور" بعد أن تعالت الانتقادات الذاهبة إلى أن الرجال كانوا يعادون إلى أوطانهم ليساقوا إلى الموت المحقق زمرا ... فحتى لو كانوا قد حاربوا فى صفوف النازى، فإن ذلك لم يكن ليجعلهم أسوأ حالا من ملايين الألمان ممن لم يساقوا إلى الموت زمرا. إذا، فلم تستهدف الأقليات الإثنية السوفييتية دون غيرها وترمى بعقوبات كتلك؟! لقد أضحى من غير المقبول، بل ومن المستحيل، تجاهل أوضاعهم البائسة خاصة بعد أن أقدم ٢٣٠ ضابط تركستانى، زج بهم فى معسكر خارج ميونيخ، على الانتحار ليلا قبل ساعات من ترحيلهم المزمع إلى الاتحاد السوفييتى

... فما كان منهم إلا أن صبوا وقودا على أجسادهم وأضرموا النيران فى أنفسهم. هذا، ولم ينج من تلك الجماعة سوى فرد وحيد تم ترحيله إلى العاصمة التركية، أنقرة، حيث توفى عام ١٩٥٠ .

وفى غضون عدة أشهر، اتخذت جهود إعادة الأقليات إلى أوطانها مسارا مغايرا، إذ أضحى حقا مقررا للجميع إبقاؤهم وتجنيدهم. هذا، وقد عمد جهاز مكافحة التجسس إلى إنقاذ الأمير الجورجى "ميخائيل الشيبايا"، أحد مسئولى الجهاز، حين نحاه أحدهم جانبا قائلا له إنه يجب أن ينتظر زيارة لفريق إعادة التوطين السوفييتى فى اليوم التالى، ثم أضاف مشددا: "لست ملزما أن تكون موجودا ساعتها" ... فهم "ميخائيل" الإشارة، ليرتحل إلى بعض التلال بشمال بافاريا حيث مكث أياما قلائل حتى رحيل الفريق السوفييتى عن المنطقة.

وقد أضحى إسداء العون شائعا آنذاك. فحتى فى عام ١٩٤٥، كانت وكالات الاستخبارات الغربية ما تزال متشككة بشأن النيات السوفييتية فى مرحلة ما بعد الحرب. وقد شرعت تلك الوكالات فى تجنيد عملاء (جواسيس) يمكنهم أن ينشطوا فى الاتحاد السوفييتى.

كذا، فقد أدلت المنظمات "الخيرية" بدلوها فى هذا المضمار. ومن الأمثلة على تلك المنظمات، "مؤسسة تولستوى" التى أنشئت كجماعة ثقافية لسوفييتى المنفى على يد ابنة الروائى الروسى الشهير[٣٤]. هذا، وقد سعت المؤسسة إلى مد يد العون للاجئين، فقامت بإرسال موظفين من لدنها إلى معسكرات المرحلين للتعرف إلى هويات الموجودين بها ومساعدتهم فى الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو فتح صفحة جديدة من حياتهم فى ألمانيا. إلا أن المؤسسة كانت تمارس بعض المهام الاستخباراتية، بل ربما تكون قد مُوِلت مباشرة من قبل وكالة الاستخبارات المركزية

الأمريكية. أما "نينا الشيبايا"، زوجة "ميخائيل"، الأمير الجورجى - فقد كانت تعمل لحساب مؤسسة تولستوى حيث ذكرت، فى لقاء جمعنى بها فى السادس عشر من آب/ أغسطس ٢٠٠٤ بميونيخ، أن المؤسسة كانت تنشط فى بعض الأعمال والمهام الاستخباراتية التى سربتها الوكالة إليها ... فكأنها تجنيد "من الباطن". واستطردت "نينا" لتقول: "لقد أجرينا بعض اللقاءات نيابة عن الوكالة حيث سألنا من أجريت معهم اللقاءات عن خلفياتهم، وأعمالهم ... وهلم جرا". وكان الهدف هو تجنيد الرجال لأغراض "العمليات السرية".

كان "غريب سلطان"، خلال عام ١٩٥٢، يبحث عن عمل له ... فهو الآن متزوج ولديه إقامة دائمة بألمانيا الغربية. إذا، ما عساه فاعل فيما تبقى له من العمر؟ إنه الآن فى التاسعة والعشرين حيث أنضجته الليالى إلى رجل وسيم قسيم ذى شعر أسود، وأنف رومانى معقوف. وكان "سلطان" وزوجته يفكران - آنذاك - فى الإنجاب. كذا، فقد انخرط "سلطان" فى مناهضة الشيوعية تحدوه رغبة فى الثأر ... إذ التحق، فى الأربعينيات، بالرابطة الاسكتلندية لتحرير أوروبا، وهى رابطة مدعومة من جهاز الاستخبارات البريطانى. وقد سعت الرابطة إلى حشد أفراد من الأقليات السوفييتية - كالتتر - بغية مجابهة الاتحاد السوفييتى، ما أفضى إلى منظمة كانت أطول عمرا هى "كتلة الأمم المناهضة للشيوعية". وكانت الرابطة والمنظمة - كلتاهما - صنيعتى الاستخبارات البريطانية ... حيث كانتا غاصتين بأفراد تعاونوا فيما قبل مع الأوستمنستريوم تحت قيادة "غرهارد فون منده". إذا، كان سلطان - ساعتها - باحثا عن عمل يتيح له "دخلا" حقيقيا، ويمكنه، فى الوقت ذاته، من الاستمرار فى مناهضة الشيوعية. ولقد وجد الرجل ضالته فى ... "راديو الحرية".

لقد كان أحد أسباب اختيار "سلطان" لراديو الحرية أنه كان يعرف - بالفعل -

كثيرا من العاملين به. وكانت محطة "الراديو" تعمل وفق نظام "الديسك"، حيث كان كل "ديسك" يختص بقومية معينة - القومية الروسية/ القوميات غير الروسية. أما مفهوم البرامج والتعليمات المنظمة لها فكان يتم إعداده فى نيويورك، بيد أنه كان لكل "ديسك" فى المحطة بميونيخ حرية انتقاء المواضيع المزمع تغطيتها بالتناول، وكذا حرية اختيار الأفراد الذين ستجرى معهم الأحاديث واللقاءات. ولم يكن ذلك الأمر مستغربا من قبل المذيعين. أما "ديسكات" القوميات غير الروسية، فقد سارت على النهج ذاته الذى اتبعته "اللجان القومية" بالأوستمنستريوم من قبل، وذلك فى مناح عديدة كتوظيف "عمالة" مشابهة، بل واستخدام مصطلحات "إثنية" استخدمها "النازى" من قبل - كأورال الفولغا للإشارة إلى التتر من إقليم نهر "الفولغا".

كان جل العاملين بالديسكات، قد عمل لدى الأوستمنستريوم سابقا. ففضلا عن "غريب سلطان"، كان هناك كبار موظفى الأوستمنستريوم المرموقين أمثال "أمان بردى مراد" و"ولى زنون" فى الديسك التركستانى، و"حسين إخران" فى الديسك الأوزبكى، والدكتور "إيديك مصطفى كيريمال" فى الديسك التترى، و"عبد الرحمن فاتالبايلى" فى الديسك الأذربيجانى[٣٥]. وبعد مرور عام من بداية عمل "راديو الحرية" والبث عبر الأثير، تخلف "فاتالبايلى" يوما عن العمل. وعقب تحريات من جانب الشرطة، وجدت جثته موثقة بحبل وممثلا بها وذلك فى شقة لأذربيجانى آخر هرب إلى ألمانيا الشرقية. وبجوار الجثة، كان ثمة لافتة كتب عليها: "خائنو الوطن الأم" فى إشارة إلى "فاتالبايلى" ... ومن ثم كانت لافتة تحذير لأمثالة ممن قد يقدمون على "خيانة الوطن". ولم يمض وقت طويل، إلا ووجدت جثة لأحد العاملين بديسك "روسيا البيضاء" غارقة فى نهر "الإيزار" ... على أن الشرطة لم تنجح فى كشف غموض الحادثين ودوافعهما، إلا أن موظفى "الراديو" افترضوا ضلوع السوفييت فى اقتراف كلا الحادثين.

غالباً ما يتم فحص المأجورين ممن يعملون لدى أجهزة الاستخبارات، وتجرى تحقيقات معهم وذلك للتأكد من أن سيرهم الذاتية لا تحوى أية شبهات أو فضائح، إلا أن هذا المنحى لم يؤخذ به فيما يخص "راديو الحرية" الذى استعان - على نحو كبير - بلاجئين كثر تعاونوا مع "النازية" إلى الحد الذى كان "الراديو" ليُغْلق بدونهم. ووفقا لتقرير ورد بمذكرة مؤرخة فى الثامن من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٨، فإن نسبة العاملين براديو الحرية ممن تعاملوا سلفا مع "النازى" قد تراوحت ما بين الـ ٧٥٪ والـ ٨٠٪.

هذا، وقد أورد "جيمس كريتشلو" فى مذكراته الواردة فى كتابه عن "راديو الحرية"أن "ثمة مشكلة لدينا فى الراديو، ألا وهى ميل العديد من جمهوره إلى اعتبار العاملين، من اللاجئين، على أنهم خائنون لأوطانهم الأم" ... مضيفا أنه وفقا للأمريكيين من جيلى، فإن العديد منا ممن خاضوا غمار الحرب الكونية الثانية ينظر ببعض البغض والامتعاض حين العمل مع أناس قد ارتدوا لباس الحرب الألمانى، بغض النظر عما كانوا قد اقترفوا جرائم حرب أم لا ... ومع ذلك، فثمة العديد من أولئك فى بناية "راديو الحرية" بأوبرفيزنفلد.

إلا أن سبيلا قد وُجد للتعامل مع تلك المشكلة. فغالبا ما كان يجلس الأمريكى إلى زميله (النازى سابقا) ليتحادثا، فيؤكد له زميله أنه لم يكن ثمة بد من خدمة "الرايخ"، أو يخبره على نحو أكثر صرحة، بأنه كان غضا غريرا ... فأولئك الذين تعاونوا، آنفا، مع النازيين لم يزعموا ألبتة أنهم قد صدقوا الدعاية النازية المعادية للسامية ... تلك الدعاية التى شاركوا فى صنعها أو غُذيت عقولهم بها. إذا ... فقد كان كل منهم ضحية بالفعل!! وعند هذا الحد من المحادثة يذهب المتحادثان لتناول مشروب أو آخر ... ليتم توطيد صداقتهما ثانية.

بيد أنه ومن الوجهة التاريخية ... فإن الأشباه والنظائر ما بين أمكومليب والأوستمنستريوم لتبدو صارخة جلية بما يكشف زيف الادعاء أو التملص من ماض نازى مشين ... فالجنود السوفييت العاملون براديو الحرية لم يكونوا مجرد جنود، أو حتى ضباط، التحقوا بالجيش الألمانى (النازى) أو "أسراب الدفاع" قنوطا واستيئاسا. لقد تم إعادة معظم جنود سلاح المشاة الذين خدموا "النازى" إلى أوطانهم ... أما أولئك الباقون، فقد تم زراعتهم من قبل "النازى" للعمل فى الأوستمنستريوم، ومن ثم أضحوا "صفوة سياسية". إذا ... فكثير من أمثال "غريب سلطان" قد عُهد إليهم بمسئولية "البروباغندا"، والتى انصرفت - فى الحقبة النازية - إلى جرعات "مكثفة" من الرطانة العنصرية واللهجة "المعادية للسامية".

إن تجنيد أناس كهؤلاء كان أكثر من مجرد "مأزق أخلاقى" ... فالسوفييت كانوا يعلمون خلفياتهم، فكانوا يتهمون العاملين براديو الحرية ليس فقط بأنهم عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية، بل متعاونون سبق وأن تعاملوا مع "النازى". لقد كانت الحكومة الروسية - وعلى نحو متواتر - تجبر العاملين براديو الحرية على العودة إلى موسكو عن طريق احتجاز البعض من أفراد عائلاتهم كرهائن - على سبيل المثال. ولكى يحصل هؤلاء العاملون السابقون على العفو، كان عليهم أن يدلوا بأسماء زملائهم السابقين ممن تعاونوا، فى السابق، مع النازى.

وبذا، فإن المسلمين العاملين براديو الحرية لم يكونوا ذوى فاعلية تذكر. فحين كانوا يُرسلون فى مهام دعائية مغطاة، كان يسهل - آنذاك - أن يلفظهم السوفييت ويشوهون سمعتهم كجواسيس نازيين. كذا، فقد كانوا يفتقرون إلى المصداقية "كمسلمين ملتزمين دينيا، إذ لم يكن لديهم تعليم دينى - لا فى الاتحاد السوفييتى ولا فى ألمانيا النازية" ... اللهم إلا لماما. وحين عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى

استخدامهم فى نشر "الدعاية"، ذهب النقاد إلى أن ماضيهم "النازى" قد عمل على نسف "أهليتهم" من الجذور ... كذا، فقد كان لفشلهم عواقب وخيمة وآثار جسيمة فيما يخص مستقبل "الإسلام" فى أوروبا ... فكان أن سعت الولايات المتحدة إلى البحث عن مسلمين أكثر مصداقية بين صفوف الجماعات الراديكالية.

قبل أن تشرع محطة "راديو الحرية" فى البث، قرر مسئولو أمكومليب أن البث لن تكون له "مصداقية" ما لم يتم بواسطة "اللاجئين" ... إذ سيعطى ذلك انطباعا بأن ائتلافا واسع النطاق قد تشكل فى وجه الاتحاد السوفييتى ... ائتلافاً يقوم ببث الأخبار صوب "الوطن". فوفقا لويليام كلمب، أحد العاملين بأمكومليب، فى حوار أجريته معه فى السابع عشر من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتى، فإن "هدفنا كان الإيحاء بأن أمكومليب تتشكل من جماعات اللاجئين، لا من عملاء لوكالة الاستخبارات المركزية ... وهذا هو السبب وراء الأهمية الكبرى التى نوليها لتلك الجماعات".

إلا أن "اللاجئين" لم يكونوا كتلة متجانسة ... إذ انقسموا وفقا لانتمائهم الإثنى – على وجه التقريب – إلى: "الروس" من جهة، و"غير الروس" من جهة أخرى. هذا، وقد تشكل ذلك الفريق الأخير من أوكرانيين وجورجيين وأرمن وتركستانيين، ... إلخ. وبغية تحقيق تناغم وائتلاف بين الفريقين، عمدت أمكومليب إلى إنشاء "مركز تنسيق" وذلك فى ميونيخ فى كانون الثانى/ يناير ١٩٥١، حيث تم إدراج جميع العاملين اللاجئين على لائحة مرتبات "المركز". إلا أنه، وعلى مدار عامين كاملين، ذهبت الجهود الأمريكية أدراج الرياح. لقد سعت أمكومليب إلى ترتيب "معادلة" ما – أى التوصل إلى نوع من الاتفاق الذى لم يفلح "النازى" فى تحقيقه ... فقد سعت بدأب كبير إلى جعل اللاجئين (من "الروس" و"غير الروس") يعملون معا، إلا أن جهودها قد باءت بالفشل، وخاب مسعاها فى هذا الصدد. ورغما عن تحكم

الأمريكيين فى ميزانية أمكومليب واستئثارهم بمقدرات "اللاجئين" المالية، إلا أنهم قد فشلوا فى تحقيق أدنى تقدم. فوفقا لأحد تقارير أمكومليب، صيغ الأمر كالتالى: "بغض الطرف عما إذا كان القياس أو التناظر المطروح هنا ليجد تبريرا أم لا، فإنه يبدو أننا نواجه - اليوم - المشكلات ذاتها وأنماط شخصية اللاجئين نفسها التى واجهتها الحكومة الألمانية بين عامى ١٩٤١ و١٩٤٥ أثناء حربها ضد الاتحاد السوفييتى".

فحين اعتلى "أيزنهاور" سدة الرئاسة، تلقى أحد كبار معاونيه خطابا مريرا من مسئول براديو الحرية ذكر فيه أن أمكومليب كانت "إخفاقا ذريعا وفشلا محققا"، إذ غرقت فى نزاعات مريبة وخلافات ملغزة ... فحتى وهى لم تشرع فى البث بعد كانت تغدق على اللاجئين بسخاء فى محاولة منها لتحجيم اختلافاتهم وتجاوزها. أما مسئولو أمكومليب، فقد حاولوا تبرئة ساحاتهم قائلين إنهم كانوا بحاجة إلى جبهة موحدة كيما يضفوا على "الراديو" المصداقية المطلوبة.

واستشعارا منها باليأس، استعانت أمكومليب بمسئول "مخضرم" بوزارة الخارجية الأمريكية هو "إسحاق باتش". وكان "باتش" قد عمل بموسكو وبراغ إلى أن قامت الحكومة الشيوعية هناك بطرده. هذا، وقد وصفه أحد معاصريه بأنه "طويل القامة، نحيل، داهية، ذو مظهر مخملى وسلوك مخاتل" ... إلا أن مهمة "باتش" كانت مستحيلة.

"إنهم المسلمون فى مواجهة السلافيين (الروس)" قالها "باتش" مستدعيا الذاكرة، ليستطرد: "إن المسلمين قد شعروا أن الروس ذوو نزعة شوفينية، إذ كان المسلمون يتوقون إلى الاستقلال، وكانوا يشددون على ذلك أملا فى نيل حرياتهم ... ولم يعنهم أمر (المشهد برمته)"، بمعنى مجابهة الشيوعية ... تلك التى كان يتوق

إليها الأمريكيون.

أما أمكومليب، فقد قامت بمحاولة أخيرة للتوصل إلى إجماع فى منتجع عند بحيرة "تيغر" إلى الجنوب من ميونيخ ... إلا أن الأمر كان كارثيا ... وهنا وردت فكرة جديدة إلى خاطر أحد المجتمعين: إذا كان الأمريكيون يواجهون المشاكل ذاتها التى واجهها الألمان منذ عقد مضى، يضحى من المستساغ أن يتم طلب مساعدة الألمان المنتمين إلى تلك الحقبة. لذا، فقد يمم "إسحاق باتش" ومسئولون آخرون من أمكومليب شطر "صديق" قديم للاستخبارات الأمريكية ... إنه "غرهارد فون منده".

فى الثانى من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤٤، أرسل مكتب الخدمات الاستراتيجية ... الكيان الذى جاءت "وكالة الاستخبارات المركزية" لتخلفه – عميلا اسمه الكودى "روبيرت" Ruppert إلى خطوط الجبهة الأمامية بالقرب من مدينة "جيرارميه" الفرنسية، حيث عُهد إليه بمهمة غير اعتيادية، ومن ثم تم إعداده وفقا لمتطلبات المهمة[٣٦]. لم تكن مهمة "روبيرت" القيام بتحريات ما، كآخر تهديد – مثلا – يكون الألمان قد احتفظوا به فى جعبتهم، بل كان هناك – بالمقابل – للتخطيط لحقبة ما بعد انقضاء الحرب، فكان تحفيز المسئولين النازيين المرموقين وحثهم على إنهاء خدمتهم هدفا محوريا من أهداف المهمة. إذا ... فعوضا عن حمل جهاز إرسال لاسلكى أو أية أداة لإرسال رسائل عاجلة، كان "روبيرت" ممن نفروا خفافا فلم يحمل معه الكثير، بل كان رفيقه فى الرحلة "رشوة" قدرها عشرة آلاف دولار أمريكى، منها "عملات" ذهبية خُبئت بداخل حذاءَيْه.

هذا، وقد قصد "روبيرت" برلين رأسا، حيث أمضى بها خمسة أشهر ونصف الشهر منتحلا صفة مسئول أمنى نازى حيث تبادل الأحاديث مع أعضاء من الحزب

"النازى". وفى أعقاب انتهاء مهمته، ارتحل "روبيرت" إلى سويسرا ... فلم يشهد أية مؤتمرات نازية للمقاومة ولم يقم بإغراء أى مسئول نازى رفيع كى ينشق ... بيد أنه قد عمد إلى تجنيد مجموعة أناس يمكنهم التأثير على مدرائه الأمريكيين: نازيين تواقين إلى مناهضة الاتحاد السوفييتى. وكان أبرز من قام "روبيرت" بتجنيدهم - "غرهارد فون منده"، الذى كان يحظى بتقدير استثنائى نظرا لإيمان الاستخبارات الأمريكية باحتفاظه بعلاقات وثيقة العرى مع وحدة الاستخبارات التابعة للجيش النازى.

وبعد أن ارتحل "روبيرت"، يمم "فون منده" قاصدا سويسرا. ففى سيرتها الذاتية "وتمضى الحياة" - تذكُر "كارولين اسبيزيت"، زوجة "فون منده"، أنه كان يأمل أن يلتقى "كارل ياكوب بوركهارت" - الدبلوماسى والمؤرخ السويسرى، ورئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر - لطلب مساعدته فى إنقاذ الجنود السوفييت الضالعين مع الأوستمنستريوم. ووفقا لسجلات "الصليب الأحمر"، فإن أحد رجال "فون منده"[٣٧] قد قدم - بالفعل - جنيف فى أواخر عام ١٩٤٤، وهو ما يتماشى مع أنشطة "روبيرت" فى برلين ... إلا أن سجلات "الصليب الأحمر" لم تورد أى لقاء ألبتة. هذا، وفى الوقت الذى وصل "فون منده" إلى الحدود السويسرية فى أيار/ مايو ١٩٤٥، كانت الحرب قاب قوسين أو أدنى من وضع أوزارها ... لذا، فقد أُرجع أدراجه، ليُرسَل هو وثلاثة من العاملين الجورجيين بالأوستمنستريوم إلى معسكر أمريكى للسجناء فى مدينة "هوكست" النمساوية.

وذاك هو الموضع الذى وجدتهم القوات الأمريكية فيه، حيث طلب الألمان - من فورهم - التحدث إلى أحد مسئولى "مكتب الخدمات الاستراتيجية" ... وبالفعل، فقد كانوا يتحدثون إلى أحدهم ... إن ذلك قد يكون اتُفِق عليه - مقدما - بواسطة "روبيرت". أما مسئول "مكتب الخدمات الاستراتيجية" فقد كتب فى تقريره: "إننى

على يقين أن المجموعة كانت تعلم أن مكتب الخدمات الاستراتيجية يهمه أمرهم. إن أفراد المجموعة يتمتعون بذكاء حاد وكياسة وتهذيب ... إنهم يتوقون كثيرا إلى التحدث ويتوقون كثيرا إلى العمل".

كانت تلك فاتحة لمغازلات كثيرة بين "غرهارد فون منده" والاستخبارات الأمريكية ... مغازلات ستمتد عبر الخمسة عشر عاما اللاحقة. آنذاك، كان هدف الولايات المتحدة التحكم فى شبكة "فون منده" للاجئين. فمن وجهة النظر الأمريكية، يمكن أن يتم الاستعانة بأولئك اللاجئين فى عمليات لاختراق الاتحاد السوفييتى. هذا، وقد أرسل "فون منده" ورجاله إلى إحدى ضواحى "فرانكفورت" حيث قامت وحدة مكافحة التجسس التابعة لمكتب الخدمات الاستراتيجية بتناول الحالة. وكان "فون منده" يكتب - آنذاك - لأيام بلا انقطاع ... فقد قام هو والجورجيون الثلاثة بتحبير ثلاثة وعشرين تقريرا تناولت، فيما تناولته، آراء بشأن الأوضاع فى الاتحاد السوفييتى، ودور الأقليات هناك، وطرائق التلقين العقائدى للنازية، إلى جانب وصف تفصيلى لوزارات "برلين" المتعددة.

وقد استشعر مسئولو وحدة مكافحة التجسس انطباعا قويا لم يخل من بعض شكوك. إذ بدا "فون منده" رجلا شديد الطموح ... رجلا ذا "أجندة" خاصة به - أجندة عنوانها "مناهضة الشيوعية" مناهضة تصل إلى حد الهوس. على أن الأمريكيين قد شاطروه مناهضة الشيوعية، بيد أنهم كانوا يدركون أن "النازى" قد أخفق إخفاقا مدويا فى "الشرق". وقد زعم "فون منده" أنه مختلف، إذ وجه انتقادات إلى كبار رجال الأوستمنستريوم، إلا أن الداعمين الأمريكيين كانوا فى شك من ذلك مريب. فقد ذهب مسئولو "مكتب الخدمات الاستراتيجية" إلى وصف "فون منده" بأنه صلف متقلب المزاج يبلغ ١٧٣ سم طولا ويزن ٦٤ كيلو غرام، هزيل نحيل أشقر ذو عينين زرقاوين وبشرة بيضاء ... يحوى فكه السفلى سناً بارزة

ناتئة إلى الأمام على نحو ملحوظ ... كذا، فهو مهذب يوحى مظهره بكونه أصغر سنا من عمره الحقيقى ... متوقد الذكاء تبدو عليه مخايل القيادة وأماراتها.

وفى وصف آخر، صور "فون منده" على "أنه، بلا ريب، رجل ذو ذكاء خارق ولغوى محنك عالى الكعب ... يصعب وصفه بكونه يحافظ على أمانته ونزاهته إلى أقصى حد". وفيما لا يوجد شك فى إمكانية أن يعمل "فون منده" لمصلحة الأمريكيين، فإنه لا يوجد شك - بالمثل - فى إمكانية ألا يكون موضعا للثقة، إلا إذا ارتضى الأمريكيون بإغضاء الطرف عن أيديولوجيته ونهجه فى تناول قضية الاتحاد السوفييتى".

على أن القائمين باستجوابه قد صدقوا - أو على أقل تقدير كانوا يغضون الطرف عما قاله من أنه لم يكن قط "نازيا حقيقيا" ... إذ لم يقبل ألبتة أن يكون عضوا بكتيبة العاصفة، لذا فقد أطلق سراحه مع شهادة تثبت عدم التحاقه بأى حزب ذى صلة بالنازى أو أية منظمة سياسية لها صلة به ... شهادة تثبت أنه دائما ما كان يعارض سياسة "النازى" الخارجية. وعقب إطلاق سراحه، قفل "فون منده" ميمما بيته ليبدأ مرحلة جديدة من حياته كناشط استخباراتى "تحت الطلب".

"لدى زوجى رجال كانوا يعملون معه أثناء الحرب ... رجال خبراء فى كثير من قضايا أوروبا الشرقية. وتضم تلك المجموعة بعض الألمان، معظمهم ألمان ذوو إثنية بالطيقية" ... تلك الكلمات جاءت كمستهل خطاب مطول كتبته "كارولين اسبيزيت" فى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤٥ حكاية عن زوجها. إن الإنكليزية التى كتب بها الخطاب قد لا تكون متقنة تماما، إلا أن المعانى الواردة كانت غاية فى الوضوح: فغرهارد فون منده قد عمد إلى حشد الزعامات الألمانية-البالطقية القديمة التى عملت معه فى الأوستمنستريوم، تطلعا منه إلى سبل للعمل. وفى موضع لاحق

بالخطاب المذكور – الذى كتب باستخدام آلة كاتبة – كتبت "كارولين" أن العديد من اللاجئين بإمكانهم المساعدة، فالمجموعة يمكن أن تتقولب فى كيان للبحث العلمى. ووفقا لنص الخطاب، فإن "التعاون يمكن أن يتم بداخل معهد أكاديمى يكون فى حوزة الإمبراطورية البريطانية".

كان الخطاب واحدا من عدة خطابات كتبها كل من "فون منده" وزوجته بعد عودته من معسكر "الاستجواب" الأمريكى. وكان "فون منده" محظوظا إذ وجد عائلته فى أمان داخل القطاع "الغربى" المحتل. فحين انقضت الحرب، كانت العائلة تحيا فى الشمال من برلين فى مدينة هى موطن "هاينتس أونغلاوبه" – موظف الأوستمنستريوم المسئول عن الملف "التترى". إلا أنه حين توغل "الجيش الأحمر" داخل الأراضى الألمانية، أعد "فون منده" الترتيبات لارتحال العائلة غربا صوب الخطوط البريطانية.

وحين التأم شمل العائلة، كان على "فون منده" اتخاذ القرار بما عساه يفعل لإصابة الرزق. أما جامعة "برلين" فقد كانت فى قبضة السوفييت ... وأما الأوستمنستريوم فأضحى أثرا بعد عين، إلا أن "فون منده" كان شغوفا بالتعليم. ففى خطاباته، حذر "فون منده" مسئولى "الحلفاء" من أنه حين تُهجر "النازية" إثر سقوطها، سيضحى النشء الألمانى عرضة للأيديولوجية التى طبَقت الآفاق ... الشيوعية. لذا، فقد اقترح ضربا من تعليم النشء والشبيبة يمكنه بالتعاون مع رجاله أن يديروا مشروعه ... بل لقد كتب خطابا إلى المؤرخ البريطانى الشهير "أرنولد توينبى" ملتمسا المساعدة ... إلا أن التماسه هذا قد ذهب أدراج الرياح.

لم تبد "الأكاديميا" سبيلا واعدا ... فقد أنجز "فون منده" بعض الأعمال – لفترة وجيزة – فى إحدى الجامعات بعد انقضاء الحرب مباشرة، إلا أنه لم يمنح منصبا

دائما بها ... ولكن، ما السبب؟! تبدو الإجابة محالة. آنذاك ... كان يتم الاستعانة بالكثير من ذوى الخلفيات "النازية" ... إلا أنه أيا ما كان الانطباع الذى تركه "فون منده" لدى مكتب الخدمات الاستراتيجية، فإن مشواره الوظيفى كان مرتبطا تماما بالنازى. فحتى قبل التحاقه بالعمل لدى الأوستمنستريوم، كان الرجل شديد التحمس للنازية، ليس بالمعنى الضيق فى كونه عضوا نظاميا بالحزب، بل بمعنى سعيه إلى التقيد ببرنامج الحزب وتبنى أيديولوجيته. هذا، وقد عمد "فون منده" إلى تسطير بعض الكتابات المعادية للسامية، كذا فقد شارك فى "الدجل" الأكاديمى حول تعريف "اليهودى الحق"!! أما عائلته، فقد ذكرت أنه كان شغوفا بالسياسة ... ولعل الأقرب إلى الدقة القول بأن نشاطه السياسى قد أدى إلى تقويض مستقبله الأكاديمى.

على أية حال، فسرعان ما اتصل "فون منده" اتصالا مباشرا بالبريطانيين ... إذ أرسل فى الحادى والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٥ خطابا إلى لواء يحمل اسم "موريسون" عرض فيه شكايته بتعرض العاملين فى الأوستمنستريوم إلى تفرقة واضطهاد. وفى نهاية خطابه المطول ذى الصفحات الست، والذى أثنى فيه على زملائه السابقين واصفا إياهم "بالأوربيين الذين يقدحون أذهانهم ويعملون تفكيرهم" ... أرفق "فون منده" كنزا ثمينا أشبه بمنجم ذهب نفيس: لائحة بأفراد شبكته فى الأوستمنستريوم. وكانت تلك اللائحة تضم أسماء "ولى قيوم خان" و"ميخائيل الشيبايا"، وكثير آخرين، كان معظمهم ما يزال عالقا، آنذاك، فى معسكرات الحلفاء للاستجواب.

إن المعلومات التى وردت بخطاب "فون منده" لابد وأنها قد لاقت اهتماما كبيرا من قبل البريطانيين. فكثير من الرجال الذين أورد أسماءهم فى خطابه كانوا ينتمون إلى حركة "بروميثيوس" – جماعة اللاجئين التى عارضت السوفييت. وكان

البريطانيون قد ساورهم القلق، آنذاك، من أن يقوم السوفييت والنازيون بتشكيل تحالف فيما بينهم، إلى حد أن فكر البريطانيون فى إنزال بعض أفراد "بروميثيوس" مظليا فى الأراضى القوقازية لقصف المنشآت النفطية السوفييتية كيما يتم حرمان الألمان من البترول. وقد كان الإقليم،آنذاك، لا يزال يحظى بأهمية استراتيجية كبرى، أما "فون منده" فكان يعرف "اللاجئين" بأكثر كثيراً مما يعرفهم من عداه.

وبحلول عام ١٩٤٦، كان "فون منده" وعائلته يحيون فى رغد من العيش وبحبوحة. ففيما كان ألمان كثر يتضورون، كان الرجل يمتلك عربة، وكانت عائلته تملك جوادا وبيتا وخادمة ... كل ذلك من دون مصدر"رسمى" للدخل. أما فى بدايات عام ١٩٤٦، فكان "فون منده" قد عمد إلى نشر "عملياته" داخل القطاع "المحتل" من قبل الولايات المتحدة. فوفقا لتقرير أمريكى من تقارير مكافحة التجسس لعام ١٩٤٧، فقد يمم "فون منده" جنوبا قاصدا ميونيخ لزيارة الأمير الجورجى "ميخائيل الشيبايا"، زميله القديم فى الأوستمنستريوم - وكان ذلك، على الأرجح، لتجنيده للعمل لحساب البريطانيين. هذا، وقد اتجه "الشيبايا" شمالا قاصدا "هامبورغ" - فى وقت لاحق من العام ذاته ليحضر معه أربعمائة "سيكارة" مستوردة، وثلاث زجاجات من "الكونياك"، وبعضا من الشوكولا، وثلاثة صناديق من "السيكار" ... وذلك لبيعها جميعا فى "السوق السوداء" لتغطية نمط إنفاقه "الترفى" وأسلوب معيشته الباذخ حيث امتلك سيارة وكان يخادن عشيقة.

أما فى نهاية الأربعينيات، فقد قررت وكالة الاستخبارات المركزية - المنشأة حديثا آنذاك - أن تجرى تقييما آخر لفون منده ... حيث أعطى اسما كوديا - "الماعزى" ... تلا ذلك أن استُدعى لميونيخ لإجراء محادثات مطولة معه. وقد عمدت الوكالة إلى أن تمنحه الجامعة فى ميونيخ وظيفة حيث أبدى "فون منده" توقا للعمل لحساب الوكالة الأكثر غنى والأوفر ثراء.

وفي غضون ذلك، كانت الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا حريصتين على استخدام اللاجئين فى تنفيذ "عمليات مغطاة" لهما داخل الاتحاد السوفييتى. لقد كانت الحقبة ما تزال حقبة "الهجوم الاستباقى" ... تلك السياسة الأكثر مضاء من نقيضتها "الاحتوائية". فسياسة "الهجوم الاستباقى" تعلى من شأن المناورات والمغامرات، تلك التى على شاكلة العملية "تسيبلن" Zeppelin النازية الشهيرة فى عام ١٩٤٢، حين تم إنزال بعض اللاجئين التابعين لفون منده – مظليا – وبحوزتهم أجهزة "راديو" وخرائط، وذلك داخل أراضى الاتحاد السوفييتى ... وكانت مهمة أولئك النفر استكشاف الأراضى التى أهبطوا فيها، وتقدير إمكانية القيام بعمليات تخريبية أو اعتماد تنظيم سياسى. وفى بعض الأحايين، كللت تلك الغزوات بنجاح، إلا أنها قد آلت إلى عواقب كارثية وخيمة، حين كان يتم القبض على أولئك العملاء السريين حيثما يهبطون. إلا أنهم كانوا – من وجهة نظر وكالات استخبارات الحلفاء عند مطلع "الحرب الباردة" – يبدون كأنهم حل سريع للغياب شبه التام لأى عملاء للغرب داخل أراضى الاتحاد السوفييتى.

أما "فون منده"، فقد كان يدرك أن تلك الأنشطة غالبا ما تئول إلى فشل محقق. لذا، كان يفضل نهجا مغايرا: تجميع المعلومات والانخراط فى "العمليات المغطاة" ... أما الأمريكيون فلم يكونوا على القدر ذاته من الحماسة، لذا فقد تم تنحية الأمر جانبا ... إلى حين.

فى عام ١٩٤٩، تم تشكيل ألمانيا الغربية عن طريق دمج قطاعات ثلاثة كانت خاضعة للاحتلال الأمريكى والبريطانى والفرنسى فى أعقاب انقضاء الحرب الكونية الثانية. هذا، ولم تكن ألمانيا الغربية ذات سيادة تامة – إذ ظلت البلدان الثلاثة تنشر أعدادا كبيرة من قواتها فى أراضى ألمانيا الغربية، كذا فقد كانت سياستها الخارجية مطوقة تأتمر – فى الأساس – بأهداف الولايات المتحدة ومآربها. ومع

السعى البطىء المفضى إلى أن أضحت ألمانيا الغربية دولة "مستقلة"!!، إلا أن "فون منده" قد تمكن - على نحو بطىء - من تحرير نفسه من العمل لمصلحة "الأجانب" ... إذ شرع فى حشد وكالات ومكاتب بحكومة ألمانيا الغربية يمكن أن تجزل له العطاء كى تؤتى رؤيته أكلها ... تلك الرؤية التى تمثلت فى إحياء أكبر جانب ممكن من الأوستمنستريوم - بإعادة توظيف أولئك الزملاء القدامى ممن لم يستعن بهم الأمريكيون، وقيام الألمان بإعطائهم بعض أموال كفاء "مجهوداتهم". وبمضى الوقت، صار "فون منده" يتم توظيفه - مباشرة - من قبل ألمانيا الغربية.

ولربما كان "فون منده" مدفوعا بحافز إنسانى خيرى - توفير العمل لأجانب فقراء معوزين قد هاجروا بعيدا من ديارهم. إلا أنه وكما الحال دائما مع "فون منده"، فإن "خيريته"!! لا يمكن فصلها عن طموحاته، بل وانتهازيته. لقد كان الرجل يحب الأقليات السوفييتية التى بادلته حبا بحب - كذا، فقد كان الطرفان يتشاطران الحاجة إلى بعضهما البعض. وبمثل ما كان فى الأوستمنستريوم من قبل، أضحى "فون منده " إما نصيرهم المنافح عنهم الذاب عن مصالحهم، وإما كونه اعتبرهم "دمى" جعلها ألعوبة، كعرائس الماريونيت، تحركها يداه أنى شاء. هذا، ويرتكن ما سبق إلى منظور تقييم "فون منده" من جهة الخيرية. أما زملاؤه القدامى فى الأوستمنستريوم، فقد امتدحوه وأثنوا على استخدامه لنفوذه لمد يد العون إلى من كان محتاجا إليها. وقد كتب "فون منده" سلسلة مما تعارف الألمان على تسميته "مستندات برزيل" Persilschein، و"برزيل" هو منظف الملابس الألمانى الأكثر شهرة: إذا ... فخطاب يرد من "الشخص المناسب" حقيق به أن يمحو أية "بقع" نازية، وإن استعصت. كذا، فقد ساعد "فون منده" أفراد الأقليات السوفييتية فى الحصول على فرص تعليمية. وقد قام بالتدريس لغريب سلطان الذى كان يدرس الحقوق - آنذاك - فى جامعة "هامبورغ". "لقد مد فون منده يد العون إلى الكثير من أفراد اللجان

القومية" ... وهو ما أورده "سلطان" مستطردا: "نحن مدينون له بالفضل وممتنون كثيراً لأياديه البيضاء علينا".

بعد التحاق "غريب سلطان" بأمكومليب، ارتكن "فون منده" بشدة إلى اثنين من اللاجئين: "باى ميرزا هاييت" و"ولى قيوم خان". أما "هاييت"، فكان همزة الوصل فيما بين اللجان القومية بالأوستمنستريوم وبين الجيش الألمانى ... متسلحا فى ذلك بحسن الأحدوثة عن كونه رجلا مستقيما وعسكريا منضبطا. فبعد انقضاء الحرب الكونية الثانية، أضحى "هاييت" أهم زملاء "فون منده"، حيث استعان به "فون منده" لجمع بيانات عن اللاجئين، فضلا عن كتابة بعض النشرات. كذا، فسيرسله "فون منده" - لاحقا - إلى خارج البلاد فى "عمليات مغطاة". هذا، وقد تقاسم كلا الرجلين أواصر صداقة حميمة.

وفى خطاب بتاريخ الرابع والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٥٧، كتب "هاييت" إلى "فون منده": "لولا وجودك ... لكان مقامى فى ألمانيا ليشبه جزيرة فى بحر ميت"، ورد ذلك حين كان "هاييت" فى رحلة إلى العاصمة البريطانية لندن. إن خطابات "هاييت" ومكاتباته، والتى غالبا ما كانت لتستعصى على القراءة لرداءة الخط الذى كتبت به ... ذلك الذى كان ينساب على هيئة موجات على امتداد الخطاب أو غيره - كانت حافلة - على الدوام - بأسئلة سطحية تافهة عن "صحة فون منده وزوجته وأولاده. ورغما عن أن "فون منده" لم يكن، أبدا، حنونا أو رفيقا شفوقا بمثل ما كان "هاييت" ... إلا أن جهوده الدءوبة فيما يتعلق بهاييت تبدو واضحة جلية. وعلى الرغم من سنوات طوال أمضاها "هاييت" فى ألمانيا، إلا أن "ألمانيته" كانت ركيكة على الدوام، وكان "فون منده" هو الذى يكتب له الأوراق، بل وحتى مذكراته الخاصة وخاطراته ... وبذا يحول نثر "هاييت" الجاف العسر إلى أبدع "المكاتبات الديوانية" وأسلسها، أو "النثر الأكاديمى المحافظ".

كان "هاييت" دائم الشغف بالتاريخ مولعا به ... وقد عاونه "فون منده" – فى أعقاب انقضاء الحرب – فى الحصول على درجة الدكتوراه من جامعة "مونستر"، وكتابة عدة كتب عن تاريخ "تركستان". وفى عام ١٩٥٦، أصدر "هاييت" كتابه "تركستان فى القرن العشرين"، والذى كتبت عنه مراجعات فى "الدوريات الأكاديمية" حيث اعتبر رؤية هامة، وإن ظلت غير موضوعية، لصراعات الإقليم ضد روسيا. وعلى امتداد سنى حياته، واصل "هاييت" إصداره لكتب تناولت "تركستان" بغزارة.

فى أثناء الحرب الكونية الثانية، وكذا بعد أن وضعت تلك الحرب أوزارها – لم يكن "ولى قيوم خان" على القدر ذاته من الجاذبية. ففى أعقاب الحرب، قام الرجل بإعادة بناء لجنته القومية بالأوستمنستريوم، حيث أطلق عليها اسم "لجنة الوحدة القومية التركستانية"، ليلتحق بها معظم الرجال البارزين من "آسيا الوسطى" ممن كانوا يعملون لحساب "فون منده". إلا أن ماضى "ولى قيوم" النازى قد لطخ سمعته. ففى عام ١٩٥١، نشرت مجلة New Leader الأمريكية ذات الاتجاه اليسارى مقالة من جزءين تحت عنوان "حلفاء لا نريدهم"، والتى أبرزت بدقة كيف أن اللاجئين الذين سبق لهم التعاون مع النازى – يترأسون مجموعات مدعومة من قبل الحلفاء السابقين. أما الجزء الأول، بتاريخ الثالث من أيلول/ سبتمبر ١٩٥١، فقد عمد إلى نقد "التحالف القومى للتضامنيين الروس" لتحالفه مع الأوستمنستريوم وترويجه لمعادة السامية[٣٨]. أما الجزء الثانى، بتاريخ العاشر من الشهر ذاته، فقد كان تحديا مباشرا وصريحا لمكايد وكالات الاستخبارات الغربية وحيلها فى ألمانيا الغربية ... كذا، فقد أُدرِجت، فى ذلك الجزء من المقالة – صورة لألفريد روزنبرغ – رئيس الأوستمنستريوم، مصحوبة بتعليق يقول: "إن ذكراه لباقية"، فضلا عن تحليل لكتلة الأمم المناهضة للشيوعية. هذا، وقد نددت "المقالة" بكتلة الأمم المناهضة للشيوعية

لتصريحاتها العنصرية المعادية لما هو روسى (فوفقا لإحدى الأوراق الصادرة عن "الكتلة"، فإن الروس لم يكن بمقدورهم أبدا تشكيل ضرب مجتمعى جدير بأن يضم آدميين)، بالإضافة إلى تقريع أذناب الأوستمنستريوم ... الذين عملوا به فى السابق، ثم التحقوا بتلك "الكتلة"، ومنهم "ولى قيوم خان" - نائب الرئيس، و"فلاديمير غلاسكوف" - مبتكر "أمة القوزاق"، وعميل العديد من أجهزة الاستخبارات، و"عبد الرحمن فاتالبايلى" - الرفيق الحميم للشيخ أمين الحسينى. وعقب صدور المقالة، أرسل "فون منده" - من فوره - خطابا فى التاسع والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥١ إلى "ياروسلاف ستيتسكو" - رئيس "كتلة الأمم المناهضة للشيوعية"، والذى شغل منصب رئيس وزراء أوكرانيا فى السابق - سائلا إياه ما إذا كان يرى وجوب قيام "ولى قيوم" بالرد. كذا، فقد وبخ "فون منده" الكتلة لاستخدامها "لهجة ملتهبة"، إذ ذهب إلى ضرورة "أن تكون مجلة New Leader قد تحصلت على معلومات كتلك بواسطة "فرد" قد عمل لمصلحة الاستخبارات الأمريكية". على أن هذا الزعم يمكن للمرء أن يصدقه نظرا لأن أمكومليب من جهة، و"فون منده" من جهة أخرى كانا يتنافسان لاستقطاب الرجال أنفسهم، وذلك لتعيينهم فى مناصب فى الأوستمنستريوم بعد إحيائه من جديد.

هذا، وقد كان "فون منده" يغضب كثيرا من "ولى قيوم خان" بسبب حماقاته وسلوكه الأرعن، وكذا بسبب نهمه للمال ... ذلك النهم الذى لا يشبع أبدا ... ومع ذلك، فقد ظل وفيا للعهد معه، وكان يمنحه ٣,٦٠٠ مارك ألمانى كراتب سنوى. أما المهمة الوحيدة التى كان "ولى قيوم" مكلفا بها، فكانت إرسال بعض من شذرات للنميمة عن اللاجئين إلى "فون منده". فإذا ما تناولنا المستندات والوثائق التى كانت ما تزال محفوظة بمكاتب "فون منده"، لوجدنا أن "ولى قيوم" لم يكتب قط أية تقارير جدية ولا أية تحليلات مسئولة رصينة. علاوة على ذلك، سعى "فون منده" لتقديم

العون المالى لصحيفة "ولى قيوم" - والمسماة "مللى تركستان"، أى تركستان الوطن ... كفاء خدماته السابقة لألمانيا. وهنا يجد المرء نفسه مدفوعا إلى افتراض أن ذلك يحيل إلى عمله مع الأوستمنستريوم.

أما من توج فريق "فون منده"، فكان ألمانيا يدعى "فالتر شينك"، والذى عمل نائبا لفون منده. على أن "شينك" لم يعمل فى الأوستمنستريوم، بل تعرف "فون منده" إليه أثناء الحرب الكونية الثانية، حين كان "شينك" يترأس مكتب الأمن النازى فى "ليمبرغ"، حيث كان الديسك IIIB واحدا من مهامه ومسئولياته ... ذلك الديسك الذى أشرف على البولنديين والأوكرانيين واليهود. أما "ليمبرغ" (والتى عرفت فيما بين الحربين الكونيتين باسمها البولندى "لفوف"، وتعرف اليوم باسمها الأوكرانى "لفيف"[٣٩])، فكانت - آنذاك - واقعة شرقى بولندا، بما يعنى أن "فالتر شينك" كان فى بؤرة "الهولوكوست". لقد ترك "شينك" الجامعة للانضمام إلى صفوف النازى ... الأمر الذى جعل الطلب عليه لتوظيفه أقل من الطلب على "فون منده"، وذلك بعد انقضاء الحرب. وقد أمضى "شينك" أوقاتا طويلة فى مساعدة "فون منده" كى يصمم منظمته "البازغة".

وكما كان ديدن نظرائه فى أمكومليب، كان "فون منده" يغير اسم مكتبه على نحو مستمر إلى أن توصل إلى اسم ملائم. وفى النهاية، خلص "فون منده" إلى اسم "مزدوج": "مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية"، و"مكتب الأجانب بلا وطن". هذا، وقد زعم الرجل أن مكتب "الأجانب بلا وطن" هو لمساعدة "أولئك ممن لا وطن لهم"!! إذ يواجهون مشاكل عديدة. أما "مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية"، فكان مركز أبحاث شبه أكاديمى للوكالات الحكومية، والتى تكون بحاجة إلى معلومات وبيانات. وفى محاولته لتوطيد أركانه وترسيخ أقدامه، عمد "فون منده" إلى التنقل فى المناطق الريفية والعمل فى مدن صغيرة فى القطاع البريطانى من

ألمانيا: "ديتمولد"[٤٠]، و"أولتسن"[٤١]، و"براكفيده"[٤٢] ... ثم استقر به المقام فى "دوسلدورف"، والتى أصبحت مركزا لجهود "ألمانيا الغربية" بشأن استخدام "الأقليات السوفييتية"، وجهودها – فى وقت لاحق – فى استخدام "الإسلام".

لقد كانت "دوسلدورف" – تلك المدينة الساحرة على نهر "الراين" – قاطرة النمو الاقتصادى لألمانيا الغربية. وتقع المدينة بولاية شمال الراين/ فستفاليا بالقرب من مدينة "كولونيا". وقد ذاع صيت "دوسلدورف"، تلك المدينة القديمة، وازدادت شهرتها حين أضحى وادى "الرور" المتاخم، خلال القرن التاسع عشر، مركز التصنيع فى القارة الأوروبية حيث المناجم التى تكسوها العوادم، وحيث مدائن التعدين. وكانت "دوسلدورف" المدخل لوادى الرور ... "دوسلدورف"، مركز المصارف ومهوى الأناقة وبؤرة التجارة.

وكان مكتب "فون منده" مكتبا كبيرا يقع قبالة نهر الراين ... الذى لا يشبه –فى هذا الموقع– منبعه الذى يقصده السائحون، ذلك المنبع الذى تصطف على ضفتيه مبان أشبه بقلاع القرون الوسطى، وتتناثر حوله قرى صغيرة بحدائق ذات بهجة. أما هنا ... فالنهر منبسط وعميق ... مجرى مائى تجارى غاص ببوارج عملاقة ومراكب لنقل البضاعة، فضلا عن مراكب صغيرة تذرع الطريق إلى "الرور" جيئة وذهابا ... وقد حجب "فون منده" عن الأنظار مَرسى نهر كبير اصطفت على جانبيه بعض أشجار الكستناء. ومن نافذته، يستطيع "فون منده" رؤية الأشجار ومضمار للخيل يقع خلفه حقل شاسع ترصعه أشجار "الزيزفون" وبعض شجيرات تصل إلى مشارف النهر.

أما مكاتب "فون منده"، فكانت ممولة من قبل العديد من وكالات التمويل بألمانيا الغربية، والتى انصب اهتمام حكومتها على رعاية نحو ٢٢٠٠٠٠ أجنبى بلا مأوى

خلفوا داخل البلاد جراء الحرب الكونية الثانية. وفى البدء، تدفقت الأموال من "المكتب الاتحادى لحماية الدستور"، وهو "جهاز أمن الدولة" فى ألمانيا الغربية ... إذ كان الهدف تتبع "المتطرفين". ثم تلا ذلك، قيام المكتب الاتحادى ببافاريا بمنح "فون منده" خمسة آلاف مارك ألمانى شهريا لكى يكون "عينها" فى مراقبة اللاجئين فى ميونيخ، فأطلقت على مكاتبه لفظة "مكاتبنا الشمالية" ... تلك المكاتب التى أسند إليها تقدير حجم اللاجئين بميونيخ. كذا، فقد أسهمت وزارة الخارجية الألمانية فى دعمه بالأموال، وقام هو بالتعاون الوثيق مع وزارة اللاجئين بألمانيا الغربية. وكان مكتب "فون منده" الاستخباراتى يقع فى الطابق الأرضى، فيما قطنت عائلته فى "شقة" رحيبة بالطابق الذى يعلوه، وهو ما أتاح له بعض الوقت تمكن خلاله من رؤية عائلته ... أما زوجته "كارولين اسبيزيت"، فقد أتاح لها هذا الوضع أن تمد يد العون فيما يخص شئون المكتب المختلفة.

وبمثل ما كانت الحال سلفا، عمدت "كارولين" إلى مساعدة زوجها فى كتابة خطابات بالإنكليزية ... الإنكليزية، تلك اللغة وذلك اللسان الذى صار له ذيوع عالمى. فبالرغم من إلمامه بلغات مختلفة، لم يستشعر "فون منده" الثقة فى "إنكليزيته" فاعتمد على زوجته للتواصل مع العالم الخارجى. ويا لها من مصادفة ... تلك الخاصة بفون منده، ذلك اللغوى الموهوب والألسنى الفذ، والمتمثلة فى أن تطوره الثقافى كان وكأنه قد توقف حين التحق بالنازى. وفيما يخص العديد من زائريه، فإن قصور "فون منده" اللغوى لم يكن مشكلة على الإطلاق ... وكان من بين زائريه المتواترين مسئولون من أمكومليب يتقنون الألمانية ويتحدثونها بطلاقة. وكان أحد تلكم اللقاءات قد عقد فى أيار/ مايو ١٩٥٤ حين كان "إسحاق باتش" - المنسق السياسى لأمكومليب - يتحرق لحل مشكلة الأقليات المنطوية نفوسهم على الضغينة ... وقد حضر اللقاء، أيضا، "روبرت فرانسيس كيللى" - وهو دبلوماسى أمريكى

متقاعد اضطلع بعمليات "أمكومليب" فى ميونيخ كمحطة أخيرة لقطار مشواره الوظيفى، فضلا عن حضور الدكتور "ويليام باليس" - أستاذ العلوم السياسية والملحق العسكرى البحرى فى السفارة الأمريكية فى موسكو خلال الحرب الكونية الثانية، ومدير "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى" ... ذلك المعهد الذى يعد إحدى جبهات "أمكومليب" فى ميونيخ.

لقد قام "باتش" و"كيللى" بإخبار "فون منده" عن خيبة أملهما لعجزهما عن بناء جبهة موحدة تضم كلا من "الروس"، و"غير الروس". ففى توثيقه للقاء، أدرج "فون منده" تعقيبا ذكر فيه أنه "كان يعلم بأمر تلك المشاكل مسبقا بفضل أحد الرجال الثقاة فى ميونيخ - رجل من "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى" يرسل التقارير إليه.

أما "باتش"، فقد سأل "فون منده" النصيحة، فكان رده أن "راديو الحرية" يجب أن يكون أكثر فاعلية وأمضى أثرا. واستطرد "فون منده" قائلا إن "الراديو" به "ديسكات" يمثل كل واحد منها إحدى "القوميات" الرئيسية. كذا، فقد كانت تقع على "الديسكات" مسئولية البث بهذة اللغة "القومية" أو تلك، فضلا عن اضطلاعها بدور سياسى. فبمثل ما كانت "اللجان القومية" للأوستمنستريوم، كانت خدمات بث "راديو الحرية" تعمل كأشباه حكومات فى المنفى - إذ كان هيكل العمالة بالراديو يكاد يتطابق وهيكل عمالة الأوستمنستريوم ... وأردف "فون منده" أن ذلك أمر حسن، إلا أنه يتعين أن يكون العاملون أكثر فاعلية وأمضى أثرا، ليس فى كيفية إدارتهم للراديو، بل فيما يخص "العمل السياسى". ووفقا لما أورده "فون منده"، فقد وافق روبرت كيللى "لإيمانه بأنه من الضرورى إرساء قاعدة سياسية للراديو، وكذلك الأمر فيما يخص المعهد".

وكان المحك، وفقا لفون منده، هو حسن انتقاء المرشحين للعمل بالديسكات، والنهوض بمستوى العاملين القائمين، إذ يتعين أن يكون التواصل بينهم وبين جماعات اللاجئين على امتداد العالم تواصلا جيدا مثمرا. وفى إشارة منه إلى "الديسك الأذربيجانى" حين كان يترأسه كل من "إسماعيل أكبر"، و"مجيد موسى زادة"، و"عبد الرحمن فاتالبايلى" ... أقر "فون منده" مصادقا بأن الديسك له نفوذ سياسى بعينه، بيد أن الأمر بحاجة إلى مزيد من الدعم والتعضيد. وكان "فون منده" يعلم أن "إسماعيل أكبر" قد قام بالتخطيط لرحلة إلى تركيا، فاقترح أن تقوم "أمكومليب" بتمويلها كيما يتمكن من تدعيم الديسك وتعضيد قوته عن طريق جلب بعض اللاجئين الأذربيجانيين ممن يحيون فى تركيا ... وقد لقى هذا الأمر موافقة "إسحاق باتش" وقبوله.

أما "فون منده"، فقد أسدى نصيحة إلى الدكتور "ويليام باليس" - مدير "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى" ... الذى قام بالاستعانة بالدكتور "إيديك مصطفى كيريمال" لكتابة تقرير عن "تتر القرم" أثناء الحرب الكونية الثانية. إذ أشار "فون منده" بسخرية مريرة إلى أن "كيريمال" قد كتب بالفعل تقريرا كذلك المطلوب، وذلك للبريطانيين ... لذا، نصح "باليس" قائلا: "إن بوسع الأمريكيين عدم تبديد أموالهم، إذا استعانوا بى فى إدارة مشروعات كتلك"، فى إشارة ضمنية منه إلى معرفته بما قامت الاستخبارات البريطانية بدفعه. كذا، فقد أخبره "فون منده" باستعداده لإعطائه نسخا من التقارير بما يحول دون أن يتكبد المعهد نفقات الحصول على نسخ جديدة. وكان ذلك، بالطبع، مسلكا يسيرا لكى يعرف "فون منده" ما كانت وكالة الاستخبارات المركزية تعتزم القيام به.

وبعد مضى عام، وتحديدا فى التاسع من شباط/ فبراير ١٩٥٥، أقام "إسحاق باتش" حفل عشاء كبيراً فى بيته بميونيخ ... حيث لم تكن جهوده لتوحيد "الروس"

و"غير الروس" – آنذاك – قد برحت مكانها بعد. أما حفل العشاء، فقد أراده "باتش" طقسا اجتماعيا ... إذ قام هو وزوجته بدعوة "فون منده" وزوجته "كارولين" إليه، إلى جانب دعوة القنصل الأمريكى "إيدوين الآن لايبتز" وزوجته "دوروثى بويس"، فضلا عن مسئول آخر بالقنصلية الأمريكية وزوجته. إلا أن "فون منده" لم يكن راغبا – ليلتها – فى التسامر مع آخرين، بل كان يرغب فى الحديث عن كيفية استخدام اللاجئين على نحو أكثر كفاءة وفاعلية.

فالأحجية الكبرى، كما ذهب "فون منده"، تكمن فى أنه ما لم يتم استيعاب اللاجئين، فلن يتمكن هؤلاء من العثور على فرص للعمل، ومن ثم سينتهى بهم المطاف غرباء دائمين داخل المجتمع الألمانى، ولكن إذا ما تم دمج أولئك اللاجئين داخل ثنايا نسيج الثقافة المحلية، فلن تكون لهم – ساعتها – أدنى فائدة للبلدان الغربية التى يجب أن تصورهم دعاياتها المناهضة للشيوعية على كونهم لاجئين يعانون، لا على كونهم مهاجرين مستوعبين. هذا، وقد كان "فون منده" قلقا من أن "يؤدى الإخفاق فى تناول قضايا اللاجئين إلى تثبيط الروح المعنوية لدى اللاجئين وإثناء عزائمهم، وكذا الإضرار بجهود الحرب السيكولوجية الغربية"، وذلك ما ذهب إليه "إيدوين لايبتز" فى سرده لوقائع اللقاء. أما النقطة الرئيسية، وفقا لفون منده، فكانت دعم الأقليات السوفييتية، وإغضاء الطرف عن الروس. أما "إسحاق باتش"، والذى أمضى عامين كاملين فى محاولة توحيد هذين الفصيلين ... فلم ترد إلى خاطره فكره تهميش الروس أو استبعادهم. على أن "فون منده" قد ذهب إلى تبنى وجهة النظر القديمة للأوستمنستريوم ومفادها: بما أن الأقليات هى "كعب أخيل" السوفييت ... لذا، فإن كانت الولايات المتحدة الأمريكية تريد تقويض أركان الاتحاد السوفييتى ونقض دعائمه، فعليها استخدام تلك "الأقليات" على نحو أكثر فاعلية.

إلا أن "فون منده" قد واجهته مشكلة حين أراد أن يقنع الأمريكيين بتبنى

نصيحته ... إذ كان يتعامل مع محبى كل ما هو روسى. فكيللى ورجاله قد تناولوا المشكلة على أنهم ناطقون بلسان "الروس"، ذوو خبرة طويلة وافتتان بهذا البلد. أجل ... هم يعلمون، تحقيقا، أن الاتحاد السوفييتى مكون من أقليات عدة، إلا أنهم – وفى قرارة أنفسهم – لا يريدون أن يستبعدوا الروس. على أن آخرين، من "أمكوليب"، كانوا يتبنون موقف "فون منده" ووجهة نظره، إذ رأوا الأقليات السوفييتية – وبخاصة المسلمون – أسلحة هامة فى مهاجمة الاتحاد السوفييتى. فلم يكن المحك مجرد استخدامهم للسيطرة على مسلميه، بل على المسلمين فى أنحاء العالم قاطبة.

الفصل الخامس

«مفتاح» العالم الثالث

كان موسم الحج لعام ١٣٧٣ هجرية (١٩٥٤ ميلادية) مختلفا بعض الشيء لبعض الحجيج، إذ عمد مسلمان ترعاهما وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية إلى جعل بقاع الحج بمكة ساحة للحرب الباردة. وكان هذان المسلمان المتحمسان:

"روسى نصار"، و"حامد راشد" - المولودان فى الاتحاد السوفييتى - قد اتبعا سبيلا أضحى مألوفا ... إذ تم القبض عليهما من قبل الألمان، ليتعاونا مع النازى، ويتم تجنيدهما، فى النهاية بواسطة الاستخبارات المركزية. أما هدفهما فى موسم الحج هذا، فكان "الحجيج السوفييت" - الذين زعما أنهم ضالعون فى ترويج الدعايات. وتحت رعاية أمكومليب، قام "نصار" و"راشد" بالسفر إلى "جدة" حيث عمدا إلى الادعاء بأنهما تركيان، ليركبا "حافلة" كانت تحمل واحدا وعشرين حاجا سوفييتيا إلى مكة ... حيث شرعا فى عملهما بالحديث إلى المسلمين السوفييت ومحاولة بذر بذور الشك حول موطنهم الأم. وحين أخفقا فى ذلك المنحى، قاما بملاحقة ضحاياهم فى مكة وعمدا إلى مضايقتهم.

هذا، وقد قام كل من "نصار" و"راشد" بتجنيد بعض المسلمين المحليين لمساعدتهما فى مهمتهما. فقاموا بتثبيت ملصقات معادية للسوفييت على الجدران،

كذا فقد قاموا بمضايقة الحجيج السوفييت وإزعاجهم كثيرا، حتى أنهم قد ألقوا - ذات مرة - حبات من البندورة على هؤلاء الحجيج فى شوارع مكة. ولعله بسبب جهود الأمريكيين، خذل الملك السعودى، آنذاك، سعود بن عبد العزيز السوفييت رافضا طلبهم الملتمس أن تُسمع أصواتهم. وقد سنحت فرصة أمام السوفييت للتحدث عن وضعية الإسلام فى الاتحاد السوفييتى فى تجمع للحجيج. بيد أنهم ما إن شرعوا فى الحديث فى رحاب الحرم المكى، حتى هاجمهم "حامد راشد" حيث سألهم - متعجبا - أنى ارتضوا لأنفسهم التغاضى عن اضطهاد الاتحاد السوفييتى للمسلمين ... فأجابه أحد السوفييت بأن أولئك الواقع عليهم الاضطهاد قد نالوا جزاءهم من لدن الله. كان هذا على مقربة من "الكعبة"، حيث انتقد "راشد" ذلك السوفييتى نقدا لاذعا قائلا: "ألا تستحى أن تقول أمثال تلك الأكاذيب فى حضرة "الكعبة المشرفة"، وأنت هرم مسن باتت أيامك فى الحياة معدودة، فصرت

قاب قوسين أو أدنى من أن توارى التراب ... أين حمرة الخجل؟! ... ألا تخشى المثول بين يدى خالقك فيسألك عما اجترحه لسانك؟!".

وقد صورت تلك "الغزوة" التى كان بطلاها "روسى نصار"، و"حامد راشد" - فى الغرب على أنها جزء من انتفاضة فطرية تلقائية ... انتفاضة امتعاض وصرخة غضب فى وجه الاتحاد السوفييتى عمد إليها مسلمان من اللاجئين احتجاجا عليه. وقد وردت تلك الرواية فى مجلة Time الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٩/٢٧، وكذلك فى صحيفة "نيويورك تايمز" الصادرة بتاريخ ١٩٥٤/٩/١٥ . هذا، وقد كانت رحلتهما الزائفة للحج جزءاً من خطة أمريكية عدوانية لمناهضة الاتحاد السوفييتى فى ساحة حرب جديدة ... "العالم الثالث".

بحلول منتصف الخمسينيات، بلغت الحرب الباردة نفقا مسدودا فى أوروبا. فكما أظهرت انتفاضة ألمانيا الشرقية (١٩٥٣)[٤٣]، وكذا انتفاضة هنغاريا (١٩٥٦)[٤٤] ... فإن الاتحاد السوفييتى كان عازماً على مواصلة السيطرة على البلدان السائرة فى فلكه. أما الغرب، فلم يكن بمستطاعه إلا أن ينتفض ويتمرد. والطرفان قد حاولا سياسات صارمة، إذ ضيق السوفييت الخناق على "برلين الغربية" عن طريق قطع الطرق البرية، فيما شجعت الولايات المتحدة "الانتفاضة الهنغارية". هذا، وقد ظلت أوروبا - والتى ستشهد أراضيها انهيار الشيوعية فى عام ١٩٨٩ - ساحة للحرب الباردة. إلا أن عمليات "الحرب الباردة الحقيقية"، فيما بين منتصف الخمسينيات وأواخر الثمانينيات، قد جرت وقائعها فى ساحات أخرى خلاف أوروبا.

فحقيقة الأمر، كان "العالم الثالث" - على التحقيق - أكثر ساحات "الحرب الباردة" من حيث الأهمية ... إذ خيضت على أراضيه - لا فى أوروبا - حروب

دموية شرسة. كذا، فقد كان مضمارا أطلق زبانية البروباغندا -على كلا الطرفين- أبواقهم ورسائلهم الموجهة خلاله. وفيما تابع السوفييت وحلفاء الولايات المتحدة الأمريكية إرسال "برامجهم" عبر فضاءات بعضهم البعض، إلا أن "العالم الثالث" كان الامتداد الوحيد الذى صار بمقدور القائمين على "البروباغندا" اقتناص فرصة هنا وأخرى هناك ... فى صراع "إعلامى" كان سجالا فيما بينهم.

أما ذلك الامتداد من رقعة المعمورة، فقد أطلق عليه أسماء عدة ... فهو تارة "العالم النامى"، وتارة "العالم الثالث"، وأخرى "الجنوب" - إذ تقع الغالبية العظمى من بلدانه فى نصف الكرة الجنوبى. على أن البعض - لاحقا - سيعتبر لفظة "العالم الثالث" منطوية على مسحة ازدرائية، وكأنما قد حلت بلدانه "ثالثة" فى سباق التنافس الكوكبى. بيد أن المعنى الأصلى للفظة هو معنى أكثر بساطة وأجدى أثرا. إذ انصرف المعنى الأصلى، حين نحت الفرنسى "ألفريد سوفيه"[٤٥] اللفظة، إلى تمييز قطاعات معينة من العالم عن تلك المنخرطة مباشرة فى الصراع المنقسم إلى "عالم أول" و"عالم ثان"، حيث تمثل الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاؤها هذا "العالم الأول"، فيما يمثل الاتحاد السوفييتى وكتلته الشرقية ذاك "العالم الثانى". وقد ذهب "سوفيه" إلى تعريف "العالم الثالث" بأنه رقعة كبيرة من الأرض تمتد لتشمل معظم بلدان آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية. أما القاسم المشترك الذى ينتظم بلدان تلك القارات فكان أن معظمها، باستثناء بلدان أمريكا اللاتينية، كان حديث عهد بالتحرر من ربقة الحكم الكولونيالى، وذلك فى خمسينيات القرن العشرين ... كذا، فإن معظمها - بما فيها بلدان أمريكا اللاتينية - كان يخطو خطوات أولى فى مضمار التصنيع، آنذاك. إذ كانت حفنة من القوى الأوروبية - وبخاصة بريطانيا وفرنسا - تبسط هيمنتها على تلك البلدان، وتتحكم فى مواردها ومقدرات شعوبها ... إلا أنه - ومع انقضاء الحرب الكونية الثانية - كانت تلك الإمبراطوريات الأوروبية القديمة

تتداعى متهاوية، فيما كانت الأقاليم التى عانت احتلال تلكم الإمبراطوريات تنال استقلالها وحرياتها. وتباعا، كان البلد تلو الآخر ينضم إلى قائمة البلدان المستقلة لينخرط فى منظومة الأمم القائمة.

لقد كانت "القوى العظمى" تتوق إلى جذب بلدان "العالم الثالث" إلى صفها كحلفاء. فالغرب والاتحاد السوفييتى، كلاهما، قد رغبا فى شركاء تجاريين ومصادر للخامات اللازمة لتسيير عجلة الإنتاج بهما. وعلى الرغم من أن معظم بلدان "العالم الثالث" كانت فقيرة، آنذاك، إلا أن أهميتها الاستراتيجية لم تكن موضع إهمال أو تغافل من قبل تلك "القوى العظمى" ... ويمكن للمرء، فى هذا المقام، أن يفكر فيما كان سيبدو عليه "العالم المعاصر"، لو كان قيض لمنارات اقتصادية سامقة ككوريا الجنوبية أو تايوان أو سنغافورة أو ماليزيا أو تايلاند أن تكون بلدانا شيوعية، لا أن تكون مرتكزات لنظام التجارة العالمى ودعامات له. وحتى البلدان التى كانت ما تزال فقيرة، كان يمكنها أن "تصوت" فى الأمم المتحدة. إن الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى، فضلا عن بريطانيا والصين وفرنسا، تملك جميعها حق الاعتراض على القرارات (الفيتو) فى مجلس الأمن ... إلا أن القوتين العظميين - الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى - كانتا بحاجة إلى "أصوات" لتمرير قرارات أممية بعينها. وعلى الرغم من أن كثيرا من الأمريكيين - اليوم - ينظرون إلى "الأمم المتحدة" نظرة دونية قوامها الاستخفاف، إلا أن تلك المنظمة العالمية كانت خلال السنوات الأولى من "الحرب الباردة" أوفر شبابا وأدنى إلى المثالية عنها فى وقتنا الحاضر. وبغض الطرف عما إذا كانت ذات فاعلية أم لا تعدو أن تكون منظمة عقيمة، إلا أنها كانت المنتدى العالمى الأوحد وساحة التنافس السجالى ما بين واشنطن وموسكو.

أما الولايات المتحدة الأمريكية، فقد أعيقت فى تلك "الحرب الباردة" ... إذ

أبدت، خلال الحرب الكونية الثانية، ازدراء واحتقارا للكولونيالية الأوروبية. وذهب الكثير من المفكرين الأمريكيين إلى أن المستعمرات الأوروبية سيكون بوسعها نيل استقلالها وحرياتها فى أعقاب انقضاء الحرب، وأن الولايات المتحدة الأمريكية ستفيد من "الوضع الجديد" ... فالولايات المتحدة - بالأساس - قد أنشأها متمردون ثاروا فى وجه الكولونيالية البريطانية ... إذا، من ذا الذى سيتعاطف بأكثر من الأمريكيين مع تلك البلدان التى ستتحرر عما قريب؟!

إلا أن ما حدث، بالفعل، كان أمرا مختلفا أيما اختلاف. فلاستشعارها القلق من أن تتحول البلدان المستقلة حديثا بلدانا شيوعية، عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تقديم يد العون إلى القوى الكولونيالية. ففى أعقاب هزيمة الفرنسيين فى معركة "ديان بيان فو" Dien Bien Phu فى فيتنام، أرسلت الولايات المتحدة سلاحا إلى فرنسا لإعادة بناء جيشها الكولونيالى. أما فى الشرق الأوسط، فقد حلت شركات النفط الأمريكية، من أمثال شركة "أرامكو" محل القوى الكولونيالية القديمة التى غادرت الإقليم. وبتحريض النقاد بالاتحاد السوفييتى، ذهب العديد من البلدان حديثة العهد بالاستقلال إلى نعت الولايات المتحدة "بالمستعمر الجديد".

هذا، وقد خلصت "القوتان العظميان" إلى تدعيم موقفيهما عن طريق توظيف "الإسلام" كسلاح مشهر وسيف مصلت. ففى الولايات المتحدة الأمريكية، كان اهتمام "الحرب الباردة" بالإسلام سابقاً لاعتلاء "أيزنهاور" سدة الرئاسة. فأثناء ولاية الرئيس الأمريكى "هارى ترومان"، كانت الاستخبارات الأمريكية - وفقا لما تدوول - تسعى للبحث عن شخصية "كاريزماتية" تستطيع حشد المسلمين وقيادتهم فى حملة مناهضة للشيوعية. لذا، فقد وضعت "لجنة الاستراتيجية السيكولوجية" - التى أنشأها "ترومان" - برنامجا للشرق الأوسط شُرع فى تنفيذه اعتبارا من شباط/ فبراير ١٩٥٣ بعيد تنصيب "أيزنهاور" رئيسا للبلاد. وفى تقرير للجنة ورد

المقطع التالى: " لا يمكن تناول العقلية العربية التقليدية دون الأخذ بعين الاعتبار التأثير الطاغي للدين الإسلامى فى نمط التفكير العربى". هذا، وقد ذهب التقرير ذاته إلى التحذير من أن الإسلام، وعلى خلاف نظرة الغرب النمطية إليه، ليس عائقا طبيعيا بوجه الشيوعية. فالكثير من الإصلاحيين الذين أمسكوا بزمام السلطة فى بلاد العرب قد أفسحوا مجالا للاقتصاد لتكون له الأولوية متقدما على أمور "الدين" هناك ... الأمر الذى أدى إلى إضعاف القوة المعتقدية (الإيمانية)، وما لها من دور، بما جعل الإقليم عرضة للتأثر برياح الشيوعية. وهنا نشهد حضورا طاغيا لغرهارد فون منده وجماعته ضمن التحليلات الأمريكية الباكرة بشأن الزخم الإسلامى ودوره المستقبلى. ففى شباط/ فبراير ١٩٥١، تلقت وكالة الاستخبارات المركزية تقريرا من مصدر للمعلومات بإحدى كبريات الجامعات الأمريكية مفاده قيام "فون منده" بحشد أعداد من المسلمين من ذوى الشأن لتأسيس مستجمع للأفكار think tank يتناسب ومشاربهم. كذا، فإن جهوده نحو إعادة تأسيس الأوستمنستريوم وفريق العمل به لم تكن خافية. ولعل التقرير المذكور ذا الصفحات الثلاث لدليل على شروع الأمريكيين فى التفكير فى كيفية توظيف "الإسلام" لمآربهم ومراميهم.

هذا، وقد عمدت الإدارة الأمريكية إبان ولاية "أيزنهاور" إلى تدعيم تلك الجهود ودفعها قدما ... إذ كانت ترى أن إدارة "ترومان" لم تكن قوية بما يكفى، كذا فلم تكن جهودها موجهة لتلك الأغراض توجيها كاملا. فعلى حين كانت "لجنة الاستراتيجية السيكولوجية" تتبنى البرنامج الجديد بشأن الشرق الأوسط، وذلك فى بواكير عام ١٩٥٢، كان "إدوارد ليللى - Edward P. Lilly أحد أبرز استراتيجيى الحرب السيكولوجية فى إدارة "أيزنهاور" ... قد أصدر مذكرة حملت اسم "العامل الدينى" The Religious Factor، والتى دعت الولايات المتحدة إلى توظيف "تفوقها" الروحانى، واستخدام ورقة "الدين" على نحو أكثر سفورا. وقد صور "ليللى" فى

مذكرته حركة الإحياء الدينى الكبيرة الدائرة، آنذاك، فى ربوع العالم الإسلامى، حيث ذهب إلى القول بأن المفكرين المسلمين - على مدار عدة عقود خلت - كانوا يسعون إلى تحديد كيفية توظيف "الإسلام" لإنقاذ بلدانهم من براثن الكولونيالية والتبعية للغرب. كذا، فقد أضاف "ليللى" أن جماعات، كالإخوان المسلمين"، قد تعهدت بتحقيق "الخلاص الوطنى" بالاستمساك بالقرآن والعض عليه بالنواجذ ... حيث قام بتشبيه جماعة "الإخوان المسلمين" بحركة "البعث الويزليانى الميثودى" فى بريطانيا القرن الثامن عشر. وفى عام ١٩٥٣، طلب "ليللى" إلى فريقه بحث إمكانية مد يد العون إلى المملكة العربية السعودية أثناء موسم الحج بأراضيها، إذ نظرا لبعض المشاكل اللوجيستية، لم يتمكن الآلاف من المسلمين فى ذلك الموسم (١٣٧٢ هجرية) من الوصول إلى مكة ... فكان السؤال: هل يمكن لسلاح الجو الأمريكى - فى قابل الأيام - أن ينقلهم إلى هناك؟ ... سؤال طرحه مستشار "إدوارد ليللى" جانبا وكتب يقول: "بينما تظهر الرغبة فى العمل على وحدة العالم المسيحى والإسلام لضمان حرية العقيدة، ... إلخ، واضحة جلية، إلا أننى أرى أن مشروعا كهذا لن يجدى كثيراً ... إذ سيتم النظر إليه على أنه محاولة مصطنعة تم إقحامها من قبل "الكفار" لتنظيم الشأن الإسلامى ... محاولة أخال أنها لن تؤتى ثمارها، بل سيخيب مسعاها ... وينظر إليها على أنها حملة سيكولوجية فجة".

إلا أن المسئولين قد ظلوا مهووسين بمفهوم توظيف "الدين" سلاحا. وفى عام ١٩٥٤، تم إرسال مذكرة "العامل الدينى" إلى مجلس الأمن القومى الأمريكى الذى كان قد مرر وثيقة بالغة الأهمية، تلك المعروفة بوثيقة ١٦٢/٢ ... والداعية إلى الثأر من الاتحاد السوفييتى على أوسع نطاق ممكن[٤٦]. وعادة ما ينظر إلى تلك الوثيقة على ضوء ما انطوت عليه من إمكانية خوض "حرب نووية"، وتسويغها لتقويض أركان العدو وتدميره. إلا أنها قد دعت، أيضا، إلى "حشد الموارد الروحانية

والأخلاقيات واستنفارها بما يكفى لمواجهة التهديد السوفييتى".

أما وزارة الخارجية الأمريكية ووكالة الاستخبارات المركزية، وكذا الوكالة الأمريكية للمعلومات - فقد استنفروا جميعا لاتخاذ خطوات فى هذا الصدد. ولكن أنى لهم المضى قدما؟! فالاتحاد السوفييتى به أكثر من ثلاثين مليون مسلم ... وعلى امتداد سنوات عديدة، عمد الاتحاد السوفييتى إلى استئصال "الدين" عن طريق إغلاق المساجد واضطهاد أولئك الذين يمارسون الشعائر الدينية، وكان هذا أحد أسباب سهولة قيام الألمان بتجنيد المسلمين فى الجيش الألمانى وأسراب الدفاع أثناء الحرب الكونية الثانية. إلا أنه وبحلول الخمسينيات، لجأ السوفييت إلى انتهاج سياسة مغايرة، ظاهريا على أدنى تقدير ... إذ أعيد فتح المساجد وتدريب الدعاة والأئمة. ووفقا لما أدركه "روسى نصار"، حين قام بزيارة المملكة العربية السعودية، فإن المسئولين السوفييت قد كانوا يرسلون المسلمين لتأدية فريضة الحج للتودد إلى العالم الإسلامى والعمل على كسبه إلى صف الاتحاد السوفييتى. ونظرا لكونه موطنا لمجتمعات مسلمة قديمة ذات شأن فى آسيا الوسطى، أراد الاتحاد السوفييتى أن يعطى انطباعا بأن مسلميه يعاملون معاملة حسنة، ويتمتعون بالحريات الدينية.

أما الولايات المتحدة الأمريكية فلا تملك معيناً كهذا من المسلمين ... إذ انحصرت كثافة عددية كتلك من المسلمين فى "أمة الإسلام"[٤٧] ... تلك الجماعة التى لم تكن على وفاق مع الحكومة الأمريكية، حيث لم يجد أعضاؤها "أرضية مشتركة" مع إدارة "أيزنهاور" أو مسئولى الاستخبارات الأمريكية. وحتى لو كان تحالف ما قد تم التوصل إليه، فإن التعامل مع "أمة الإسلام" قد كان سيأتى بنتائج عكسية ... فكثير من عامة المسلمين يجفل مما يعدونه "تعاليم هرطوقية" - فقد زعمت "أمة الإسلام"، على سبيل المثال، أن الله سبحانه قد تجلى بذاته العلية جهرة، عام

١٩٣٠، إلى مؤسس تلك الجماعة). إذا ... كان على الولايات المتحدة أن تبحث فى مكان آخر.

لعقود طوال، ظلت "باندونغ" تشتهر بكونها منتجعا إندونيسيا ... ملجأ جبلى ذو طبيعة باردة بنى فيه المستعمرون الهولنديون من الملاك الزراعيين نوادى وفنادق فاخرة هربا من حرارة إندونيسيا المدارية. بيد أن الأمر قد تغير بالكلية، إذ أضحت "باندونغ" فى أعقاب مؤتمر استغرق أسبوعا واحدا (١٨ - ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٥٥) رمزا للدور المحورى للعالم الثالث فى "الحرب الباردة" الكونية.

أما المؤتمر، فقد عقد فيما كان يعرف بنادى "الكونكورديا" ... وهو النادى الأكثر تفردا، ذلك الذى بناه "المستعمر الهولندى" فى تلك المستعمرة الغنية بالموارد. وينتمى نادى "الكونكورديا" - الذى يقع فى وسط المدينة - إلى الطراز المعمارى الشهير "الآرديكو" ... Art Deco تزينه أرضية من الرخام الإيطالى الفاخر، وبه "بار" نحتت عناصره الداخلية من خشب "السنديان". وفضلا عن ثريات بديعة تتلألأ كريستالاتها، فالنادى يحوى مطاعم وقاعات للاجتماعات ورواقا متسعا اعتاد مدراء المستعمرة الأوروبيون الاجتماع فيه للتسامر والتباحث حول "البيزنس". أما اليوم ... فقد آل مبنى النادى وحدائقه الممتدة على مساحة فدانين بأكملهما إلى أهل البلاد.

أما المؤتمر الأفرو- أسيوى، والذى بات يعرف بمؤتمر "باندونغ"، فقد أتاح الفرصة لقادة "العالم الثالث" للتعرف إلى بعضهم البعض، وإيجاد أرضية مشتركة ومساحات للتواصل فيما بينهم. والمؤتمر قد نظمته إندونيسيا ورعته - بالتعاون مع العديد من أبرز البلدان التى نالت استقلالها حديثا، آنذاك، من أمثال الهند وسيلان ومصر وبورما وباكستان ... فكان مهدا لحركة عدم الانحياز - وهى مجموعة من

بلدان لا تريد أن يتم إدراجها لا فى المعسكر الشرقى ولا فى المعسكر الغربى. أما واشنطن فقد رأت "الحركة" على نحو مغاير: مجموعة من بلدان قد راقت لها "الشيوعية" ... بلدان يمكن أن تكون أداة طيعة فى يد موسكو. هذا، وقد بعثت الصين (والتى كانت ما تزال - حينها - حليفا سوفييتيا وثيقا) برئيس وزرائها الدمث اللطيف، شواين لاى، ممثلا لها. وفى واشنطن، تم النظر إلى التطورات المتلاحقة فى مؤتمر "باندونغ" على كونها حربا سرمدية لا نهاية لها، فضلا عن كون بعض البلدان الأكثر اكتظاظا بالسكان قد باتت مهددة.

هذا، وقد عمد مجلس الأمن القومى الأمريكى إلى التحرك ... حتى قبل أن يبدأ المؤتمر بالفعل. ففى كانون الثانى/ يناير ١٩٥٥، أنشأ مجلس تنسيق العمليات التابع للمجلس "مجموعة عمل باندونغ"، والتى تكونت من وكالة الاستخبارات المركزية، والوكالة الأمريكية للمعلومات، ووزارة الخارجية الأمريكية، وهيئات أخرى ... "بغرض وضع البلدان السائرة فى ركاب المعسكر الشيوعى، والمجتمعة فى "باندونغ" فى موقف دفاعى، وكأنما قد اقترفت ما يستوجب أن تقوم بتبرئة ساحتها منه. وعقب ذلك بأيام قلائل، وتحديدا فى الحادى والعشرين من الشهر ذاته، أصدر مجلس تنسيق العمليات تقريرا ذهب إلى نعت مؤتمر "باندونغ" بألذع العبارات وأحدها، ليقول: "إن المؤتمر الأفرو-أسيوى، ومشاركة الصين الشيوعية فيه، سيعطى ملمحاً غير حقيقى عن الشيوعية العالمية بتصويرها كنصير لحركات التحرر الوطنى والحركات المناهضة للكولونيالية. وما لم يتم فضح تلك المخططات لتكون وبالا عليها، فسينجح "الشيوعيون" فى المضى قدما نحو هدفهم الرامى إلى الهيمنة العالمية".

وعلى المستوى الرسمى، بعث "أيزنهاور" بتمنياته إلى الوفود المشاركة فى مؤتمر "باندونغ" بأن تكلل جهودها بالتوفيق. إلا أن المشهد كان مغايرا خلف "الكواليس"

... فالولايات المتحدة الأمريكية، والتى لم يتم توجيه الدعوة إليها لحضور المؤتمر قد جندت "وكلاءها" Proxies لبث دعاية مستترة. أما الاتحاد السوفييتى فكانت نقطة ضعفه: الإسلام. ووفقا لأحد مسئولى إدارة الرئيس "أيزنهاور"، فقد استخدمت الولايات المتحدة تلك النقطة لإجراء بعض "المناورات الماكيافيللية" فى "باندونغ". واستطرد المسئول قائلا: "إننى أسائل نفسى عما إذا كان بعض الأصدقاء فى باندونغ لم يدرجوا بملفاتهم قائمة بالممارسات الكولونيالية لروسيا فى إدارتها للشعوب المسلمة فى تلك البلدان المزعومة كأوزبكستان وتركستان. وأجدنى مدفوعا إلى إدراك وجود "قصص مخيفة" عن عقاب "الروس" لتلك الشعوب "غير المتعاونة" فى أثناء الحرب الكونية الثانية وفى أعقابها مباشرة ... عقاب تمثل فى تهجير الآلاف من منازلهم إلى أراض جديدة، وإبادتهم جماعيا وتصفيتهم بالجملة".

وبالفعل ... فقد حيكت تلك "القصص المخيفة". ومرة أخرى، كان "روسى نصار" هو من أنقذ الموقف. فبعد مرور عام على قيامه بالاضطلاع بدور "الحاج"!!، عمد "نصار" إلى تغيير جلده ليصبح "صحافيا" - إذ صودق على التحاقه بصحيفة "النيويورك هيرالد تريبيون" فى "باندونغ". وفى أثناء انعقاد المؤتمر، أبرقت السفارة الأمريكية فى العاصمة الإندونيسية "جاكارتا" لتخبر بأن "نصار" يعمل لدى الصحيفة "هذا الأسبوع"!! - بما يشير إلى أن الوظيفة، أو بالأحرى "المهمة"، قصيرة للغاية، أو لعلها كانت "ستارا". كذا، فقد أشارت السفارة إلى أن "المهمة" تمثل "لجنة الوحدة القومية التركستانية" - وهى جماعة اللاجئين الأقوى تأثيرا فى تمثيل المسلمين السوفييت والتحدث باسمهم. فضلا عن ذلك، فقد كانت "مهمة" نصار ممولة من "غرهارد فون منده"، حيث روقبت بواسطته مراقبة لصيقة ... تلك المهمة التى أدارها "ولى قيوم خان" ... أحد مرتزقة "فون منده". هذا، وقد ذكر مسئول وزارة الخارجية الأمريكية فى طيات البرقية المذكورة أنه لا يهتم بأن يرسل "المادة" التى كان "نصار"

يقوم بتوزيعها فى مؤتمر "باندونغ" نظرا لافتراضه أن تكون واشنطن قد أطلعت عليها - بما يشير إلى علمها بمهمة "نصار"، إن لم يكن مراقبتها له.

ولم تنطل الخدعة على السوفييت ... إذ قامت الصحيفة السوفييتية "ترود" (العمل) بالهجوم على "روسى نصار" باتهامه بكونه عميلا أمريكيا تم إرساله من ألمانيا الغربية للمطالبة باستقلال تركستان ومهاجمة السياسة القومية السوفييتية، بما يتيح لممثلى الولايات المتحدة فى المؤتمر - أو بالأحرى عملائها - أساسا لإشاعة الافتراءات وفرصة لنسج "الفبركات".

أما "مسلمو ميونيخ"، فقد أدلوا دلاءهم وضربوا بسهم هجومى. ففضلا عن هجوم "نصار" ... أقام "ولى قيوم خان" دعوى باسم "لجنة الوحدة القومية التركستانية"، والتى نعتتها بأنها "قاطرة تحرير الشعوب التركستانية" التى خولها التركستانيون لتكون لسان حالهم والمتحدث باسمهم. أما الدعوى - والتى جاءت فى صفحات ثلاث - فقد أشارت إلى العديد من الحقائق الساطعة بشأن احتلال الروس/ السوفييت والصينيين لتركستان. وقد عمد الشيوعيون إلى تقسيم الإقليم إلى أشباه دول قومية فى محاولة منهم لتطبيق مبدأ "فرق تسد"، حيث ناشد "نصار" فى دعواه إنشاء لجنة للتحقيق بشأن افتقار الإقليم إلى "الحريات الدينية".

إلا أن دور "نصار" فى حرب الدعاية المسلمة كان، فى بعض الأحايين، غامضا خفيا[٤٨]. فرغما عن ظهوره الإعلامى خلال موسم الحج (١٣٧٣ هجرية - ١٩٥٤ ميلادية)، وكذلك خلال مؤتمر "باندونغ" ١٩٥٥ ... إلا أنه قد اختفى عن المشهد العام فى أعقاب ذلك ... وستمر سنون طوال إلى أن يظهر "روسى نصار" ثانية فى أعقاب انهيار الاتحاد السوفييتى فى أواخر ثمانينيات القرن العشرين كأحد حكماء الأوزبك الذين يحيون فى الولايات المتحدة الأمريكية، أو من يعرفون باسم Aksakal[٤٩]. وحين

أجريت حوارا معه فى العاشر من أيار/ مايو ٢٠٠٦ بولاية "فيرجينيا" الأمريكية، كان الرجل فى التاسعة والثمانين آنذاك ... إلا أنه كان نشيطا متيقظا ذكيا، حيث استدعى - بيسر - ذكريات وأحداثا جرت وقائعها منذ خمسة عقود خلت، إذ كانت ذاكرته الحادة تجول بين أماكن وأناس من الماضى البعيد.

إن "روسى نصار" - المولود فى عام ١٩١٦ بمدينة "نمنقان"، ثانى أكبر مدن أوزبكستان - قد كان له من الوحشية السوفييتية نصيب ... إذ تم ترحيل عائلته إلى "أوكرانيا" سعيا من السوفييت لاجتثاث "الطبقة المثقفة" واستئصالها من الإقليم. وحين اشتعلت شرارة الحرب الكونية الثانية، تهرب "نصار" من الخدمة العسكرية، حيث قام بالاختباء لدى إحدى العائلات الأوكرانية ... وعقب اجتياح الألمان للإقليم، علم "نصار" أن الزعيم التركستانى الكبير "مصطفى شوقاى بك أوغلو" كان يسعى إلى توحيد الشعوب "التركستانية" ويهفو إلى جمع شتاتها لإرساء حكومة فى المنفى. إلا أن "نصار" قد علم أن "شوقاى" قد انتدب لمعاينة أحوال سجناء أسرى الحرب التركستانيين فى كل من بولندا وأوكرانيا، وأنه قد أصابته الحمى فتوفى من أثرها عام ١٩٤١[٥] ... ورغما عن ذلك، فقد التحق "نصار" بإحدى الوحدات التركستانية وحارب لمصلحة الألمان ... فأصيب مرتين. وقد تم إرسال "نصار" إلى مدرسة لتدريب القادة فى إقليم "اللورين" الألمانى (ويقع الإقليم حاليا ضمن الأراضى الفرنسية). هذا، وقد التحق "نصار"، بعد ذلك، بالقيادة العليا للجيش الألمانى حيث تمكن فى الأيام الأخيرة من الحرب من الفرار إلى النمسا ليصل "بافاريا" حيث أواه مزارع هناك لمدة شهرين إلى أن هدأت فورة الترحيل إلى الأوطان المنصوص عليها فى معاهدة "يالطا". أما فى عام ١٩٤٦، فقد عمل ممثلا "لكتلة الأمم المناهضة للشيوعية"، بيد أنه قد رفض عرضا تقدم به صديقه القديم "باى ميرزا هاييت" لترك القطاع الأمريكى من ألمانيا إلى القطاع البريطانى، والعمل

لصالح "لجنة الوحدة القومية التركستانية". وفى أوائل الخمسينيات، تم تجنيده من قبل "أرشيبالد روزفلت - الابن" - مسئول التجسس الأسطورى بوكالة الاستخبارات المركزية، وحفيد الرئيس الأمريكى "تيودور روزفلت" ... وذلك للعمل فى الولايات المتحدة الأمريكية. وفى حوارنا، ألمحت إلى تعاونه - ولو على نحو غير مباشر - مع وكالة الاستخبارات المركزية، فانتفض مغاضبا ليقول إنه إنما كان منخرطا فى بعض "الدراسات الاستراتيجية" لحساب وزارة الدفاع الأمريكية (البنتاغون)، ولم يعمل ألبتة فى البروباغندا "المغطاة". وحقيقة الأمر، كان "نصار" لا يستسيغ "أمكومليب" ... إذ أخبرنى أنه لا يحمل "لها" احتراما، فهى "سوفييتية الهوى" لا تعبأ بمصالح الأقليات نقيرا.

إن الكثير ممن تحدثت إليهم أثناء قيامى بالأعمال البحثية لإعداد هذا الكتاب ... يرون أنفسهم زعماء قوميين جاهدوا كيما تبقى شعلة "الاستقلال" متوقدة إبان الليالى الحوالك للحكم السوفييتى المقيت. أما "نصار" والذى أضحى - حينها - زعيما أوزبكيا ذا قدر جليل وحكيما مسموع الكلمة، فتبقى حقيقة أن يكون جانبا من جهوده قد كُرِس لخدمة "وطن" آخر وتحقيق مآرب ذلك "الوطن" ... غير متماشية مع ذلك القدر "الجليل". هذا، وقد أورد "نصار" أن أمكومليب قد سعت مرارا إلى تجنيده لصالحها ... إذ وعده "إسحاق دون ليفين"، أحد أعضاء مجلس الأمناء "بفيلا رحبة فى ميونيخ وعربة" إذا ما وافق على الانضمام. بيد أن "نصار" قد ذهب إلى أنه كان يزدرى أمكومليب ... ففى زيارة له إلى ميونيخ علم أن أوزبكيا - أمان بردى مراد - كان يعمل لدى "راديو الحرية". أما "بردى مراد"، والذى تعرف إليه "نصار" أثناء الحرب - فقد ذكر أنه لم يكن بمقدوره إذاعة ما يرغب بسبب توجهات أمكومليب الموالية للسوفييت. وهنا قام "نصار" بتقريع "بردى مراد" وتوبيخه صائحا: "أيها البلهاء!! بحق السماء ... لم تخدمون أمثال تلك المنظمات؟!"

أجل ... قد يكون "روسى نصار" قد ازدرى أمكومليب، إلا أن القرائن لتشير إلى أنه كان يعمل لحسابها. فالمقالة الواردة بصحيفة "نيويوك تايمز " بتاريخ ١٩٥٤/٩/١٥، وتلك الواردة بمجلة "Time"بتاريخ ١٩٥٤/٩/٢٧ بشأن رحلة "نصار" لتأدية فريضة الحج ... قد أوردتا أنه قد أرسل بواسطة أمكومليب (التى صورتها مجلة "Time" بأنها منظمة خاصة). أما محاضر وقائع اجتماعات مجلس إدارة أمكومليب، فقد أظهرت أن أعضاء المجموعة كانوا ينظرون إلى "نصار" باعتباره محور استراتيجية البروباغندا "المغطاة" للمجموعة إلى درجة قولهم: "أنعم به من رجل صالح ... لله در منافعه فى مهام عديدة للجنة الأمريكية".

وأيا ما كانت ولاءات "الرجل"، وأيا ما كان مصيره ... فإن توظيف مؤتمر "باندونغ" للمسلمين السوفييت اللاجئين بميونيخ قد شكل انقلابا أمريكيا ... إلى حد التهلل والنشوة اللتين سادتا "البيت الأبيض". ففى اجتماع مجلس الوزراء الأمريكى فى التاسع والعشرين من نيسان/ أبريل ١٩٥٥، أورد وزير الخارجية "جون فوستر دالاس" أن الجميع، بادئ ذى بدء، قد ذهبوا إلى افتراض هيمنة الشيوعيين على مؤتمر "باندونغ"، إلا أن الأعمال بالخواتيم، إذ آتت الجهود الأمريكية أكلها، ودارت الدوائر فالأيام دول. هذا، وقد اعتبر "دالاس" عدم قيام رئيس وزراء الصين "شواين لاى" بأية محاولة للدفاع عن الاتحاد السوفييتى أثناء المؤتمر ... حدثا ذا دلالة - بالرغم من تعرض الاتحاد السوفييتى لنقد لاذع حاد بسبب "اتهامات" بالكولونيالية وجهت إليه.

ولم تكن الولايات المتحدة الوحيدة المدركة أهمية مؤتمر "باندونغ" ... إذ شهد المؤتمر معظم "اللاعبين" الرئيسيين فى ميونيخ، وتنوع الحضور فضم أطيافا شتى تراوحت ما بين المبرزين من جماعة "الإخوان المسلمين" إلى بعض عملاء الأجهزة الاستخباراتية من أمثال الروائى الأمريكى "أحمد كمال". أما "طاقم ميونيخ" فقد

شهد جميعهم المؤتمر باستثناء "غرهارد فون منده" الذى تغيب، لكن رجاله كانوا يوافونه من "باندونغ" بتحليلات مفصلة ضافية عن المؤتمر والمشاركين فى فعالياته. ورغما عن أن المؤتمر قد جاء بأكثر مما توقع "الغرب"، إلا أن "فون منده" كان يساوره قلق متنام ... إذ بدا أن الولايات المتحدة تسعى إلى انتهاك حرمة منظماته. فعلى سبيل المثال، شهد "روسى نصار" المؤتمر ممثلا للجنة الوحدة القومية التركستانية ... الأمر الذى جعل "فون منده" يرسل "ولى قيوم" إلى القنصلية الأمريكية بميونيخ لمعرفة السبب وراء قيام "نصار" بالزعم بتمثيله لجماعة "قيوم" ... "قيوم" الذى أخبر المسئولين الأمريكيين بالقنصلية أنه يعلم كون "نصار" مدرجا على كشوف رواتبهم و"عطاياهم". وقد بهت الأمريكيون لمعرفة "فون منده" بترتيباتهم المالية بشأن "نصار"، فعمدوا إلى مواجهة "فون منده" بالأمر فى مقابلة ضمتهم وإياه عقيب ذلك بأسابيع قلائل ... مواجهة كان فحواها كون "فون منده" قد ذكر أن "روسى نصار" قد كان فى مكة فى العام الفائت، حيث أرسله الأمريكيون إلى هناك، وأنه قد تلقى مبلغ ستمائة دولار أمريكى من ممثل وكالة الاستخبارات المركزية بالقنصلية الأمريكية فى جدة. وقد أورد الأمريكيون أن "فون منده" قد أخبرهم بذلك الأمر لأنه أدرك أن تأدية تلك المهمة على نحو أخرق أرعن ليتعارض مع مصالح الولايات المتحدة.

إلا أن الأرجح هو أن تأدية المهمة على هذا النحو أو ذاك لم تكن ليلقى "فون منده" لها بالا. فما أوغر صدره وأجج ضغينته هو "شخص" من تقوم الولايات المتحدة بتجنيده. وبدا فى الأفق أن الحليفين الغربيين كانا على وشك صدام ... صدام سيفتح الأبواب أمام "قوة ثالثة".

الفصل السادس

تعلم الدرس

بحلول منتصف خمسينيات القرن العشرين، كان معظم "المرحلين" فى ألمانيا قد وجدوا مأوى لهم ... فالسجناء قد أعيدوا إلى أوطانهم، أما اليهود الناجون فقد هاجر أغلبهم إلى الولايات المتحدة الأمريكية أو إسرائيل، فيما تم إعادة توطين الملايين من "الإثنيين" الألمان، وذلك فى ألمانيا الغربية بالأساس. إلا أن طائفة كبيرة قد ظلت تحيا فى مخيمات – طائفة من أجانب بلا مأوى ولا وجهة ينزحون إليها ...

تلك الطائفة التى أطلقت صحيفة "فرانكفورتر ألغماينه" Frankfurter Allgemeine (١٩٥٢) على الواحد من أفرادها لفظة "رجل المعسكر" homo barrackensis – أى ذلك الذى كتب عليه أن يحيا فى داخل المعسكرات. وكان أفراد تلك الطائفة – فى مجملهم – من المسلمين. ففى زيارة لأحد الباحثين الاجتماعيين لمائتى ألبانى فى ضاحية "أوتوبرون" بجنوب ميونيخ، أورد الباحث أنهم كانوا يحيون حياة قاسية ... إذ كان يتقاسم الثمانية غرفة واحدة بلا كهرباء، وحيث كان المصدر الوحيد للمياه يبعد مسيرة ستمائة متر على الأقدام، فضلا عن إصابة العديد من الأطفال هناك بالسل ... بل كانت هناك لافتة مثبتة على المبنى من الخارج كتب عليها: "المبنى مهدم ... دخول المرء على مسئوليته الشخصية".

بيد أن مسلمى ميونيخ لم يكونوا جميعهم يحيون وفقا لتلك الشاكلة. إذ كان كثير منهم يملكون سكنا ويعملون بمشاريع، أو كانوا قد التحقوا بالعمل "باللجنة

الأمريكية" ... إلا أن الكثير - أيضا - كانوا بحاجة إلى المساعدة ... والتى جاءت على يد "إبراهيم كوجا أوغلو" ... وهو إمام فظ عى اللسان، لكنه مؤتمن أمين. ففى أثناء الحرب الكونية الثانية، كان "كوجا أوغلو" زعيما إسلاميا موثوقا. أما مولده فكان فى عام ١٩٠٢ بشمال القوقاز ... ذلك الزعيم الذى اتسم بولاء شديد للألمان. لقد كان معظم الجنود المسلمين الذين انخرطوا فى صفوف الألمان يتسمون بحداثة السن، إذ كان معظمهم لم يبلغ العشرين بعد ... فيما كان "كوجا أوغلو" يكبرهم كثيرا بما يجعله بمنزلة الأب فيهم ... كذا، فقد كان بسيطا ذا تعليم محدود، ومن ثم لجوؤه إلى الأصدقاء ليكتبوا له رسائله. وكان "الرجل" تقيا ورعا أكسبه كبر سنه تبجيلا ومهابة.

هذا، وقد أسس "كوجا أوغلو"، عام ١٩٥٢، جماعة دينية اسمها "الإسلام - الجماعة الدينية الإسلامية فى غرب أوروبا"، كان الهدف منها الحفاظ على "الدين"

وتعاليمه لدى المسلمين الذين قدر عددهم بنحو ثلاثة آلاف وكانوا ما يزالون يحيون - آنذاك - فى مخيمات "المرحلين" بألمانيا. وحين عمد "كوجا أوغلو" إلى تأسيس جماعته ... أعلن أن هدفه هو الحيلولة دون أن يفقد الجنود المسلمون ولاءهم لألمانيا ... فالمخيمات كانت قذرة للغاية إلى الحد الذى يدفع كثيراً من أولئك "المرحلين" إلى العودة ثانية إلى السوفييت.

أما "فون منده"، فقد ساند جماعة "كوجا أوغلو" الوليدة فى بادئ الأمر ... إلا أنه، ولأسباب غير واضحة، قد أبعد نفسه عنها سريعا. هذا، وقد يكون السبب راجعا إلى كون "كوجا أوغلو" فظا غير محنك بما لا يجعله أهلا لقيادة مسلمى ميونيخ، أو أن "فون منده" لم يكن، حينها، قد أدرك بعد أهمية توظيف "الإسلام" سلاحا فى خضم "الحرب الباردة" الدائرة، آنذاك، - وبالرغم من أن "فون منده" قد ساعد العديد من المسلمين، إلا أن جهوده فى هذا الإطار قد جاءت جزءا من جهود أعم لخدمة "اللاجئين" كافة. أو لعل المسئولين الأمريكيين كانوا قد أعطوا "كوجا أوغلو" قدرا أكبر من الأموال، وكانوا الأقرب إليه ... إذ كان "فون منده" يحيا، آنذاك، فى "دوسلدورف" ... فيما كان مقر أمكومليب يقع فى ميونيخ حيث كان "كوجا أوغلو". وفى غضون عامين اثنين، كان "كوجا أوغلو" يتولى الإشراف على توزيع "وجبات" الطعام التى كانت منظمة العون الإنسانى الأمريكية CARE[٥١] تقوم بحزمها فى عبوات ... حيث ذكر بعض المسلمين أنه كان يتلقى تلك "العبوات" من القنصلية الأمريكية فى ميونيخ. كذا، فقد كان "كوجا أوغلو" يتولى الإشراف على توزيع بعض السلع الواردة من "مؤسسة تولستوى"، والتى ورد ذكرها آنفا (راجع الفصل الرابع، والهامش ٣٤). وبحلول عام ١٩٥٥، كانت أمكومليب تمول "كوجا أوغلو" مباشرة، إذ قامت بتمويل الاحتفال بعيد الأضحى ... ذلك الاحتفال الذى أقيم فى المتحف الألمانى (وهو متحف التقنية والعلوم فى ميونيخ) ذى المبنى

المقام على غرار الكهوف ... ذلك المتحف الذى ضم محتويات كانت وكأنها جوقة تسبح بحمد العبقرية الألمانية فى العلم والصناعة. هذا، وقد عمد "كوجا أوغلو" إلى توجيه الدعوة للاحتفال بتلك المناسبة إلى العديد من المسلمين ... ذلك الحدث الذى جذب اهتمام "الميديا" المحلية.

وكان "كوجا أوغلو" صيدا ثمينا ... ذلك القوقازى الذى لقى دعما قويا من زميل شيشانى كان معلما بمدرسة وكالة الاستخبارات المركزية ببافاريا[٥٢]. وقد كان "لكوجا أوغلو" مريدون كثر، إذ حظى بشعبية جارفة لقاء أعماله الخيرية ... تلك التى أورد إحداها "الكسندر ميلبارديس"، والذى كان، آنذاك، نائبا لرئيس شئون اللاجئين بأمكومليب، إذ ذكر أن "كوجا أوغلو" قد هاتفه - ذات مرة - فى الرابعة فجرا حيث ناشده بأن يوافيه بعربته ليحمله لزيارة رجل يحتضر خارج ميونيخ. وقد أُخِذ "ميلبارديس" بوفاء "كوجا أوغلو"، فوثب فى العربة ليحمله عبر رحلة استغرقت ساعتين إلى قرية ذلك المحتضر. "لقد تولى كوجا أوغلو الإشراف على طقوس تجهيز الميت - حقا كم كان دمثا خلوقا" ... كلمات فاه بها "ميلبارديس" مكبرا شأن الرجل.

وسرعان ما أضحت قدما "كوجا أوغلو" راسختين فى المعسكر الأمريكى. ووفقا لميلبارديس، فقد كان ثمة منفعة متبادلة بين الأمريكيين و"كوجا أوغلو" الذى قام بعمل "دعاية" لمصلحتهم. إذا ... فقد صار للولايات المتحدة رجل بمقدوره قيادة مسلمى ميونيخ - وكأنما كمعادل لأولئك المسلمين الذين يوظفهم السوفييت لتتساوى كفتا الميزان. إلا أنه كان ثمة حماقة بشأن ذلك الجهد المبذول ... فموسكو قد بسطت نفوذها على ملايين القازاق والقيرغيز والتتر والأذربيجانيين، أما "بون" و"واشنطون"، فيمكنهما الزعم - فى أحسن الأحوال - بخضوع مئات أو آلاف قليلة فى ميونيخ تحت سيطرتهما. إلا أن الأمر الأكثر أهمية - فى عصر "الميديا" هذا -

كان وجود متحدث بلسان المسلمين يمكنه حضور موسم الحج، أو أن يكون ممثلا بمؤتمر أو بآخر معلنا نفسه زعيما مسلما ينتمى إلى الغرب يعيد الحريات وينتقد القمع السوفييتى للمسلمين. لقد كان "كوجا أوغلو" موضع ثقة الكثيرين بما له من أتباع ومريدين فى ميونيخ ... حيث تقاطر الآلاف للانضمام إلى عضوية جماعته الدينية.

هذا، وقد يكون "كوجا أوغلو" موضع احترام بمقدوره التواصل مع المسلمين فى "المعسكرات"، ولكن يبقى سؤال: "هل كان الرجل يملك سلطة تتيح له تمثيل "المسلمين الغربيين" على نحو موثوق فى المحافل الدولية؟ وهل كان بإمكانه التحدث باسمهم ومهاجمة الاتحاد السوفييتى؟... لقد كان العاملون بأمكومليب بنيويورك تخامرهم شكوك فى هذا الصدد ... لذا، فقد شرعوا يبحثون عن بدائل أخرى - كالبحث عن رجل سريع البديهة ألمعى ذى "كاريزما" طاغية وحضور آسر ... رجل يمكنه أن ينشط فى خضم حروب البروباغندا المحمومة تلك.

بادئ الأمر، لم يكن "روبرت دريهر" ذا كبير نفع للمسلمين ... ولكن بحلول أواخر الخمسينيات سيصبح الرجل الأكثر ارتباطا بزرعهم فى ميونيخ، إذ أضحى يشتهر بذلك. أما فى بداية عقد الخمسينيات، فقد كان "دريهر" عاشقا لكل ما هو روسى ... إذ كان يجد متعة بالغة فى مناحى الثقافة الروسية التى تتوافق واهتماماته. إن "دريهر"، ذلك الوسيم طويل القامة، قد انضم إلى أمكومليب ليتمكن من العودة إلى ألمانيا مستدعيا أوقاتا هنيئة أمضاها هناك كأحد رجال وكالة الاستخبارات المركزية. لقد كان بمقدور "دريهر"، عاشق الفودكا ومتحدث الروسية، أن يجارى أيا من أصدقائه الحميمين فى الرقص. فماذا عن "الإسلام"؟ ... كان "دريهر" - شأنه فى ذلك شأن غالبية العاملين بأمكومليب - لا يدرى كنه "الإسلام".

إلا أنه سرعان ما ستتبدل الحال، وذلك بفضل تأثير واحد من زملائه يدعى "برتيل إيريك كونيهولم" الذى كان يفضل "دريهر" مركزا وخبرة، كذا فقد كان أكثر تأثيرا وأمضى وقعا. لقد كان "كونيهولم" يترأس جناح "أمكومليب" السياسى، وهو ثالث ثلاثة أفرع لعملياتها، بخلاف "محطة الراديو" و"المعهد". أما إدارة العمليات السياسية، فكانت تتولى الإشراف على جهود أمكومليب المبذولة فى مجال الدعاية المستترة، والتى كانت موجهة - باطراد - إلى المسلمين على امتداد المعمورة بأسرها.

وينحدر "كونيهولم" من أصول اسكندنافية، فأمه سويدية تدعى "ماريا فيلتمارش"، وأبوه فنلندى يدعى "إيريك يوهان كونيهولم". هذا، ويجيد "كونيهولم" اللغتين السويدية والفنلندية، فضلا عن الألمانية والروسية ... وقد أكسبته خلفيته الأممية المتمثلة فى إجادته للغات عدة وهيئته ووسامته - حظوة بالمقارنة مع غيره من العاملين الأمريكيين بأمكومليب. لقد كان "كونيهولم" متشككا بشأن الروس من ذوى الإثنيات ... فلم يكن يثق قط فى إمكانية إطاحتهم الاتحاد السوفييتى، إذ رأى أن مفتاح ذلك كله إنما يكمن فى "الأقليات". كذا، فكثيرا ما كان "كونيهولم" يمضى بعض الوقت مع "غير الروس" من تتر وأوزبك وآخرين بدعوتهم لتناول العشاء رفقته فى المنزل ليتسامروا بشأن "الوطن الأم" حول كئوس من الشراب مترعة. أما استخبارات ألمانيا الغربية فقد صنفت "كونيهولم" انشقاقيا حريصا على تقسيم الاتحاد السوفييتى عن طريق تأليب "غير الروس" وإثارتهم ضد "الروس".

لقد كان لكونيهولم باع طويل وخبرة ضافية فى المهام الاستخباراتية فيما بين الدول. ففى أثناء عمله الحكومى، وتحديدا فى وزارة الخارجية الأمريكية، كان "الرجل" مراقبا للمذبحة النازية ضد اليهود عام ١٩٣٨، حيث قام بإعداد تقرير عنها

... تلك المذبحة المسماة "ليلة البلور" Kristallnacht[٥٣]. كذا، فقد شهد "كونيهولم" التظاهرات للمطالبة بسقوط شاه إيران، والتى جرت وقائعها فى العاصمة "طهران" ... إذ كان يتولى الإشراف على الشحنات المرسلة إلى الاتحاد السوفييتى خلال الحرب الكونية الثانية، وذلك بمقتضى "قانون الإعارة والتأجير"[٥٤]. وبعد ذلك، قام "كونيهولم" بمراقبة حركات التمرد فى فلسطين والتى اندلعت إثر إعلان نشأة "إسرائيل". أما فى أمكومليب، فقد كانت مهام "كونيهولم" استراتيجية، ونادرا ما كان يسافر إلى خارج البلاد. ويستدعى العاملون ذكراه بأنه انخرط فى رسم السياسات وتحديد المعايير والضوابط.

أما "دريهر"، فكان على النقيض تماما من "كونيهولم" ... إذ انطوت شخصيته على "توليفة" غريبة جمعت ما بين سحر ترحابى مصطنع، وحماسة أيديولوجية متوقدة. إن "دريهر"، المولود فى ولاية "بنسلفانيا" الأمريكية عام ١٩١٦، ينتمى إلى أصول ألمانية. ولقد جاءت أحداث "الكساد العالمى الكبير" عام ١٩٢٩، وما تلاه من أعوام ... لتشكل شخصية "دريهر" وتصقلها ... إذ كان فى الثالثة عشرة عند بداية الكساد ... إذ يذكر دائما قيامه، آنذاك، بادخار كل نقود يتم التحصل عليها. هذا، وقد التحق "دريهر" بكلية "لافاييت" فى "ابستون" ببنسلفانيا، والتى تقوم بتدريس الفنون الحرة والهندسة، حيث كان مجتهدا يقضى أربعين ساعة فى الأسبوع فى كد وتعب إلى أن تخرج بامتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٣٨ فى تخصص "الهندسة الميكانيكية". وشأنه فى ذلك شأن العديد من الأمريكيين الذين عانوا شظف العيش والحرمان خلال سنى "الكساد الكبير"، وجد "دريهر" نفسه منجذبا إلى وعود الاتحاد السوفييتى بالعدالة والرفاه. وفى عام ١٩٣٨، التحق "دريهر" بشركة "استاندرد أويل" فى "نيوجيرسى" ... أما العام التالى (١٩٣٩)، والذى شهد إقامة "المعرض العالمى"

فى نيويورك[٥٥]، فقد أعجب "دريهر" بالمعرض أيما إعجاب حيث كان جناحه "المفضل" جناح "الاتحاد السوفييتى"[٥٦]. "واعتبارا من ذلك الوقت فصاعدا، كنت أتابع كل ما يمت بصلة للسوفييت بشغف محموم إلا أنه حضارى منظم"، وذلك وفقا لما قاله "دريهر" لاحقا ..."فقد كنت التهم الكتب والصحف المصدرة حديثا ... والتى كانت – وكما اتضح لاحقا – ذات توجه موال للسوفييت بشدة، بل وعلى نحو سخيف".

كذا، فقد شرع "دريهر" فى دراسة الهندسة بجامعة "كولومبيا" الأمريكية، إلا أنه انضم إلى سلاح البحرية حين اندلعت الحرب الكونية الثانية، حيث أتاحت له مهاراته الهندسية وظيفة مكتبية فى "جاكسون فيل" بولاية فلوريدا ليعمل لدى أحد مراقبى بناء السفن. وحين هدأ اضطرام الحرب، اعتمد سلاح البحرية مذكرة لانتقاء متطوعين لدراسة اللغة الروسية. عند ذلك، التحق "دريهر" بتلك الدراسة ليختلف إلى مدرسة اللغات فى "بولدر" بكولورادو ... حيث أتم الدراسة عام ١٩٤٦ بعد انقضاء الحرب، فكان من الممكن – إذا – أن يتم تسريحه. إلا أنه فى ذلك الوقت، فإن ضابط الاتصال البحرى مع الاتحاد السوفييتى فى ميناء "أوديسا"، الميناء الأوكرانى على البحر الأسود، كان قد تقدم بالاستقالة ... وهنا سئل "دريهر" عما إذا كان راغبا فى تمديد خدمته ليحل محل ذلك الضابط.

"أيمكننى هذا؟ كان جواب "دريهر" ... ليتم إرساله إلى الاتحاد السوفييتى حين شرعت "الحرب الباردة" تكتسب زخما.

لقد كانت "أوديسا" الموضع الذى أكسب "دريهر" صيتا وشهرة ... "أوديسا"، ذلك الميناء الذى تعبر من خلاله جل مساعدات "الأمم المتحدة" الإنسانية إلى الاتحاد السوفييتى الذى أنهكته الحرب كثيرا. وكانت معظم تلك المساعدات تحمل بواسطة

السفن الأمريكية، ومن ثم دور البحرية فى الإشراف على أسطولها الصغير وتأمينه. إلا أن التوترات قد أخذت تتنامى وتيرتها فيما بين "الحليفين" السابقين. وفيما كان "دريهر" يطوى بعض الأوراق الخاصة بالعمل، والتى كان قد فرغ من إعدادها، قاصدا الولايات المتحدة ... إذ تم احتجازه عقب مشادة لم تطل حيث طرد على الفور من الاتحاد السوفييتى. هذا، وقد تصدرت الواقعة الصفحة الافتتاحية لصحيفة "نيويورك تايمز" الصادرة فى السادس عشر من آب/ أغسطس ١٩٤٨ ... حيث زعمت الولايات المتحدة أن "دريهر قد تم تجنيده مقابل بعض أموال أغرى بها، فيما ذهبت صحيفة Pravda السوفييتية (الحقيقة) إلى كون "دريهر" يعمل جاسوساً.

هذا، ولا يمكن إغفال المزاعم السوفييتية أو اعتبارها ضربا من البروباغندا ... إذ عمل "دريهر" لدى "مكتب الاستخبارات البحرية"، ووفقا لروايته هو، فقد أمضى الكثير من وقته بأوديسا متجولا بعربته فى ربوع الريف هناك ليحمل عليها بعضا ممن كانوا يلتمسون "توصيلة" بالمجان إلى هذا المكان أو ذاك hitchhikers، فضلا عن اكتساب صداقة أى ممن كان يصادفهم وقتها. أما فى موسكو، فقد كانت له مغامرة عاطفية مع طالبة روسية تدرس العلوم الطبية، وتدعى "غالينا سبيريدونوفا" ... حيث أفاد من استغلاله لكفاءاتها البحثية. هذا، وقد قام "دريهر" بإخبار الأدميرال "ليزلى ستيفنز"، كبير مسئولى البحرية بالسفارة الأمريكية بموسكو، عن مغامراته العاطفية تلك.

"لقد كانت لى – فى الاتحاد السوفييتى – علاقات مباشرة حميمة مع أناس كثر تعددت مشاربهم وتباينت مستويات تعليمهم ووظائفهم ومداخيلهم ... كذا، فقد تنوعت انتماءاتهم السياسية، وذلك أثناء السنوات الحرجة التى أعقبت انقضاء الحرب الكونية الثانية ... علاقات فاقت أية علاقات قد يكون أقامها أمريكى آخر، بل

وأى أجنبى ينتمى إلى هذه الدولة أو تلك. إنه من المؤكد كون ملفى بجهاز أمن الدولة السوفييتى ملفا متخما بأكثر من أى ملف لمن جايلونى من أجانب هناك"(١).
كانت تلك كلمات "دريهر" الواردة بالفصل الافتتاحى لكتاب غير منشور يروى فيه بعضا من مغامراته "الروسية".

وبعدها بسنوات، حين كتب "دريهر" عن واقعة القبض عليه ... أورد كونه موقنا أنه قد تم استجواب أولئك ممن حملهم فى عربته – وبعبارة أخرى، فقد كان مدركا أنه قد تم تعقبه وملاحقته. أما فيما يخص "غالينا سبيريدونوفا"، فقد توقع "دريهر" أن يكون قد تم القبض عليها بسبب حماقتها وطيشها – وهو عين ما حدث بالفعل، حيث أمضت "غالينا" سنوات طويلة فى معتقلات سيبيريا كادحة فى إصلاح الطرق وأكل عصائد الشعير[٥٧]. أما "دريهر" فقد عزا القبض عليها لا إلى حماقته، بل إلى "السوفييت".

هذا، وقد صقلت "دريهر" التجربة وأكسبته حنكة، وجعلته أحد محاربى أمكومليب الأشاوس شديدى المراس إبان "الحرب الباردة". وفى أعقاب طرده من الاتحاد السوفييتى قفل "دريهر" راجعا إلى الولايات المتحدة ليترأس "ديسك" الاتحاد السوفييتى التابع للاستخبارات البحرية الأمريكية. وبعد ذلك بثلاثة أعوام، وتحديدا فى عام ١٩٥١، التحق "دريهر" بوكالة الاستخبارات المركزية، والتى أورد باستمارة الالتحاق بها السبب الذى دفعه إلى ترك سلاح البحرية الأمريكى بأنها رغبة منه فى أن يدلى دلوه مباشرة فى عملية "التحرير" ... تلك السياسة الأمريكية الجديدة الداعية إلى إطاحة "الشيوعية" بلا هوادة، لا إلى احتوائها. وأنه التحق

---

(١) جهاز أمن الدولة السوفييتى MGB هو الجهاز الذى جاء جهاز الاستخبارات السوفييتى KGB ليخلفه.

بالوكالة فى وقت كانت ما تزال فيه جبهة المواجهة ضد أى صراع كبير متوقع. ونظرا لكون "دريهر" يعتنق الديمقراطية وفقا للنهج "الروزفلتى"، فلم تكن ليبراليته لتتعارض والعمليات "المغطاة"، إذ عدها إحدى وسائل القضاء على دولة سلطوية شمولية.

إن سيرة "دريهر" الوظيفية والعملية لتبدو وكأنها قد قدت لتناسب المهام "المغطاة" أيما تناسب. على أن الأمر لم يقتصر فحسب على إجادته الروسية، وكذا الألمانية – ولو على نحو أقل، أو خبراته المكتسبة فى حقل الاستخبارات العسكرية ... وإنما كان المحك "حياته الشخصية"، والتى بدت باستمارة الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية صفحة ناصعة البياض ... إذ كان له، آنذاك، ثلاثة أقارب فحسب: أب وأم وأخت ... قد ولدوا جميعا بالولايات المتحدة، كذا ... فإن "دريهر" لم يتزوج قط، فضلا عن عدم انخراطه فى صفوف أى من الأحزاب السياسية أو أى كيان قد يكون مثارا لجدالات واسعة – بأكثر من جمعية [٥٨] –Phi Beta Kappa– أو الجمعية الأمريكية للمهندسين الميكانيكيين. كذا، فلم يسبق لدريهر الحصول على قرض ... إذ أبدى فى استمارة الالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية أسفه لإضاعته سيولة مالية كبيرة ابتاع بها عربته "الشيفروليه" من طراز ١٩٤٨ .

أما محددات انتقاء المرء للالتحاق بوكالة الاستخبارات المركزية فلم تكن،آنذاك، تتوخى قدرا كبيرا من دقة. ففى استمارة التحاقه بالوكالة، نفى "دريهر" – كتابة – أن يكون ثمة ما قد يثير الشبهات حوله بشأن مسار حياته الخاصة. إلا أن "دريهر" – فى واقع الأمر – كان "زير نساء"، بل كان يفاخر أمام الأصدقاء والزملاء مباهيا بانتصاراته فى تلك "الغزوات النسائية" ... بيد أن ذلك لم يكن – بحد ذاته – حائلا دون قبول الوكالة لإلحاق أيا من كان بها، إلا أن "دريهر" كان قد شرع– فى رحلة

سابقة إلى ميونيخ - فى إقامة علاقة حميمة طالت كثيرا مع سيدة ذات أصول إثنية صينية. أما العلاقة فقد أفضت إلى أن وضعت السيدة مولودة، وهو الأمر الذى ظل سرا بين "دريهر" وعشيقته تلك ... لقد كان "التحرر" و"العلاقات النسائية" قطبى حياة هذا الرجل.

هذا، وقد أرسلت وكالة الاستخبارات المركزية "دريهر" ثانية إلى ميونيخ ليمضى بها عاما، إلا أنه سرعان ما أسرج جواد الأوبة إلى الولايات المتحدة، إذ كان قد منح وظيفة فى نيويورك ليعمل ضمن فريق أمكومليب المؤسسة حديثا ... والتى كان يترأسها الأدميرال "ليزلى ستيفنز" - رئيسه القديم بموسكو. وقد كان "دريهر" الرجل الثانى فى أمكومليب كضابط اتصال لوكالة الاستخبارات المركزية بها، محتفظا برتبته وبدخله من "الوكالة"، حيث لم تمض إلا أعوام قلائل حتى رجع "دريهر" إليها. أما فى أمكومليب، فقد أعطى وظيفة مرموقة للغاية - رئيس إدارة دعم برامج "الراديو" - فكانت مسئوليته فحص "المادة" المعدة فى ميونيخ وتدقيقها، وكذا ضمان أن تؤتى الرسالة الصائبة أكلها إذ هى أصابت الهدف ... هذا، وقد أجزلت أمكومليب العطاء لدريهر إذ منحته ١٠٠٠٠ دولار أمريكى فى العام، وهو مبلغ كبير فى تلك الآونة، فضلا عن كونه من أعلى المبالغ الممنوحة من قبل أمكومليب لمسئوليها.

وقد لحق "دريهر" بكونيهولم بمقر أمكومليب بنيويورك المتاخم لـMadison Avenue محور حركة الدعاية العالمية وقبلتها. هذا، ويقع فندق "روزفلت" فى الشارع ذاته ... وهو محل يقصده العاملون بأمكوليب أحيانا لتناول شراب أو آخر عقب ساعات الدوام. أما المكاتب نفسها، فكانت تبعث على السكينة والهدوء. هذا، وقد شيدت البناية ذات الأربعة عشر طابقا، والتى تشغلها أمكومليب من حجر رمادى اللون. أما الداخل فكان يحوى سجادا ذا ألوان هادئة ومصابيح باهرة لها

طنين، تنشط بأرجائه سكرتيرات هادئات الطباع. وقد ذكر أحد العاملين اليهود أنها كانت تبدو وكأنها بنك للأمريكيين ذوى الأصول الأنجلو/ ساكسونية مما أشعره بعدم الارتياح.

وعلى الرغم من أن العاملين فى أمكوملیب بميونيخ كانوا ينعمون بهامش كبير من حرية، إلا أن الأمر كان مختلفا فى نيويورك حيث كان كل من "كونيهولم" و"دريهر" – على وجه الخصوص – يصوغان الاستراتيجية ويضبطان الإيقاع ... الأمر الذى خلق صدعا معضلا فيما بين العمليات التى تجرى وقائعها فى ميونيخ وبين مقر الإدارة فى نيويورك. لقد خال العاملون فى ميونيخ مكتب نيويورك برجا عاجيا يحتضن غلاة مناهضى الشيوعية عاجزا عن فهم فسيفساء التعامل مع أناس ينتمون إلى ثقافات مغايرة ... ذلك التعامل الملغز المعقد، والذى سيضحى سافرا – على وجه الخصوص – حين تيمم أمكوملیب اهتمامها شطر "الإسلام".

إلا أن "دريهر" كان قد بات ضجرا برما بالعيش فى "أمريكا الخمسينيات" ... لذا، فقد عمد إلى استئجار سكن فى بناية شيدت من حجر رملى أسمر فى Greenwich Village الواقعة فى الجانب الغربى من "مانهاتن" السفلى بنيويورك سيتى ... حيث كان يحيا بها حياة رجل أعزب يحتال للعودة إلى أوروبا. وكان لدى "دريهر" أسباب مهنية لتلك العودة. فوفقا له، كان أداء "راديو الحرية" جيدا، إلا أن المهام "المغطاة المستترة" قد ظلت ضعيفة عاجزة بحاجة إلى تعضيد ومؤازرة. أما الكيفية التى سينجز بها ذلك فلم تكن قد تبلورت بعد. أما "كونيهولم" – رئيسه فى العمل" فكان المخول بصوغ استراتيجية أمكوملیب أنى شاء.

فى الأعوام الباكرة من "الحرب الباردة" لم يكن رجال وكالة الاستخبارات

المركزية من أمثال "روبرت دريهر" يختلفون كثيراً عن المألوف ... إذ كانت الوكالة تضم فصيلين: المهنيين ممن عملوا لدى وكالات استخباراتية مختلفة إبان الحرب الكونية الثانية، والوافدين الجدد غريبى الأطوار. وكان الكثيرون ممن ينتمى إلى الفصيل الأخير قد شهدوا الحرب إلا أنه قد تم تجنيدهم لحساب وكالة الاستخبارات المركزية لتحقيق هدف بعينه ظل ماثلا فى الأذهان، ألا وهو إحياء الوكالة التى كان ينظر إليها - حينها - على أنها مغرقة فى البيروقراطية، وكأنها بحيرة من ماء آسن. ولقد كان "دريهر" ينتمى إلى ذلك المعسكر (الفصيل) الأخير.

هذا، وقد كان منشئ ذلك الفصيل ومصدر إلهامه - "فرانك غاردنر ويزنر" (١٩٠٩ - ١٩٦٥)، أحد الرموز الأسطورية فى تاريخ الاستخبارات الأمريكية. وينحدر "ويزنر" من عائلة ميسورة بالميسيسبى، وقد عمل محاميا بسوق الأوراق المالية فى "وول ستريت" قبل أن يلتحق بسلاح البحرية الأمريكى فى الحرب الكونية الثانية. إلا أنه سرعان ما عمل لدى "مكتب الخدمات الاستراتيجية" والتى كانت بمنزلة وكالة استخبارات تلك الحرب الكونية - ليشهد، مباشرة، اجتياح السوفييت لجنوب شرقى أوروبا والحرب ماضية إلى أفول. وعقب تسريحه، عاد "ويزنر" ثانية إلى "وول ستريت" حيث كان "آلان ويلش دالاس" - المسئول السابق بمكتب الخدمات الاستراتيجية يعمل هناك. وكان الاثنان يلتقيان بانتظام لتناول وجبة الغداء والتحسر على قيام حكومة الولايات المتحدة بتمزيق أوصال جهاز خدماتها الاستخباراتية. وهنا يتذكر صديق[٥٩] قد شهد إحدى وجبات الغداء تلك أنهما قد راودتهما الآمال للعودة مرة أخرى إلى وكالة الاستخبارات المركزية، قائلا: "إنهما كانا رومانسيين حالمين خالا نفسيهما بطلى تحرير هذا "الكوكب" ومحور خلاصه".

فى عام ١٩٤٧، عمد "دين آتشيسون"[٦٠] إلى تجنيد "ويزنر" فى وزارة

الخارجية الأمريكية، ومراقبة النشاط السوفييتى فى أوروبا الشرقية. وقد قام "ويزنر" بشراء مزرعة فى "ماريلاند"، ومنزلا فى "جورج تاون". إن "ويزنر" ... ذلك الرجل المكتنز قوى البنيان الذى اشتهر بألمعيته وذكائه - قد أضحى "نجم" حفلات العشاء التى ضمت الصفوة النخبوية فى واشنطن، حيث جادل بقوة لصالح اتخاذ فعل ما ضد السوفييت. وككثير غيره فى واشنطن، شعر "ويزنر" أن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى وكالة جديدة للقيام بذلك ... وكالة لا تدين بالفضل لأى سياسى أو موظف حكومى - وكالة قادرة على درء السيئة السوفييتية بسيئة مماثلة.

بيد أن حقيقة الأمر أن كان - بالفعل - ثمة وكالة بالولايات المتحدة كتلك التى تحدث عنها "ويزنر"، فقد كان لدى وكالة الاستخبارات المركزية الوليدة "مكتب العمليات الخاصة" Office of Special Operations - OSS، والذى ضم عددا من خبراء الاستخبارات المخضرمين. بيد أن "الوكالة" كانت تأتمر بأوامر مجلس الأمن القومى الأمريكى ... وهو ما يعنى كونها محاسبة ومراقبة من قبل حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وعلى الرغم من أن "مكتب العمليات الخاصة" كان قد فرغ لتوه من التدخل بنجاح فى الانتخابات الإيطالية[61] للحيلولة دون انزلاق إيطاليا فى غيابات الشيوعية، إلا أنه قد نظر إلى "المكتب" كونه منخرطا فى مهام جاسوسية، لا فى مناشط سياسية.

هذا، وقد شرع "ويزنر" فى محاولة لكسب التأييد لمشروع وكالته "الجديدة" وفى عام ١٩٤٨ كان له ما سعى إليه إذ أنشأ كيانا تحت اسم "مكتب تنسيق السياسات" اتخذ من وكالة الاستخبارات المركزية مقرا له، إلا أنه لم يكن يأتمر إلا بأمر وزارتى الدفاع والخارجية الأمريكيتين. وقد تم تخويل "ويزنر" مسئولية "المكتب" الوليد ليضحى، من فوره، أحد أكثر الرجال نفوذا فى حكومة الولايات

المتحدة الأمريكية. كذا، فقد سعى "ويزنر" حثيثا لتجنيد "اللاجئين" فى أوروبا باعتبارهم جيشا من مناهضى الشيوعية الساخطين، أو كذلك كانت صورتهم لديه ... جيشا يتوق إلى القتال فى تلك "الحروب الساخنة" التى باتت قاب قوسين أو أدنى. ولإدارة العمليات، سعى "ويزنر" إلى البحث عن "رجال استثنائيين"، فقام بتجنيد العديد من "وول ستريت" إيمانا منه بكونهم يتمتعون بعقلية تنشد المغامرة والمخاطرة ... تلك التى يتم التوسل بها لإنجاز المهام. كذا، قام "ويزنر" بتكثيف التجنيد من "مدارس رابطة اللبلاب" – وهى رابطة تعليمية ورياضية تجمع ثمانى من أشهر جامعات الولايات المتحدة وأقدمها. هذا، وقد عمد "ويزنر" إلى إقناع المسئولين بواشنطن بأن فريقه قد ضم "صفوة الصفوة" ... تلك الصفوة التى كانت تكافأ بمبالغ طائلة. ويفصح مرآب السيارات الخاص بوكالة الاستخبارات المركزية عن الفرق بين عملاء "مكتب العمليات الخاصة"، وعملاء "مكتب تنسيق السياسات"، إذ يقود رجال الفريق الأول عربات من طراز "شيفروليه"، و"فورد" ... فيما يقود رجال الفريق الآخر عربات من طراز "جاكوار"، و"موريس MG".

فى أوج الحرب الكورية، والقتال على أشده ... قام بعض من رجال "مكتب تنسيق السياسات" باختطاف شاحنة نرويجية كانت متجهة صوب كوريا الشمالية ... إلا أن النجاح لم يكن ليحالف "ويزنر" على طول الخط، إذ خابت مساعيه فى بعض الأحايين وفشلت ريحه فشلا محققا – إذ أعطى ضابطا بولنديا ذات مرة أربعمائة ألف دولار أمريكى لقاء تعهد الضابط بأن يوافى ميونيخ بأحدث طرز المقاتلات السوفييتية. إلا أن "البولندى" هذا قام بإنفاق المبلغ على ملذاته ... ما بين أقداح الشمبانيا ومخادع العاهرات بأحد فنادق ميونيخ. كذا، فقد انتشرت، آنذاك، ممارسات غرائبية – فعلى سبيل المثال، ولإظهار أن بإمكان "مكتب تنسيق

السياسات" الإتيان بأى فعل كائنا ما كان - عمد اثنان من "المكتب" إلى إغلاق تقاطع اثنين من أهم شوارع نيويورك[٢]، حيث قاما بحفر حفرة كبيرة هناك ثم انصرفا فى هدوء وكأن أمرا لم يكن. "لقد كان ضربا من مزاح" ... ذلك كان تعقيب "توماس برادن"، من وكالة الاستخبارات المركزية، بشأن تلك الواقعة!! أما "ويزنر"، فقد كان يتيه مفاخرا أن صنيعته المسماة "مكتب تنسيق السياسات" كانت كأنما هى "أرغن عملاق"[٦٢] ... أرغن يمكن أن يعزف بواسطته أى لحن ... من نغمة الدبلوماسية الحانية إلى هدير المعارك الضارية. وكانت أنغام ذلك الأرغن العملاق تضخم لتحدث دويا أكبر بواسطة مكبرين للصوت - عملاقين بدورهما: راديو "الحرية"، وراديو "أوروبا الحرة".

إن "مكتب تنسيق السياسات" لم يكن جمعية سرية. فالكيان المكون من سياسيين ومسئولين وصحافيين من ذوى النفوذ فى العاصمة الأمريكية خلال أربعينيات القرن العشرين ... كان أعضاؤه جميعهم مؤمنين بأن الولايات المتحدة يتحتم عليها محاربة السوفييت. ولم يكن العصر، آنذاك، عصر الجاسوس "جورج سمايلى" ... تلك الشخصية المختلقة فى روايات "جون لوكاريه" ... الشخصية المستهلكة منهوكة القوى التى تعمل فى محيط من الغموض. إن "مكتب تنسيق السياسات" قد ضم رجالا تغمرهم ثقة ويحدوهم طموح ... رجالا على يقين أن بإمكانهم محاربة "ستالين" مثلما تمكن الجنود الأمريكيون - فيما مضى - من هزيمة هتلر وأيديولوجيته النازية. إذا، فقد آن الأوان ... إذ كان هؤلاء الهواة المتحمسون قد أخذوا أهبتهم للوقوف فى وجه جهاز الاستخبارات السوفييتى KGB. وكان كل ما يحتاجون إليه: حلفاء أكفاء من بين زمرة اللاجئين.

2- Madison Avenue & 42nd Street.

خلال أيلول/ سبتمبر ١٩٥٥، وسا "برتيل كونيهولم" فى اسطنبول حيث قام بحجز مضجع بإحدى عربات النوم فى القطار الليلى المتجه إلى أنقرة، ثم يمم قاصدا مطعم "الحاج عبد الله" أو "حاجى عبد الله" الشهير فى اسطنبول لعشاء خفيف ... "ثم ما لبثت أن فتحت أبواب جهنم" ... ذلك ما كتبه "كونيهولم" فى رسالة بعث بها إلى زملائه فى نيويورك. إذ تحولت المسيرات الغاضبة المناهضة للوجود اليونانى فى جزيرة قبرص إلى تظاهرات مناهضة للمسيحية اتسمت بلون من كراهية الأجانب. وفى البدء، تم استهداف المصالح التجارية اليونانية فحسب، إلا أنه مع حلول الليل كانت كنائس ست قد أتلفت تماما. أما الكاتدرائية المجاورة للمتحف البحرى العسكرى، فقد أضرمت فيها نيران ظلت مشتعلة طيلة ساعات الليل فأضاءت خليج "البوسفور". وكديدنه حين يشهد أحداث عنف تواترت تباعا قبالة ناظريه، عمد "كونيهولم" إلى كتابة تقرير أصم عن الواقعة، جاء فيه أن التظاهرات لم تكن عفو الخاطر أو تلقائية بمثل ما زعمت الحكومة، بل كانت منظمة على نحو فائق بواسطة جماعات قومية متطرفة مناهضة لليونانيين. أما الحل الذى اقترحه "كونيهولم" فى هذا الصدد، فكان مزيدا من تدخل الدولة.

ولقد لقى موقف "كونيهولم" هذا ترحيبا واسعا من "معارفه" بالبوليس السرى التركى ممن ارتأوا أن الحاجة تعن إلى مزيد من إعمال القانون وفرض الانضباط. أما "كونيهولم"، فكانت رحلته إلى تركيا ذات طبيعة خاصة، إذ كان يرغب فى حشد المسلمين للانضمام إلى الحرب الدعائية المستترة لأمكومليب فى العالم الثالث. بيد أن تركيا كان قد ساورها القلق من أن يعمل الدعم الأمريكى على تشجيع اللاجئين على مطالبة الحكومة التركية بمساعدتهم. أجل ... لقد كان الأتراك يؤيدون أهداف مهمة "كونيهولم" وجهوده المناهضة للشيوعية، إلا أنهم كانوا بحاجة إلى الاطمئنان إلى عدم انفلات اللاجئين من عقالهم، وشروعهم فى حملاتهم التمردية الغاضبة.

لذا، فقد أكد لهم "كونيهولم" أن المهمة ستكون محكمة وسرية. هذا، وقد قام الأتراك بتقديم التهنئة إلى "كونيهولم" لإرساله "روسى نصار" إلى "باندونغ" لحضور مؤتمر "دول عدم الانحياز". أما أن نجاح "نصار" كان يرجع - فى الأساس - إلى تشديده على مفهوم "الإسلام"، فإن ذلك ما بقى مسكوتا عنه.

إن جولة "كونيهولم"، والتى استغرقت نحوا من ستة أسابيع، قد أجريت بعد أن قامت أمكومليب بهجر النسق القديم لقسر اللاجئين "الروس" و"غير الروس" على العمل معا. أما الهدف، فكان إرساء مجموعة مواجهة لإدارة "راديو الحرية"، بحيث تبدو أنها منشأة جماهيرية انبثقت من رحم القاعدة الشعبية، وليس كيانا استخباراتيا. إلا أن ذلك الأمر قد منى بفشل محقق بالرغم من جهود دبلوماسيين محنكين من أمثال "إسحاق باتش"[٦٣]، الذى ورد ذكره آنفا. ومن الجلى أن الولايات المتحدة الأمريكية كانت بحاجة إلى تخصيص وقت أطول للتفكير بشأن كيفية توظيف "الإسلام"، على ألا يكون هذا التوظيف مرتكناً إلى كتلة "مسلمة" كبيرة العدد لتجنيدها. وكانت جولة "كونيهولم" فرصة مواتية للتفكير وإنعام النظر وصوغ أفكار جديدة. فخلال ستة أسابيع أو نحوها قضاها بين مواقع عدة، تمكن "كونيهولم" من مقابلة جميع زعماء اللاجئين إلا قليلا - وذلك فى كل من باريس وميونيخ واسطنبول وأنقرة، حيث كانت الأغلبية من المسلمين.

وكان أحد أولئك الزعماء ... سعيد شامل، والذى تنتمى عائلته إلى أبرز العشائر الداغستانية. ففى القرن التاسع عشر، قاد جده الإمام "سعيد شامل الداغستانى النقشبندى" الجهاد ضد التوسع الروسى فى القوقاز، إلا أنه اضطر فى النهاية إلى الاستسلام، ثم سمح له بالحج إلى مكة ... حيث جاور فى المدينة المنورة حتى وفاته عام ١٨٧١ . وكان الإمام قد اشترى بعض أراض هناك أضحى لها قيمة نقدية كبيرة فى القرن العشرين فقامت العائلة ببيعها والارتحال إلى سويسرا.

أما الحفيد، محمد سعيد شامل (١٩٠١ - ١٩٨١) فقد شارك فى جهود "النازى" فى توظيف "الإسلام". وبعد انقضاء الحرب الكونية الثانية، عاد "شامل" إلى سويسرا وانخرط فى الجهود الرامية إلى توحيد الصف الإسلامى على امتداد المعمورة. وبحلول عام ١٩٥٥، صار "شامل" قريبا من الأمريكيين. هذا، وقد أورد "الكسندر ميلباردیس"، نائب رئيس شئون اللاجئين بأمكوملیب، كيف كان الأمريكيون ينظرون إليه: "لقد كانت عائلة شامل ذات صيت وثراء ... نحن نريده فى صفوفنا".

وقد أوضحت وثائق الاستخبارات الأمريكية أن "شامل" كان يرفد الأمريكيين بمعلومات عن زعماء اللاجئين، مما يدل على أنه كان متعاونا معهم، إن لم يكن قد عمل لحسابهم مباشرة. إلا أن نمط حياة "شامل" فى الغربة قد دفع الكثيرين إلى التساؤل عما إذا كان بوسع "الرجل" مساعدة الولايات المتحدة الأمريكية. وفى هذا الصدد، فقد أورد "كونيهولم" أن "شامل" كان يحيا فى القوقاز، إلا أنه - وفى أعقاب الغزو الشيوعى - لم يعد ثانية إلى أرض الوطن، بل جال طوافا ما بين المدينة المنورة، ومكة، وبيروت، والقاهرة، و ... وجنيف بطبيعة الحال.

وفى ميونيخ، التقى "كونيهولم" - ثانية - بعض المسلمين ... وكان لقاء ضم قرابة جميع المنخرطين فى الجهود الرامية إلى توظيف "الإسلام"، من أمثال "على قنطمير"، والذى وصفه "كونيهولم" ساخرا بأنه "ماكر وداهية كديدنه، إذ تحلى بروح الخداع والمكيدة كعادته". وكذا، "أحمد نبى ماغوما"، والذى قال عنه "كونيهولم" إنه "ثورى قديم لطالما تلقى أموالا "بريطانية" لسنوات وسنوات، وذلك فضلا عن كون الاثنين - "قنطير" و"ماغوما" - قد ربطتهما علاقات وثيقة بالاستخبارات الأمريكية طالت كثيرا. كذا، فقد التقى كونيهولم "غريب سلطان" وغيره من موظفى أمكوملیب العاملين براديو "الحرية"، والذين ناشدوا بمهلة إضافية كيما يتمكنوا من الإتيان

"بفعل سياسى ... "الفعل السياسى" - هذا هو "الشيفرة" الدالة على أعمال البروباغندا المستترة كتلك التى كتب لها نجاح فى موسم الحج وخلال مؤتمر "باندونغ" على حد سواء ... وذلك عوضا عن مجرد بث دعايات مناهضة للسوفييت. هذا، وقد أخبرهم "كونيهولم" أن "الفعل السياسى" سيتم التنسيق بشأنه من خلال اسطنبول، حيث كانت أمكومليب تنسج خيوطا لروابط ومعارف أفضل.

وكان "إبراهيم كوجا أوغلو" التالى على قائمة "كونيهولم" لزعماء اللاجئين من ذوى التأثير. وبالرغم من أن أمكومليب كانت قد شرعت - آنذاك - فى دعمه وتعضيده، إلا أن "كونيهولم" لم يكن متحمسا لذلك. فوفقا له: "ثم وفد السيد كوجا أوغلو - صاحب الجماعة الدينية الإسلامية فى غرب أوروبا - رفقة اثنين من تابعيه لالتماس المساعدة للجماعة. إلا أننى قد شجعته على استحياء، إذ أومن أنه يجب ألا تكون لنا أدنى صلة بشخصية بغيضة كتلك ... شخصية يحمل ماضيها الكثير مما تدور حوله الشبهات، فضلا عن كونها شخصية سيئة السمعة فى الشرق الأوسط، على وجه التحقيق ... فهو فظ ذو ثقافة ضحلة لا هم له إلا السعى للاتجار باسم الدين، ومن ثم استغلال الدين لبلوغ مآربه".

إلا أن الأرجح أن "كونيهولم" قد كان قاسيا بعض الشىء فى تقييمه للرجل ... تقييم انبنى على تحيز وغياب إنصاف. بيد أنه لمن الجلى أن "كونيهولم" - شأنه فى ذلك شأن "فون منده" - كان باحثا عن رجل آخر ذى نمط أكثر "عصرنة"، شخصية أوفر سحرا وجاذبية ... إذ إن "كوجا أوغلو" - بتعليمه المتواضع، بله سطحيته - لم يكن ذلك الوجه ولا تلك الواجهة التى شعر الأمريكيون أن بمقدورهما نقل وجهة نظرهم إلى "العالم الإسلامى". كذا، فقد ذكر "كونيهولم" كيف احتضن مسلمو ميونيخ "حلما" بعينه ... حلما تمثل فى بناء مسجد. تلك كانت المرة الأولى التى يذكر فيها هدف كذلك، إلا أن "كونيهولم" قد اعتبره هدفا خياليا وخطة شديدة

الطموح ... ومن ثم فقد عمد إلى تجاهلها.

إنها غرفة الاستقبال بفندق "البلاط البافارى" فى ميونيخ الخمسينيات ... ألواح خشبية تكسو الجدران مثبت بها أرفف اصطفت عليها أباريق الجعة الخزفية، وبعض رءوس حيوانات محنطة ... إنها الوجهة التى يقصدها رواد يلتقون بين الحين والآخر لتناول بعض الطعام الخفيف، واحتساء الجعة البافارية المميزة، والاستمتاع بمسحة ريفية ألمانية فى قلب "ميونيخ" الصاخبة. أما فى أحد أيام آب/أغسطس من العام ١٩٥٦، فكان المشهد قد أعد إعدادا مغايرا بالكلية ... إذ أمضى "الكسندر ميلبارديس"، وبعض العاملين بأمكومليب سحابة يومهم هذا فى تثبيت بعض من قطع السجاد "القوقازى" على الجدران، وإحلال أطباق خزفية تزينها نقوش "إسلامية" محل أباريق الجعة. أما الطاولات، فقد حفلت بما لذ وطاب من فواكه استوائية ... حتى أن المناديل الموضوعة على تلك الطاولات كانت قد اختيرت بعناية، إذ كانت "خضراء" ... اللون الممثل للإسلام.

وفى الغرفة ... احتشد ما يربو على خمسة وأربعين صحافياً كى يشهدوا الحدث. أما المضيف، فكان "إبراهيم كوجا أوغلو" الذى قام بالترحيب بالحضور، وتقديم "غريب سلطان" كأحد أعضاء "جماعته الدينية" ... وذكر "كوجا أوغلو" – فى ألمانية ركيكة لا تكاد تفهم – أن "غريب سلطان" قادم لتوه من رحلة "الحج"، وأن لديه ما يقوله عن الحالة المؤسفة للإسلام "السوفييتى"، ليترك الكلمة لسلطان الأفصح منه لسانا، والأعذب منه منطقا.

أما "سلطان"، فقد تحدث عن رحلة "الحج" إلى مكة، والتى رافقه فيها "إبراهيم كوجا أوغلو"، فضلا عن أحد العاملين براديو "الحرية"، ألا وهو "ولى زنون" – من "الديسك" الأوزبكى. هذا، وقد وبخ "سلطان" السوفييت لاستغلالهم موسم الحج

لأغراض دعائية تتنافى ومقام جليل كهذا، زاعما أن الحجيج السوفييت هم "موظفون حكوميون" وأن بعضا منهم قد أرسلوا كجواسيس.

ومن المؤكد أن أحدا من الصحافيين الحضور لم يكن يعرف أن "سلطان" ليس عضوا فى جماعة "كوجا أوغلو" الدينية، أو أن تلك "الجماعة" كانت - بدورها - إحدى جبهات وكالة الاستخبارات المركزية. إلا أنهم قاموا بما كان متوقعا ... إذ عمدوا إلى نقل "الدعاية" إلى الجمهور. أما صحيفتا "ميونيخ" الأكثر شهرة Munchen Merkur و Suddeutsche Zeitung... فقد أوردتا، بتاريخ الثالث عشر من آب/ أغسطس ١٩٥٦، مقالتين عن رحلة الحج المذكورة ... حيث قامت الصحيفة الأولى بسرد "مآثر" غريب سلطان، وما قام به أثناء تلك الرحلة. أما قبل ذلك بأسابيع قلائل، وفى أثناء عودة "سلطان"، و"زنون" من الحج قاصدين "ميونيخ" مرورا باسطنبول ... فقد أجرت الصحيفة التركية "ميلليت" - أى الوطن - حوارا معهما نشر فى عددها الصادر فى الثانى من آب/ أغسطس ١٩٥٦، فضلا عن وصف تفصيلى مطول لرحلتهما.

لقد كانت أمكومليب راضية عن أداء "سلطان" فيما عهد إليه من مهام ... وهو ما ورد فى خطاب أرسله إليه "روبرت كيللى"، مدير أمكومليب فى ألمانيا فى الثالث من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥٦ - حيث دبج له مديحا حارا وإطراء ضافيا لمساهماته "الفذة" فى مناهضة البلشفية ... تلك المساهمات التى "تتيح لنا فهما أفضل ورؤية أجلى لحقيقة الخطر الشيوعى وتهديداته فى الشرق الأدنى".

أما خلف الكواليس، فقد ظلت أمكومليب متوجسة فى ترقب. ففى مذكرة داخلية عن رحلته إلى "الحج"، ذكر "غريب سلطان" أن "الرأى العام" قد جعل كفة الاتحاد السوفييتى راجحة. فوفقا لسلطان: "هنا يتعين على المرء أن يشير إلى ما ذهب إليه

أحد العرب العاملين بإدارة خدمة الحجيج - عن الاتحاد السوفييتى". ويستطرد "سلطان" فى مذكرته، فيقول: "حين أخبرت الرجل عن الجهة التى قدمت منها، أردف - على الفور - : "موسكو" ... لا بأس. إذ هناك إخواننا المسلمون. إن الحجيج يفدون من الاتحاد السوفييتى إلى مكة كل عام. أما الإنكليز والفرنسيون والأمريكيون فكلهم كفار لا دين لهم ... إنهم أعداؤنا". إن الأمر الهام هو ندرة موارد أمكومليب". لقد كاد "غريب سلطان"، و"ولى زنون" ألا يذهبا إلى الحج فى ذلك الموسم لكونهما قد تأخرا بعض الشىء، وكان يجب أن يتم إطلاق سراحهما بكفالة ... وهو ما قام به "سعيد شامل" الذى كان موجودا - حينها - فى منزل العائلة بالمملكة السعودية. لقد توسط "شامل" لدى السلطات السعودية للسماح للرجلين بالمضى صوب مكة. ولولا مساعدته، لكان الحاجان، "سلطان"، و"زنون" - المكلفان بالدعاية المناهضة للشيوعية، قد عادا أدراجهما، ولَمَا أنجزت المهمة.

ولقد كان "المؤتمر الصحافى" إخفاقا محققا آخر ... ذلك المؤتمر الذى جند "سلطان" لإدارة دفته نظرا لركاكة الألمانية التى يتحدث "كوجا أوغلو" بها. إلا أن "سلطان" لم تكن له مظاهر "الزعيم الدينى". إذ بدا لكل من قد لقاه أنه "علمانى" ... فقد كان شديد التأنق فى ملبسه، حريصا على أن يكون حليق اللحية والشاربين، فضلا عن أن الجميع كانوا يعلمون حبه للرقص، وشغفه بشراب "الفودكا". كذا، فعما قريب ... كان "سلطان" سيُرسل إلى الولايات المتحدة الأمريكية للعمل بإدارة "المشاريع الخاصة" التابعة لأمكومليب. فأمكومليب قد رغبت فى "وجه جديد". فرجال من أمثال "إسحاق باتش" كان من المفترض أن يوجهوا اللاجئين نحو العمليات "المستترة"، إلا أن المهمة قد باءت بالفشل. أما فى نيويورك، فقد كان "كونيهولم" و"دريهر" يراقبان "سلطان" على أحر من جمر الغضا ... فلقد كان "دريهر"، على نحو خاص، يتوق إلى مهمة أخرى بميونيخ ... حيث كان يأمل فى أن

يضع نظريات "الهجوم الاستباقى" موضع التنفيذ، فالمشكلة قد أضحت أكثر إلحاحا من ذى قبل.

وهنا ... كان "فون منده" - والذى كان صديقا لأمكوكوميليب ذات مرة - عاكفا على تطوير خطته لاستقطاب مسلمى ميونيخ. وعلى خلاف "كونيهولم"، لم يكن "فون منده" ليغض الطرف عن رغبة أولئك المسلمين فى أن يكون لهم "مسجد" يمارسون فيه شعائرهم ... إذا، فقد أضحى الأمر على رأس سلم أولوياته.

الفصل السابع

فِعلٌ سياسى ذكى
"مسجد ميونيخ" ... وبداية تشكل الملامح

فى السادس من آب/ أغسطس ١٩٥٦ – تلقى "غرهارد فون منده" مذكرة من "تيودور أوبرليندر، وزير شئون اللاجئين بألمانيا الغربية ... مذكرة ترسم ملامح هدف قومى ذى أهمية بليغة يستلزم النهوض به طلب المساعدة من مصدر بدا مستبعدا ... "مسلمو ميونيخ".

لقد أورد "أوبرليندر" - فى مذكرته - أن ألمانيا الغربية كانت تؤوى آلاف اللاجئين، إلا أن كثيرا منهم قد تم تجنيده من قبل كيانات استخباراتية أجنبية، مثل أمكومليب ... واستطرد قائلا إنه لن يسمح لهذا النهج أن يستمر لأن ألمانيا الغربية بحاجة إلى أولئك المسلمين. فعن قريب، ستهوى معاقل الشيوعية ليعود هؤلاء إلى أوطانهم الأم زعماء لها وقادة. وعندها ... سيكون لهم دور فى تحقيق الهدف الأسمى للسياسة الخارجية لألمانيا الغربية: توحيد الألمانيتين -الشرقية والغربية- واستعادة مساحات شاسعة من أراض ألمانية استولى عليها كل من الاتحاد السوفييتى وبولندا فى أعقاب الحرب الكونية الثانية.

ومضى "أوبرليندر" فى مذكرته، حيث أشار إلى "أن النجاح الذى سيحرزه أولئك اللاجئون سيكون له أثر إيجابى طاغ فى تحقيق أهداف ألمانيا فى أوطانهم الأم" ... تلك الأهداف التى شرع يصفها فى كلمات ذات نبرة انتقامية حادة ... "إن

أهداف اللاجئين السياسيين لتتشابك وتأتلف وفق علاقة ارتباطية بالجهود الألمانية الرامية لتحقيق وحدة الألمانيتين وإلغاء مقررات اتفاقية بوتسدام[٦٤] بشأن حدود نهرى الأودر والنايسه" [٦٥].

ومن بين ثنايا النبرة البيروقراطية التى صيغت بها المذكرة، كانت رسالة واضحة جلية تطل برأسها: إن ألمانيا الغربية تريد إعادة ترسيم الحدود، واستعادة أقاليمها الشرقية المغتصبة التى تقع خلف نهرى "الأودر" و"النايسه". فلعقود ... كان حد "الأودر- النايسه" أكثر المواضيع حساسية فى السياسة الخارجية الألمانية. إن النهرين يفصلان ألمانيا الشرقية عن بولندا، وعقب اتفاقية "بوتسدام" ١٩٤٥ -، والتى قسمت الأراضى الألمانية ما بين قوى مختلفة، صار حد "الأودر- النايسه" فاصلا بين البلدين. أما بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى ... فقد صار لكل منهم إقليم احتلال فى الأراضى الألمانية، حيث أضحى

الإقليم الذى ظفر به الاتحاد السوفييتى يسمى "ألمانيا الشرقية"، فيما عرفت الأقاليم الثلاثة الأخرى - مجتمعة - "بألمانيا الغربية".

إلا أن ثمة حقيقة نادرا ما تذكر ... إذ لا يعلم الكثيرون أن ثمة إقليمى احتلال آخرين يقعان إلى الشرق من نهرى "الأودر" و"النايسه" - أحدهما كانت تديره بولندا، وهو إقليم ضم أجزاء كبيرة من "بروسيا"، و"سيليزيا"[٦٦]، و"بوميرانيا"[٦٧]، فضلا عن ثالث أكبر مدن ألمانيا، "برسلاو" (المعروفة - حاليا - باسمها البولندى: "فروتسواف"[٦٨]). وبالإضافة إلى ذلك، اقتطع الاتحاد السوفييتى جانبا آخر من ألمانيا، وهو النصف الشرقى من بروسيا الشرقية الذى تضمن مدينة "كونيغسبرغ" - والذى أصبح اسمها "كالينينغراد"[٦٩]).

وبخلاف الأقاليم الأخرى، فإن هذين الإقليمين لم تستردهما ألمانيا ألبتة، إذ اقتطعت بولندا الإقليم الأول، فيما اقتطع الاتحاد السوفييتى الإقليم الثانى. أما البولنديون فلم يربحوا كثيراً، إذ كان السوفييت قد اقتطعوا أجزاء من شرق بولندا ... فلم يكن ما اقتطعته بولندا من أراض ألمانية إلا تعويضا عن تلك المقتطعة منها. وبخصوص الأراضى الألمانية التى تمددت فى أعماق أوروبا الشرقية لقرون عديدة، فقد أضحى حدها - عقب الحرب الكونية الثانية - عند نهرى "الأودر" و"النايسه" ... اللذين يجريان من بحر البلطيق جنوبا حتى حدود تشيكوسلوفاكيا.

فإذا كان ما سبق يبدو متسقا وفق خريطة "الاستراتيجى المسترخى"، فإن إعادة ترسيم حدود وسط أوروبا قد أضافت إلى المعاناة التى سببتها الحرب الكونية الثانية. فالأقاليم الألمانية المغتصبة كانت غاصة بألمان ذوى إثنيات عديدة. وفى غضون أشهر قلائل، كان هؤلاء قد قُتِلوا أو طُردوا فى وحشية

بالغة، بواسطة الجيش الأحمر فى البداية، ثم خلال المذابح التى باركتها الدولة. فبالتوازى مع أولئك الألمان من ذوى الإثنيات المختلفة النازحين إلى بلدان أخرى، فإن ما يربو على ١٢ مليون لاجئ ألمانى - فى واحدة من أكبر رحلات النزوح فى العصر الحديث - قد أجبروا بالقوة على ترك منازلهم. وقد انتهى المطاف بغالبيتهم فى ما يعرف حاليا بألمانيا الغربية ... إلا أن مئات الآلاف قد لقوا حتوفهم خلال رحلة النزوح تلك.

أما "تيودور أوبرليندر"، فكان المتحدث الرسمى الرئيسى عن أولئك "المطرودين" ... الذين خاضوا، خلال حقبتى الخمسينيات والستينيات، معركة دفاعية وقائية ضد نفر من "الألمان الغربيين" ممن أرادوا إرساء علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى أو الاعتراف بحد "الأودر- النايسه". إن "أوبرليندر" هذا ... هو الشخص ذاته الذى اشترك فى الانقلاب الفاشل فى ميونيخ عام ١٩٢٣، والذى تم اعتقال هتلر بموجبه أشهرا كتب خلالها كتابه "كفاحى" ... وهو الشخص ذاته الذى ترأس إحدى أوليات وحدات الجيش الألمانى المكونة من أقليات سوفييتية، واسمها "برغمان" Sonderverband Bergmann. وكانت ولادة "أوبرليندر" فى البلطيق فى عام ١٩٠٥ ... لذا، فقد كان مدركا لقيمة الأقليات "غير الروسية". وقد شارك "أوبرليندر" فى بعض المذابح التى استهدفت اليهود، إلا أنه قد عارض سياسة "النازى"حيال الأراضى المحتلة. ومثله فى ذلك مثل "غرهارد فون منده"، رأى "أوبرليندر" ضرورة أن تكون ألمانيا حليفة للأقليات "غير الروسية". ومن أجل ذلك، خسر الرجل منصبه فى الحزب الديمقراطى المسيحى، كذا، فقد خسر "رتبته" العسكرية. إلا أن هذا قد جرى لمصلحته بعد انقضاء الحرب ... إذ جعله يبدو وكأنه ضحية للنازى، لا ذلك "الحزبى" العالم ببواطن الأمور، والذى خسر منصبه نتيجة الصراعات

والنزاعات الحزبية. كل هذا، علاوة على قوة حزبه التصويتية، كان كافيا لإقناع "كونراد أديناور" - أول مستشارى ألمانيا الغربية - بأن يعين "أوبرليندر" وزيرا لشئون اللاجئين.

ولقد كان "أوبرليندر" كما بدا ... العضو الأكثر يمينية فى حكومة ألمانيا الغربية. وفى سنوات لاحقة، تم اعتباره تجسيدا للجذور النازية للديمقراطية الوليدة. إذ أوضحت المذكرة التى أرسلها إلى "فون منده"، والواردة فى مستهل الفصل الحالى، ذلك التوجه اليمينى المتطرف ... إذ أراد أن يعاد ترسيم الحدود الألمانية، كذا فقد أراد تعاون "فون منده" للسيطرة على "الأصول" التى رأى أنها قد تساعد فى تحقيق إعادة الترسيم تلك ... تلك الأصول المتمثلة فى "الأجانب" ممن يحيون فى ربوع ألمانيا الغربية، والذين حاربوا لحساب ألمانيا خلال الحرب الكونية الثانية.

هذا، وقد كان "فون منده" يحكم قبضته على غالبية جماعات "اللاجئين" ... إذ كان يقوم بتمويل كل من البلغار والرومانيين، وكذلك الأوكرانيين والتشيك. إلا أن أحداث العام السابق قد أظهرت - آنذاك - أنه كان يفقد سيطرته على المسلمين. فبالمقارنة مع أمكومليب، فإن الأوستمنستريوم كانت أضعف - حيث عمد الكثير من المسلمين إلى العمل لصالح الأمريكيين. فإذا ما تذكرنا رحلة "كونيهولم" إلى تركيا وأوروبا، لأدركنا كونها شددت على هدف "واشنطن" الأكثر طموحا ... ألا وهو استخدام المسلمين فى حروبها الدعائية الكوكبية.

وعلى امتداد عقود أربعة هى عمر "الحرب الباردة"، كانت ألمانيا الغربية والولايات المتحدة الأمريكية حليفين قويين ... فالولايات المتحدة قد ساندت نشأة ألمانيا الغربية والتحامها بالمجتمع الدولى ... ألمانيا الغربية التى أضحت حليفا وفيا

للولايات المتحدة فكانت ترفد الائتلاف العسكرى "الغربى" بقوات مثلت سواده الأعظم.

إلا أن العلاقة لم تخل من بعض منغصات حالت دون انسيابها سلسة على الدوام ... خاصة وأن الأجواء - آنذاك - كانت عصيبة كساعة العسر ... فألمانيا الغربية كانت قد نالت، للتو، سيادتها الكاملة غير المنقوصة، وكانت تتقدم بمقترحات للاتحاد السوفييتى مما أثار مخاوف الولايات المتحدة وقلقها خشية أن تقبل ترتيبات كتلك التى قدمت إلى النمسا بأن تبقى على الحياد فى صراع المعسكرين مقابل إعادة توحيد أجزائها الشرقية والغربية. بل لقد ظن المسئولون الأمريكيون أن تقدم ألمانيا الغربية على "إجلاء" أمكومليب وراديو أوروبا الحرة عن ميونيخ، وناقشوا كيف السبيل لتسريح العاملين بهما.

أما خطة "أوبرليندر فقد شرعت تثير هواجس واشنطن ... فالاستخبارات الأمريكية قد أرادت أن تلتحق الأقليات السوفييتية فى ميونيخ براديو الحرية وراديو أوروبا الحرة، وذلك للقيام بأنشطة مستترة ... إلا أن هذا الترتيب قد يتداعى بالكلية إذا ملكت ألمانيا الغربية زمام تلك الأقليات. فوفقا لما أدركه المسئولون الأمريكيون، فإن العقل المدبر والقوة الدافعة وراء تلك السياسة تمثلا فى "أوبرليندر" والدبلوماسيين بوزارة الخارجية الألمانية من أمثال الدكتور "أوتو برويتيغام"، الدبلوماسى والمحامى الألمانى، والذى كان، كأوبرليندر، متورطا لأذنيه فى الحركة النازية.

وفى تقرير لوزارة الخارجية الأمريكية عن "أوبرليندر" وأولئك الدبلوماسيين، ومنهم "برويتيغام"، ذهبت الوزارة إلى "أنهم ليسوا ذلك النمط من النازيين الراغبين فى أن توجد فى كل بيت ألمانى نسخة من "كفاحى" لهتلر ... إنما قد

صاغوا القضية الوطنية الألمانية وفق منظور قومى إمبريالى بحيث لا يعلو صوت فوق صوتها. وفى رسالة "سرية"، قالت الخارجية الأمريكية إن أداتهم الرئيسية كان البروفيسور/ غرهارد فون منده، ومكتبه - "مكتب الأجانب بلا وطن". كذا، فقد ذهبت - فى الرسالة ذاتها - إلى أن "مهمة فون منده" لم يكن يعنيها مصير تلك الشعوب، بل كان مصير "الألمان" هو جوهر ما يعنيها ... ففون منده ورؤساؤه لا نية لديهم لإتاحة المجال أمام أمريكيين هواة تنقصهم الخبرة للخوض فى هذا الشأن". كذا، فقد ورد بالرسالة أن "فون منده" كان يتعامل مع جماعات للاجئين تفتقر إلى الديمقراطية، بل إن بعضها كانت له ارتباطات "رخيصة ومشينة" مع النازى.

أما وكالة الاستخبارات المركزية، فقد أشارت إلى أن "فون منده" قد أسهم فى تشكيل جماعة لمساعدة اللاجئين ... جماعة تكونت من ضباط ألمان كانوا يقودون قوات الأقليات السوفييتية خلال الحرب الكونية الثانية، وأضحوا مشغولين، فى أعقابها، بشأن مصائرهم فى ألمانيا الغربية. كذا، فوفقا للوكالة، كان "فون منده" يدير جماعة مساعدة اللاجئين تلك من مكاتبه بدوسلدورف ... وفيما قد يعد ما سبق مبالغة وتهويلا، إلا أن الجماعة المذكورة قد كانت قائمة بالفعل حيث أظهرت وثائقها وسجلاتها أنها قد شكلت - بالأساس - من ضباط سابقين بالجيش الألمانى وأسراب الدفاع - كانوا قادة لأفراد تلك الأقليات ... كذا، فقد أظهرت ارتباط "فون منده" الوثيق بتلك الجماعة. وفى أواخر عام ١٩٥٥، قررت الوكالة أن تعمد إلى القيام بفعل ما ضد "الرجل" الذى سعت ذات يوم إلى تجنيده لصالحها.

ففى ملف "الرجل" ..."فون منده"، كتب أحد عملاء وكالة الاستخبارات المركزية: "لقد أعددت ملفا صغيرا عن (الرجل) وأعوانه ... إذا، فلعله يصبح فى مقدورنا

القيام بشراء ولاء أحد أتباعه بغرض الحصول على نسخ مصورة من ملفات معلوماته".

إلا أنه، وبعد مضى أشهر قلائل، عنت للوكالة فكرة أخرى. إذ كانت ثمة ملاحظة فى طيات ملف الحكومة الأمريكية ... ملاحظة من "إسحاق باتش"، والذى كان قد تحدث - قبل ذلك بشهرين - إلى "غرهارد فون منده". وقد ذكر "باتش" أن "فون منده" قد أصابه الضيق لكون ألمانيا الغربية فى طريقها - آنذاك- لإقامة علاقات دبلوماسية مع الاتحاد السوفييتى. وهنا وجد عميل وكالة الاستخبارات المركزية، المذكور آنفا، مدخلا، فقال" "إننى كنت أسعى إلى إقناع فون منده بأن يتم تفتيش مكاتبه فى دوسلدورف، بما فيها من ملفات، وكذا تصويرها فوتوغرافيا ... إلا أن أحدث المعلومات الواردة إلى تبدو أنها تشير إلى أنه من الأفضل لنا أن نعمد إلى تجنيده". كذا، فقد أشار هذا العميل إلى أنها ستكون المرة الثالثة خلال أحد عشر عاماً تلك التى تتقدم فيها الاستخبارات الأمريكية من "فون منده" بمقترحات وأفكار ليذكر - بأسى - أن اتفاقا كان قاب قوسين أو أدنى من الدخول إلى حيز التنفيذ، إذ كانت تنقصه فقط المصادقة عليه ... وذلك فى عام ١٩٤٩ . واستطرد العميل قائلا: "إلا أن الأمر قد أسقط برمته فى ميونيخ لكون فون منده قد تبنى اقترابا منهجيا للمشكلة، فيما كان مكتب وكالة الاستخبارات المركزية فى ميونيخ غارقا فى برنامج لتجنيد "العملاء" اتسم بالعشوائية والتخبط وانعدام التخطيط".

وفى المرة تلك ... كانت الوكالة مستعدة لأن تنهج النهج المتبنى من قبل "فون منده" ... إذ كان مرفقا بالخطة الرسمية للتجنيد قائمة ضمت عملاءه، ومن بينهم "ولى قيوم خان". فوفقا لما كتبه عميل "الوكالة" الآنف الذكر، فقد عمد "قيوم" إلى استبعاد "روسى نصار" لكونه تلقى أموالا من وكالة الاستخبارات

المركزية للترويج لدعاية أمريكية خلال موسم الحج. أما "الوكالة" فقد قامت بمراقبة "فون منده" رقابة لصيقة ... حيث لاحظت - فى آذار/ مارس ١٩٥٦ - أن "الشتازى"، أو "جهاز أمن الدولة والاستخبارات بألمانيا الشرقية"، كان يبحث عن خريطة لمكتب "فون منده"، وما لذلك من دلالة على أن "الشتازى" كانت لديه خطط وترتيبات بشأن "فون منده".

وفى بدايات عام ١٩٥٧، طلب إلى مكاتب "وكالة الاستخبارات المركزية" فى ألمانيا أن تدلى بتعقيباتها بشأن الخطط السوفييتية لتجنيد المسلمين. ويبدو أن هذا الطلب قد جاء عقب افتضاح أمر عميلين مدعومين من قبل الولايات المتحدة الأمريكية فى انخراطهما مع بعض المسلمين ... لقد كانت الوكالة تسعى إلى رصد أية انكشافات تمس عملياتها. أما مكتبها فى ميونيخ، فقد تقدم - ثانية - باقتراح لتجنيد "فون منده" ... فوفقا للقائمين على المكتب، فإنه "إذا ما تم تجنيد فون منده فسيمكنه مباشرة إعداد ثبت أو حصر بالمسلمين". إلا أن "فون منده" لم يكن ذا اهتمام بالعمل لحساب الأمريكيين، إذ بدا غاضباً، ولعله فى ذلك قد عكس الشعور الألمانى الغربى المتنامى بالثقة والاعتداد بالنفس. وكان "فون منده" يرى أن الأقليات، بمن فيهم المسلمون، سهام هامة فى جعبته، وكانت لديه خطط لاستعادتهم ثانية.

فى أواخر آذار/ مارس ١٩٥٦، حل "نور الدين نقيب خوجة نمنقانى القارى" بميونيخ. و"نمنقانى" هو أحد الناجين من أهوال معتقلات التعذيب السوفييتية، كذا فقد كان "إماما" بإحدى وحدات "أسراب الدفاع" الألمانية، فضلا عن حمله أوسمة عسكرية مرموقة كالصليب الحديدى ... لذا، فقد كان "الرجل" الاختيار الأمثل لتوحيد صفوف مسلمى ميونيخ.

كان ذلك الطرح طرحا ارتآه "فون منده". وتماشيا مع رغبة "تيودور أوبرليندر" للسيطرة على اللاجئين، عمد "فون منده" إلى دعوة "نمنقانى" إلى ألمانيا ليترأس مكتبا جديدا استهدف توحيد مسلميها. فإلى ذلك الحين، كانت المنظمة الوحيدة فى ألمانيا، والتى يمكنها ادعاء القيام بذلك، هى "الجماعة الدينية الإسلامية" لإبراهيم كوجا أوغلو ... إلا أنها كانت واقعة - آنذاك - تحت نفوذ أمريكى طاغ. لقد كان "نمنقانى" أحد رجال "فون منده" ممن دانوا بولاء لألمانيا ... ولاء دام طيلة سنى الحرب الكونية الثانية.

أجل ... فحين دفع بتنصيب "نمنقانى" إلى أروقة البيروقراطية الألمانية، بدا سجل خدمته الطويلة لألمانيا أهم مؤهلاته قاطبة. ولم يكن الرجل ذلك النمط الذى يعهد إليه بتوزيع عبوات CARE لمصلحة الأمريكيين، أو ذلك الذى يتصدر مؤتمراتهم الصحافية ... فالرجل، وبحق، "مخلوق سياسى" من الطراز الأول، لكنه "مخلوق" يرضى طواعية بخدمة ألمانيا الغربية مبديا آيات الولاء لها ... أى، "مستخدم" لدى الدولة يقبض منها راتبا لقاء خدماته.

لقد كان "فون منده" يعد الترتيبات لوصول "نمنقانى" إلى ألمانيا. ففى وقت باكر من عام ١٩٥٦، قامت وزارة شئون اللاجئين بألمانيا الغربية، والتى كان يترأسها "أوبرليندر" آنذاك، بمخاطبة "فون منده" بشأن تمويل جماعة "كوجا أوغلو". فمن بين جميع جماعات اللاجئين بألمانيا، يبرز المسلمون كالأدنى تنظيما والأكثر تشرذما. لذا، فقد رأت الوزارة أن "كوجا أوغلو" لا يرقى أن يكون "خيارها" الصائب المخول بتوحيد أولئك المسلمين. فحين كتب "كوجا أوغلو"، قبل ذلك بعام، إلى وزارة الشئون الاجتماعية البافارية طالبا بعضا من مال، أورد المسئولون بالوزارة أن "غالبية المسلمين المكونين لجماعة كوجا أوغلو قد كانوا يخدمون فى الجيش الألمانى إبان الحرب الكونية الثانية... لذا، تعن

الحاجة إلى تناول هذا الطلب تناولاً صائباً حكيماً".

بيد أن "فون منده" قد تابع محاولاته ... فقد كتب خطابا إلى وزارة الشئون الاجتماعية بتاريخ العاشر من كانون الثانى/ يناير ١٩٥٦ مشيرا إلى أن إعطاء "كوجا أوغلو" مبلغا من المال، لمرة واحدة لا تتكرر، من شأنه إحداث صدى جيد لدى البلدان الإسلامية فى المشرق"، لكنه أضاف أن ألمانيا بحاجة إلى المزيد ... بحاجة إلى "إمام أكبر" لعموم مسلميها. وأضاف "فون منده" فى خطابه أن "إماما كهذا لا يوجد فى ألمانيا، لكننى أعرف من تسعده العودة إلى ألمانيا للإشراف على مسلميها... إنه نور الدين نمنقانى".

إن "فون منده" و"نمنقانى" كانا صديقين قديمين تعارفا خلال الحرب الكونية الثانية. أما "نمنقانى"، فقد تم القبض عليه بواسطة الشرطة السرية السوفييتية، وذلك فى تركستان، حيث سيق إلى معتقل بغربى روسيا. وبعد مضى شهر على الغزو الألمانى لروسيا، شن الجيش الألمانى هجوما على معسكره، ليتم بذلك تحريره وإطلاق سراحه. وعقب ذلك بأربعة أشهر، أضحى "نمنقانى" إماما للكتيبة ٤٥٠ مشاة خلال هجومها بالدبابات ... ذلك الهجوم المسمى عملية "النمر ٢"، نسبة إلى إطلاق اسم "النمر البنغالى"، أو "النمر الملكى" على نوع من دبابات استخدمت فى الهجوم. وخلال الحرب، أضحى "نمنقانى" إماما لسلاح الشرق التركستانى التابع لأسراب الدفاع الألمانية ... تلك الوحدة التى شاركت فى قمع انتفاضة وارسو عام ١٩٤٤[٧٠]. وتقديرا لخدماته، منح "نمنقانى" وسام "الصليب الحديدى" من الطبقة الأولى والثانية، وهما اثنان من أرفع الأوسمة العسكرية الألمانية.

وفى نهاية الحرب، أمضى "نمنقانى" سنتين بأحد المعسكرات الأمريكية لأسرى الحرب فى إيطاليا، ثم ارتحل - بعد ذلك - إلى ألمانيا ليحيا هناك ... حيث حل

ضيفا على "فون منده" ببيته على نحو منتظم، وهناك ... كان "نمنقانى" يطهو صنوفا من الطعام الأوزبكى ويتبادل الأحاديث مع "فون منده"[٧١]، ثم تلا ذلك ارتحال "نمنقانى" إلى تركيا ... إما للعمل فى صفوف جماعات اللاجئين، وإما - وفقاً لروايته هو - لتحصيل بعض المعرفة الدينية ... ويبقى أن نذكر أن التفاصيل الواردة بمذكراته لم تكن واضحة، إذ لم يكن ثمة ما يثبت قيامه بتحصيل دينى كالذى زعمه[٧٢].

أما الأصدقاء، فيذهبون إلى كونه صارما مفتقرا إلى روح المرح، ولو قليلا. لقد عمد "نمنقانى" إلى توجيه النقد لباى ميرزا هاييت الذى كان متزوجا من نصرانية، وذلك لاحتفالها بعيد ميلاد السيد المسيح بإحضار شجرة عيد الميلاد المعتادة فى تلك المناسبة. وقد ذهب "نمنقانى" إلى ضرورة أن تترك الزوجة ديانتها لتشهر إسلامها، وبذا تصبح الأسرة بكامل أفرادها أسرة مسلمة. ووفقا لضابط أوزبكى كان فى مقتبل حياته المهنية حين التقى "نمنقانى" فى أحد المعسكرات الألمانية لأسرى الحرب فى عام ١٩٤١، فإن "نمنقانى قد حظى بتقدير واه من الأسرى إذ كان هوسه الدينى وتعصبه المعتقدى فى أوجهما". هذا، ولم يكن لنمنقانى سوى نفوذ محدود أتاحه اختيار "فون منده" له. وفى خطاب بتاريخ الأول من آب/ أغسطس ١٩٥٦ من "ولى قيوم خان" إلى "فون منده"، وذلك فى أعقاب ورود "نمنقانى" ميونيخ، كتب "قيوم" أنه وحتى قبل أن يغادر "نمنقانى" اسطنبول متوجها إلى ألمانيا، فإن موجات السخط عليه والشجب له كانت قد شرعت بالفعل تأخذ مسارها ... أما السبب، فلم يكن واضحا ... بيد أن "نمنقانى"، وعلى امتداد سنوات قلائل تالية، كان قد أُمطر ببوابل من الانتقادات لكونه أحد غلاة "النازية"، وأحد القادة غير الأكفاء. فعلى سبيل المثال، أدت ألمانيته الركيكة إلى جعله غير قادر على التواصل مع أبناء "الجنود المتقاعدين".

إن تاريخ "نمنقانى" النازى قد يبدو عاديا تماما بين أناس شارك جلهم فى القتال لصالح الألمان. فعلى أية حال، كانت تلك هى "خمسينيات" القرن العشرين ... حقبة اتسمت بالتناسى النسبى لما دار إبان العصر النازى ... حقبة رغب الأفراد خلالها فى التداوى بالنسيان والمضى قدماً - أما تناول الجراح والآلام تناولا مباشرا، فلم يحدث إلا خلال حقبة الستينيات. بيد أن "نمنقانى" كان، وكما وردت الإشارة آنفا، "مخلوقا شديد التسييس" عمل مباشرة كإمام للوحدات العسكرية مع الزعامات الحربية النازية، وهو ما جعله أكثر من "رجل دين" بساحات الوغى، إذ كان جزءا من منظومة سياسية أودت بالكثيرين إلى حرب يائسة ضد حليف بغيض. فضلا عن ذلك، فإن التحالفات مع النازية لم تكن هينة كما قد يحسب البعض. فعلى سبيل المثال، وفى عام ١٩٦٠، تم إطاحة "تيودور أوبرليندر" ذاته بعد تعرية ماضيه النازى، حيث هوجم فى الدعاية السوفييتية والألمانية الشرقية لمشاركته فى إحدى المذابح بحق اليهود. هذا، وقد ثبتت الاتهامات - فتمت إطاحته ليمضى عقودا أربعة تالية محاولا تبرئة ساحته وتطهير سمعته.

وعقب مضى شهرين فقط على عودة "نمنقانى" إلى ألمانيا الغربية، شرع "الشتازى" يستهدف "فون منده" هو الآخر ... إذ أجرى تحقيقاً - فى الأغلب أن كان نيابة عن الاتحاد السوفييتى - التمس المعونة لمعرفة السبب فى أن يكون مكتب "فون منده"، ذلك المكتب البحثى الصغير، وراء كل تلك الحملات الدعائية المناهضة للسوفييت ... السوفييت - الذين كانوا، بالفعل، قد شرعوا يهاجمون "باى ميرزا هاييت" ... "المستخدم" المفضّل لدى "فون منده" والأعلى قيمة. وفى الساعة السابعة من مساء العشرين من تموز/ يوليو ١٩٥٦ شن راديو طشقند هجوما ضد "باى ميرزا هاييت" ... هجوما أيدته الأدلة والوثائق إذ أشير إلى خدمته خلال سنى الحرب الكونية الثانية، وكيف زعم "هاييت" نفسه أنه قد خطط للهرب فى أعقاب

الحرب ليترك رجاله ليواجه كل منهم مصيره أيا ما كان هذا المصير. وفى النهاية، لم يشن "الشتازى" أى هجوم على مهام "فون منده"، ربما للاحتفاظ بما فى جعبته من سهام لقابل الأيام، أو لتوجيه البعض صوب "تيودور أوبرليندر". أما ما يبدو واضحا، فهو أن رجالا من أمثال "نور الدين نمنقانى" قد كانوا عرضة لهذا التهديد أو ذاك.

إذا ... ما السر وراء قيام الألمان الغربيين، الذين لا يدينون بالإسلام، بإعلاء شأن زعيم مسلم وتبجيله إلى هذا الحد؟! إن سؤالا كهذا لم يكن ليقلق "فون منده" ورفاقه فى الحكومة ... إذ كان المحك هو كيفية إطاحة "إبراهيم كوجا أوغلو" والأمريكيين. لذا، فقد اعتبروا الأمر أمرا تكتيكيا وشرعوا فى التباحث بشأن أفكار قد تزيد من جاذبية "نور الدين نمنقانى" ودرجة قبوله لدى الآخرين.

أما البداية، فقد شهدت تعثر "فون منده" إذ كان مريضا حينذاك، حيث أصيب بأزمة قلبية فى عام ١٩٥٦ نظرا لكونه مدخنا شرها. هذا، وقد أقعدته الإصابة شهرين امتنع خلالهما عن العمل، ليبدأ بعدها فى التعافى ببطء واستعادة لياقته تدريجيا. وفى أثناء تلك الفترة، كتب "كوجا أوغلو" عددا من الخطابات لأوبرليندر ملتمسا بعض عون ... إلا أنه مع حلول نهاية عام ١٩٥٦، كان "فون منده" قد استرد عافيته ليعمل ساعات طويلة ويكدح كدحا كبيرا ... فقد شن هجوما عنيفا على "كوجا اوغلو" لكونه جاسوسا أمريكيا. فوفقا لخطاب أرسله "فون منده" فى العاشر من كانون الثانى/ يناير ١٩٥٧ إلى "غرهارد فولفروم" بوزارة شئون اللاجئين التى كان يترأسها "أوبرليندر" ... ذهب "فون منده" إلى أنه "بسبب عدم وجود أية مؤسسة ألمانية لتمويل كوجا أوغلو، فإن اللجنة الأمريكية للتحرير كانت مهتمة بجماعة "كوجا أوغلو" الدينية لاستخدامها كنقطة انطلاق لأنشطتها الدعائية السياسية بين اللاجئين المسلمين فى ألمانيا الغربية، وفى بلدان أبعد ... فى المشرق".

وكان الدليل، كما ذهب "فون منده"، يكمن فى المؤتمر الصحافى الذى جمع كلا من "إبراهيم كوجا أوغلو" و"غريب سلطان"، وذلك خلال آب/ أغسطس ١٩٥٦، فى أعقاب عودتهما من رحلة الحج. هذا، وقد رأى "فون منده" المؤتمر الصحافى نقطة تحول فى السياسة الدعائية لأمكوميلب فى العالم الثالث. فمنذ عودتهما - وذلك وفقاً لفون منده - سعت "اللجنة الأمريكية للتحرير" إلى الشروع فى حملتها الدعائية السياسية فى العالم الإسلامى. وقد كتب "فون منده"، ساخراً، إن "غريب سلطان" قد شرع فى تعريف نفسه بأنه الحاج "غريب بن سلطان"، وهو لقب شرفى يشير إلى مشاركته فى رحلة الحج، وهو ما يتنافى - وفقاً لفون منده - مع سلوك امرئ قصد الأراضى الحجازية لدواع غير دينية. كذا، فقد كان "سلطان" يسعى - كما ذهب "فون منده"، إلى التمتع بمركز قيادى داخل جماعة "كوجا أوغلو" الدينية ... وهو الأمر الذى توجب إيقافه. ووحده "نور الدين نمنقانى" هو من كان قادرا على الاضطلاع بذلك الأمر.

هذا، وقد عقدت وزارة شئون اللاجئين اجتماعا حددت فيه إطارا للدور الذى سيضطلع به "نمنقانى"، حيث ذهبت إلى أن: "السيد "نمنقانى" مخول أولا بتجميع مسلمى ألمانيا - وهم "أجانب بلا وطن" - فى رابطة دينية تنتظمهم، وكذلك الأمر للاجئين من غير الألمان - من أجل القضاء على أى تأثير أمريكى غير مرغوب فيه ... تأثير قد يكون ضارا بمصالح ألمانيا الغربية". أما "غرهارد فولفروم"، الضابط المتقاعد الذى خدم فى صفوف أسراب الدفاع الألمانية، فقد كتب أن المشكلة الرئيسية تتمثل فى كون أهداف المسلمين لا تتواءم مع الأهداف السياسية لألمانيا الغربية. ففى خطاب بتاريخ السابع عشر من نيسان/ أبريل ١٩٥٧، كتب "فولفروم" يقول: "أجده أمرا غير مقبول ولا يمكن احتماله كون الأجانب المسلمين فى ألمانيا ممن لا يوجد لديهم مأوى ولا وطن، تساء معاملتهم باستغلالهم فى مناورات

سياسية واستخباراتية ملؤها المكيدة والخداع ... وأن يتم ذلك كله على أراضى ألمانيا الغربية بما يعرض سمعتها لسوء القالة". كذا، فقد كتب أحد المسئولين بالعاصمة "بون"، أنه "إذا ما نجحنا فى إرساء جماعة دينية حقيقية، فسوف يفضى ذلك إلى نجاحنا فى إحراز النفوذ السياسى المنشود". ووفقاً لوزارة شئون اللاجئين، فإن العقبة الرئيسية هى أمكومليب، حيث ذهبت الوزارة إلى أن "السيد روبرت كيللى، من اللجنة الأمريكية للتحرير، قد زعم - مؤخراً أنه ينبغى ألا تترك شئون اللاجئين المسلمين فى أيد ألمانية ألبتة".

أما الألمان الغربيون، فقد قرروا أن يضعوا حدا للجدال حول "نور الدين نمنقانى" ... ذلك الجدال الذى طال مداه الزمنى إلى عام بالتمام ... وذلك عن طريق تعيينه كإمام أكبر لعموم مسلمى ألمانيا. ولكيما يتم ذلك، كان هؤلاء الألمان الغربيون بحاجة إلى أن تقوم الجماعات الإثنية الرئيسية بدعم "نمنقانى" ومؤازرته. وهنا ... فإن الأرقام لا تعنى الكثير - فمؤازرة جماعات متعددة ممثلة لمسلمى ميونيخ لنور الدين نمنقانى لتفى بالغرض. لذا، ففى التاسع من آذار/ مارس ١٩٥٨، عقدت إحدى كوادر المسلمين المقربين من "فون منده" ... والذين عملوا كلهم بلجان الأوستمنستريوم القومية - اجتماعا فى حانة ومطعم "لوفينبراو" بميونيخ.

وقد ذهب المجتمعون إلى وصف جماعتهم بأنها مزيج من الجماعات الإثنية الممثلة لخمسة مواطن هى: شمال القوقاز وأذربيجان وتركستان وأورال الفولغا والقرم. وقد ذكر أعضاء الجماعة التى ترأسها الناشط التركستانى المخضرم "على قنطمير" أنهم متساوون من حيث العدد مع أولئك المسلمين الذين يتبعون "إبراهيم كوجا أوغلو" ... ولو أن هذا الزعم يبقى محل تساؤل وتشكك. هذا، وقد خلص المجتمعون إلى كونهم بحاجة إلى "إمام"، وأن اختيارهم قد وقع على "نمنقانى". وللقيام بذلك الأمر، كان لابد من شكل قانونى. لذا، فقد عمدت الجماعة إلى تكوين

ما عرف بالإدارة الدينية للاجئين المسلمين فى ألمانيا الاتحادية، حيث انتخب "نمنقانى" رئيسا لها، لتصبح مكتبا حكوميا مول مباشرة من قبل وزارة شئون اللاجئين برئاسة "أوبرليندر".

أما ردة فعل "كوجا أوغلو" إزاء ذاك المكتب الحكومى الجديد فكانت مباغتة وتهكمية ... إذ ذهب إلى وصف اجتماع آذار/ مارس هذا - والذى ضم القوى المناصرة لنمنقانى بأنه "مجموعة من السياسيين المحنكين وزمرة صغيرة من أناس متماثلى الأفكار تم دعوتهم خصيصا لاختيار قيادة كهنوتية زاعمين كونهم يمثلون مصالح ألمانيا الاتحادية". ولقد كان "كوجا أوغلو" محقا فى قوله هذا ... فالجماعة كانت تجمعا سياسيا محضا بلا أدنى تفويض شعبى. بيد أن بيروقراطيى "بون" كانوا قد تنبئوا بذلك. فقبل الاجتماع المذكور بأشهر قلائل، ارتأت وزارة شئون اللاجئين أن تضفى على "نمنقانى" قبولا وجاذبية شعبيين ... موضع يمارس فيه "مسلمو ميونيخ" شعائرهم التعبدية.

على أنه لو كان "نمنقانى" قد أراد - حقاً - إنشاء مسجد لمسلمى ميونيخ لغرض التعبد وتقوى الله، لكان يمكن أن تتوفر لديه فرصة رائعة لتوحيد أولئك المسلمين وراءه، وكذا وراء مصالح ألمانيا الغربية ... إلا أن الفكرة لم تكن أبداً فكرته، كذا فلم يكن الأمر بدافع من تقوى أو ورع قط - بل إن بيروقراطيى "بون"، بالمقابل، كانت لديهم مآرب سياسية محددة تماما. فوفقا لما ذكره أحد المسئولين فى مذكرة له فى عام ١٩٥٧، "إن وجود موضع يتيح لمسلمى ميونيخ أداء صلواتهم به، حيث يمر بالمدينة العديد من الأجانب المسلمين فضلا عن أولئك المقيمين إقامة دائمة فى "بافاريا" ... سيتيح لآولئك وهؤلاء الفرصة لأداء شعائرهم وصلواتهم. إذا، فلا يمكن إغفال الأثر الإيجابى العائد على البلدان الإسلامية، وكذا الأثر ذاته على مسلمى ألمانيا - وما لذلك من عواقب محمودة

بشأن علاقات ألمانيا بالبلدان الإسلامية".

وبحلول نهايات عام ١٩٥٨، لم يكن "نمنقانى" يرنو إلى موضع للصلاة فحسب، بل تمثل المراد فى مسجد متكامل الأركان. وفى هذا الصدد، حصل "نمنقانى" على دعم ومؤازرة ضابط مشاة ألمانى اتسم بالمكر والدهاء ... "فيلهلم هنترساتز" - الذى ولد بالنمسا فى السادس والعشرين من أيار/ مايو ١٨٨٦، وكان مساعدا لأنور باشا التركى فى الحرب الكونية الأولى. كذا، فقد تم تكليفه بإنشاء أول منظمة للمتطوعين الفنلنديين، وذلك للقيام بتحرير فنلندا من قبضة الحكم القيصرى الروسى. ولقاء خدماته فى هذا الصدد، تم منحه المواطنة الشرفية الفنلندية. أما العام ١٩١٩، فقد شهد اعتناق "هنترساتز" الإسلام وتغيير اسمه ليصبح "هارون الرشيد بك" هذا، وقد انضم "هارون الرشيد بك" إلى أسراب الدفاع الألمانية فى الثلاثين من حزيران/ يونيو ١٩٤٤، ثم ترأس سلاح الشرق التركستانى فى الأول من تشرين الأول/ أكتوبر من العام ذاته... وهى الوحدة نفسها التى خدم فيها "نمنقانى" كإمام أكبر. وكان الرجلان قد تعارفا خلال الحرب الكونية الثانية حيث سيق كلاهما سجينين بواسطة الولايات المتحدة الأمريكية.

وبعد انقضاء الحرب بأعوام، عمد "هارون الرشيد بك" فى الثامن عشر من شباط/ فبراير ١٩٥٩ إلى كتابة خطاب إلى رئيس ألمانيا الغربية، آنذاك، "تيودور هويس" ليشرح فيه أن نمنقانى "صديق وفى مخلص لألمانيا"، حيث جعله حبه الشديد لها يعود إليها بعد أن فرغ من بعض الدراسات الإسلامية بتركيا.

هذا، وقد أورد "هارون الرشيد بك" بخطابه ما يلى: "إن مسلمى ميونيخ يفتقرون إلى مسجد غير مسيس، على أن تلحق به مدرسة صغيرة للتعليم الدينى وتعليم اللغات، بحيث تكون تلك المدرسة بمنزلة قاعة اجتماعات. إن مسلمى ألمانيا، بعكس

نظرائهم فى بلدان غربية أخرى كبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، يفتقرون إلى كيان دينى وثقافى مركزى ذى شأن ... ألمانيا التى ما يزالون يرونها صديقاً وفياً مخلصاً للإسلام. إذا ... ألا يكون مثالياً، بل إن حق لى - كألمانى - ألا يكون من الحصافة السياسية أن نمنح موقعا لبناء مسجد لأولئك الأصدقاء الأوفياء لألمانيا؟ إنه لا يخامرنى أدنى شك فى أن المشرق الإسلامى سيعلى كثيرا من شأن رمز كهذا يدل على عمق الصداقة التى تربط ألمانيا بالمسلمين".

وبحلول نهاية عام ١٩٥٨، كانت الاستعدادات والترتيبات قد اكتملت. ففى الثانى والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر، دعا نمنقانى إلى اجتماع لإدارته الدينية الوليدة، حيث كان الهدف ... إنشاء مسجد.

الفصل الثامن

وصول الدكتور "رمضان"

ذات يوم من أيام آذار/ مارس ١٩٥٦، كان "غرهارد كيغل" أستاذ القانون يعقد إحدى "ساعاته المكتبية" الأسبوعية لذلك اليوم، وذلك بمكتبه بجامعة "كولونيا" الألمانية ... حين تقدم إلى باب المكتب رجل مهندم قصير القامة يلتمس نصحا بشأن أطروحته للدكتوراه.

وبعد السؤال عن التعليم الذى أحرزه الرجل، وافق "كيغل" على طلبه. أما "الرجل"، فكان "سعيد رمضان" الذى قدم نفسه إلى "كيغل" بأنه محام قاهرى وفد إلى أوروبا لدراسة القانون. وكان "كيغل" كريما معه، إذ عرف كأستاذ لا يخذل أحدا مطلقا لجأ إليه طالبا للمشورة، وبخاصة الطلبة الأجانب. وكان "كيغل" يشرف - فى المتوسط - على سبعة طلبة دكتوراه فى العام، حيث بلغ عدد من التجأ إليه للمشورة والنصيحة نحو ٤٥٠ طالب على امتداد مسيرته المهنية الطويلة. أما الجامعات الألمانية فلم تكن تشترط - عادة - عملاً بحثياً تمهيدياً للدكتوراه ... لذا، فما كان على المرء المتقدم لنيل درجة الدكتوراه إلا أن يكون حاصلا على درجة الماجستير أو ما يعادلها.

فى البداية، كانت لقاءات "رمضان" مع "كيغل" محدودة. وكان "رمضان" - الذى لم يكن حينها قد بلغ الثلاثين بعد - يبدو أكثر نضجا من كثير من طلبة "كيغل"،

وكان مدركا ما أراد الكتابة عنه تحديدا ... "الشريعة الإسلامية"، حيث شرع في الأمر بحيوية ونشاط.

وعادة ما كان "رمضان" على سفر ... لذا، فقد خاله "كيغل" يعد الترتيبات لانتقاله النهائي للعيش في أوروبا. وكان "رمضان" يطلعه على تحركاته هنا وهناك حيث كان يبعث إليه بخطابات وكروت "بريدية" من جنيف ودمشق والقدس ... إلخ. وبمضي الوقت، أدرك "كيغل" - ذلك الأستاذ الجامعي الدمث حلو المعشر - أن دافع "رمضان" الحقيقي لم يكن "الشريعة الإسلامية"، بل ... "الثورة".

لقد كان القرن التاسع عشر قرنا مأساويا للسواد الأعظم من بلدان العالم غير الغربي ... حيث غزا العديد من البلدان الغربية المسلحة باقتصاد قوى وأنظمة سياسية متطورة أراضي شاسعة من العالم وأخضعتها لسيطرتها. أما الشعوب

التى اعتبرت نفسها ذات يوم أكثر الشعوب تقدما وتحضرا على امتداد المعمورة، فسرعان ما اندحرت تحت وطأة قوة "الغرب" الحربية. فمن أقصى الشرق فى الصين إلى أقصى الغرب فى بلدان المغرب العربى، تم احتلال العديد من البلدان حيث أطيح بحكامها وأخضع رعاياها للحكم الأجنبى، إلا أن بلدان العالم الإسلامى كانت أكثر من ذاق ذل الاستعمار ووطأته ... العالم الإسلامى، ذلك العالم صاحب منارات الحضارة الساطعة التى تعود إلى القرن السابع الميلادى، حيث بسط الفاتحون العرب، تؤيدهم روح الإسلام، نفوذهم على امتداد البسيطة. أما الدين الجديد، فقد انتشر سريعا ليخلق ممالك احتضنت فلاسفة عظماء وعلماء وفنانين نابهين. إلا أنه ومع بواكير القرن العشرين، كان العالم الإسلامى - فى معظمه - رازحاً تحت حكم غير المسلمين ... فالنصارى قد بسطوا نفوذهم فى كل مكان، فتارة هم الإنكليز فى شبه القارة الهندية، وتارة هم الهولنديون فى إندونيسيا، وأخرى هم الفرنسيون فى شمال إفريقيا. ووحدها تركيا التى ظلت بمنأى عن الاحتلال إذ كانت مستقلة، إلا أن دولة الخلافة الإسلامية كانت قد أسقطت بها لتنتهج تركيا نهجا علمانيا سافرا.

وفى سعيهم لإدراك الأسباب التى أفضت إلى ذلك التدهور، خلص المسلمون إلى احتمالين اثنين ... أن النصارى قد توصلوا إلى أنظمة سياسية واقتصادية فاعلة لم تكن - بحال - لدى المسلمين، أو أن تكون التعاليم الإسلامية الحقة لا يتم تطبيقها من قبل المسلمين. ووحده الاحتمال الثانى هو الاحتمال المنطقى لدى كثير من المسلمين. لذا، فقد بذلت جهود لمعرفة كيف انحرف المسلمون عن جادة الصواب وتنكبوا الصراط المستقيم. أجل ... قد يكون الغرب أدخل تقنيات نافعة ومفيدة، إلا أن "أيديولوجيته" بات لزاما أن ترفض ... تلك الرؤية التى تبناها كثير من المسلمين وشاركهم إياها بعض من شعوب أخر. ففى الصين - على سبيل المثال - دعت

"حركة التعزيز الذاتى"[٧٣] إلى استدامة الوفاء لمناهج الفكر الصينى وأنظمته بالتوازى مع تبنى التقنيات الغربية، لا سيما الأسلحة والعتاد. إلا أن السياق الثقافى الذى انبثقت فى ثناياه تلكم التقنيات، فلم يتناول بالدراسة، ولم تتطرق إليه يد البحث ... ويقصد بالسياق الثقافى - ماهية الإطار الثقافى وحراكاته تلك التى أحاطت بمولد تلك التقنيات، فضلا عما يوحيه بشأن العلاقة بين الفرد والسلطة الحاكمة، سياسية كانت أم دينية.

وفى القرن التاسع عشر، شرع العالم الإسلامى يدخل فى صراع حول تلك الأفكار. ففى بواكير القرن المذكور عمد بعض الباحثين والمثقفين من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى المصرى إلى الاشتباك مع الأفكار الغربية عن طريق تعريب الكتب والحض على إرساء وعى قومى وتثبيت أركان ذلك الوعى ... وهو ما مهد السبيل أمام الزخم السياسى والدينى الأكثر انفتاحا لرموز من أمثال الإمام جمال الدين الأفغانى والإمام محمد عبده - اللذين أصدرا جريدة دعت إلى العودة إلى المبادئ الإسلامية الأصيلة[٧٤] . ثم التقط ذلك الفكر جيل تال من الرجال من أمثال محمد رشيد رضا، الذى عزا ضعف العالم الإسلامى إلى جمود طبقة المثقفين وإخفاق المسلمين فى التمسك بأهداب التعاليم الإسلامية الحقة. وقد أصدر رشيد رضا مجلة ذاع صيتها فى أوائل القرن العشرين، إذ كانت مصدر إلهام للعديد من أبرز النشطاء السياسيين[٧٥] .

وحين أخذ القرن العشرون يغذ السير، انبثق مزيد من برامج سياسية أخرى عدت أكثر سفورا. وقد ذهب بعض المؤرخين إلى نعت الحركة الوليدة بالإسلاموية، فيما أطلقوا على معتنقيها لفظة "الإسلامويين". ووفقا لذلك النهج الفكرى، فإن "الإسلامويين" يختلفون عن المسلمين التقليديين ... إذ يذهب الإسلامويون إلى توظيف الدين لخدمة أجنداتهم السياسية، إما عن طريق اقتراب ديمقراطى أو من

خلال اللجوء إلى العنف. اما الأتباع فمدفوعون بقضايا معينة مرتبطة بالإسلام مثل الحاجة إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى مجتمعاتهم. أما "الإسلاموية"، فيكمن فى طياتها رفض للمجتمعات الغربية وقيمها - والتى ينظر إليها على كونها لا تتوافق ومقتضيات الدين الإسلامى. هذا، ويركن بعض المحللين السياسيين إلى تفضيل مصطلح "الإسلام السياسى" لنعت هذه الظاهرة.

إلا أن مفهوم "الإسلاموية" يعد مفهوما خلافيا ذا طبيعة جدالية كونه ينطوى على أن الإسلام - فى بواكير نشأته وتطور مسيرته - لم يكن مسيسا أو سياسيا. إلا أن الواقع الفعلى هو أن الإسلام، منذ إرهاصاته الباكرة، كان دينا ذا صبغة جامعة مانعة لم يتعارض قط والسلطة الدنيوية. كذا، فإن مصطلح "الإسلاموى" لذو إيحاءات ودلالات سلبية نظرا لاستخدامه عقب أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ من اعتداءات وتفجيرات فى كل من نيويورك وواشنطن - رديفا لكل ما هو إرهابى.

أما إسلام القرن العشرين، فكان المعين الثرى للكثير من الزخم السياسى. فالنشطاء السياسيون عابرو القوميات ممن يزعمون بأنهم سدنة الدين الحق قد سعوا لفرض "نسختهم" من الإسلام على مسلمين ذوى جذور فى موقع بعينه قد تعارفوا، بمضى الزمن، على ممارسات وطقوس دينية مميزة. ومن ثم ما شاع من لباس بعينه، وحجاب للمرأة، والتضييق على تداول الموسيقى الغربية، وتحجيم دور المرأة فى المجتمع. وعادة ما يعمد أولئك النشطاء إلى التفسير الحرفى للقرآن ... وهو نهج يتغافل تلك الجدالات القانونية المعقدة التى تدوولت فيما بين الباحثين الإسلاميين على امتداد عقود وقرون. وبالمقابل، فقد خلص أولئك النشطاء إلى فكرة مستحدثة مفادها أن المرء - أياً من كان - بوسعه فهم القرآن وإدراك معانيه، لذا فإن طائفة الشراح التقليديين تضحى غير ذات موضوع إذ تفقد معناها، بل قد

تصبح ضارة ذات أثر تدميرى بغيض. ومن جهة أخرى، يرفض الاتجاه المذكور أفكارا حديثة أخرى، من أمثال النظر بعين الاعتبار إلى السياق التاريخى حين التصدى لتأويل نصوص قديمة. وبمثل ما يذهب كثير من الملتزمين بحرفية النصوص، فإن النشطاء الإسلاميين المعاصرين يعدون من قبيل التجديف والهرطقة ما يزعم من أن أحكاما بعينها كانت ذات اعتبار ووجاهة حين أنزل القرآن، إلا أنها - اليوم - تعد هامشية فيما يخص رسالته الرئيسية.

أما التنظيم السياسى الأكثر نفوذا، والخارج من عباءة ذلك النهج الفكرى، فهو حركة "الإخوان المسلمين"، والتى أسسها "حسن البنا" فى عام ١٩٢٨ ... وهو مدرس من مدينة المحمودية بمحافظة البحيرة. آنذاك، كانت مصر ما تزال خاضعة للحكم الكولونيالى البريطانى، إلا أنها كانت تواكب حركة العصر سراعا لتلحق بركب قطار التحديث و"العصرنة"، حيث عانت ظروفا اقتصادية واجتماعية قاسية عصيبة. أما القاهرة، فكانت قد شرعت تجارى موجة "التصنيع" السائدة، حيث شرع الفلاحون ينزحون من الريف إلى المدن ليواكب ذلك تفسخ فى التقاليد، إذ كانت الأعراف تمور مورا. هذا، وقد وقف "حسن البنا"، الذى كان يلتهم مجلة "المنار" التهاما مشدوها من هذا المزيج من القمع القومى والحراك الاجتماعى ذى الوتيرة المتنامية. لذا، فقد شرع "البنا" ينظم أفكاره ويدون بعض أفكار ورؤى خاصة به. وقد كانت كتابات "البنا" هجوما ضاريا على الوجود البريطانى فى مصر، كذا فقد كانت هجوما على اللاأخلاقيات والفكر المنفلت، وبخاصة تلك الأنماط التى فشت فى عاصمة البلاد. وقد كان الحل لدى "البنا"، كما كان لدى المثقفين ممن سبقوه من أمثال "رشيد رضا"، يكمن فى الإسلام. إلا أن ما جعل "البنا" فريدا ... كونه ناشطا سياسيا يخاطب عامة المصريين من البسطاء ... إذ كان خطابه "شعبيا". هذا، ولم يكن أعضاء تنظيم "الإخوان المسلمين" يرنون لأن

يصبحوا مثقفين على غرار جماعة علماء المسلمين، بل كان لهم جذور شعبية بأكثر مما كان لجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده، أو رشيد رضا. فعادة ما كان أعضاء التنظيم يرتدون لباسا غربيا، ويتسمون بخطاب عصرى يعمدون فيه إلى عبارات بسيطة وكلمات واضحة مبتعدين عن العبارات النمطية لخطاب العلماء التقليديين. إلا أن الأهم من ذلك قد تمثل فى إرسائهم لمنظمات غربية الطابع كالأحزاب السياسية، وجماعات الشباب (الطلائع)، والجماعات النسوية، والأجنحة شبه العسكرية. لقد أضحى "للإخوان المسلمين" دولة داخل الدولة، إذ كان بمقدورهم توفير ما عجزت الحكومة عن الاضطلاع به، الأمر الذى أتاح لهم قبولا وذيوعا فيما بين المنتمين للطبقة الوسطى فى العالم الإسلامى ... تلك الطبقة التى كان نجمها صاعدا آنذاك. كذا، فقد كان "الإخوان المسلمون" لسان حال الفقراء إلا أنهم كانوا دائما ما ينتقون زعاماتهم من طبقة "المتعلمين" المحبطة جراء إفقار البلاد والعباد الذين سيموا الخسف على أيدى البلدان الغربية. وبما أنه لا عرق يحده ولا جنسية، فقد امتد نفوذ التنظيم من أقصى المشرق إلى أقصى المغرب ... من بلدان جنوب شرقى آسيا إلى بلدان الشمال الإفريقى.

"لم يكن الشيخ البنا كغيره من الشيوخ" ... هكذا استدعى محمد فريد عبد الخالق[٧٦] ذكرى مؤسس جماعة "الإخوان المسلمين"، وذلك فى لقاء جمعنى به فى الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ بالقاهرة. واستطرد "عبد الخالق" قائلا: "إن البنا كان يصف الإسلام وصفا جديدا". وكان "عبد الخالق" يختلف إلى مؤتمرات "البنا" الحاشدة فى صغريات المدن، ثم – لاحقاً – فى القاهرة، حيث انضم إلى الجماعة فى بواكير نشأتها ليترأس "قسم الطلبة" عام ١٩٤٢، وينشط فى الهيئة التأسيسية عام ١٩٤٤، التى أضحى اسمها "مجلس شورى الجماعة" لاحقا. وقد كان ثمن هذا النشاط غاليا إذ أمضى "عبد الخالق" ١٢ عاما وراء قضبان السجون

المصرية. وقد سمع "عبد الخالق" الإمام "حسن البنا" فى احتفال إسلامى بمدينة "إيتاى البارود" بمحافظة البحيرة حيث ذكر أنه "منذ سمع الإمام البنا فى هذا الاحتفال تغير وجدانه وانقلب تفكيره حيث وجد ضالته فى جماعة قربت المسافات بين الالتزام الدينى والواجب السياسى، وفى رجل يقودها له طريقته التى تميزه عن مشايخ الدين وعلمائه، رغم أنه أحدهم، كذا فقد كان له أسلوبه السياسى المميز والخلاب الذى اختلف اختلافا شاملا عن كلام رجال الأحزاب والسياسة الذين تجمعهم المصالح وتفرقهم الواجبات".

أما منهج "البنا" فى استمالة الآخرين وجذبهم إلى طريقته فتمثل فى قيامه بتحديد مشكلة بعينها فى مجتمع ما، ثم الشروع فى إيجاد حلول لها. فالجماعة قد تساعد فى بناء مسجد جديد أو مدرسة، أو قد تطور من صناعة محلية ... الأمر الذى يفضى إلى إقناع الآخرين بأن جماعته، جماعة "الإخوان المسلمين" هى تنظيم يسعى إلى إيجاد حلول لأية مشكلة، وبأن أفراد الجماعة هم أناس مخلصون أوفياء مكرسون لخدمة المجتمع. أما الأعضاء الجدد الذين يتم إلحاقهم بالجماعة، فكان يتم اختيارهم مباشرة من المساجد أو المقاهى والأسواق.

وما أشبه الليلة بالبارحة ... فكما اليوم، كانت السياسة – آنذاك – أمراً ذا حساسية فى ربوع القطر المصرى. لذا، كان "البنا" حريصا على أن يطلق على جماعته لفظة حركة "الإخوان المسلمين"، متجنبا إطلاق صفة الحزبية عليها. إلا أنه أضحى شديد الانخراط فى السياسة، حيث وقف فى وجه الملكية التى كانت قد تواطأت مع المحتل البريطانى ... وهو الأمر الذى عجل بأول صدع فى تاريخ الحركة، تحديدا فى عام ١٩٣٩، حين عمدت جماعة "شباب محمد"[٧٧] إلى الانشقاق عن الحركة، إذ آمن أفراد تلك الجماعة المنشقة بأن "الإخوان المسلمين" يجب أن تكون جماعة رفاه خيرية ترفض "تسييس" الإسلام. أما جماعة "الإخوان المسلمين"

فقد شرعت – آنذاك – توآزر "جمال عبد الناصر"، الذى سيقوم – لاحقاً – وتحديداً فى الثالث والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٥٢، بالتعاون مع زمرة من ضباط أطلقوا على أنفسهم اسم "الضباط الأحرار" ... بانقلاب عسكرى أطاح بالملكية فى مصر.

هذا، وقد ذهبت جماعة "الإخوان المسلمين" فى مصر أشواطا بعيدة إلى الحد الذى قبلت معه أموالا من العملاء النازيين. فوفقا لمستندات تحصل عليها البريطانيون فى بواكير الحرب الكونية الثانية، فقد حصلت جماعة "الإخوان المسلمين" على مبلغ ألفى جنيه مصرى من الصحافى الألمانى "فيلهلم شتيلبوغن" – مدير وكالة الأنباء الألمانية والمقرب من الجالية الألمانية بالقاهرة. هذا، وقد استخدم هذا التمويل النازى فى تأسيس "التنظيم الخاص" لجماعة "الإخوان المسلمين"، وهو نظام تراتبى شبه عسكرى ... فلم يكن مفهوم الجماعة الدينية ذات الجناح العسكرى غريبا مطلقا عند "حسن البنا"، إذ أظهرت "الجماعة" نفسها، منذ البداية، على أنها تنظيم شعبى يمكنه النزول إلى الشارع وحشد التظاهرات، بل والقيام بمناوشات قتالية.

وقد آمن "البنا" برسالة القرآن التى تذهب إلى أنه لا انفصال بين الدولة والدين، وهو ما وجد تعبيرا عنه فى شعار "الجماعة" الشهير: "الله غايتنا، الرسول قدوتنا، القرآن دستورنا، الجهاد سبيلنا، الموت فى سبيل الله أسمى أمانينا". ويصرح "البنا فى رسالة " بين الأمس واليوم": "إذا قيل لكم: إلام تدعون؟ فقولوا: نحن ندعو إلى الإسلام الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، والحكومة جزء منه، والحرية فريضة من فرائضه، فإن قيل لكم: هذه سياسة، فقولوا: هذا هو الإسلام، نحن لا نعرف انفصال الدولة عن الدين".

وفى رسالة أخرى له يقول: "اسمع يا أخى: دعوتنا أجمع ما توصف به أنها

إسلامية، ولهذه الكلمة معنى واسع غير ذلك المعنى الضيق الذى يفهمه الناس، فإنا نعتقد أن الإسلام معنى شامل ينتظم شئون الحياة جميعا، ويفتى فى كل شأن منها، ويضع لها نظاما محكما دقيقا، ولا يقف مكتوفا أمام المشكلات الحيوية والنظم التى لابد منها لإصلاح الناس. فهم بعض الناس خطأ أن الإسلام مقصور على ضروب من العبادات أو أوضاع من الروحانية، وحصروا أنفسهم وأفهامهم فى هذه الدوائر الضيقة من دوائر الفهم المحصور. ولكنا نفهم الإسلام على غير هذا الوجه فهما فسيحا واسعا ينتظم شئون الدنيا والآخرة".

أما فى رسالة "نحن والسياسة"، فيقول "البنا": "إن "الإخوان المسلمين قوم سياسيون ودعوتهم دعوة سياسية، ولهم من وراء ذلك مآرب أخرى، ولا ندرى إلى متى تتقارض أمتنا التهم وتتبادل الظنون وتتنابز بالألقاب، وتترك يقينا يؤيده الواقع فى سبيل ظن توحيه الشكوك؟

أيا قومنا: إننا نناديكم ... والقرآن فى يميننا، والسنة فى شمالنا، وعمل السلف الصالح من أبناء هذه الأمة قدوتنا، وندعوكم إلى الإسلام وتعاليم الإسلام وأحكام الإسلام وهدى الإسلام ... فإن كان هذا من السياسة عندكم فهذه سياستنا، وإن كان من يدعوكم إلى هذه المبادئ سياسيا فنحن أعرق الناس والحمد لله فى السياسة، وإن شئتم أن تسموا ذلك سياسة فقولوا ما شئتم فلن تضرنا الأسماء متى وضحت المسميات وانكشفت الغايات.

يا قومنا: لا تحجبكم الألفاظ عن الحقائق، ولا الأسماء عن الغايات، ولا الأعراض عن الجواهر، وإن الإسلام لسياسة فى طيها سعادة الدنيا وصلاح الآخرة. وتلك هى سياستنا لا نبغى بها بديلا فسوسوا أنفسكم، واحملوا عليها غيركم تظفروا بالعزة الأخروية، ولتعلمن نبأه بعد حين. والواقع أن غير المسلمين

حينما جهلوا هذا الإسلام، أو حينما أعياهم أمره وثباته فى نفوس أتباعه، ورسوخه فى قلوب المؤمنين به، واستعداد كل مسلم لتفديته بالنفس والمال ... لم يحاولوا أن يجرحوا فى نفوس المسلمين اسم الإسلام ولا مظاهره وشكلياته، ولكنهم حاولوا أن يحصروا معناه فى دائرة ضيقة تذهب بكل ما فيه من نواح قوية عملية، وإن تركت للمسلمين بعد ذلك قشورا من الألقاب والأشكال والمظهريات لا تسمن ولا تغنى من جوع ... فأفهموا المسلمين أن الإسلام شيء والاجتماع شيء آخر، وإن الإسلام شيء والقانون شيء غيره، وإن الإسلام شيء ومسائل الاقتصاد لا تتصل به، وإن الإسلام شيء والثقافة العامة سواه، وإن الإسلام شيء يجب أن يكون بعيدا عن السياسة. فحدثونى بربكم أيها المسلمون إذا كان الإسلام شيئا غير السياسة وغير الاجتماع وغير الاقتصاد وغير الثقافة، فما هو إذا؟! ... أهو هذه الركعات الخالية من القلب الحاضر؟ أم هذه الألفاظ التى هى كما تقول رابعة العدوية: استغفار يحتاج إلى استغفار. لهذا أيها المسلمون نزل القرآن نظاما كاملا محكما مفصلا تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين".

إنه لقاء وعظى جرت وقائعه عام ١٩٤٠ ... حيث كان اللقاء مناسبة رأى فيها سعيد رمضان الإمام حسن البنا للمرة الأولى. وعقب كل تجمع كذلك المشار إليه، كان البنا يطلب إلى الحضور ارتقاء المنصة، وكأنما كيمين ولاء للجماعة. وبعد توالى خمسة لقاءات كتلك أو نحو ذلك، عزم سعيد رمضان على ارتقاء المنصة ... ذلك الفتى ذو الأربعة عشر ربيعا، آنذاك، والذى لم تكن قامته قد تجاوزت حدود المتر ونصف المتر إلا قليلا، وإن عوض ذلك جسم قوى البنيان صقلته ممارسة الرياضة وتدريبات المصارعة.

"بالله ماذا أخرك عنا؟" ... كانت تلك أولى كلمات الإمام له - الإمام الذى كان مدركاً طيلة كل ذلك الوقت أن المرء الذى سيرعاه ويتعهده لهو بين تلك الصفوف.

لذا، فـمـا كـان من الإمـام سـوى الانتظار حـتـى يتـقـدم من انتظره طويلا خطواته الأولى.

لقد كانت تلك قصة طالما حرص سعيد رمضان على أن يسردها على مسامع أصدقائه ومعاونيه. إن حسن البنا، وفقا لرمضان، عادة ما كان يتم النظر إليه على كونه رمزا سياسيا فحسب. لذا، كان رمضان يقول عنه إنه رجل ذو جانب صوفي روحاني فضلا عن جانبه السياسي، إذ كان حريصا على أن يرقد بالمقابر ليلة من كل شهر ليذكر نفسه بمصيره المحتوم. أما مريدو البنا ورمضان وأتباعهما فعادة ما كانوا يشددون على قوة الرجلين البدنية. إذ كان البنا يقود أعضاء الجماعة أثناء التدريبات الرياضية متبنيا في ذلك الأفكار الغربية الذاهبة إلى كون البدن والعقل على الدرجة ذاتها من الأهمية دون رجحان لكفة على الأخرى. أما رمضان ... بجسده النحيل وقامته القصيرة التي لم تتعد - وهو بالغ - حدود الـ ١٦٨ سم ... فكان يحظى باحترام جم، أعزى بعضه إلى بنيانه القوى ونشاطه الموفور. وأما عن قسماته، فكان ذا عظام فك بارزة قوية تحيطها لحية مشذبة، فيما كانت عيناه رقيقتين ذواتا عمق ... لذا، فدائما ما كان رمضان محور أحاديث عن جاذبيته وحضوره الطاغيين في أي محفل شوهد به.

ووفقاً لداود صلاح الدين خلال مكالمة هاتفية أجريتها معه وهو في العاصمة الإيرانية طهران في الثامن والعشرين من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ ... "كان سعيد رمضان قويا للغاية من الناحية البدنية". وداود صلاح الدين هذا هو أمريكي من أصول إفريقية اعتنق الإسلام، كان قد التقى رمضان في واشنطن في عام ١٩٧٥ . واستطرد صلاح الدين ليقول: "إن ما جعلني أشعر بمدى جاذبية رمضان هو أن المرء نادرا ما يرى أناسا ذوي مكانة ثقافية كتلك التي ميزت الرجل يتمتعون ببنية قوية وقوام رياضي. فرمضان كان بطلا رياضيا منذ نعومة أظفاره... كذا، فقد كان

يتمتع بكاريزما طاغية. أجل ... فحين تلقى شخصا بوسعه التحدث قائما لساعات ثلاث، فحتما سيكون صاحب قوة بدنية هائلة".

وكما كانت عادة مجايليه من ذوى التوجه الغربى، كان سعيد رمضان غالبا ما يرتدى بزة غربية ورباط عنق محتفظا بلباسه العربى التقليدى لمناسبات بعينها. كذا، فإن حديثه قد اتسم بنفاذه إلى صلب الموضوع مباشرة ... فضلا عن حرصه الدائم على النظر إلى عينى محدثه.

وعقب لقاء رمضان بالبنا، أضحى الرجل ناشطا بجماعة "الإخوان المسلمين"، حيث أسهم فى تنظيم المؤتمرات الحاشدة. وكان رمضان قد درس القانون فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول (القاهرة حاليا) التى تخرج فيها عام ١٩٤٦ ليصبح محاميا. وفى العام ذاته، اختاره حسن البنا ليكون سكرتيره الشخصى، كذا فقد زوّجه كبرى بناته (أم أيمن). أما فريد عبد الخالق، فيقول عنه: "إنه كان خطيبا مفوها ذا كاريزما بادية ... إنه رجل المهام الصعبة".

أما الروايات الخاصة بنشاطه فى فلسطين فتتباين تباينا جليا ... إذ ذهب البعض إلى القول بدوره المحورى الذى اضطلع به فى الدفاع عن القدس ضد قوات العدوان الإسرائيلى، فيما ذهب بعض آخر إلى أنه قد اضطلع فقط بتنظيم جناح لشباب الإخوان هناك. هذا، وقد كتب آخرون عن إنشائه لفرع جماعة "الإخوان المسلمين" فى الأردن، حيث أشرف على جهود الإخوان خلال حرب عام ١٩٤٨، فكان أن منحه ملكها، آنذاك، الملك عبد الله الأول جواز سفر استخدمه لسنوات طوال.

إلا أن النشاط السياسى المكثف لجماعة "الإخوان المسلمين" كان يعد تهديداً من قبل العديد من الحكومات، آنذاك. لذا، فقد قامت الحكومة المصرية بحظر الجماعة

عام ١٩٤٨ ليرتحل بعدها سعيد رمضان إلى باكستان الوليدة. وعقب عودة رمضان إلى مصر عام ١٩٤٩، تم اغتيال حسن البنا فى الثانى عشر من شباط/ فبراير. أما رمضان، الذى كان ما يزال صغيرا، حينذاك، لخلافة حميه الراحل، فقد استمر فى نهجه التنظيمى بالخارج.

وفى لقاء جمعنى بالأخ الأصغر للبنا - وهو جمال البنا - فى الثالث عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ بالقاهرة، ذهب جمال إلى القول بأنه "إذا كان لدى جماعة الإخوان المسلمين هيكل وزارى قوامه وزراء عدة، لكان سعيد رمضان وزيرا للخارجية. لقد كان رمضان ذا لسان ذلق طلق، خطيبا مصقعا يجيد العربية ويتحدث الإنكليزية ... كذا، فقد كانت له علاقات واسعة ومعارف شتى بداخل البلاد وخارجها". هذا، وقد كان جل نشاط سعيد رمضان موجها نحو "التنظيم أو الاجتماع الإسلامى". ولم يكن الهدف ضربا من مصالحة مسكونية أو توافق ثيولوجى فيما بين الفصائل الإسلامية المتناحرة على الدوام ... بل كان، فى المقابل، هدفا سياسيا. فمن الوجهة النظرية، يجب أن يحكم المسلمين خليفة ... حاكم دنيوى يعمل على تطبيق الشريعة الإسلامية وإنفاذ مقتضياتها فى إطار ضرب من حكومة دنيوية. إن السلطان العثمانى وحيد الدين محمد السادس، آخر الخلفاء فى دولة الخلافة التى هوت ... كان مقر حكمه فى اسطنبول، إلا أنه قد خلع عن الحكم عام ١٩٢٤ . ومنذ ذلك الحين، وإلى يومنا هذا، يرنو النشطاء الإسلاميون إلى إعادة دولة الخلافة كسابق عهدها.

وبدءا من عام ١٩٢٦، سعى النشطاء الإسلاميون إلى توحيد صفوف المسلمين تحت راية خلافة بديلة: من خلال إرساء الرابطات وعقد المؤتمرات. فإذا كان العالم الإسلامى بالغ التشظى لأن يوحد تحت قيادة زعيم فرد، فلا بأس - إذاً - فى أن يشكل تجمع ممثل نوعا من هيكل مظلى ينتظم الشتات ويربط الآصرة. ففى عام

١٩٤٩، كان كل من سعيد رمضان وأمين الحسينى، مفتى القدس، رأسى حربة لجهود رمت إلى إرساء هيكل كهذا، لينجحا - فى عام ١٩٥١ - فى عقد اجتماع لمؤتمر العالم الإسلامى ... حيث ترأس الحسينى الاجتماع، وذلك فى العاصمة الباكستانية "كراتشى"، فيما انتخب رمضان كأحد ثلاثى سكرتارية الاجتماع، فما كان منه إلا أن عمد - من فوره - إلى مهاجمة حكومة تركيا العلمانية. كذا، فقد نشط رمضان مع الحسينى فى منظمة المؤتمر الإسلامى.

إن الهدف الرئيسى الذى عمد سعيد رمضان إلى تحقيقه خلال تلك الاجتماعات قد تمثل فى محاربة الشيوعية ... فعلى الرغم من أن البلدان الغربية كان ينظر إليها على أنها فاسدة ومتداعية الأخلاق، إلا أن البلدان الشيوعية كانت قد فرضت حظرا شديدا على الدين، حيث صادرت أى نشاط دينى وعمدت إلى تقييده بشدة ... الأمر الذى جعل تلك البلدان تفوق البلدان الغربية سوءا، ومن ثم أضحت هدف الإسلامويين الأول. هذا، وقد كان أمين الحسينى يجاهر بمعارضته للشيوعية. فوفقا لتقرير لوحدة الخدمات الاستراتيجية بوزارة الدفاع الأمريكية فى عام ١٩٤٦، فإن "الحسينى كان قد بعث برسائل إلى أتباعه مذكرا إياهم بأن مبادئ الشيوعية تتعارض بالكلية مع تعاليم الدين الإسلامى كما وردت فى القرآن".

هذا، وقد تكرر ذلك المشهد فى مراقبات وكالة الاستخبارات المركزية لأمين الحسينى، والذى عرف بأنه معاد للشيوعية ومناهض لها، ومن ثم كونه متوافقا والسياسة الأمريكية المناهضة للشيوعية ... إلا أن تاريخه "النازى" قد حال دون أن يصبح حليفا مقبولا للأمريكيين. أما سعيد رمضان فكان شأنا آخر.

كانت الجولة الأولى التى جمعت المسئولين الأمريكيين بسعيد رمضان فى صيف ١٩٥٣، إذ تلقى "البيت الأبيض" طلباً عاجلاً مفاده "قدوم إسلاميين بارزين إلى

جامعة برنستون لعقد مؤتمر إسلامى ... فهل للرئيس الأمريكى أن يلتقيهم؟" وفى البدء، فقد بدا تعذر حدوث لقاء كهذا نظرا لتغيب الرئيس الأمريكى "أيزنهاور" عن نيو جيرسى. إلا أن "أبوت ووشبورن" - نائب مدير الوكالة الأمريكية للمعلومات ومسئول الاتصال بالبيت الأبيض - كان قد أورد الأولوية التى يوليها "أيزنهاور" للدين فى حياته الخاصة، وكذا فى استراتيجيته الجيوسياسية. أما المناقشات الباكرة حول توظيف الدين على نحو أكثر فاعلية فى السياسة الدولية، فكانت قد جرت بالفعل، إذ كان "إدوارد ليللى" قد أصدر للتو مذكرته ذات النفوذ الطاغى والمعنونة "العامل الدينى"[٧٨]. ورغما عن كون الوثائق لم تبرز بجلاء ما إذا كان "ووشبورن" قد أطلع على مذكرة "العامل الدينى" أم لا، إلا أن الشعور العام كان واضحا جليا: يحب على الولايات المتحدة الأمريكية اقتناص فرصة كتلك.

لذا، فقد بعث "ووشبورن" بمذكره إلى "تشارلز دوغلاس جاكسون"[٧٩] - مايسترو الحرب السيكولوجية التى تبناها "أيزنهاور" - أبلغه فيها أن المؤتمر ممول من قبل الوكالة الأمريكية للمعلومات، ووكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، وجامعة برنستون، ومكتبة الكونغرس - أو كما شبهها "بحيلة رباعية الأبعاد للهيمنة على العالم الإسلامى". أما النتيجة المرجوة، وفقا لما كتبه "ووشبورن"، فكانت "أن تترك القوة الأخلاقية والروحانية لأمريكا لدى المسلمين (الحضور) انطباعا إيجابيا ناجزا".

أما "البيت الأبيض" فكان مترددا، وأما "ووشبورن" فقد عمد إلى محاولة أخيرة ... إذ أورد أن "أيزنهاور" كان مؤمنا بضرورة أن تبرز الولايات المتحدة الأمريكية تفوقها الروحانى على الاتحاد السوفييتى. وفى مذكرته إلى "تشارلز جاكسون"، أورد "ووشبورن" أن "أولئك الذين أزمعوا عقد مؤتمر إسلامى يمكنهم ترك انطباع هائل بعيد المدى على التفكير الإسلامى، بل قد يفوق تأثيرهم طويل المدى تأثير

القادة السياسيين فى بلادهم. وهنا وافق "البيت الأبيض" على انعقاد "المؤتمر الإسلامى"، وبعدها بثمانية أيام ... أخذت الدعوات إلى حضور المؤتمر تترى. كذا، فقد دون موعد اجتماع الرئيس "أيزنهاور" بأعضاء المؤتمر، فى روزنامة أعماله: الثالث والعشرون من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٣ - الساعة الحادية عشرة والنصف صباحا. كذا، فقد تم تدوين اسم "سعيد رمضان" ... مندوب جماعة "الإخوان المسلمين".

وكما أوضح مسئولو "أيزنهاور"، فقد أريد بالاجتماع أن يكون تتمة للأهداف السياسية لمؤتمر "برنستون". هذا، ولم يكن جميع حضور المؤتمر من الباحثين ... لذا، فلم يقدم هؤلاء أبحاثا أو أوراق عمل، إذ كان الهدف الرئيسى للمؤتمر إظهار احتفاء الولايات المتحدة الأمريكية بالمثقفين الإسلاميين. ووفقا لمذكرة سرية أرسلت إلى وزير خارجية "أيزنهاور" ... "جون فوستر دالاس": "فقد بدا المؤتمر - ظاهرياً - كممارسة ثقافية وتعليمية بحت، وهو الانطباع الذى أريد بالفعل أن يحققه المؤتمر. كذا، فقد روجت وكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية - المؤتمر، وفقاً لهذا المنحى عن طريق توفير التمويل اللازم له، وكذا أية مساعدات أخرى ... وذلك لإيمان الولايات المتحدة بأن ذلك النهج السيكولوجى يعد إسهاما هاما لتحقيق الأهداف السياسية الأمريكية فى العالم الإسلامى، سواء فى الأجل القصير أو فى الأجل الطويل".

هذا، وقد أرفق بالمذكرة المشار إليها تحليل عن المؤتمر الوشيك. أما الأهداف، فكانت مهمتها الترويج للنهضة الإسلامية، حيث تعد جماعة "الإخوان المسلمين" الجماعة الأكثر نفوذا ضمن عناصر تلك النهضة. والأمر المثير هنا أن التحليل قد ذهب إلى خطورة بعض الحضور المحتمل وجودهم فى المؤتمر - فوفقاً لمقتضيات القانون، فإن وكالة المعلومات الدولية التابعة لوزارة الخارجية الأمريكية المخولة

بالترويج للتبادل الثقافى. أما جماعة "الإخوان المسلمين" ... ذلك الكيان السياسى الصريح السافر ... فلا تدخل ضمن مفهوم "الفعاليات الثقافية"، الأمر الذى جعل من الصعب أن تقوم وكالة المعلومات الدولية بتمويل مشاركة سعيد رمضان وزعماء سياسيين آخرين فى المؤتمر. ونظرا لأن برنامج التبادل الثقافى لا يحق له تمويل حضور أفراد بعينهم للمؤتمر، إذ سيكون حضور كهذا غير مرغوب فيه، لذا فمن المأمول أن تضطلع جهات أخرى بجانب صغير من المساعدة التمويلية. وهنا تقدمت جهات أخرى لتقديم العون المالى، من أمثال شركة "أرامكو" للنفط - والتى تكفلت بنفقات الانتقال، وكذا فقد شاركت وكالة المعلومات الدولية حيث تحملت نفقات انتقال أستاذين جامعيين بجامعة برنستون إلى الشرق الأوسط لدعوة المرشحين للحضور شخصيا.

وفى تموز/ يوليو ١٩٥٣، حين تم اختيار معظم المشاركين فى المؤتمر، خوطبت السفارة الأمريكية فى القاهرة حول ما إذا كان سعيد رمضان بمقدوره حضور ذلك المؤتمر، إذ كان رمضان راغبا فى زيارة بعض التجمعات الإسلامية فى الولايات المتحدة الأمريكية. هذا، وقد بعثت السفارة بالطلب إلى واشنطن مرفقا به نسخة من سيرته الذاتية ومسيرته الوظيفية - بعد تهذيبهما... ولتوصى السفارة بحضور رمضان.

وعلى مدار عشرة أيام هى عمر المؤتمر، قدم المتحدثون أبحاثا تناولت التعليم والشباب والفنون والإصلاح الاجتماعى. فإذا ما قارنا المؤتمر بمؤتمرات اليوم، لألفيناه ممتداً فسيحاً ذا وتيرة غير عجلى، إذ كان اليوم الواحد بأكمله يخصص لفعاليتين أو ثلاث، بما أتاح وقتاً كبيراً لإجراء مناقشات مطولة عميقة، فضلا عن جلسات سمر وتعارف ضمت المشاركين فى المؤتمر الذى انتقلت أعماله من نيوجيرسى إلى العاصمة واشنطن لينتهى بلقاء الرئيس "أيزنهاور" المشاركين، ومن

بينهم سعيد رمضان. أما الصور التى التقطت لفعاليات المؤتمر فكانت تجسيدا لخطوات ذلك العصر المترددة بشأن توظيف قوة الإسلام. هذا، وقد تعاقبت الاجتماعات على نحو سلس، واعتبر المؤتمر محرزا جزيل نجاح وسداد.

إلا أن الشواهد قد أظهرت أن رمضان لن يكون حليفا سلسا لين العريكة. فوفقا لتحليل لوكالة الاستخبارات المركزية أجرته عقب انقضاء المؤتمر، ظهر رمضان كمشاغب ومحرض سياسى. وقد أورد التحليل أن "رمضان قد دعى تحت إلحاح من السفارة المصرية فى الولايات المتحدة ... ذلك الرجل الذى مثل العنصر الأكثر صعوبة فى التعامل خلال وقائع المؤتمر نظرا لاهتمامه بالضغوط السياسية لا المشكلات الثقافية". كذا، فوفقا للتحليل - نأى رمضان بنفسه عن الخوض فى ثرثرات جانبية وابتعد عن الزج بنفسه فى سفاسف الأمور. فخلال تجمع بإحدى أمسيات المؤتمر، سئل رمضان ما إذا كان يتوجب عدم تشجيع الشبيبة المصرية على الانخراط فى العمل الاجتماعى، فكان رده "أن الأمر الوحيد الذى يلقى اهتماما كبيرا لدى تلك الشبيبة ينحصر فى طرد المحتل البريطانى عن البلاد". واستأنف محرر التحليل - الذى جاء فى صورة تقرير - بتقييمه الشخصى لسعيد رمضان، حيث قال: " لقد شعرت أن رمضان يتسم برجعية سياسية، حيث بدا أقرب ما يكون لأن ينعت بكونه "كتائبيا" أو "فصائليا" ... أو لعله "فاشستى" التوجه. ولم يكن رمضان يبدو إسلاميا رجعيا بمثل ما تعلق الأمر بالشيوخ الثلاثة الذين كانوا حضورا بالمؤتمر. أجل ... إن رمضان قد بدا فاشستيا يهتم بحشد الجماهير والأفراد بغية استجلاب القوة والنفوذ، كذا فلم يكن رمضان يبرز أية أفكار - أياً ما كانت - عدا تلك الخاصة بجماعة "الإخوان المسلمين".

إلا أن رمضان قد واصل الظهور فى المحافل الدبلوماسية الأمريكية ... ففى عام ١٩٥٦ التقى عددا من المسئولين الأمريكيين بالعاصمة المغربية، "الرباط" مشدداً

على المطالبة بطرد اليهود من فلسطين. إلا أن توجهات كتلك كانت حائلاً دون إرساء تحالف رسمى فيما بينه وبين الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن رغبة الطرفين المشتركة فى مجابهة الشيوعية كانت واضحة جلية. لذا، قطع رمضان وزعماء آخرون بمنظمة المؤتمر الإسلامى عهدا على أنفسهم، عام ١٩٥٦، بشن حرب ضروس مناهضة للشيوعية، مشيرين إلى أن الشيوعية تتعارض بالكلية مع تعاليم الإسلام ... على الرغم من تسليم رمضان بأنها ستكون تجارة بائرة ... إذ إن حرباً كتلك ستكون عصية على الترويج فى إقليم الشرق الأوسط، حيث يؤمن أبناؤه بأن الشيوعية حركة معادية للغرب، ذلك الغرب الذى يعزو العرب إليه مسئولية إنشاء الكيان الإسرائيلى. كذا، فقد كانت هناك مشاكل وصعوبات واجهت رمضان على الصعيد الشخصى ... إذ اتخذ جمال عبد الناصر - عام ١٩٥٤ - إجراءات صارمة ضد جماعة "الإخوان المسلمين" فى أعقاب محاولة فاشلة استهدفت اغتياله ... محاولة تم الزعم بأنها من تخطيط عناصر إخوانية. لذا، ارتحل رمضان إلى المملكة العربية السعودية، ثم إلى سوريا، فباكستان، فالأردن. هذا، وقد عمدت القاهرة إلى تجريد رمضان وحفنة من القيادات الإخوانية من حق المواطنة المصرية، ورمتهم بالخيانة العظمى. ونظرا لكون مصر، آنذاك، أقوى دول الإقليم نفوذا، فلم ترغب معظم بلدان العالم فى معاداتها.أما رمضان، فكان عليه أن يظل مرتحلا. هذا، وقد قامت المملكة الأردنية الهامشية، ربما عرفانا بجهود رمضان عام ١٩٤٨، بمنحه جواز سفر دبلوماسى، بل وأرسلته سفيرا شرفيا لها بألمانيا الغربية ... ثم، ربما بدافع من حرص أكاديمى أصيل، أو لعله ستار لأنشطة أخرى ... ألفى البروفيسور "كيغل" الرجل لدى الباب، على نحو ما ورد فى مفتتح الفصل الحالى.

بعد انقضاء خمسة أشهر على قبول "كيغل" رمضان تلميذا لديه ... تلقى

البروفيسور خطابا منه بتاريخ الرابع عشر من آب/ أغسطس ١٩٥٦ ... خطابا ورد من دمشق كانت تعلوه كلمات ثلاث تصدرته: "مؤتمر العالم الإسلامى". وفى هذا الخطاب، الذى خطه رمضان بالإنكليزية، كتب يقول: "عزيزى البروفيسور كيغل، إننى بحاجة إلى المساعدة ... إذ لم أجد - إلى الآن - مادة جيدة تصلح للتناول بالأطروحة. إن ثمة نزعة جديدة نحو الشريعة الإسلامية تجد طريقها فى البلدان الإسلامية المستقلة حديثا ... وتأسيسا على ذلك، فما رأيكم فى أطروحة تتناول، بالمقارنة، جهود تطبيق تلك الشريعة؟ والأمر معروض على سيادتكم للبت فيه بالإيجاب أو السلب".

أما "كيغل" فلم يكن واثقا كيف يجيب تلميذه. فالرجل البالغ من العمر - آنذاك - أربعة وأربعين عاما كان، تحقيقا، واحدا من أبرز العقليات القانونية فى ألمانيا الغربية نظرا لأبحاثه ودراساته عن القانون المدنى. ولكونه أكاديميا صارما، كان "كيغل" يشجع تلامذته على القيام بأبحاث تتناول مواضيع تقليدية، إذ رغب فى أن يقوموا بالبحث فى سجلات المحاكم، أو أى ضرب آخر من العمل "الإمبريقى"، ثم تعضيد أفكارهم بحواش مرفقة. إلا أن رمضان كان قد اقترح أمرا مغايرا بالكلية: دليل لتطبيق الشريعة الإسلامية. فإذا كان لرمضان أن يكون أكاديميا، فيجب أن تخضع أطروحته لتمحيص غاية فى الدقة. أما "كيغل"، فقد نظر إلى اهتمامات تلميذه الشاب على أنها لا تعدو كونها "هواية" لا ترقى إلى مصاف البحث الأكاديمى الرصين ... بيد أنه كان معجبا بما اقترحه رمضان، لذا فقد أخبره بموافقته على موضوع الأطروحة.

إلا أن رمضان، وفى نهايات عام ١٩٥٦، كان قد ارتحل ثانية إلى الشرق الأوسط - حيث أبرق لكيغل، فى الثالث عشر من تشرين الثانى/ نوفمبر، يقول: عشية مغادرتى أوروبا، شعرت بضرورة أن أعبر لسيادتكم عن امتنانى الجزيل

لكم. إننى لن أنسى ما حييت استقبالكم لى بحفاوة وكرم، كذا فلن أنسى تلك الأوقات الرائعة التى أمضيتها فى كولونيا". هذا، وقد واصل رمضان إعداد أطروحته مرتحلا من بلد إلى آخر ... حيث عمل أمينا لمؤتمر العالم الإسلامى. وفى الحادى والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٥٨، كتب رمضان لأستاذه قائلا إن الأجواء العصيبة للموقف المتداعى فى دمشق قد أجبره على إرسال أسرته إلى القدس. أما فى الثامن والعشرين من آب/ أغسطس من العام ذاته، فقد كتب يخبر أستاذه بتوجهه إلى الأراضى الحجازية خلال موسم الحج للقاء بعض المصريين، وهو ما أيد إيمان الاستخبارات المصرية بأن نفرا من الإخوان المسلمين بالمنفى قد التقوا خلال موسم الحج هذا، للتباحث حول استراتيجية يمكنهم تبنيها[٨٠].

وفى آب/ أغسطس المذكور، قرر سعيد رمضان العودة إلى جنيف. هذا، وقد بدا - آنذاك - أن المسئولين السويسريين لم ينتبهوا إلى كونه سيستقر هناك على نحو نهائى ... إلا أنهم قد تباحثوا - بعدها بسنوات قلائل - بشأن حقيقة كونه متخفيا فى جنيف ليخلصوا إلى أن الأمر يخالف القانون ... بيد أن قرارهم كان تركه يحيا بسويسرا نظرا لميوله القوية لمناهضة الشيوعية. أما رمضان، فقد أوضح - لاحقاً - أنه انتقل للعيش هناك نظرا لحاجة أحد أبنائه لتلقى خدمات علاجية بعينها.

وفيما كان عام ١٩٥٨ يمضى إلى أفول، كان رمضان قد فرغ من أطروحته. وفى الخامس عشر من كانون الأول/ ديسمبر من ذلك العام، منحه "كيغل" درجة الامتياز مع مرتبة الشرف الأولى ... حيث كتب تقريظا لتلميذه قال فيه: "إن واضع تلك الأطروحة لرجل جد قدير" ... ناعتا أطروحة رمضان بكونها عملا فاق أية أعمال سبق وأن أشرف عليها على امتداد الشرقين الأدنى والأوسط. إلا أن "كيغل" قد كتب أيضا فى تقييمه للأطروحة ... ذلك التقييم الوارد فى تقرير من صفحتين

اثنتين - أنها أطروحة غير اعتيادية، فهى ذات نزعة ثيولوجية ومنحى سياسى بأكثر من كونها أطروحة قانونية ... إذ هى محاولة لجعل الشريعة الإسلامية تجد تطبيقا لها فى عالمنا المعاش.

وفى لقاء جمعنى بالبروفيسور "كيغل" فى الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ بكولونيا الألمانية، قال البروفيسور: "إن الأطروحة كانت جيدة، إذ كان بناؤها الفكرى بديعا" ... فى تذكره لأحداث مضى عليها نصف قرن من الزمان، إلا قليلا.

إلا أن بعضاً من تساؤلات وشكوك قد حامت بخلد البروفيسور بشأن تلميذه ... سعيد رمضان. فحين سألته عنه، جاءت الإجابة مقتضبة موجزة: "يمكننى أن أصف رمضان بالذكاء، إلا أنه كان ذا هوس وجموح".

لقد كان رمضان يسعى لإرساء طوباوية دينية ... ضرب من مدينة فاضلة تتدثر بتعاليم الإسلام. ولم يكن "كيغل" يضمر قليلا أو كثيرا لفئة "الطوباويين"، إلا أن الطبيعة الاستبعادية الاستعلائية للفكرة لم تكن لتروق له ... تلك الفكرة التى مؤداها وجود دين واحد يسمو فوق كل ما عداه ... دين يتصدر المشهد بلا منازع. ومن المؤكد أن "كيغل" كان يؤمن بأن ذلك المنحى لهو دليل على التعصب وأمارة من أمارات عدم التسامح. لقد كان "كيغل"، المولود فى السادس والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩١٢، أكاديميا ناشئا يرقى أولى درجات السلم العلمى خلال سنى ما قبل الحرب الكونية الثانية ... وكان أستاذه الباحث والمنظر القانونى اليهودى الشهير، "ارنست رابل" - الذى هاجر عام ١٩٣٩ إلى الولايات المتحدة الأمريكية بعد أن قام "النازى" بجعل الحياة الأكاديمية ضربا من المستحيل لليهود. وهنا يتذكر "كيغل" أستاذه "رابل" قائلا: "إن رابل قد بقى طيلة حياتى مثلى الأعلى

وقدوتى التى أحذو حذوها وأتلمس خطاها. لقد كان "رابل" ضحية من ضحايا الهوس البغيض، ذلك الأمر الذى لا أنساه العمر كله. أجل ... إننى أدرك ذاك الضرب من الهوس الذى أنفر منه على الدوام".

إلا أنه رغما عن مرارات قد استشعرها "كيغل"، وشكوك وهواجس أصابته ... فقد ظل هو وتلميذه "سعيد رمضان" صديقين، إذ حوت أوراق "كيغل"، الذى توفى فى السادس عشر من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ - العديد من خطابات مرسلة إليه بخط يد تلميذه ... خطابات أرسلها رمضان خلال تطوافه ببلدان العالم الإسلامى. كذا، فقد كتب "كيغل" توطئة لأطروحة رمضان - "التشريع الإسلامى ... آفاقه وموازين عدالته" - والتى نشرت فى عام ١٩٦١ ... تلك الأطروحة التى كانت الأوفر شهرة والأوسع ذيوعا من بين جميع ما أشرف عليه "كيغل" من أطروحات. واليوم، تعد الأطروحة ذلك النمط الشائع من الدراسات التى يصطبغ بها المشهد "الإسلاموى". والأطروحة، التى كتبها سعيد رمضان بالإنكليزية، قد ترجمت إلى لغات عدة - حيث تشهد رواجا بين أروقة المساجد والمراكز الثقافية على امتداد أوروبا بأسرها، وفى أى موضع قيض له أن يُخترق من قبل أيديولوجية "الجماعة" ... جماعة "الإخوان المسلمين".

إن كنيسة القديس بولس للروم الكاثوليك القريبة من المحطة الرئيسية لسكك حديد ميونيخ لتقف شاهدة على عصر انصرم ... كانت فيه أوروبا أكثر خشية لله. وقد ضمت الكنيسة - التى بنيت فى الفترة ما بين عامى ١٨٩٢ و١٩٠٦ - ستة آلاف عضو ينتظمهم عنصران فاعلان، هما السخاء والطموح ... أولئك الأعضاء الذين عهدوا بمهمة تشييد كنيستهم إلى مهندس نمساوى يدعى "غيورغ يوزيف فون هاوبرريسر" (١٨٤١-١٩٢٢)، وهو المهندس الذى شيد مبنى بلدية ميونيخ وفق الطراز القوطى الحديث، وذلك فى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٨٦٧ و١٩٠٨ . أما

الأعضاء، فقد طلبوا إلى "هاوبرريسر" بناء كنيسة تكون الأطول فى المدينة أملا منهم فى أن تعلو كاتدرائية السيدة العذراء للروم الكاثوليك - ذلك المعلم القروسطى الشهير الذى يقع وسط ميدان "مارين بلاتس"[٨١]. هذا، وقد عكست كنيسة القديس بولس مظاهر الثقة والفخار التى باتت تسم ألمانيا الإمبريالية آنذاك. أما ارتفاع الكنيسة، فلم يزد عن ٩٦ مترا وفقا للتعاليم الأسقفية بما جعل كاتدرائية السيدة العذراء تحافظ على تفردها كأعلى بناية بالمدينة. وفى أثناء الحرب الكونية الثانية، قصفت الكنيسة أثناء الغارات الجوية التى شنتها قوات الحلفاء على المدينة. ونظرا لضخامة جدرانها الحجرية، صمدت تلك الجدران فى وجه موجات القصف، إلا أن القنابل قد اخترقت سقف الكنيسة، ودمرت محتوياتها الداخلية. وبحلول عام ١٩٥٨، كان قد تم إعادة بناء الكنيسة دونما كبير إسراف، بل وعلى نحو يثير الذكريات المؤلمة. هذا، وقد تم إحلال سقف الكنيسة ونوافذها، إلا أن إدارة الكنيسة قد ركنت إلى عدم إعادة ترميم الزخارف المنمقة، والتى كانت تزدان بها الكنيسة يوماً ما... إذ تم تزويدها - فى المقابل - بتماثيل قد خلت من زينة، وبزجاج نوافذ غير ملون، فضلا عن قرميد غير مصقول. لقد باتت كنيسة القديس بولس شاهدا على عنفوان الأيديولوجيا التدميرى ... ذلك الذى ترك البلاد، وقد ضجرت من إيمان وتشككت فى يقين.

لقد كانت كنيسة القديس بولس الوجهة التى قصدها أكثر من خمسين رجلاً فى اليوم التالى للكريسماس عام ١٩٥٨ . لقد بلغ الرجال مقصدهم عن طريق العربات، وكذا مترو الأنفاق رغما عن عاصفة ثلجية لفت المدينة ... مجتازين أراضى كانت ما تزال خاوية على عروشها آنذاك، وأطلال مبان شوهتها معارك الحرب الكونية الثانية. لقد اجتمع هؤلاء الرجال لا لتمجيد المسيح، بل للمشاركة فى جهود "غرهارد فون منده" الرامية إلى توحيد صفوف مسلمى ألمانيا لبناء مسجد

لهم ... حيث حظيت "الإدارة الدينية للاجئين المسلمين"، التى أوجدها "نور الدين نمنقانى" بقبول واسع وازدادت شعبيتها بعد أن عمد "فون منده" إلى تنحية جماعة "إبراهيم كوجا أوغلو" جانبا. إذا ... فقد كانت "إدارة نمنقانى الدينية" تزعم كونها تمثل مسلمى ألمانيا كافة. أما دعوات الحضور، والتى تم طباعتها بالألمانية والتركية (بأحرف عربية)، فقد دعت ليس فقط إلى حضور "الجنود السابقين" فحسب، بل "الإخوة الآخرين من ألمان وباكستانيين وإيرانيين وعرب وأتراك ... ممن يحيون بميونيخ، إذ إنه لزاما على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله تلبية نداء خالقه بالحضور أو بإبلاغ غيره من المسلمين، فالحاضر يبلغ الغائب". ولم تكن النبرة كتلك التى وسمت الكنيسة التى خضعت للترميم من اعتدال ورصانة ... بل كانت، بالمقابل، نبرة رؤيوية ذات عذاب ونذر" ... فالعالم قد يفنى بين عشية وضحاها، لذا فيجب ألا نحيا فى دنيانا معصوبى الأعين. أجل ... لقد طال الرقاد وحان الأوان لننهض من رقدتنا تلك كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا".

هذا، وقد سبق الاجتماع جلسة مصغرة بتاريخ الثانى والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته ... جلسة ضمت أعضاء "إدارة نمنقانى الدينية" الذين قرروا إرساء ما عرف "بلجنة بناء المسجد" der “Moscheebau Kommission”، برئاسة "نور الدين نمنقانى"، فيما كان الموقر "سعيد شامل" الداغستانى رئيسا شرفيا لها. تلا ذلك بأربعة أيام التقاء الجمع تارة أخرى بحضور بعض طلاب ومسلمين أخر، حيث كان "سعيد رمضان" ضيف الشرف. هذا، ويتذكر "فضل يزدانى" ذلك اليوم جيدا. فخلال لقائين جمعانى به فى ميونيخ فى الثامن والعشرين من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٥، والثالث عشر من كانون الأول/ ديسمبر من العام ذاته ... أورد "يزدانى" والذى كان لا يزال، آنذاك، طالبا بكلية الطب فى العشرين من عمره - " أن الغرفة كانت ممتلئة عن آخرها، وكان ذلك شعوراً ماتعاً للغاية ...

لقد شعرنا بأننا ننهض بعمل مثالى جليل ... بناء بيت لله - مسجد كان لزاما أن يصير مسجدا لمسلمى ألمانيا كافة. ألا إن السعادة والحماسة قد غمرتا الحضور كله لوجود الدكتور سعيد رمضان بين ظهرانينا ... لقد كان شخصية جليلة مهيبة، ذلك الفاضل الذى ترأس مؤتمر العالم الإسلامى. لقد ذاع صيت الرجل وطبقت شهرته الآفاق، وها هو اليوم يشاركنا جمعنا مادا يد العون لإرساء لبناء المسجد المنشود".

أما سعيد رمضان فقد أدلى دلوه فى تلك المعمعة باستعراض "عضلاته" المالية ... إذ كانت حصيلة ما جمع الحضور من عطايا وهبات قد بلغت فى ذلك اليوم ١١٢٥ مارك ألمانى، تبرع رمضان - وحده - بألف منها. هذا، وقد اختير رمضان عضوا فخريا "بلجنة بناء المسجد"، وكان قد دعى لحضور الاجتماع من قبل طالب سورى شاب يدعى "على غالب محمود همت" - عضو جماعة "الإخوان المسلمين" فى سوريا.

"لقد عمد همت إلى دعوة رمضان لأخذ زمام القيادة" ... هذا ما ذكره لى عبيد الله مجددى، الذى التقيته فى ألمانيا فى الأول من شباط/ فبراير ٢٠٠٥ . وعبيد الله هو ابن الزعيم الأفغانى الشهير "صبغة الله مجددى". لقد كان عبيد الله - والذى كان يدرس الطب آنذاك - من ضمن حضور الاجتماع المذكور، كذا فقد كان قريبا من سعيد رمضان لسنوات قلائل تلته ... إذ كان سكرتيره الشخصى. هذا، ويذكر مجددى أن "الهدف كان أن تتولى رئاسة لجنة بناء المسجد شخصية شهيرة".

فوفق ما استدعاه مجددى، فإن رمضان قد ذهب إلى القول بأنه تواق لبسط نفوذه على امتداد أوروبا. أجل ... لقد كانت جنيف هى قاعدته، ولكن ميونيخ، والتى

تبعد مسيرة يوم تقطعه العربة إلى الشمال الشرقى، لتعد قاعدة مثلى للانطلاق. لقد كان مجددى معجباً برمضان، بيد أنه - وعلى نحو ارتجاعى، أو ربما على طول الخط - كان يعانى وخز الضمير لجعل شخصية سياسية كسعيد رمضان تصعد إلى صدارة مشهد إدارة لجنة بناء المسجد.

واستطرد مجددى قائلا: "إنه كان ضد اختياره للاضطلاع بالرئاسة، ولم يكن ضد شخص سعيد رمضان، بيد أن رمضان هو عضو بجماعة الإخوان المسلمين، وأحد زعمائها، كذا فهو رمز سياسى - فضلاً عن أنه رمز دينى أيضا. لقد كان الرأى عندى، آنذاك، أنه ليس من الحصافة أن نوصم القلب بأنه مركز للإخوان المسلمين ... إنه ليتعين أن نعمل من أجل الإسلام، لا فى سبيل جماعة أو أخرى".

بيد أن سعيد رمضان كان شخصية كاريزماتية آسرة ... إذ كان الطلبة - أولئك الانطباعيون الذين تراوحت أعمارهم ما بين التاسعة عشرة والعشرين - يعتبرونه نجما ساطعا ... نجما يقود نهضة دينهم ذى المجد التليد والشرف الأثيل. لقد عمد رمضان إلى الوقوف فى وجه "كولونيالى" هنا و"ديكتاتور" هناك ... كذا، فقد قام هؤلاء الطلبة بدعمه كبطل يمثلهم.

أما محمد عبد الكريم (قريم)[٨٢]، الألمانى الذى اعتنق الإسلام ليصبح ناشطا إسلاميا عتيدا، فقد ذكر لى، حين التقيته فى الحادى والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٤ بهامبورغ، أن "الطلبة جميعهم كانوا ذوى دراية واسعة وإطلاع غزير بالأمور الدينية وقضايا الإسلام، وخاصة تلك المرتبطة بجماعة "الإخوان المسلمين" ... لقد استوعبوا دروس حسن البنا استيعابا شاملا".

لقد أدرك سعيد رمضان أن عليه القيام بزيارة واجبة لفون منده اعترافا بفضله، إلا أنه كان لديه أمر آخر بات يشغله. لذا، فقد أناب عبيد الله مجددى للقيام بتلك

الزيارة المزمعة. وفى مقابلتى بمجددى، تذكر الرجل تلك الأحداث ليقول ضاحكا: "عقب الاجتماع، ذهبت إلى فون منده فى دوسلدورف، وأخبرته عن الاجتماع ووقائعه ... إلا أنه قد تبدى أن كان يعلم الأمر برمته". إن مجددى لم يكن يدرك - آنذاك - أن نور الدين نمنقانى كان "رجل" فون منده الذى كان يتابع الأحداث من كثب. إلا أن رمضان كان لغزا بذاته ... إذ سرعان ما شرع "فون منده" فى تحرى الأمر ... هل كان حليفا أم مناوئا؟ كذا، فسرعان ما كانت بيانات جديدة قد أخذت طريقها إلى ملف بطاقات "فون منده" الأنيقة: "سعيد رمضان، ٣٦ عاما، أحد قادة جماعة الإخوان المسلمين ... يقود سيارة كاديلاك أهدته إياها حكومة المملكة العربية السعودية".

الفصل التاسع

لعبة التوازنات وزواج المصلحة

إنه صيف ١٩٥٧ ... إذ سنحت لروبرت (بوب) دريهر٨٣ الفرصة للعودة إلى ميونيخ ... "دريهر" المتهم بقلب الأوضاع فى أمكومليب رأسا على عقب بغية إعادة تنظيمها، والمتهم أيضا بالاستخدام المسيء للاجئين، وبخاصة "المسلمون".

لقد كان "دريهر" تواقا إلى فرصة تمكنه من تنفيذ سياسة "الهجوم الاستباقى"، والفوز فى بعض معارك دعائية ضد السوفييت. إلا أنه كان مدفوعا بمحركات أخرى أيضا. فخلف رجل "وكالة الاستخبارات المركزية" المثابر الجاد - يقبع ذلك الصارم غير القابل للتدجين ... ذلك الكاره لأمريكا "خمسينيات القرن العشرين". أجل ... إن ضرب الشيوعيين لأمر مرض، بيد أن "دريهر" قد رأى فى أوروبا مكانا لإشباع رغبات أخر.

أما طريق عودته إلى ميونيخ، فقد عكس المحركات التى كانت تدفعه. فعوضا عن الذهاب من الولايات المتحدة الأمريكية إلى ميونيخ مباشرة، هبط "دريهر" فى العاصمة الفرنسية باريس ليركب قطارا ثم قاربا إلى ile du Levant أو "جزيرة المشرق" - وهو شاطئ عراة فى الريفييرا الفرنسية. وهناك ... التقى "دريهر" أصدقاء قدامى، وتعرف إلى آخرين جدد. أما واسطة العقد، فكانت "تلك الصور

التى قمت بالتقاطها بواسطة كاميرتى (الكوداك) ... تلك الصور التى ضمت بعضا من صيد ثمين" ... على حد ما كتبه فى خطاب بتاريخ السادس من آب/ أغسطس ١٩٥٧ أرسله إلى أخته "هيلين"، وزوجها "تشارلز أوركفيتس".

كان "دريهر" ينتمى إلى ذلك النمط من الرجال الجاذب للنساء، إذ كانت له الملامح التقليدية لوسامة نجوم هوليوود "الخمسينيات" ... فقامته السامقة (١٨٨ سم)، وجسده الرشيق (٨٢ كيلو غرام)، فضلا عن شعره الأسود المنسدل، ووجه الأملس الوسيم، وتمتعه بروح الدعابة ... جعله هذا كله أقرب شبها بأولئك "النجوم". أما ابتسامته الساحرة التى لم تفارقه قط فى أية صورة التقطت له، وأسنانه البيضاء المنتظمة ... فكانت تمنحه بعض الشبه من الممثل "كارى غرانت".

"إن امرأة واحدة لا تكفينى" ... قالها "دريهر" ضاحكا، وكأنما يحذر بها "كارين

وست" - تلك اللاجئة البلطيقية التى كانت تعمل بمستجمع أفكار خاص بأمكومليب فى الاتحاد السوفييتى. بيد أن "كارين" لم يكن ليقلقها تعدد علاقات "دريهر" النسائية ... فهى صديقة "أفلاطونية" ائتمنها "دريهر" على أسراره ... امرأة تظاهرت بكونها زوجته ليتمكن الثنائى من المرور إلى داخل شواطئ العراة الألمانية، تلك التى تستقى "قلسفتها العارية" من حركة ألمانية تعرف بـ "ثقافة الجسد الحر" ... تلك الثقافة التى تعتمد نهجا "طبيعيا" فيما يخص الرياضة والحياة المجتمعية، ثقافة تؤمن بما تتيحه "التجربة الطبيعية" من متعة ومرح، وكذا ما يتيحه "التعرى" من نتائج مماثلة ... ذلك التعرى الذى لا يرتبط - فى جوهره - بإيحاءات جنسية بعينها. هذا، ولم تكن "شواطئ العراة" تلك لتشبع رغبات "دريهر" أو من على شاكلته من عزاب ذوى علاقات نسائية عابرة ... إذ كان على مرتاديها أن يكونوا أزواجا جادين، وألا يكونوا سكارى. أما "دريهر"، فلم يكن ذلك "السياق الروحانى" المستمد من حركة "العودة إلى الطبيعة" ليعنيه من قريب أو بعيد.

وبين الحين والآخر، كان نمط حياة "دريهر" يمزقه كل ممزق. ففى خطاباته المرسلة إلى وطنه "الأمريكى"، كان "دريهر" يبهج أفراد أسرته - هناك - بروايات حيكت بدقة وعناية عن جميع "الجميلات" اللواتى صادفهن ... فكانت النبرة نبرة "دريهر"، وهو مقيم فى أوروبا ... ذلك الأعزب السرمدى الغارق فى ملذاته. إلا أنه - فى مناسبة بعينها - يصحو من غفلته ليعض بنان الندم مخبرا أخته وزوجها، فى خطاب أرسله إليهما فى التاسع عشر من أيار/ مايو ١٩٥٣، بأنه " فى أعماق نفسى، أدرك أننى أفتقر بشدة إلى التناغم والتوافق والاتساق ... إننى عازم على العودة إلى ديارى حيث أرض الرب عسانى أجد مخرجاً".

أما خلال فترة إقامته الثانية فى أوروبا، فكان "دريهر" - وفقاً لذكريات مستخدميه وزملائه - يتجاذبه تياران ... تيار يدفعه نحو استئناف مسيرة شاقة لم

يؤمن إلا القليل بأنها ذات جدوى، وتيار يجذبه ليكون أسير عذابات نمط حياته البوهيمى ... لقد بدت "مشكلته" الرئيسية وكأنما قد انحصرت فى اقتناء سيارة "مكشوفة" مناسبة (فالمرسيدس باهظة الثمن، فيما الفولكس فاجن بسيطة للغاية)، أو فى اقتناء مُشغِّل للموسيقى (فالأجهزة الألمانية تبدو جيدة، بيد أن كفاءتها منخفضة) ... أما النساء، فكل ما يبغين هو أن يتزوجن.

إن كثرة من العاملين بأمكوميليب قد أضحوا خبراء فيما يخص ثقافات اللاجئين ولغاتهم، وهو ما أكسب أولئك العاملين تقديراً وإجلالاً ... إلا "دريهر" - حين سئل - عند قيامه بملء استمارة "وكالة الاستخبارات المركزية" - ليكتب عن هواياته وفق تسلسلها... كتب "دريهر" أنه يجيد الرقص، والتشخيص الدرامى، وتنس الطاولة (البينغ بونغ)، وأنه لذو مستوى متوسط فيما يخص كرة المضرب (التنس)، والإبحار بالمراكب، والفوتوغرافيا ... أما القراءة، فيكاد لا يلقى لها بالا. كذا، فقد كانت "اللغات" ضمن نقاط ضعفه، إذ كان يعرف بعض الروسية والألمانية - كتابة ... إلا أنه كان يتحدث ألمانية ركيكة رغما عن مضى سنوات عاشها فى ألمانيا. أما معينه الثرى الذى لا ينضب، وكنزه الثمين الذى لا يفنى ... فالصور التى التقطتها عدسة كاميرته "الكوداك" - تلك الصور التى كان يحب أن يريها نفرا من اللاجئين المفتونين ... ويتذكر البعض إصابتهم بالنفور من تلك الصور. أما "دريهر"، فلم يلق بالا لتلك الصور ... إذ ظل بعضها مزدانا بإطارات حوته أعلى مكتب "بوب دريهر". ويا لها من مفارقة ... فذلك الرجل الذى كان تجسيدا لمبدأ اللذة والمتعة - وهو المبدأ الذى نشأ فى خمسينيات القرن العشرين - هو من أخذ القرار بإعادة هيكلة "الأمكوميليب" وتنظيمه. أما نهجه، فكان الشراكة مع سعيد رمضان وجماعة "الإخوان المسلمين".

خلال الولاية الثانية من حكم الرئيس "أيزنهاور"، قررت الإدارة الأمريكية أن

تكون أكثر جدية فى تناولها لقضية "الإسلام" ... إذ تم الإعلان عن "مبدأ أيزنهاور"[84] عام ١٩٥٧، والذى تعهدت الولايات المتحدة الأمريكية بمقتضاه بالتدخل العسكرى لصد العدوان - الفعلى والملوح به - فى ردة فعل لما ارتآه صانعو السياسة الأمريكية من نفوذ سوفييتى متنام فى إقليم الشرق الأوسط، وبخاصة فى مصر. أما الرئيس "أيزنهاور"، فقد بدا - شخصياً - مهموماً بكيفية مخاطبة العالم الإسلامى. لذا، فقد عمد إلى كتابة خطاب فى الحادى والثلاثين من تموز/ يوليو ١٩٥٨ وجهه إلى المؤتمن على أسراره - القس البروتستانتى "إدوارد إلسون" قائلا إن الإسلام وإقليم الشرق الأوسط كان كلاهما يشغلان ذهنه ويدوران بخلده على الدوام. واستطرد "أيزنهاور"، فى خطابه، ليخبر "إلسون" ويؤكد له: "إننى لا أتوانى ألبتة فى أى اتصال أجريه مع هذا القائد العربى أو ذاك - شفاهة أو كتابة - فى التشديد.على أهمية العامل الروحانى فى علاقاتنا. إننى لأذهب دائما إلى ضرورة أن يخلق إيماننا المشترك بالله هدفا يجمعنا - ألا وهو دحر الشيوعية الملحدة".

أما فى اجتماعات البيت الأبيض، فكان "أيزنهاور" أكثر جرأة. ففى حديثه إلى مهندس العمليات السرية لوكالة الاستخبارات المركزية - "فرانك غاردنر ويزنر"[85]، وكذا إلى هيئة الأركان المشتركة، ذهب "أيزنهاور" إلى ضرورة أن يسبر "العرب" أغوار دينهم وأعماق عقيدتهم بحثا عن إلهام يجعلهم يحاربون تلك الشيوعية البغيضة.

ووفقاً لمذكرة توضيحية أعدها العميد/ أندرو غودباستر، سكرتير "أيزنهاور" للأركان، بتاريخ السابع من أيلول/ سبتمبر ١٩٥٧ اشتملت على حديث "أيزنهاور" إلى "ويزنر" ... "فإن أيزنهاور قال إنه يجب علينا القيام بكل ما فى وسعنا للتشديد على مفهوم الحرب المقدسة". أما "جون فوستر دالاس" - وزير الخارجية الأمريكى آنذاك - فقد عقب بأنه "إذا كان للعرب أن يخوضوا حربا مقدسة، فسيريدونها

حرباً ضد إسرائيل". إلا أن "أيزنهاور" قد ذكر أن العاهل السعودى، آنذاك، الملك سعود بن عبد العزيز قد دعا العرب كافة، بعد زيارة له إلى الولايات المتحدة، إلى مناهضة المد الشيوعى.

هذا، وقد عمل "مجلس تنسيق العمليات" - وهو الكيان القائم على تنفيذ العمليات المغطاة لوكالة الاستخبارات المركزية وغيرها من الوكالات - إلى تبنى "الإسلام" سلاحا. وكان "المجلس" قد فرغ، بالفعل، من إعداد دراسة مفصلة عن "البوذية"، وكيف أنه يمكن استخدام تلك العقيدة فى المضى بالمصالح الأمريكية قدما. وفى عام ١٩٥٧، أنشأ "المجلس" فريق عمل أرسى خصيصا للتباحث حول "الإسلام" ... فريق ضم مسئولين من الوكالة الأمريكية للمعلومات، ووزارة الخارجية الأمريكية، ووكالة الاستخبارات المركزية. ووفقا لمذكرة تناولت الاجتماع الأول لفريق العمل، كان الهدف تقييم أداء المنظمات الأمريكية - الخاصة والعامة - بشأن قضية "الإسلام" وتوظيفه، والوصول إلى "خطة تنفيذية مبدئية" ذات مكونين رئيسيين، كانت لهما أصداء فى عمليات وكالة الاستخبارات المركزية فى ميونيخ. أما المكون الأول ... فذهب إلى ضرورة تجنب الولايات المتحدة للمسلمين التقليديين، والتعامل - كبديل عن ذلك - مع "جماعات الإصلاح"، من أمثال جماعة "الإخوان المسلمين". وأما المكون الثانى ... فقد تنافت الأجندة السياسية الراديكالية لجماعة "الإخوان المسلمين" الذاهبة إلى العودة إلى الإسلام النقى وفق منابعه الأصيلة - آنذاك، كما تنافت - مع استخدام أعضائها لرموز حداثية عصرية كاللباس الغربى والرطانة الأجنبية. لذا، "فإن رئيس فريق العمل وعضو وكالة الاستخبارات المركزية بالفريق قد استشعرا أنه نظرا لانقسام العالم الإسلامى ما بين جماعات رجعية وأخرى تقدمية إصلاحية ... فقد يكون الأجدى هو التشديد على برامج تعمل على تقوية شوكة تلك الجماعات التقدمية".

وفى الثالث من أيار/ مايو ١٩٥٧، وافق "مجلس تنسيق العمليات" على البيان التفصيلى وخطة العمل ... حيث كانت العبارات بسيطة جلية: الإسلام حليف فى معركتنا ضد الشيوعية، أما الشيوعيون فيستغلون الإسلام بتوظيفه ... إلا أن الإسلام لذو تأثير فى موازين القوى. هذا، وقد اشتمل البيان على العديد من التوصيات بشأن تمتين الأواصر مع المنظمات الإسلامية، وبخاصة تلك المتسمة بمنحى واضح تجاه مناهضة الشيوعية. وكما هى الحال دائما، توجب أن تكون العمليات مغطاة ... إذ خلص البيان إلى أن "البرامج المغطاة، والتى يصعب عزوها إلى جهة بعينها، تكون فاعليتها أكثر رجحانا بما يحول دون اتهامنا بتوظيف الدين لتحقيق مآرب سياسية". كذا، فقد ذهب البيان إلى "ضرورة الابتعاد عن التوظيف العلنى للمنظمات الإسلامية لترسيخ الدعايات المتشددة فى الأذهان".

تلك كانت الاستراتيجية التى انتهجها كل من "دريهر" والأمكومليب ... بحذافيرها. ونظرا إلى كون بعض ملفات "وكالة الاستخبارات المركزية" لم يفرج عنها بعد، فيصعب القول - إذاً - وعلى وجه التحديد، أن أمكومليب كانت تمول "سعيد رمضان" وجماعة "الإخوان المسلمين" تمويلا مباشرا. بيد أنه، وفى ظل غياب قائمة بمدفوعات "وكالة الاستخبارات المركزية"، فإن أية دلالة هنا أو أخرى هناك لتشير إلى حقيقة قيام "دريهر" والأمكومليب باستخدام رافعة مالية ودفعة سياسية للدفع برجل "الإخوان المسلمين" - سعيد رمضان - إلى الأمام.

كان "بوب دريهر" - قبل مغادرته الولايات المتحدة الأمريكية قاصدا ميونيخ - يعمل مساعداً خاصاً لهولاند هيل سارغنت، رئيس أمكومليب[٨٦]... حيث كانت مهمته تنظيم الدعايات المستترة لإقناع الأمريكيين بوجود تنظيم قوى مستقل للاجئين السوفييت، وهو الأمر المنافى للحقيقة إذ لم يكن لتنظيم كهذا أى وجود ألبتة. كذا، فقد كان "دريهر" يحضر اجتماعات مجلس إدارة أمكومليب.

هذا، وقد أهله وضع كهذا تمام التأهيل لمنصبه الجديد كمنسق شئون اللاجئين براديو الحرية ... حيث أعفى "إسحاق باتش" من منصبه ... "باتش" الذى كان قد أرسل قبل سنوات قلائل مضت لتوحيد الجماعات الإثنية السوفييتية المتصارعة، وبناء جبهة ذات مصداقية لإخفاء تمويل "وكالة الاستخبارات الأمريكية" لتلك العملية وإدارتها لها. ولقد كان ينظر إلى "باتش" - ذلك الدبلوماسى - كرجل دمث حلو المعشر حريص على الوصول إلى إجماع الآراء بشأن القضايا المختلفة ... رجل أقرب ما يكون إلى رب أسرة محبوب، إلا أنه يفتقر إلى أفكار "دريهر" الجريئة ... "دريهر" - الذى كان تواقا لإنعاش شئون اللاجئين بإعادة إحيائها. فعوضا عن استخدام اللاجئين كمواهب إذاعية على أثير راديو الحرية فحسب، أراد "دريهر" أن يدفع بالمعايير الدعائية إلى الأمام كما حدث بالفعل فى كل من "مكة"، و"باندونغ".

أما زملاء "دريهر" الجدد، فلم يكن ذلك المنحى ليروق لهم ... إذ كان مقر الأمكومليب بنيويورك غاصا بتك العقليات الاستخباراتية ... تلك التى على شاكلة "دريهر"، إلا أن الأمر فى ميونيخ كان جد مغاير. فالعاملون هناك كانوا حريصين تماماً على إدارة محطة إذاعية وتشغيلها ... لذا، فقد كانوا يعتبرون أنفسهم صحافيين قيض لمنظمتهم أن تحظى بمالك غير اعتيادى. أما "دريهر" فكان أشبه بما يذكرهم بكونهم ضالعين فى إحدى الجبهات الأمامية لوكالة الاستخبارات المركزية. كذا، فقد خامرتهم شكوك فى كون دوره متمثلا فى الحرص على الإبقاء على اليد الطولى للأيديولوجية بألا تتراجع وتفسح مجال الصدارة أمام حرفة الصحافة هناك، وذلك فضلا عن تشككهم بشأن تكتيكات "دريهر" المتبعة. فخلال انتفاضة هنغاريا (١٩٥٦)[٨٧]، عمد راديو أوروبا الحرة، المحطة الشقيقة لراديو الحرية، إلى تشجيع الثوار إلى أن قام السوفييت بسحق الانتفاضة. إن فشلا كهذا من وجهة نظر الكثيرين فى مكتب أمكومليب بميونيخ قد أدى إلى تعرية مفهومى

"التحرر"، و"الهجوم الاستباقى" وفضحهما كرطانة خطابية جوفاء. على أن "دريهر" لم يكن ليستوعب الدرس. فوفقا لويليام كلمب، أحد نواب "دريهر"، "فإننا جميعا قد خلنا أن الاتحاد السوفييتى قد كان يحمل بين طياته عوامل فنائه ... بيد أننى لم أكن واثقا فى أن دريهر قد كان يدرك أمراً كهذا". جاء ذلك على لسان "كلمب" فى لقاء جمعنى به فى السابع عشر من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتى.

هذا، وقد شرع "دريهر" فى التحمس للمزيد من الاستخدام المكثف الفاعل للاجئين ... حيث انقسمت تكتيكاته إلى تكتيكات "هجومية"، وأخرى "دفاعية" ... وهو ما ورد فى خطاب له فى السابع من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦١ إلى "هولاند سارغنت" - رئيس الأمكومليب - استعرض "دريهر" خلاله التكتيكات المتبناة فى العمل بميونيخ. أما التكتيكات الدفاعية، فقد كانت تعنى الوقاية ضد الجهود السوفييتية الساعية إلى إعادة المواطنين السوفييت إلى أراضيهم - إذ كان الاتحاد السوفييتى قد دشن حملة دعائية شرسة لاستعادة اللاجئين واعدا إياهم بعفو عام ووظائف مناسبة. وكان كثيرون من أولئك اللاجئين يغمرهم الحنين توقا إلى أوطانهم، حيث ارتحل البعض بالفعل إلى أرض الوطن ... لتعلن موسكو أن عودتهم دليل على كون ما يقال بشأن جاذبية الغرب وسحره ما هو إلا ادعاء أجوف.

أما اهتمام "دريهر" الحقيقى، فكان بالتكتيكات الهجومية. فالمحاولات الباكرة فى هذا المجال، كاستزراع اللاجئين السوفييت فى الاتحاد السوفييتى على سبيل المثال، قد أسفرت عن عواقب كارثية وخيمة، بيد أن الضجر من وتيرة الحرب الباردة الرتيبة قد أفضى إلى التشديد على ضرورة القيام بعمليات جريئة جسور. وفى هذا السياق، أيد "وولبول ديفيس"، مدير "بوب دريهر" وعضو مكتب تنسيق السياسات بوكالة الاستخبارات المركزية تلك التدابير بشدة. هذا، وقد كان معظم اللاجئين تواقين للتعاون فى هذا الإطار، ولم تكن الموارد تنقص "دريهر" على

الإطلاق ... لذا، فقد عمد إلى ضمان انسياب المدفوعات إلى جماعات اللاجئين على نحو منتظم. ولربما كان متلقو تلك المدفوعات أناسا كريهين مبغوضين، فيما كان البعض من القتلة، على الأرجح ... إلا أن المدفوعات كانت تجرى فى مواعيدها. هذا، وكان الجميع يعلمون أن الممول هو "وكالة الاستخبارات المركزية"، وأن "روبرت دريهر" هو رجل "الوكالة" فى ميونيخ.

لقد أمضى الدبلوماسيون الأمريكيون عام ١٩٥٨ فى تقييم الدوافع وراء أداء بلادهم الباهت، بل والمعيب ... وخلصوا إلى أن إحدى المحاسن التى عوضت ذلك الأداء تمثلت فى وجود قدامى من وثقت فيهم الولايات المتحدة من أمثال "سعيد شامل"، و"روسى نصار" ... إلا أن الأمريكيين كانوا بحاجة إلى ممثلين أكثر صدقية.

وهنا يأتى "دريهر" ليملأ فراغا كهذا ... وذلك وفقا لمساعده، آنذاك، - "إدوارد أوولوورث"، أستاذ كرسى الدراسات التركية/ السوفييتية بجامعة كولومبيا بنيويورك، والذى كان - حينها - باحثاً ناشئاً فى تاريخ آسيا الوسطى ... حيث قام بإجازة مدتها عام واحد ليصقل مهاراته اللغوية فى ميونيخ لحساب "أمكومليب". هذا، وقد أكد لى "أوولوورث" فى لقاء أجريته معه فى السابع من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٦ بنيويورك سيتى، أن "دريهر كان يسعى للإفادة من سعيد رمضان، حيث عمل روسى نصار كهمزة وصل بين الاثنين". (إلا أن "نصار" قد رفض التعقيب على ذلك الأمر حين أخبرته به فى لقائى به فى العاشر من أيار/ مايو ٢٠٠٦ بفرجينيا). واستطرد "أوولوورث" ليخبرنى بأن "نصار قد سعى إلى أن يربط بين مؤتمر العالم الإسلامى وبين ميونيخ وأحداث جنوب شرقى آسيا".

إنه ليس واضحا ما إذا كان هذا التحالف قد ظل قائما حين دعا "سعيد

رمضان" إلى بناء مسجد لمسلمي ألمانيا خلال الجمع المنعقد بكنيسة القديس بولس عام ١٩٥٨، على ما أسلفنا. ففي تلك الآونة، ذكرت استخبارات ألمانيا الغربية، على نحو صريح وفي أكثر من تقرير، أن الولايات المتحدة الأمريكية قد وفرت جواز سفر أردنيا لسعيد رمضان لتتيح له الارتحال إلى أوروبا، فيما زعمت الاستخبارات السويسرية أنه كان جاسوسا أمريكيا. اما عائلة "رمضان"، فلم تعقب على الأمر، وأما "وكالة الاستخبارات المركزية" فلم تفرج بعد عن ملف "سعيد رمضان" لديها. إلا أن المؤكد هو أنه ما أن استقر "رمضان"، حتى شرع هو و"روبرت دريهر" في العمل معا.

إن الدليل الواضح على ذلك التعاون قد أسفر عن وجهه في شباط/ فبراير ١٩٥٩، حين قام اثنان تربطهما علاقة وثيقة بأمكومليب بزيارة "فون منده". وكان أحدهما "أحمد نبي ماغوما" - الناشط السياسي العتيد والموظف السابق بالأوستمنستريوم، والذي سلفت الإشارة إليه. وقد التمس "ماغوما" - قبلها بسنوات قلائل - من "إيريك كونيهولم" بأمكومليب وظيفة له ... وذلك حين قام "كونيهولم" بجولة شملت كلا من ألمانيا وتركيا. أما الزائر الآخر، فكان "سعيد شامل"، الزعيم الداغستاني المبجل ذا العلاقات الوطيدة بأمكومليب. هذا، وقد قدم "ماغوما"، و"شامل" خطابا إلى "فون منده" اشتمل على طلب بتمديد نطاق "الإدارة الدينية للاجئين المسلمين في ألمانيا الاتحادية" - التي أنشأها "نور الدين نمنقاني" من قبل، بألا تقتصر على الجنود القدامى، بل لتشمل المسلمين كافة، وبخاصة طلبة "سعيد رمضان". كذا، فقد طالب الاثنان بعقد مؤتمر أوروبي حول الإسلام يترأسه "رمضان"، حيث ذكرا أن "نمنقاني" ليس أهلا لمهمة كتلك ... إذ تبدى للطلبة الذين قاموا باستشارته في أمور دينية أنهم يعرفون عن "الإسلام" أكثر مما يعرف إمام "أسراب الدفاع" السابق. كذا، فقد أوردا أن "سعيد رمضان" كان لديه الانطباع

ذاته عن "نور الدين نمنقانى".

أما "فون منده"، فقد ثارت ثائرته بشأن الخطة الأمريكية لدعم "سعيد رمضان" على حساب "نور الدين نمنقانى"، حيث قال: "لدى انطباع بأن تلك الانتقادات قد أثيرت عن عمد ضاربة عرض الحائط بالحقيقة الساطعة بغية تحجيم مسئوليات "نمنقانى"، والحد من تأثيره الفاعل". كما عمد "فون منده" إلى الحط من قدر رمضان قائلاً "إن رمضان لا يملك أدنى تأثير فى العالم الإسلامى" ... وهو أمر مناف تماما لواقع الحال، ومقولة غمط فيها "فون منده" حق الرجل.

إلا أن "سعيد شامل" قد أخبر "فون منده" أن هواجسه وهمومه فى غير محلها، إذ ليس لها أساس من صحة، وأن الخطة لتجرى - بالفعل - وفق المسار المرسوم لها، مضيفا أن "دريهر" لراغب فى تمويل المؤتمر المنشود، وأن قصارى ما يبغون من "فون منده" هو جهوده لإقناع وزارة خارجية ألمانيا الغربية باستخراج "تأشيرات" للمسلمين القادمين إلى ميونيخ لحضور المؤتمر. هذا، وقد أرسل "فون منده" تعقيباته على زيارة "ماغوما"، و"شامل" له، وذلك إلى وزارة الخارجية الألمانية، حيث كتب أن "سعيد شامل" كان يُعرف - على امتداد إقليم الشرق الأوسط - بأنه جاسوس أمريكى، وأنه لزام على ألمانيا الغربية أن تتشكك فى مؤتمر يكون رئيسه "سعيد رمضان"، ... "ذلك أنه من الجلى أن الهدف من وراء جهود سعيد شامل هو إرساء منبر جديد يتمكن رمضان من خلاله - ونيابة عن الأمريكيين - من أن ينشط فى الشرقين الأدنى والأوسط". وبالطبع، لم تحفل الخارجية الألمانية بمخاوف "فون منده" وهواجسه ... إذ كان لأمكومليب نفوذ طاغ فى ألمانيا الغربية التى عمدت خارجيتها إلى استخراج التأشيرات المطلوبة.

هذا، وكان الألمان الغربيون قد أفلت منهم زمام الأمور. إذ ورد إلى "فون منده"

تقرير من جهة ما فحواه قيام السفارة الروسية بتجنيد الطلبة العرب، والإعداد لإقامة حفل للطلبة المسلمين بكولونيا فى حانة "الفرنسيسكان" فى فرايبورغ. أما ألمانيا الشرقية، فكانت تمنح الطلبة المصريين منحا وبعثات دراسية، فضلا عن عرب آخرين. إذا، ما لم يعمد "فون منده" إلى القيام بفعل ما، فسيتمكن، حينها، السوفييت من الإبحار بحرية فى هذا البحر الخضم من "المجندين" المحتملين.

وفى تلك الأثناء، طرق السوفييت أبواب رجل من خاصة رجال "فون منده" البارزين ... وهو أستاذ جامعى يدعى "عبد الله" وفد إلى "هامبورغ" قادما من سوريا، حيث هاتف "نمنقانى" سائلا إياه ما إذا كان راغبا فى تمويل المسجد المزمع إنشاؤه فى ميونيخ ... إن جماع ما سيتطلبه الأمر هو زيارة إلى القاهرة. وهنا لجأ "نمنقانى" إلى "ولى قيوم خان" ملتمسا المعونة، وقام بنقل الرسالة إلى "فون منده" الذى استدعى "نمنقانى" من ميونيخ، ليحضر هو و"ولى قيوم" إلى "دوسلدورف" للتشاور فى الأمر. هذا، وقد فهم "فون منده" أن العرض المقدم قد مثّل ردة فعل موسكو إزاء طلب الأمريكيين تنظيم المؤتمر. فالسوفييت أرادوا استبعاد الأمريكيين عن طريق قيامهم بتمويل المسجد بأنفسهم. وهنا تم إبلاغ "نمنقانى" بألا يذهب إلى القاهرة.

ورغبة منه فى معادلة القوتين الأعظم ... الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتى ... دشن "فون منده" عملياته المستترة فى إقليم الشرق الأوسط. فخلال موسم الحج لعام ١٣٧٨ هجرية (١٩٥٩ ميلادية) - قام "فون منده" بإرسال "نور الدين نمنقانى"، و"باى ميرزا هاييت" فى رحلة إلى الشرق الأوسط لتوزيع بعض الدعايات المناهضة للشيوعية وأخرى مناصرة لألمانيا الغربية. إلا أن ما أُبلِغ به قد بات يقلقه. فبفضل تدخل "سعيد رمضان"، شرع العالم الإسلامى يدرك أن "مسجد ميونيخ" هو مشروع أمريكى، لا ألمانى ... فى إشارة أخرى إلى اضطلاع "رمضان"

بمهام كبيرة نيابة عن أمكومليب. أما "نمنقانى"، فقد أرسل تقريرا إلى "فون منده" مخبرا إياه بمواجهة مصاعب جسام مع اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية. وفى لعبة كتلك الدائرة، كانت ألمانيا الغربية خارج إطار رابطة القوى العظمى. ففى أعماق طواياهم، أراد الألمان أن يضطلع المسلمون بدور ما بشأن مطلب ضبابى "دون كيخوتى" ... ألا وهو مساعدة ألمانيا فى استعادة أراضيها المستولى عليها، وذلك ذات يوم فى قابل الزمان. أما القوتان العظميان، فكان لديهما - بالمقابل - أهداف استراتيجية آنية عراض فيما يخص "الإسلام" ... حيث كانت ألمانيا الغربية ساحة للقتال فيما بينهما.

وخلال تلك الأثناء، كان "سعيد رمضان" فى أوج تأثيره. ففيما كان يكتسب تحالفات قوية فى أوروبا، فقد ظل يمثل قوة ضاربة فى العالم الإسلامى أيضا. فعلى سبيل المثال، قام رمضان بإعادة الروح إلى "منظمة المؤتمر الإسلامى" التى عمد إلى إحيائها. لقد تشكلت تلك المنظمة بغية توحيد المسلمين على امتداد أنحاء المعمورة، إلا أنه - وبحلول خمسينيات القرن العشرين - تضاءل الكيان ليضحى مجرد منتدى يسيطر عليه أمين الحسينى، وجماعة "الإخوان المسلمين". إلا أن "سعيد رمضان" قد قام بالدعوة إلى "الاجتماع العام" الثالث للمنظمة فى كانون الثانى/ يناير ١٩٦٠، حيث أحرز نجاحا مدويا. وكان من بين حضور الاجتماع، فضلاً عن أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" بالمنفى، رئيس الوزراء الإندونيسى الدكتور محمد بن ناصر بن إدريس داتوسيتاريو - إلى جانب ممثلين عن اثنتى عشرة دولة إسلامية. هذا، وقد حظى الاجتماع بدعم مجموعة من رموز الثقافة البارزين من أمثال "سعيد شامل" الداغستانى، حيث تناول عددا من المواضيع والقضايا، كان أبرزها الشيوعية وقضية فلسطين. أما تعاطف "سعيد رمضان" الأيديولوجى مع الموقف الأمريكى، فيمكن أيضا ملاحظته من خطاب كتبه إلى

واحدة من جبهات "وكالة الاستخبارات المركزية" بميونيخ ... تحديدا، "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى"، وذلك فى السادس عشر من آذار/ مارس ١٩٦٠، حيث خاطب "على قنطمير"، بالنسخة العربية من مجلة "المعهد" معربا عن مدى استمتاعه بها، ومبديا استعداده لتوزيعها فى الأقطار الناطقة بالعربية.

إلا أن قاعدة "رمضان"، ومركز ثقله - كما بدا جلياً - قد أخذ ينتقل صوب القارة الأوروبية. فرغما عن كونه رمزا له اعتباره ضمن جموع المسلمين بالشرق الأوسط، إلا أنه كان مفتقرا إلى الأمان. وفى أثناء إقامته بالسودان خلال عام ١٩٥٩، قرر "رمضان" الانتقال هو وأسرته للعيش نهائيا فى جنيف بسويسرا. ففى خطاب أرسله إلى "فون منده" فى العاشر من نيسان/ أبريل ١٩٥٩، أخبره "رمضان" بأنه قد تجرع كأس الانقلابات والديكتاتوريات كاملة ... ومن ثم، فقد سئم وضاق ذرعا فاعتزم الرحيل.

هذا، وقد أضحت زيارات "رمضان" إلى ألمانيا تترى. فبعد شهر من وصول أسرته إلى جنيف ... شارك الرجل فى "المؤتمر الأوروبى" الذى موله "روبرت دريهر" ... ذلك المؤتمر الذى استهدف تمثيل جميع المسلمين فى ألمانيا وأوروبا. وبخصوص هذا المؤتمر، كتب "إبراهيم كوجا أوغلو" خطابا بتاريخ السابع والعشرين من نيسان/ أبريل ١٩٥٩ إلى "فالتر شتاين"- وزير العمل البافارى، آنذاك ... نظرا لما يربطه من علاقات وثيقة بأمكومليب. إذا، فلا عجب أن تكون فحوى الخطاب عاكسة لفكر أمكومليب. هذا، وقد ذهب "كوجا أوغلو" إلى وصف "ميونيخ المستقبل" بأنها مركز الإسلام فى العالم أجمع، إذ يجب أن يكون مسجدها مسجدا للمسلمين كافة. فوفقا له، "يجب ألا يستهدف المسجد المزمع بناؤه جماعة بعينها، أو فصيلاً دون آخر ... بل يجب أن يكون المسجد نقطة انطلاق لمسلمى العالم بأسره، ومركزا للفكر الإسلامى ... فضلا عن ضرورة أن

يكون بؤرة لالتقاء الفن الإسلامى والفن الألمانى وتمازجهما معاً".

وقد كان لهذه الأهداف أصداء فى الهيكل الجديد الذى أرساه "سعيد رمضان". فحين اجتمع الطلبة والجنود القدامى بكنيسة القديس بولس بميونيخ فى عام ١٩٥٨، قرر الحضور تشكيل لجنة بناء مسجد ميونيخ، على أن يترأسها "نور الدين نمنقانى"، ويكون "رمضان" رئيسا شرفيا لها. هذا، وقد ظلت اللجنة كيانا غير رسمى حتى عام ١٩٦٠ حين تم تسجيلها قانونيا، وأشهرت كمنظمة رسمية لها حقوق وعليها التزامات قانونية. وكان من بين منافع تحولها كيانا رسمياً – التمتع بشخصية قانونية رسمية يكون لها حق التقاضى أمام المحاكم، وإقامة دعاوى قانونية. أما الالتزامات، فقد اقتضت موادا قانونية خاصة بحق التنظيم والاجتماع ... فضلا عن ضرورة وجود مجلس إدارة منتخب، ومحاضر تسجل بها وقائع الاجتماعات ... إلى جانب تعين وجود رئيس مجلس إدارة لها ... وكان الرئيس هو "سعيد رمضان".

ولم يكن جليا تماما كيف حدث ذلك. فاللجنة كانت من بنات أفكار "نمنقانى" ... وهو نفسه الذى مهر توقيعه على الخطاب الذى أعلن بموجبه المحكمة أن "سعيد رمضان" هو رئيس مجلس الإدارة. ولربما عكس ذلك الأمر أن "الرجلين" – بادئ العهد – قد كانا على وفاق ... وربما كان "نمنقانى" يؤمن أن لجنة بناء المسجد لم تكن إلا امتدادا للإدارة الدينية للاجئين المسلمين، والتى كان ما يزال رئيسا لها، آنذاك. إلا أن تصرفات "نمنقانى"، وبعد مضى سنوات قلائل، كانت تشى كما لو كان لا يدرك ما انطوى عليه تسجيل اللجنة رسميا – وهو الأمر الأرجح، نظرا لضعف مستوى تحصيله الدراسى، بالمقارنة بسعيد رمضان الذى كان قد فرغ، حينها، للتو من أطروحته للدكتوراه مع البروفيسور "غرهارد كيغل". وعلى أية حال، فقد اضحى "رمضان" – فجأة – ممسكاً بدفة الكيان القانونى المنوط به بناء

المسجد ... وهو دليل آخر على أن الأمريكيين قد دعموا الرجل المناسب (هذا، وقد ظل "نمنقانى" مسئولاً عن الإدارة الدينية للاجئين المسلمين، والتى لم تكن مخولة بأمر المسجد). أما الألمان ... الذين اجتذبوا "نمنقانى" واستمالوه، وجاءوا بفكرة بناء المسجد ... فقد اضحوا مستبعدين وشلت فاعليتهم.

هذا، وسرعان ما أفاد "رمضان" من وضعه الجديد. فحين برزت إلى "نمنقانى" فكرة بناء مسجد فى عام ١٩٥٨ - لم يكن لدى أحد خطة لجمع مئات الآلاف من الماركات الألمانية اللازمة لتمويل تشييد بنيان كهذا. أما الآن، فى منتصف الستينيات، فقد أعلن "رمضان" أنه ذاهب إلى الحجاز فى رحلة لأداء فريضة الحج، وأنه سوف يجلب معه الأموال اللازمة. أما نفقات بناء المسجد، فقدرت وقتها بـ ١,٢ مليون مارك ألمانى (أو المعادل لمبلغ ٢,٢ مليون دولار أمريكى ... بأسعار اليوم). كذا، فإن مهندسا تركيا يدعى "عثمان أديب غوريل" كان قد شرع فى التخطيط الهندسى لبناء مسجد متكامل ذى قبة ومئذنة.

هذا، وقد واصل "سعيد رمضان" مساعيه لاجتذاب "فون منده" واستمالته إلى صفه - ويفهم ذلك، على الأرجح، أنه إشارة إلى أن الأمريكيين كانوا يوزعونه لتمتين صلاته بعميلهم الاستخباراتى القديم ... فمن دون ذلك التبرير، لا يكون جليا الدافع الذى أدى برمضان للمبادرة باجتذاب الرجل. وفى أعقاب الاجتماع الذى شهدت كنيسة القديس بولس وقائعه، أرسل "رمضان" أحد صغار معاونيه التماسا لتأييد "فون منده" ودعمه. كذا، فقد التقى "رمضان" باى ميرزا هاييت سعيا للدفع قدما لإرساء منظمة أشمل تنتظم المسلمين كافة. إلا أن ردة فعل هاييت كانت غاضبة حانقة، إذ كتب خطابا يقطر غضبا بتاريخ الثامن من آذار/ مارس ١٩٦٠ وجهه إلى "فون منده"، جاء فيه: "إن ألمانيا لبوابة لا يملك زمامها أحد، ذلك لعدم وجود حارس عليها ... فكل يفد إليها ويفعل ما يحلو له".

وبعد ذلك بشهر أو يزيد، وتحديداً فى الرابع عشر من نيسان/ أبريل، أرسل هاييت تقريرا إلى "فون منده"، أخبره فيه أن الولايات المتحدة الأمريكية تسعى مرة أخرى لتعديل نطاق الإدارة الدينية لنمنقانى، وذلك عن طريق تمديد آفاقها بحيث تتناول قضايا إسلامية عالمية، إذ كان المفترض أن يكون المسجد أداة لنقد "الإسلام السوفييتى". واستطرد هاييت فى تقريره قائلا: "إن المرء ليخلص إلى كون اللجنة الأمريكية للتحرر من البلشفية تسعى إلى استخدام تلك الإدارة الدينية لخدمة مآربها الدعائية".

هذا، وكلما أنعمت وكالات الاستخبارات النظر إلى "سعيد رمضان"، كان ذلك مقرونا بفهم أقل له ولدوافعه. فوفقا لتقرير بتاريخ الثانى من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦٠، كتب هاييت إلى "فون منده" يخبره بأن "رمضان" كان يخطط للقاء "ضياء الدين باباخانوف" - مفتى المسلمين فى روسيا، ورئيس الإدارة الدينية لمسلمى آسيا الوسطى وقازاخستان ... والذى تعهد بتقديم أموال لتشييد المسجد. إلا أن تخطيط "رمضان" كان بلا طائل أو جدوى غير الإفصاح عن المصاعب التى أحاطت بالرجل الذى قررت أمكومليب دعمه ومؤازرته.

أما "دريهر"، فما فتئ يسعى لإدخال الألمان فى مجلس الإدارة ... ففى أيار/ مايو ١٩٦١، قام بمهاتفة "فون منده" لينصحه بمقابلة "سعيد رمضان". هذا، وقد شعر "فون منده" بالارتباك كونه قد أدرك أن أمكومليب قد اعترضت على شخص "رمضان" بوصفه رجعياً متحفظاً - وفقاً لما ورد ببعض تعقيبات "وكالة الاستخبارات المركزية" قبل سنوات خلت بشأن "فاشستية" سعيد رمضان. وقد جادل "دريهر" فى أنه لا معنى لوجود منظمات إسلامية متنافسة فى ألمانيا الغربية ... إذا، فلم لا يتم دعم الرجل المناسب؟ إن رمضان لديه صلات ممتازة وعلاقات واسعة النطاق فى الشرق الأوسط، الأمر الذى يسهم بالإيجاب فى مناهضة العالم

الحر لخطر الشيوعية.

وعلى مضض، وافق "فون منده" على لقاء "رمضان" فى "دوسلدورف"... حيث كان للثنائى أحاديث طوال فى المقر الفخم لفون منده. لقد بهت "فون منده" وظل مشدوها حين اقترح "رمضان" إرسال "وفد إسلامى" إلى الاجتماع التالى للجمعية العمومية للأمم المتحدة، بحيث يطالب الوفد بالحريات الدينية، وبالطبع يقوم أيضا بالهجوم على الاتحاد السوفييتى. وكان الاقتراح أن يترأس "سعيد رمضان" الوفد بمعاونة مساعدين هما "إبراهيم كوجا أوغلو"، و"سعيد شامل". هذا، وقد رأى "فون منده" الاقتراح سخيفا، حيث كتب يقول: "إن كوجا أوغلو وسعيد شامل لم يحظيا بانطباع إيجابى عن مجمل أعمالهما فى ميونيخ ... إذ كانت أنشطة شامل أثناء الحرب الكونية الثانية وما بعدها أحاديث لاكتها الألسنة فى المهجر. لذا، فإن الرجلين اللذين اقترحهما سعيد رمضان ليسا أهلا للاضطلاع بمهام كان يخطط ليعهد بها إليهما".

كذا، فقد عمد "فون منده" إلى توجيه خطاب فى أيار/ مايو ١٩٦١ إلى ضابط الاتصال خاصته بالاستخبارات الاتحادية الألمانية "زيغفريد أونغرمان" متسائلا: "عن أى الوكالات الأمريكية تلك التى يعمل رمضان لحسابها". فلربما لم يكن يدرى شيئا عن كون "روبرت دريهر" ضابط اتصال بوكالة الاستخبارات المركزية، بالرغم من امتلاء ملفات "فون منده" بتعقيبات أدلى بها عملاء أمكومليب وجواسيسها فى وصف مناح أخرى لكواليس المنظمة وخباياها.

كذا، فقد كان "فون منده" قلقا بشأن خطط "رمضان" فيما يتعلق بموسم الحج ... إذ آمن "فون منده" بأن القيام بجمع التبرعات لم يكن إلا منبرا لجذب الاهتمام بحيث يسهل على "رمضان" استئصال "نمنقانى" والحلول محله. أما لأمكومليب،

فستكون فرصة لمهاجمة الاتحاد السوفييتى، فيما يمكن لرمضان أن يعمد إلى محاولة كسب التأييد لصالح جماعة "الإخوان المسلمين" ولصالح حلمه المتمثل فى عالم إسلامى موحد.

فعقب مغادرة "سعيد رمضان"، تحير "فون منده" المتوجس ما عساه يفعل ... لقد أخبر "دريهر" مراراً أن الاختيار من ضمن اللاجئين المسلمين المدعومين من قبل أمكومليب قد جانبه التوفيق. بيد أنه إذا كان "دريهر" قد خال أن يكون "رمضان" لديه علاقات واسعة بما يجعله أهلا للدعم والمؤازرة، فقد يكون لفون منده أن يعيد ترتيب حساباته، فلربما كان قد تعجل فى استبعاد "سعيد رمضان".

وكانت الفكرة الوحيدة لدى "فون منده" لتمحيص وجهة نظر "دريهر" هى اقتحام مكتب "سعيد رمضان" وسرقة ملفاته ... لذا، فقد عمد إلى ما يلجأ إليه كل بيروقراطى ناجح: كتابة مذكرة قام فيها بتحديد المشكلة واقتراح الحل المناسب. وفى ثنايا المذكرة، كتب "فون منده": "إن رمضان الذى يتعاون على الدوام مع أمكومليب له قاعدة محدودة من المهووسين العرب"، إلا أنه مصنف كعدو لرجل مصر القوى، جمال عبد الناصر ... بيد أن ملفاته ستوضح مدى نفوذه فى العالم الإسلامى.

هذا، وقد أمضى "فون منده" بعض الوقت يفكر فى كيفية القيام بعملية السطو، بحيث يقوم باى ميرزا هاييت بتنظيم المهمة ... ثم قام "فون منده" بعرض الفكرة على "زيغفريد أونغرمان" بالاستخبارات الاتحادية الألمانية، مؤكداً أن "رمضان" يعمل لحساب الأمريكيين، وأن نفقاته قد مولها الجانب الأمريكى. وفى النهاية، تم التراجع عن فكرة السطو تلك، إلا أن "فون منده" كان محقا فى القلق الذى استشعره ... فرمضان كاد يسيطر على مشروع بناء المسجد. وكما كان الأمر

دائما، فقد كان هاييت - ذراعه اليمنى وموضع ثقته - هو من لفت انتباه "فون منده" إلى الأمر ... وكما كانت العادة، فقد كتبت الرسالة المؤرخة فى الخامس من حزيران/ يونيو ١٩٦١، من هاييت إلى "فون منده"، بأسلوب صريح مباشر ولكنها صيغت بألمانية ركيكة.

"إنه لأمر صاعق أن تظهر فى الأفق جماعة إسلامية أخرى يكون على رأسها سعيد رمضان ... إنه ليبدو أن النمط الشائع فى أيامنا هذه هو الكثير من الجماعات والقليل من الأعمال النافعة". كذا، فقد ذكر هاييت، فى رسالته، جماعة أخرى شرعت تسعى لبسط نفوذها فى أرجاء ميونيخ ... إنها "جماعة الإسلام"، تلك الجماعة الإسلامية الخيرية المريبة التى تتخذ من العاصمة الأمريكية، واشنطن، مقرا لها - حيث يترأسها ذلك الروائى الحرون صعب المراس ... أحمد كمال.

الفصل العاشر

قصة الروائى

إن بيروقراطيى وزارة اللاجئين البافارية قد نيط بهم مهمة مساعدة مسلمى ألمانيا ومد يد العون لهم ... إلا أنهم، وبحلول عام ١٩٦٠، قد أضحوا يجدون صعوبة فى تحديد الجماعات المتنافسة ... الأمريكيون، سياسيو "بون"، الجنود السابقون، و"العرب" من أمثال سعيد رمضان.

ثم فجأة ... اصطدم أولئك البيروقراطيون بأحمد كمال - وهو كاتب ومغامر وجاسوس. وأحمد كمال هذا هو أحد أبرز الشخصيات الكاريزماتية، وأكثر المتسمين بغرابة الأطوار ممن انخرطوا فى ركاب الجهود الأمريكية لتوظيف الإسلام واستغلاله. وكان الرجل دائم التطواف فى جهات عديدة ... فمن كاليفورنيا إلى تركستان، ومن إندونيسيا إلى الجزائر - زعم كمال دائما أنه نصير المسلمين المضطهدين أينما كانوا ... رغماً عن أنه عادة ما كان يعمل لحساب هذه الوكالة الاستخباراتية الأجنبية أو تلك. هذا، ولم يصل كمال ميونيخ وحده، وإنما وصلها متدثرا بأحدث "صرعاته" ... منظمة خيرية تدعى "جماعة الإسلام". أما الهدف ... فكان بسط النفوذ على جماعة المسلمين هناك.

وفى كانون الثانى/ يناير ١٩٦٠، أعلن مسئولو "جماعة الإسلام" نقلهم لأنشطتهم من النمسا إلى ميونيخ ... وسرعان ما أمطروا المسئولين الألمان بوابل

من المنشورات والبيانات الشارحة لتأسيس الجماعة. وهنا أصيب بيروقراطيو وزارة الشئون الاجتماعية الألمانية بحيرة وارتباك. فوفقا لما كتبه مسئول منهم فى "بون" إلى نظيره البافارى: "لا أخال أنه من الممكن توحيد الجماعات المتنافسة، تحديدا جماعة فون منده أو إدارته الدينية، وجماعة إبراهيم كوجا أوغلو، وتلك الجماعة التى حلت مؤخرا بالبلاد ... جماعة الإسلام لأحمد كمال".

أما رجال "فون منده"، فكانوا يسعون إلى كسر شوكة "سعيد رمضان" عن طريق التماسهم من المسئولين بالسلطات البافارية عرقلة جهوده ومساعيه الرامية إلى بناء مسجد بميونيخ ... إلا أن المسئولين كانوا، آنذاك، مشغولين للغاية بأحمد كمال من أن يستجيبوا لمطلب "فون منده". أما "جماعة الإسلام" لصاحبها أحمد كمال، فكانت تقوم بالتشويش على تحركات "سعيد رمضان"، لتبذر بذلك بذور الشك لدى بيروقراطيى بافاريا، ومن ثم تتيح الفرصة لرمضان المضى قدما دونما عائق.

إن حيرة مسئولى بافاريا وارتباكهم لأمر يمكن تفهمه على ضوء ما حوته منشورات "جماعة الإسلام" وبياناتها ... إذ كانت غاصة بمقولات عن تاريخ تلك الجماعة الغرائبى ... وهو بالطبع من نسج الخيال الروائى لأحمد كمال، والذى صور "الجماعة" كجماعة أخوية مقدسة ولدت من رحم المعارك، لتنافح الآن عن المسلمين المضطهدين أينما كانوا. ووفقا لمنشوراتها، فإن "جماعة الإسلام قد أنشئت فى تركستان ما بين عامى ١٨٦٨ و١٨٦٩ خلال الفترة التى شهدت اعتداءات روسيا القيصرية على المدافعين عن إقليمى بخارى، وخوارزم. إن جماعة الإسلام ... ذلك التنظيم الأخوى لينتظم رجالا متحدين ينتمون إلى سائر الطبقات والمهن، وهو التنظيم الذى يرى أن دحر التوغل الروسى فى أراضى الشعوب التركية مهمته المقدسة".

وتدور عجلة الأحداث لتشهد هزيمة المدافعين عن الإقليمين أمام جحافل الجيش القيصرى، لتنتقل "جماعة الإسلام" إلى الخارج وتتحول جماعة خيرية، إلا أنها تقوم – مع ذلك – بدعم حركات التمرد العسكرى ... فعلى سبيل المثال، قامت "جماعة الإسلام" بإرسال مراقبين عنها إلى جزر الأنتيل الهولندية حين نال الإقليم استقلاله ليصبح دولة إندونيسيا. ومن العاصمة "جاكارتا" عمدت الجماعة إلى تنظيم صفوف المحاربين من أجل الحرية وتوحيد جهودهم، وذلك فى كل من تونس والمغرب ومناطق أخرى من القارة الإفريقية. وتمضى الأحداث ... لتصبح أكثر غرائبية، إذ تعمد "جماعة الإسلام" إلى إرسال بعثات وحملات إلى إفريقيا، حيث قام أعضاؤها بجمع ٦٦٠ كيلو غرام من المعادن النفيسة، وهو ما أضيف إلى الثروات الشخصية لمحاربى آسيا الوسطى القدماء. وبنهاية عام ١٩٥٧، أضحى لدى "جماعة الإسلام" أصول تقدر بـ ٣٢٨,٥٥٧ دولار أمريكى (أى ما يعادل ٢,٤ مليون دولار أمريكى بأسعار اليوم). ثم قامت الجماعة بعمليات

لنجدة مسلمى الأردن - وبخاصة الفلسطينيون - كذا، فقد افتتحت مكتبا لها فى فيينا لتنسيق جهود المعونة للمسلمين هناك.

وبالرغم من تلك الجهود جميعها، فالجماعة لا يبدو أنها كانت تبذل كثير جهد فيما يخص العمل الخيرى ... إذ لم تتضمن أيا من نشراتها البالغ عدد صفحات الواحدة منها ثلاثين صفحة - إلا القليل من الأنباء عن مشروعات محددة. أما معظم المقالات، فقد عمدت إلى شرح مؤيد بالحجج لمستقبل الإسلام، وكيف أن منظمات العون المسيحية كانت تغفل عن المسلمين وتتجاهل أمرهم. أما العون الحقيقى الوحيد الذى كانت "جماعة الإسلام" تمنحه، فكان إدارة الأموال لبرنامج الولايات المتحدة للاجئين - وهو مشروع من مشاريع الحرب الباردة كان الهدف منه تشجيع مواطنى البلدان الشيوعية على هجرة أوطانهم، حيث عمد إلى منح النازحين أموالاً تعينهم على التوطن بالغرب[٨٨]. هذا، وقد استهدفت "جماعة الإسلام" أن تدرج أكبر عدد ممكن من النازحين واللاجئين على قوائمها المالية - لتضمن تمويلا دوريا منتظما من وكالات العون الأمريكية فضلا عن المفوضية العليا للأمم المتحدة لشئون اللاجئين، والتى كانت تمول أحد مشاريع الجماعة. بيد أن أحوال اللاجئين الأوروبيين كانت آخذة فى التحسن، وجاهدت "جماعة الإسلام" لإيجاد المزيد من المستهدفين، وبخاصة المسلمون ... وهو ما أدى إلى ابتزاز "اللاجئين" وسرقتهم. ووفقا لأحد العاملين بجماعة الإسلام ويدعى "تهامى بن أحمد الواحلة"، فى لقاء جمعنى به فى الثلاثين من تموز/ يوليو ٢٠٠٦ فى مونتليمار بجنوب شرقى فرنسا ... فحين كانت الجماعة تعمل فى إيطاليا، إذ بها تصطدم بالوكالات الكاثوليكية، حين حاول أعضاء الجماعة إدراج مسلمين على قوائم المستحقين كانوا مقيدين بالفعل على القوائم المالية لتلك الوكالات الكاثوليكية. أما فى النمسا، فقد وقعت الجماعة فى نزاع مع مكتب اللاجئين

والهجرة هناك، وهى وكالة تابعة لوزارة الخارجية الأمريكية، وذلك بشأن عدد الحالات التى تشرف عليها. هذا، وقد عمد المكتب إلى وقف تمويل الجماعة، إلا أنه قد أعاد ذلك التمويل فى أعقاب قيام أحمد كمال بتنظيم تظاهرة قادها زعماء مسلمون. وحين قدمت الجماعة ميونيخ، كان أول ما فعله ممثلها، ويدعى "أحمد بلاغى"، وهو بوسنى - القيام بزيارة معسكرات النازحين بالمدينة. ووفقا لخطاب أرسله "أحمد بلاغى" بتاريخ السابع عشر من أيار/ مايو ١٩٦٠ إلى "فالتر شتاين"، وزير العمل البافارى ... فقد لجأ أحمد كمال إلى تصوير نفسه "فوتوغرافيا" قبالة كوخ ثبتت عليه لافتة "تحذير صحى" ... ونظرا لمشكلة اللاجئين التى كانت آخذة فى التضاؤل والانزواء، فقد بدا ذلك كحيلة استعراضية بارعة.

ورغماً عن ذلك كله، فقد أُخذت "جماعة الإسلام" على محمل الجد ... إذ أشار أحمد كمال إلى أن الجماعة كانت تلقى تأييدا ومساندة من الحكومة الأمريكية مشيرا إلى أن "جماعة الإسلام" هى الجمعية الخيرية الإسلامية الوحيدة المعترف بها من قبل "المجلس الأمريكى للوكالات الطوعية". إن هذا المجلس الاستشارى الأمريكى كان يقوم بتسجيل أمثال تلك الجمعيات الخيرية دون أن يكون له دور فى فحصها أو تدقيق بياناتها ... إلا أن النبرة قد بدت رسمية حيث أوضحت خطابات "جماعة الإسلام" تلك الرابطة، وذلك فضلا عن كون الجماعة معفاة من الضرائب فى الولايات المتحدة الأمريكية، وعلاقاتها بالمفوضية العليا للأمم المتحدة لشئون اللاجئين. كذا، فقد أبدى السياسيون تعضيدهم ومؤازرتهم للجماعة. فوفقا لصحيفة Munchener Merkur البافارية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦١/١/٢٤ ... فحين قام المشير محمد أيوب خان - رئيس باكستان آنذاك - بزيارة إلى ألمانيا، عمد إلى لقاء أحمد كمال فى ميونيخ حيث تعهد بدعم "جماعة الإسلام". ووفقاً للصحيفة

ذاتها، ولكن فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦١/٦/٦، فإن "جماعة الإسلام" قد نظمت مؤتمرا كبيرا فى ميونيخ تناول "الإسلام والغرب" - وكان من بين الحضور كبار مسئولى الجماعة، وبعض السياسيين من ذوى الشأن والمكانة، من أمثال "فالتر شتاين" وزير العمل البافارى. كذا، فقد أعجب "فون منده" بالأمر إذ راق له. لذا، فقد قامت "إدارته الدينية" بتشجيع أعضائها على الانضمام إلى "جماعة الإسلام" ... ففى خطاب بتاريخ السابع والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٦٠، خاطب "نور الدين نمنقانى" أعضاء إدارته الدينية، ناعتا إياهم "بالإخوة فى الإسلام" - بأن "جماعة الإسلام" هى الجمعية الخيرية الإسلامية الوحيدة المعترف بها رسميا فى العالم.

وفى غضون أقل من عام واحد، أحرزت "جماعة الإسلام" نجاحا مدويا إلى الحد الذى ذهبت معه وسائط الإعلام المحلية إلى أن الجماعة هى القائمة على إدارة مشروع مسجد ميونيخ. ففى بواكير عام ١٩٦١، قامت صحيفة Munchener Merkur - بالفعل - بوصف مسجد ميونيخ باعتباره مشروع "جماعة الإسلام"، حيث أوردت على صفحاتها صورة لأحد مسئولى الجماعة وهو يفحص خطط إنشاء المسجد.

أما فى عددها المؤرخ ١٩٦٠/٦/٢٤، فقد أوردت الصحيفة أن "العاصمة البافارية، ميونيخ، قد أضحت مركزا للمسلمين الذين يحيون فى غرب أوروبا" مشيرة إلى انتقال "جماعة الإسلام" إلى ميونيخ كدليل على صحة ذلك القول. واستطردت الصحيفة قائلة: "إن جماعة الإسلام قد اضطلعت بالدعم الثقافى لإخوتها فى الإسلام ... حيث من المزمع إقامة مسجد ومركز ثقافى ودار حضانة للأطفال فى ميونيخ".

أما من منظور يومنا هذا، فقد يبدو ذلك كله خدعة محكمة متقنة، بيد أنها لم

تكن كذلك. فجماعة الإسلام قد كانت مدعومة - على وجه التحقيق - من قبل الاستخبارات الأمريكية ... حيث أرسل أحمد كمال، على الأرجح، إلى ميونيخ ليشد عضد "سعيد رمضان" ويكون عونا له ... وذلك، لضمان أن يكون زمام السيطرة على الحياة الدينية لمسلمي ميونيخ فى أيدى مؤسسة أمريكية.أما ما لم يدركه المسئولون الأمريكيون فهو أن كمال لم يكن ألمعيا فحسب، بل كان نمطا متقلبا يروغ منك كما يروغ الثعلب. كذا، فمن الأرجح ألا يكون أولئك المسئولون قد أدركوا أن قصة حياته بأكملها كانت خيالا محضا بمثل ما كانت رواياته، وما حفلت به من أحداث وشخوص.

إن التحقق من الحقائق الشخصية الخاصة بأى من الأفراد الضالعين فى المهام الاستخباراتية لهو أمر شاق عسير، أما حياة أحمد كمال العامة فقد مثلت صعوبة أكبر ومشقة أعظم. ففى حين لم يأمل أناس من أمثال "روبرت دريهر"، و"غرهارد فون منده" فى أكثر من خمول الذكر، فإن أحمد كمال لم يهرب مطلقا من بريق الشهرة وألق الأضواء ... فخلال السواد الأعظم من عقد بأكمله، عمل كمال روائيا وابتغى أن تجد رواياته وأعماله منافذا للبيع، إلا أنه قد نسج حول نفسه شخصية عامة شديدة الغرائبية لدرجة أن تماهت شخصية الرجل الحقيقية فى تلك المختلقة، أو كادت تضيع بالكلية.

أما الرواية الرسمية فمباشرة، وإن ظلت غرائبية. فعلى الغلاف الخلفى لروايات أحمد كمال، أو بالأحرى نسخ إعادة الطبع التى قام بها ابنه "طوران" فى عام ٢٠٠٠، أدرجت نبذة مختصرة عن حياة المؤلف - وذلك وفقا لما أخبرتنى به طورا كمال، ابنة المؤلف، فى لقائى بها فى ميونيخ فى السادس عشر من حزيران/ يونيو ٢٠٠٦ . وبقراءة النبذة المدرجة، ندرك أن أحمد كمال قد ولد فى محمية للهنود الحمر فى كولورادو بالولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩١٤ لأبوين ذوى قومية

تركية تترية نجحا فى الفرار من الاضطهاد القيصرى الروسى. "إن التكوين الفطرى لأحمد كمال ... ذلك التكوين الذى احتضنته جيناته ... قد طبع جميع مناحى حياته، إن كان سابرا أعماق بحر لجى، أو كان مقاتلا جويا ذا جلد، أو فارسا فذا مغوارا، أو مقاتلا شرسا عنيدا، أو نصيرا لحركات الاستقلال القومى" ... أو هكذا ما ورد فى وصفه مكتوبا على أغلفة رواياته.

وحين شب عن الطوق، وفقا للرواية، ارتحل الفتى إلى موطن أجداده بتركستان. وهناك ... قاد ثورة "باسمشى"[٨٩]. كذا، فقد قام كمال، لاحقا، بالقتال فى صفوف الثوار المسلمين فى غربى الصين، فضلا عن تأييده ودعمه لحركات الاستقلال فى كل من إندونيسيا والجزائر، وقيادته لجبهة تحرير روهنغا الإسلامية لتحرير أراكان فى بورما خلال ثمانينيات القرن العشرين.

إن الموجز السابق ليحوى جانبا كبيرا من الحقيقة، إلا أن نظرة خاطفة عجلى لتثير بعض أسئلة. فإذا كان أحمد كمال قد ولد فى عام ١٩١٤، فكيف تسنى له، إذا، المشاركة فى، بل وقيادة ثورة "باسمشى" تلك التى اندلعت عام ١٩١٦؟! كذا، فإن السجلات الأرشيفية لتثير قضايا حيوية أخرى مثل الاسم الحقيقى لأحمد كمال، والتكوين الإثنى الذى من المفترض أن كان دافعا له حافزا لمسيرته.

فوفقاً لملف أحمد كمال لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية، فقد ولد تحت اسم سيمارون هاثاواى، فى الثانى من شباط/ فبراير ١٩١٤ فى أرفادا ... تلك الضاحية الراقية فى دنفر بولاية كولورادو الأمريكية. أما أبوه، فيدعى جيمس وورث هاثاواى، وأما أمه فاسمها كارولين هاثاواى ... غير أن اسمها قبل الزواج كان تحت لقب "غروسمان"، حيث لم تبد صورتها الفوتوغرافية أية ملامح شرق آسيوية

مميزة. أما الأب، فوفقا لما ورد باستمارات جواز سفر أحمد كمال عبر سنين طويلة ... فلقبه هاثاوای. إلا أن استمارة جواز سفر أحمد كمال لعام ١٩٥٢ قد أبانت إدراجه لاسم والده "قرة يوسف". ووفقاً لطورا، ابنة أحمد كمال، فقد كان والده يكبر أمه ... إذ كان الأب فى الرابعة والستين، حين كانت الزوجة فى السادسة عشرة من عمرها. كذا، فقد كان له زوجات أخريات فى تركستان. أما الأب، فقد ترك زوجته بالولايات المتحدة الأمريكية قاصدا تركستان للمشاركة فى ثورة "باسمشى"، على الأرجح. ولعل هذا ما يفسر وجود رجل باسم جيمس وورث هاثاواى ... لعله زوج أم كانت أم أحمد كمال قد تزوجت به بعد أن هجرت من قبل الرجل المسن، أو بعد أن ترملت بعده.

وتشير سجلات مكتب التحقيقات الفيدرالية إلى أن المدعو سيمارون هاثاواى قد ارتحل عام ١٩٣٥ أو نحو ذلك، قاصدا آسيا الوسطى. وهنا ... قد يكون للخيال الذى ارتبط بشخصيته مهمة توفير مفاتيح وإتاحة شواهد لملء الفراغ الوارد بسيرته الذاتية، أو قد يكون ذلك الخيال، على أقل تقدير، عونا لفهم دوافع الرجل للترحال صوب موطنه الأم. إن الراوية فى أحد أعماله القصصية قد ذهب بحثا عن والده، ليعتنق الإسلام بعد ذلك. إلا أنه، وبحلول عام ١٩٣٥، كان أوار ثورة "باسمشى" قد خمد وخبا منذ زمن ليس بالقصير. ولربما كان هاثاواى هذا قد التقى عددا من المقاتلين المهزومين ليتوهم كونه قد شارك معهم فى ثورة "باسمشى". ووفقا لملف الرجل لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية، فإنه قد تزوج خلال مكوثه بآسيا الوسطى ... إلا أن زوجته ذات السبعة عشر ربيعا قد اخترمتها المنية بعد شهر واحد فقط من الزواج نتيجة تعرضها لتعذيب لم يكشف عن كنهه، وذلك بمقاطعة "سينكيانغ" الصينية[٩٠]، حيث كان تمرد ضد الحكم الصينى قد أخذ ينشط حينذاك. وحيث دين بكونه جاسوسا، قامت

السلطات الصينية باعتقال هاثاواى فى منطقة "قومول" بتركستان الشرقية ... إلا أنه قد نجح فى الفرار من معتقله.

وحين عاد هاثاواى إلى الولايات المتحدة الأمريكية، قام بإصدار كتابه الأول... وهو عمل مغرق فى الخيال، أطلق عليه هاثاواى : "المسائل السبع للأمير تيمور". والكتاب إعادة لسرد السيرة الأسطورية لتيمور لنك ... ذلك الحاكم المغولى - التركى إبان القرن الرابع عشر الميلادى، والذى غزت جيوشه وقواته أراضى شاسعة بأوراسيا. هذا، ويتناول الكتاب طرح تيمور لنك أسئلة عن الكون وتلقيه أجوبة عنها من جندى بسيط حديث السن - ربما كان هاثاوى الصغير فى تلك الرواية قد تخيل علاقة ما ربطت تيمور لنك بوالده. وباعتماد تقليد روائى معتاد، رأى هاثاواى نفسه مترجما لذلك النص التاريخى القديم ليضيف ذلك التفسير ويدرجه فى صفحة العنوان من الكتاب على النحو التالى: "نقلا عن المخطوطة التركية الأصلية، والتى وضعها أحمد بن قرة يوسف بن قرة يعقوب". إن قرة يوسف المذكور هنا ليذكرنا بسميه الوارد باستمارة جواز سفر أحمد كمال. والكتاب المزود بالعديد من الرسوم التى نثرت بسخاء ما بين دفتيه ... تلك المرسومة على غرار نمط "الآرنوفو" Art Noveau، والتى صور فيها تيمور لنك وبلاطه التترى على نحو خيالى محبب جذاب ... قد نشر بواسطة دار نشر صغيرة للفنون فى سانتا أنا بولاية كاليفورنيا الأمريكية. هذا، ولم يطبع من الكتاب إلا عدة مئات من النسخ، حيث تم ترقيم صفحاته بخط اليد. وبخلاف النسخة الوحيدة الموجودة بمكتبة الكونغرس الأمريكى، فمن المستحيل العثور على نسخ أخرى من الكتاب. وعند هذا الحد، كان سيمارون هاثاواى قد شرع فى التحول إلى أحمد كمال. أما حقوق نشر الكتاب وطباعته، فكانت محفوظة لسيمارون أحمد كمال هاثاواى، وذلك على أرجح التقديرات. وفى الأول من

تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٣٨، صادقت إحدى المحاكم بهوليوود الأمريكية على تغيير الاسم تغييرا نهائيا، وذلك ليصبح "هاثاواى" ... ذلك الاسم الذى لن يعمد إليه ثانية فى التداول ... الروائى أحمد كمال.

هذا، وسرعان ما سيشرع أحمد كمال فى الابتعاد عن والدته، حيث عمد إلى تقريعها وتوبيخها بشدة. فحين ماتت، وجدت طورا كمال أباها فى غرفة مكتبه يبكى، فسألته عن السبب إذ خالت أنه لم يحب أمه مطلقا ... فأجابها: "إننى أبكى على ما لم يكن". هذا، وربما تكون الصعوبة التى أحاطت علاقتهما ترجع أسبابها إلى اضطرابات نفسية. إن أحمد كمال قد عمد إلى تسجيل اسم أمه فى إحدى استمارات جواز سفره، كما يلى: كارولين كمال هاثاواى ... أكان الرجل يتخيل هوية إسلامية لها؟ أم كان مستاء كونها لم تعمد إلى تنشئته مسلما مما أجبره على ترك البيت للبحث عن والد كان قد مات؟ هل يفسر ذلك دعمه الحماسى المحموم، بل والعنيف، لقضايا المسلمين؟

فى عام ١٩٤٠، نشر أحمد كمال رواية مغامرات جرت أحداثها فى تركستان ... حيث عمد إلى إخراجها فى أبهى صورة وأرقى بناء، إذ تعاقد على نشرها مع إحدى أبرز دور النشر الأمريكية آنذاك ... وهى دار نشر "تشارلز سكريبنر"، والتى كانت تنشر أعمال الروائى الأمريكى الأشهر "ارنست هيمنغواى". وتبدأ أحداث رواية كمال، "أرض بلا ضحك"، كقصة تقليدية من قصص المشاق والحرمان، حيث يقوم أحد شخوصها، ويدعى كمال بالسفر خلال الشتاء القارس عبر ممرات جبلية من الهند مرورا بالتيبت باتجاه تركستان الشرقية، أو ما يعرف اليوم بـ "سينكيانغ". ولربما كانت تلك الرحلة الواردة بالرواية هى إعادة سرد لرحلة أحمد كمال ذاتها للعودة إلى تركستان عام ١٩٣٥ للبحث عن والده. هذا، وقد قام المؤلف بسرد تفاصيل مثيرة ... تفاصيل كثيرة للغاية يصعب أن تكون

بأكملها من نسج الخيال - مثل لقاء كمال، فى الرواية، بالزعيم الثائر المتمرد "ما هسى يونغ"، وذلك فى تركستان الصينية ... وهو الذى كان يصارع حكومة "الكومينتانغ"[٩١] المتداعية رغبة فى السيطرة على الإقليم. ويقوم كمال - فى الرواية - بدور ضابط فى جيش "ما هسى يونغ" حيث يتم إرساله إلى خارج البلاد لشراء السلاح. وفيما كان كمال يحاول أن يشق طريقه - برياً - صوب الصين الشرقية ليركب سفينة تعيده إلى الولايات المتحدة الأمريكية، إذ يتعرض للخيانة ويزج به فى السجن، إلا أنه يتمكن من الهرب والعودة إلى وطنه. هذا، وقد كتبت "النيويورك تايمز" فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٤٠/٣/٣١ نقدا تحليليا مطولا عن رواية "أرض بلا ضحك" ... حيث وصفتها بأنها قصة مغامرات مثيرة ذات نبرة تفاخرية متعالية نحت فى بعض الأحايين إلى ضروب من المداهنة. بيد أن الرواية - باعتبارها صادرة عن قلم نصير لكل ما هو إسلامى - بدت غريبة متناقضة ... إذ وضع أحمد كمال، نظرا لجهله بالإقليم، جميع الجماعات الإثنية فى سلة واحدة، وسماهم جميعا "التتر" ... أولئك المتسمين على الدوام بالوحشية والفظاظة ذوى اللهجة المتكلفة الرنانة ... غرائبيات عمد إليها كيما تروق لذائقة القارئ الغربى.

وقد زعم أحمد كمال أنه عاد إلى تركستان فى عام ١٩٤١ ليستعيد بعضا من مستندات، لتندلع الحرب حيث يقوم اليابانيون باعتقاله. وكان أحمد كمال، آنذاك، قد التقى زوجته الثانية بالفعل، وهى صحافية وألسنية تترية تدعى "أمينة" كانت تحيا مع الروس البيض بالمنفى فى "تيانجين" بشمال الصين. هذا، وقد أمضى الزوجان - كمال وأمينة - مدة اعتقالهما يكتبان، حيث عمد كمال إلى تضليل الحراس اليابانيين عن طريق القيام بالكتابة بالتركية مدعيا أنها ترجمة لمعانى القرآن ... كانت تلك هى الرواية التى أدلى بها كمال لصحيفة "لوس انجيليس

تايمز" لدى عودته إلى الولايات المتحدة عام ١٩٤٥، وذلك وفق ما جاء بمقالة وردت بعددها الصادر بتاريخ الحادى عشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤٥ ... مع صورة لكمال تعلو فيها وجهه تعابير موحية عميقة، وهو يحلق حول أمه التى كانت تقوم بفحص ما زعم أنه "قرآن".

إن القوة البدنية والحضور الذهنى هما العنصران اللذان تذكرهما مجايلو أحمد كمال، واللذان كانا يميزانه عن غيره. فبمثل ما كان سعيد رمضان، لم يكن كمال طويلا أو مهيبا ... بيد أن حضوره الطاغى قد كان على الدوام مثار حديث الكافة ... تلكم الكاريزما التى كانت تنبعث منه. أما قامته فبلغ ارتفاعها ١٧٣ سم، وأما جسمه فنحيل ولكن قوى. وكان كمال – وحتى الثلاثينات من عمره – ذا شعر أرجوانى يشع من رأسه، حيث كان يحتفظ به قصيرا للغاية حتى يخيل للمرء أن الموسى قد أعملت فى رأسه فبدا حليقا ... ليصبح أصلعاً – فى النهاية، بما جعله يبدو أكثر جدية وعمقا. وكان كمال ذا شاربين صغيرين، وجمجمة بدت نافرة خلف بشرته المشدودة ... أما عيناه فكانتا متقدتين كجمر الغضا، وأما خده الأيمن فكانت به ندبة اتخذت شكل الرقم (٧). هذا، ولم تكن تبدو على محياه آثار الزمن، حيث بدا وكأنه لم يهرم ألبتة منذ عقده الرابع وحتى عقده الثامن.

ولم يكن كمال يطيق أية معارضة – حتى فى نطاق أسرته. ولاتسامه بشخصية صارمة ونمط انضباطى شديد، فقد أخبر أولاده – بالفعل – عن قيامه بقتل عدة أفراد، كان من بينهم رجل دين قام بمعارضته. أما ابنته طورا، فكانت تحسب أن ذلك لا يعدو أن يكون ضربا من تفاخر أو تهويل ... إلا أنها آلت إلى تصديقه بعد أن تركت المنزل ... إذ دار حديث بينها وبين أناس كانوا يعرفونه ... وتقول طورا: "إن أبى قد قام بالقتل، تحقيقاً... لقد حسبت أنه ربما كان يخبرنى

بروايات من هذا القبيل فحسب، كون ذلك غريبا على مسامعنا، إلا أن آخرين قد أخبرونى بمثل ما حكاه لى أبى".

وأيا ما كانت كتاباته فى الصين، فقد عاد كمال إلى الولايات المتحدة الأمريكية مشبعا بأفكار عديدة ... فعلى مدار أربعة أعوام، عمد كمال إلى نشر ثلاثة كتب. والأمر المثير للدهشة، أن الرجل الذى استهل مسيرته بأفكار رومانسية عن تركستان وإرثها الإثنى قد أنتج كتبا تجارية متعاقدا مع العديد من دور النشر الرائجة من أمثال Double Day وRandom House. أما أعماله فكانت متنوعة. فإحدى رواياته واسمها Full Fathom Five، والتى صدرت فى عام ١٩٤٨ ... تدور أحداثها ضمن محيط جماعة صائدى الاسفنج الأمريكيين ذوى الأصول اليونانية، وذلك بولاية فلوريدا الأمريكية. وتصف الرواية زيهم الجميل والغريب، وكذا نمط حياتهم الودود الحانى. والراوية هنا هو رجل يدعى "أليك باراديسيو" ... رجل يؤمن بأن بإمكانه حل أية مشكلة باستخدام قبضة يده. وفى رواية أخرى صدرت عام ١٩٥٠ بعنوان One-dog Man، يتناول كمال مذكرات كلب ما. أما "المشلوح" The Excommunicated الصادرة عام ١٩٥٢، فرواية رومانسية مثيرة تدور أحداثها فى شنغهاى بالصين ... هذا، وقد اشترك فى تأليفها مع "تشارلز غوردون بووث"، وهو كاتب بريطانى عاش لسنوات فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية، يكتب الروايات البوليسية وسيناريوهات الأفلام. أما مراجعات الكتب فكانت إيجابية تقريظية حيث طلب إلى كمال القيام بكتابة سيناريو لبعض الأعمال ... وقد شهد كمال ازدهار مساره الروائى وانتعاشه، إلا أن أزاهير ذلك المسار قد صوحت. فقد شهدت رواية "المشلوح" نهاية ذلك المسار ... وكأنما قد اختفى ذلك الروائى عن أنظار الجمهور.

إلا أنه، وبعد مضى نحو عامين - أصدر كمال كتابا جديدا كان له دلالة

على انخراطه فى المهام الاستخباراتية التى نيطت به. أما الكتاب "الرحلة المقدسة: الحج إلى مكة"، فقد صدر - فى البداية - باللغة العربية. وفيه سعى كمال إلى وصف الحج وصفا دقيقا واسع الأفق قدر المستطاع. ولم يظهر الكتاب بالإنكليزية إلا فى عام ١٩٦١ . هذا، ويبدو التأخير مستغربا، خاصة وأن كمال قد أعلن فى عام ١٩٥٣ بصحيفة Saturday Evening Post فى عددها المؤرخ ١٩٥٣/٩/٢٦ أنه يكتب كتابا عن مكة. ولربما تعلق الأمر بنبرة الكتاب، فأعمال كمال السابقة كانت قصص مغامرات، أما "الرحلة المقدسة" فكانت عملا أقرب ما يكون إلى نسج أنثروبولوجى، خاصة فى تمسكه الصارم بتحرى الدقة المتناهية فى وصفه لرحلة الحج إلى مكة يوما بيوم. إن "الرحلة المقدسة" حين مقارنتها بأعمال كمال الأخرى لعمل يبعث على الملل والضجر ... فهى إيراد جاف للحقائق. لذا، فلم يثر الكتاب شهية الناشرين بنيويورك ليتم إصداره بواسطة دار نشر متواضعة هى Duell, Sloan and Pearce.

وفى كلمته بالنسخة الإنكليزية من "الرحلة المقدسة"، ذهب كمال إلى أنه قد كتب مسودة العمل حين كان يقيم فى "باندونغ" ... المدينة الإندونيسية التى استضافت مؤتمر دول عدم الانحياز عام ١٩٥٥ . وفى أحد ملصقات "جماعة الإسلام" كان الزعم بأن الجماعة كانت تستخدم العاصمة الإندونيسية "جاكارتا" قاعدة لدعم الثوار. ولربما كان ذلك هو حقيقة الأمر، أو لعل كمال قد كان، بالمقابل، يراقب الجماعات الإسلامية لحساب أجهزة الاستخبارات الأمريكية، على الأرجح. فقبل مغادرته الولايات المتحدة قاصدا "باندونغ"، أخبر كمال أحد أصدقائه أنه ذاهب ليعمل هناك لصالح حكومة الولايات المتحدة الأمريكية. وقد أظهر ملف كمال لدى مكتب التحقيقات الفيدرالية دينا قيمته ١٨٧٧,٤٠ دولار أمريكى مستحقا عليه لصالح سفارة الولايات المتحدة بجاكارتا نظير أموال كانت الحكومة الأمريكية قد

أمدته بها لقاء نفقات انتقالاته ... إذا، كان كمال متعاونا مع المسئولين الأمريكيين قبل مغادرته أرض الوطن.

كانت تلك رؤية الاستخبارات الألمانية للأحداث. إذ حوت ملفات "فون منده" لعام ١٩٥٥ تقريرا عن إندونيسيا ... تلك الدولة الشابّة التى كانت - آنذاك - ساحة حرب تنافست فيها الأحزاب المؤيدة للشيوعية وتلك المناهضة لها طمعا فى إحراز الغلبة وفرض السيطرة. أما الأحزاب المناهضة للشيوعية فكانت تضم كتلة إسلامية تحت قيادة وزير حكومى سابق عمد إلى توظيف أموال كان يخفيها بأحد البنوك السويسرية فى تمويل أعمال تخريبية وجهت ضد مؤيدى الشيوعية. ووفقا للاستخبارات الألمانية، لم يكن رجل الاتصال بالخارج خاصة ذلك الوزير سوى أحمد كمال. هذا، ويورد التقرير المذكور تعرض كمال لمحاولتى اغتيال فى "جاكارتا" رحل بعدهما قاصدا برشلونة الإسبانية.

والشئ اللافت أن التقرير قد أورد أن كمال قد رفض عرضا للعمل مباشرة لحساب وكالة الاستخبارات المركزية، وذلك لإيمانه بأن الوكالة تعانى اختراق العديد من العملاء السوفييت لها. ثم أعقب ذلك قيام الحكومة الأمريكية بالتقدم بعرض آخر سألت فيه كمال العمل مباشرة لحساب "ريتشارد نيكسون" - نائب الرئيس الأمريكى آنذاك، والذى كان يترأس أيضا مجلس الأمن القومى الأمريكى. ووفقا لتقرير الاستخبارات الألمانية، وافق كمال على العرض المقدم. وفيما قد تبدو تطورات الأحداث تلك عصية على التصديق، فإن مجلس الأمن القومى الأمريكى قد كان يشرف على المهام الاستخباراتية والحرب النفسية من خلال "مكتب الاستراتيجية السيكولوجية"، وخليفته "مجلس تنسيق العمليات". هذا، وقد يكون التقرير الاستخباراتى قد عمد إلى تبسيط تراتبية هيكل الأوامر ليضع أحمد كمال مباشرة تحت نفوذ "ريتشارد نيكسون". وبالرغم من خلو أرشيف "مكتب

الاستراتيجية السيكولوجية"، و"مجلس تنسيق العمليات" من أى ذكر لأحمد كمال ... فإن ذلك لأمر معتاد غير مستغرب، إذ يعمد على الدوام إلى محو أسماء العملاء وإزالتها من الوثائق كافة، حتى تلك التى قد صودق على الإفراج عنها والسماح بنشرها. ومن المؤكد أن أحمد كمال كان يقوم بتنفيذ الأهداف الأمريكية فى إندونيسيا. فإلى جانب قيامه بمساعدة المتمردين المناهضين للشيوعية، عمد كمال إلى استخدام نفوذه وسطوته لدى الحكومة لإلغاء انعقاد مؤتمر "باندونغ" لتجمع دول عدم الانحياز، وذلك وفقا لتقرير الاستخبارات الألمانية. هذا، وكان أحمد كمال موجودا فى "باندونغ" فى الفترة التى شهدت انعقاد المؤتمر، إلا أنه لم يمكث سوى يوم واحد، وذلك لاعتبارات أمنية.

وكان كمال، فى هذه الأثناء، يحيا فى إسبانيا والتى كانت تحت رئاسة الجنرال "فرانكو" آنذاك ... حيث قام أفراد أسرته بتعلم اللغة الإسبانية، كذا فقد قام ابنه، "طوران"، بتعلم دروس الموسيقى على يد عازف "الغيتار" الإسبانى الشهير "اندرية سيغوبيا". ولعل إسبانيا كانت تبدو اختيارا غريبا للعيش بها، بيد أن الاستخبارات الأمريكية كان لديها ارتباطات واسعة وعملاء كثر هناك. فعلى سبيل المثال، كان لراديو الحرية محطة بث إذاعى كبيرة هناك. وقد عمد كمال إلى استخدام إسبانيا قاعدة آمنة له. أما الهدف ... فكان دعم الانتفاضات على امتداد ساحل البحر المتوسط فى بلدان شمال إفريقيا، فضلا عن دعم مسلمى ميونيخ. ولإنفاذ ذلك الهدف، كان كمال بحاجة إلى شخص وفى مؤتمن يقوم مقامه وينوب عنه أثناء غيابه.

نشأ "تهامى بن أحمد الواحلة" فى عائلة جزائرية كبيرة ... وحين بلغ الرابعة عشرة أرسله أبوه لكى يمتهن عملا. ولشغفه بالأرقام والرياضيات وإجادته لهما، فاز تهامى بمنحة لدراسة تصميم الطائرات فى فرنسا عام ١٩٤٩ . وهناك ...

شرع الفتى فى التواصل مع غيره من الطلبة الجزائريين ليدرك أن عليه المساعدة فى جهود تخليص بلاده من ربقة الحكم الكولونيالى الفرنسى. ثم أخذ تهامى يعمل رسولا حيث كان ينتقل ما بين السويد وفرنسا ليستلم الملصقات والمنشورات الدعائية من جبهة التحرير الوطنى. وفى عام ١٩٥٦، سلك تهامى طريقا مختصرة خلال رحلة عودته من السويد إلى مرسيليا الفرنسية مخترقا الأراضى السويسرية ... إلا أن شرطة الحدود السويسرية كانت ترقب وصوله ليزج به فى أحد سجون سويسرا.

وسرعان ما تأتى النجدة ... من أحمد كمال. فبعد سماعه من بعض أفراد جبهة التحرير الوطنى باعتقال تهامى، قام كمال بالاتفاق مع أحد المحامين لتمثيله والدفاع عنه. وقد نجح ذلك المحامى فى تصوير تهامى كضحية الحماسة الشديدة إلى حد الهوس التعصبى للنائب العام السويسرى "رينيه دوبوا" (الذى قام بالانتحار عام ١٩٥٧ بعد الكشف عن قيامه بالتجسس على السفارة المصرية فى العاصمة السويسرية "برن" لصالح فرنسا). وفى الأول من كانون الثانى/ يناير ١٩٥٧، تم إطلاق سراح تهامى الواحلة ليسافر رأسا صوب المملكة الليبية، وذلك أيضا بفضل جهود أحمد كمال.

وفى اللقاء الذى جمعنى به فى الثلاثين من تموز/ يوليو ٢٠٠٦ فى بيته بمونتليمار بجنوب شرقى فرنسا، قال الواحلة: "لم نتمكن أنا وأحمد كمال من التواصل، إذ لم يكن كمال يتحدث إلا نزرا يسيرا من الفرنسية والعربية، ولم أكن أنا أتحدث الإنكليزية. لذا، فقد قال لى ... يا تهامى! إذا كنا سنتواصل شفاهة، فعليك بتعلم الإنكليزية".

هذا، وقد استصدر كمال جواز سفر ليبيا لتهامى، ثم أرسله إلى "لندن" لتعلم

الإنكليزية. وكان من الممكن أن يبقى تهامى يتخبط على غير هدى فى مدينة أجنبية كلندن لا يعلم كيف التحدث بلسان أبنائها، ولكن كمال كان قد تدبر الأمر، فأرسل "جيمس برايس"، ممثل "جماعة الإسلام" فى واشنطن إلى تهامى فى لندن ليساعده فى تدبير شئونه. هذا، وقد أمضى تهامى وبرايس يومين أو نحوهما فى فتح بعض الحسابات المصرفية، واستئجار إحدى الشقق السكنية لتهامى، فضلاً عن إدراج اسمه بأحد فصول تعلم الإنكليزية. بل لقد اصطحبه برايس إلى متاجر "ماركس آند سبنسر" الشهيرة لشراء بذلة ومظلة. وبمضى الوقت، قام كمال بتدريب تهامى على كيفية إدارة مؤسسة ما. وهنا يقول تهامى واصفا كمال: "كان رجلا شديد الحزم، بيد أنه كان دبلوماسيا. لم يكن ليصيح أو يرفع صوته صاخبا، وإنما كان المرء يدرك ما يتحتم فعله. كانت تلك شخصيته ... وكان ذلك أسلوبه".

وتمضى الأيام ... ويصبح أحمد كمال معلما لتهامى الواحلة – الذى جعل أولاده الصغار يصحون عند السادسة صباحا ليرددوا عبارات عربية وإنكليزية وإسبانية فى ممارسة استظهارية من دون فهم، وذلك لساعة أو نحوها قبل توجههم إلى مدارسهم، وذلك لكونه يذكر أن أحمد كمال كان يتبع الأسلوب ذاته فى تعليم أبنائه فى مدريد. وهكذا، أضحى تهامى واحدا من أكثر رجال كمال الموثوقين، حيث تم إرساله إلى إيطاليا فلبنان فالنمسا، ثم إلى ميونيخ. وكان تهامى يتوخى الحيطة والحذر فى كل ما كان يقوم به. ففى لبنان، زعم الرجل أنه كان يشرف على فصول للحياكة ... تلك الفصول التى كانت حصيلة أعمالها ترفد اللاجئين فى الجزائر.

إلا أن صحافيا فرنسيا ينتمى إلى تلك الحقبة قد رأى الأمر على نحو مغاير ... إنه "سيرج برومبيرجيه" مراسل "الفيغارو" الفرنسية، ومؤلف كتاب "الثوار الجزائريون" (باريس ١٩٥٨)، والذى كتب أن "جماعة الإسلام" لم تكن إلا ستارا

لتمويل حركات التمرد من إندونيسيا شرقا إلى الجزائر غربا. وحين وقع العدوان الثلاثى على مصر عام ١٩٥٦، لم تستطع مصر وقتها إمداد جبهة التحرير الوطنى بالسلاح. وهنا يأتى دور "جماعة الإسلام" لترسل السلاح إلى جبهة التحرير، ومن ثم فقد كانت فصول الحياكة فى لبنان تلك ستارا لعمليات تهريب السلاح. ومن المؤكد كون هذا السيناريو يتطابق مع الإطار الزمنى العام آنذاك، ومع الحماسة غير المنقطعة من قبل أحمد كمال لقضايا المسلمين واهتماماتهم. كذا، فلم يكن السيناريو مناقضا لأهداف الولايات المتحدة الأمريكية ... فكثير من رجال السياسة فى واشنطن كانوا يرون ضرورة أن ترحل فرنسا عن الجزائر، ولم يكن يعنيهم - فى الغالب - كون أحمد كمال موآزرا لجبهة التحرير الوطنى. ولكن تبقى معضلة فيما يتعلق بسيرج برومبيرجيه ... تلك المرتبطة بتحرى الدقة، إذ كان لا يفرق بين "جماعة الإسلام" وبين التنظيم الباكستانى الأوفر شهرة والأوسع صيتا، وهو "الجماعة الإسلامية" ... وقد ورد هذا الخلط فى كتابه المذكور آنفا. كذا، فلم ينهض أى دليل يؤيد ما قدمه من أطروحات. فكما ذهب الكاتب والمترجم "نيفيل باربور" فى مراجعته للكتاب ... تلك المراجعة التى وردت فى دورية Foreign Affairs - السنة ٣٠: العدد ١ (كانون الثانى/يناير ١٩٥٩)" - فإنه يصعب أن يكون المرء على يقين دائما مما يعد حقيقة، ومما يعد خيالا".

إن الواحلة لينكر - صراحة - أن تكون "جماعة الإسلام" قد أرسلت سلاحا إلى الجزائر، إلا أنه لا يستبعد إمكانية أن تكون أموال "أحمد كمال" قد استخدمت لشراء أسلحة، إذ يقول: "لم يقم أحمد كمال بجمع الأموال مباشرة من أجل شراء السلاح، بل لأغراض إنسانية ..." ليهز كتفيه استهجانا. أما "وكالة الاستخبارات المركزية"، فقد ذكر الواحلة أنها كانت على علم تام بممارسات "جماعة الإسلام"، ويقول: "إن الوكالة كانت تقوم بمراقبة كمال على الدوام".

ثم سألته عن ردة فعل كمال.

"لقد عمد إلى حيلة جد بارعة ... لقد طلب إلى أحد عملاء الوكالة أن يعمل لحسابه".

"فمن كان ذلك العميل؟" سألته مستفسراً:

"لقد كان جيمس برايس".

لتزداد دهشتى ... "جيمس برايس ...؟! ممثل جماعة الإسلام الذى أرسله كمال إليك فى لندن؟! عجباً، أيعمل رجل بوكالة الاستخبارات المركزية لحساب كمال؟!"

"أجل" ... أجابنى الواحلة ... "إلا أن ذلك لم يكن ليعنى شيئا لكمال الذى قال: "لا يوجد لدينا ما نعمد إلى إخفائه. بإمكانك أن ترسل من شئت ليعمل لدينا ويرى كل ما نقوم به ... كل شئ ... هلم انظر ما نقوم به وأخبر رؤساءك ... عندها سنعلم أننا لا نخفى شيئا ألبتة"".

ذلك احتمال قائم، إلا أن ثمة احتمالا آخر وهو أن كمال كان يعمل بالفعل لحساب "وكالة الاستخبارات المركزية"، وأن جيمس برايس كان يحل محله حين تقتضى الضرورة. هذا، وقد عمل برايس لاحقا بمكتبة الكونغرس الأمريكى، حيث قام بكتابة تقرير رائع عن "راديو الحرية" بعد أن انكشفت العلاقة التى ربطت الراديو بوكالة الاستخبارات المركزية. ومن الجلى أن برايس قد كانت له روابط وثيقة مع المسئولين بميونيخ ... أبدى العاملون بأمكومليب ارتياحهم حين علموا أن برايس يقوم بكتابة التقرير، وتظهر المواد الأرشيفية أنه قد ناقش التقرير معهم عن طريق خطاباته المرسلة إليهم، وذلك قبل نشر التقرير. إلا أن القضايا الكبرى كانت عصية على أن يتيقن المرء بشأنها، ومن ثم صعوبة إثبات وقوعها بالفعل: فوكالة

الاستخبارات المركزية ترفض أن تفرج عن أية بيانات خاصة بجماعة الإسلام، مشيرة إلى كون الأمر شأنا من شئون "الأمن القومى" بما يعد استثناء من "قانون حرية المعلومات" ... أما برايس، والذى لا يزال على قيد الحياة، فقد رفض أكثر من طلب لى لإجراء حوار معه.

قدم تهامى الواحلة ميونيخ فى الوقت الذى كان الإرهابيون المؤيدون للنهج الفرنسى يستهدفون رجال الأعمال من ألمانيا الغربية لبيعهم الثوار الجزائريين أسلحة وعتادا. ففى السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠، ركب رجل الأعمال البافارى "فيلهلم بايزنر" سيارته ... وما أن أدار محركها حتى انفجر انفجارا مدويا كاد الرجل معه أن يقذف به من خلال سقف السيارة ... ذلك أن قنبلة قد تم تثبيتها فى محرك السيارة لتنفجر وتمزق رجليه وتصيب بعض المارة. هذا، وقد أفلت "بايزنر" من الموت بأعجوبة ... ولكن الرسالة كانت واضحة جلية: يجب على رجال الأعمال الألمان أن يكفوا عن بيع السلاح لمتمردى شمال إفريقيا المسلمين المناهضين لفرنسا". هذا، وقد كانت اليد الحمراء La Main Rouge وراء الحادث ... واليد الحمراء هى عصابة إرهابية قامت بتكوينها أجهزة الاستخبارات الفرنسية، عصابة عمدت إلى اغتيال أكثر من ٢٠٠ شخص منهم ١٣٥ فى سنة ١٩٦٠ وحدها، حيث كانت تنشط فى بلدان المغرب العربى وأكثر من خمس دول أوروبية. لقد كان "بايزنر" أحد أشهر تجار السلاح الألمان سيئى السمعة، حيث كان فيما قبل مسئولا نازيا بارزا ... وهو الرجل الذى اعتقد الدبلوماسيون الأمريكيون أنه يرفد متمردى شمال إفريقيا بالأسلحة والعتاد الحربى. أما تهامى الواحلة، فقد نفى عن نفسه تهمة تصدير السلاح، إذ قال إن وجوده كان ليحل محل "أحمد بلاغى" ممثل "جماعة الإسلام" بميونيخ، والذى تم الزعم كونه قد أخبر الألمان بأن "الجماعة" ما هى إلا ستار لأنشطة سرية.

وعلى مدار عام ١٩٦١، شرعت "جماعة الإسلام" تأتى بمزيد من أفعال غير متوقعة. فخلال العام المذكور، أوقفت الجماعة نشاطها فى الأردن، حيث ذكرت فى نشرة لها أن المملكة قد حظرت الجماعة لقيام أفرادها بالتعاون مع هيئات خيرية يهودية ... على أن ذلك كان منافيا للحقيقة، إذ خلت الملفات الحكومية الأمريكية من أية إشارة تفيد حظر الأردن لأية هيئة خيرية أمريكية. بالمقابل، فإن أحمد كمال ربما يكون قد استبعد لنشاطه لصالح القوميين الفلسطينيين. ففى العديد من كتاباته، أوضح كمال أنه كان يدعم الفلسطينيين ويمد لهم يد العون ... الأمر الذى ربما قد أزعج المملكة الأردنية التى كانت تخطط لتلحق الضفة الغربية بها، وبالتالى فلن تشعر بارتياح تجاه جماعة تنافح عن الحقوق الفلسطينية وتدفع بها قدما. كذا، فقد كان لكمال علاقات وثيقة بأمين الحسينى، مفتى القدس، إذ طلب إليه كتابة تقريظ لكتابه "الرحلة المقدسة"، كذا فقد قام باستئجار رجل يدعى "محمود موفتيتش" وهو جندى بوسنى سابق حارب ضمن صفوف أسراب الدفاع النازية، وتربطه بأمين الحسينى علاقة وثيقة ... و"محمود موفتيتش" هذا كان يخاله "فون منده" رجل أمين الحسينى فى ألمانيا. تلكم التفسيرات تبدو أكثر إقناعا بشأن المشكلات التى واجهت "جماعة الإسلام" من تلك الذاهبة إلى وجود روابط تصلها ببعض الجماعات اليهودية.

أما فى أواخر عام ١٩٦١، فقد أرسلت "جماعة الإسلام" خطابا غاضبا لجميع أعضائها أوردت فيه: "أنها – وعلى امتداد سنوات قلائل قد انصرمت – كانت متروية حذرة، حيث عمدت إلى أن تكون متحفظة فى سلوكها ونهجها، وبخاصة إزاء الكنائس" ... بيد أن الجماعات الدينية الغربية قد قاومت "جماعة الإسلام" بازدراء. وذكر الخطاب الغاضب أن "الظروف قد أجبرت جماعة الإسلام على الاعتراف بأن تحفظها، إجمالا، كان نهجا خاطئا". كذا، فقد ذكر الخطاب أن "مجلس إدارة الجماعة قد اجتمع فى السابع عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦١ بفندق

شيراتون نيويورك حيث قرر أحمد كمال أن الجماعة قد تراجعت عن تعهدها بالامتناع عن اللجوء إلى الممارسات المتطرفة". كذا، فقد حذرت "جماعة الإسلام" السلطات الغربية ونصحتها بانتهاج تكتيكات مغايرة لئلا تخسر دعم الشعوب الإسلامية ومساندتها ... وفى اليوم التالى مباشرة عقب ذلك الخطاب، أعلنت الجماعة استبعادها لأحمد بلاغي، وذلك لأسباب قانونية - على أن يتم العمل بهذا القرار على الفور.

ومن وجهة نظر عوام بيروقراطى بافاريا، فإن ممارسات "جماعة الإسلام" تعد غير مفهومة. فنظرا لكون أحمد بلاغي شديد الحماسة والنشاط، أمن الجميع بأن الجماعة تدير مشروع بناء مسجد ميونيخ. فتلال الخطابات وسيل الزيارات والأنشطة الدعائية لبلاغى قد جعلت مسئولى بافاريا يخالون أنهم يتعاملون مع منظمة إسلامية كبرى، لا جبهة عمليات يديرها رجل واحد. لقد وثق الألمان بأحمد بلاغي، ذلك الجندى السابق بإحدى الوحدات "المسلمة" إبان الحرب الكونية الثانية. إن المسئولين قد كانوا محقين فى ارتيابهم بشأن تصرفات "جماعة الإسلام" .. وقد تزامن طرد أحمد بلاغي مع تحلل الجماعة وانفراط عقدها.

هذا، وقد عمدت واشنطن - ربما بدافع من سعيها لكبح جماح أحمد كمال، أو ربما بمحض المصادفة - إلى إصدار الأمر بفحص مستندات إدارة "جماعة الإسلام" لبرنامج الولايات المتحدة للاجئين ... فالجماعة قد حملت برنامج اللاجئين نفقات ملصقاتها ومنشوراتها، وكذا بإعلاناتها عن سيرتها وتاريخها الطنان، وآن الأوان لرد تلك النفقات، فضلا عن نصف راتب المدير الأوروبى والأموال التى استخدمت وقيدت كنفقات إدارية ... وهى نفقات لا تمت بأدنى صلة إلى اللاجئين.

أما مسئولو ميونيخ المعنيون بالأمر، فقد كان يتم إعلامهم بتطورات الموقف أولا

بأول حيث لجأوا فى النهاية لفون منده التماسا للمساعدة، حيث قام باستدعاء أحمد بلاغى وخليفته تهامى الواحلة - كل على حدة - إلى دوسلدورف. أما الواحلة، فقد أتى بدعاوى فارغة لا سند لها، إذ زعم أن بلاغى شخص فاسد. أما بلاغى فقد أورد أن "جماعة الإسلام" قد زعمت أن ثمة أربعة آلاف لاجئ قد عمدوا إلى الاستيلاء على بعض أموال برنامج الولايات المتحدة للاجئين، فى حين أن حقيقة الأمر هى كون عددهم الفعلى أربعمائة لاجئ فحسب. كذا، فقد قام بلاغى بتحذير المسئولين البافاريين بأن يكفوا عن تمويل "جماعة الإسلام" ... ذلك "لأنها ستعمد إلى قصر استخدام الأموال على أغراض البروباغندا الخاصة بها، بما فيها الدعايات المناهضة للمسيحية." أما "فون منده"، فقد كتب مذكرة ذهب فيها إلى أن أحمد بلاغى قد تم فصله، على الأرجح، بسبب كونه أكثر ولاء للألمان من ولائه للأمريكيين. وكأنما ليشدد على تلك النقطة، عمد "فون منده" بعدها بأيام قلائل إلى كتابة خطاب مفاده اعتزام أحمد بلاغى افتتاح مطعم صغير للمسلمين، ورغبته فى التعاون مع مسئولى ألمانيا الغربية فى رفدهم بأية معلومات قد يطلبونها.

وفى الأول من آذار/ مارس ١٩٦٢، أعلنت "جماعة الإسلام" إعلانا غريبا آخر مؤداه أنه بعد عامين فقط من نشاط "الجماعة" بألمانيا، فإنها قد اعتزمت على الرحيل عن البلاد لتحول مسارها صوب إفريقيا جنوب الصحراء. ونظرا لكون القرار نافذا من فوره، فإن "الجماعة" ستغلق جميع مكاتبها لتنوه بأن أية مراسلة مستقبلية يمكن توجيهها إلى "سان فرانسيسكو" بالولايات المتحدة الأمريكية. وعندها ... شعر المسئولون الألمان والأمريكيون بالارتياح فتنفسوا الصعداء. وفى السابع من الشهر ذاته، أرسل "المجلس الأمريكى للوكالات الطوعية" خطابا إلى نظيره الألمانى جاء فيه: "إننا نؤمن بأن كلينا قد تخلص من هم مشترك". بيد أن "جماعة الإسلام" لم تنقل نشاطها إلى إفريقيا، بل لقد تلاشت فلم يعد لها وجود

ثابتة ... إذ رحل تهامى الواحلة إلى الجزائر لينضم إلى حكومة جبهة التحرير الوطنى، وبعدها بسنوات قلائل يرجع أحمد كمال إلى كاليفورنيا ليستأنف أنشطته السرية.

إنه لمن العسير معرفة ما يمكن الخلوص إليه من تلك الأقاصيص الغريبة. فمن الأرجح أن يكون أحمد كمال قد آمن بالنزعة التبشيرية لجماعة الإسلام بصفتها أداة للخلاص والتحرر، فضلا عن إيمانه بدوره كمنقذ ومخلص للمسلمين المضطهدين أينما كانوا ... كذا، فمن الأرجح أن يكون كمال مؤمنا بأن الاستيلاء على الأموال الأمريكية هى وسيلة مشروعة لمساعدة الشعوب الإسلامية. وربما حين أضحت نشاطاته جد غريبة، محرضا على الإثارة فى الضفة الغربية أو رافدا الجزائر بكميات كبيرة من الأسلحة - أن عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى نفض يديها منه. إلا أن حقيقة الأمر هى أن أحمد كمال لم يكف عن التعاون مع الاستخبارات الأمريكية، وأنه - بطريقة أو بأخرى - قد ساعد الولايات المتحدة بعرقلة مساعى "سعيد رمضان". ولربما كان دور كمال فى ميونيخ أشبه ببوليصة تأمين - أو بالأحرى خطة بديلة يتم اللجوء إليها حال فشل رمضان فى تحقيق مهامه. أما بحلول عام ١٩٦١، فإما أن يكون أحمد كمال قد أضحى غير ذى أهمية - فلم تعد تعن الحاجة إليه مجدداً، وإما أن يكون قد أفلت زمامه فأصبح عصيا على الترويض أبيا على التدجين. وعلى أية حال، فقد طويت تلك الصفحة إلى الأبد، وأضحت "جماعة الإسلام" أثرا بعد عين.

وبسقوط أحمد كمال، صار الألمان يتلقون النبأ السار تلو الآخر. إذ كتب أحمد بلاغى يخبر فون منده بأن الجنود السابقين قد ضاقوا ذرعا بسعيد رمضان، وصاروا يرغبون فى اختيار "على قنطمير" مسئولا عن مسجد ميونيخ ... على قنطمير القوقازى الشمالى، ذلك المحارب القديم والمناضل العتيد الذى يحظى

باحترام واسع النطاق، فضلا عن كونه موضع ثقة فون منده. إن قنطمير لقادر على توحيد الفصائل والشروع فى تشييد بنيان المسجد. أما مخططات رمضان لبناء مسجد جليل مهيب فسيتم التراجع عنها، ليحل محلها موضع أصغر مساحة من الممكن تدبير نفقات إقامته، وذلك لكى يؤدى المسلمون فيه شعائرهم وصلواتهم ... إن الألمان قد اهتزوا طربا ونشوة ... فأخيرا يبدو أنه صار بالإمكان كبح جماح رمضان والأمريكيين - على السواء.

الفصل الحادى عشر

من عساه يفوز بإدارة المسجد ؟

لم يكن لسعيد رمضان منافسون ذوو ثقل يعتد به فى صراعه للسيطرة على مشروع بناء مسجد ميونيخ. فرجال من أمثال "على قنطمير" قد يكونون قد حظوا باحترام فى بلدانهم ومجتمعاتهم، إلا أن الحرب الكونية الثانية كانت قد أوهنت عزائمهم ... فالرجل كان ذا عينين كليلتين لا يكاد يرى بهما، وكان يحيا على بعض مئات من ماركات ألمانية يتحصل عليها لقاء تحريره النسخة العربية من جريدة الأمكومليب ... أما رمضان فكان يذرع أربعة أركان المعمورة سعيا لقيادة ثورة نهضوية إسلامية.

ففى رسالة وجهها إلى أستاذه بتاريخ السادس عشر من تموز/ يوليو ١٩٦٠، كتب رمضان يقول: "عزيزى البروفيسور كيغل ... أكتب إليك وقد عدت لتوى من المملكة العربية السعودية وشرق إفريقيا. لقد كانت رحلة ماتعة للغاية. ففى الصومال، شهدت مولد الجمهورية هناك، وكم كانت فرحتى حين رأيت أصدقائى الصوماليين القدامى ممن كانوا فى المنفى وقد تبوءوا مناصب مرموقة فى الجمهورية الوليدة ... إذ تولى أحدهم منصب الرئاسة، فكان بذلك أول رئيس للبلاد[٩٢]، فى حين تولى صديق آخر منصب رئيس الوزراء[٩٣]". هذا، وقد عاد رمضان إلى أوروبا حيث وجد ناشرا لكتابه، أو بالأحرى أطروحته للدكتوراه، ليذهب بعدها إلى الأراضى الحجازية لتأدية فريضة الحج، ثم يقوم بعدها برحلة قصيرة فى أنحاء أوروبا قبل أن يتجه صوب تركيا وباكستان.

وفى إحدى محطاته الأوروبية عام ١٩٦٠، خاطب سعيد رمضان لجنة بناء

ـسجد ميونيخ ليخبر عن نجاح حملته لجمع الأموال اللازمة. وقد كان لرمضان لقاء شـخصى بالملك سعود بن عبد العزيز، العاهل السعودى آنذاك، والذى تعـهد بمبلغ كبير لبناء المسجد، وكذا الأمر للملك الحسين بن طلال، العاهل الأردنى آنذاك، وعدد ـن رجال الأعمال من المملكة الليبية وتركيا. كذا، فقد أخبر رمضان اللجنة بأنه قد أنشـأ فـروعـا للجنة فى كل من مكة والمدينة وجدة وبيروت – هـذا، ومن الأرجح أن يكون رمضان قد خاطب عددا من القناصل الفخريين[٩٤] لجمع الأموال لبناء المسجد. أما أعضاء اللجنة فقد أبهرهم نشاط رمضان فأجزلوا له آيات الشكر والثناء.

إلا أن البـعض ظل قلقا ... من بينـهم حسن قـصـايب الذى كـان قـائدا لإحـدى كتائب الفرقة ١٦٢ مشاة (التركستانية) إبان الحرب الكونية الثانيـة – والذى ورد ذكره فى مستـهل الكتاب. فـبـعد أن وضـعت الحـرب أوزارها، تزوج قـصـايب من مارغريت دولينغر، وشرع فى تكوين أسرة وأصبح تاجر أبسطة وسجاد. هذا، وكان

قصايب قد قبل بمنصب مدير لجنة بناء المسجد لرغبته فى أن يكون هناك مسجد، فلم يكن الرجل ليركن إلى عوالم الملوك والأمراء، وخفايا التحالفات السياسية السرية غير مأمونة الجانب. وكغيره من أعضاء اللجنة، لم يرد إلى ذهن قصايب كون سعيد رمضان قد قصد الشرق الأوسط ... فكان سؤاله: أنى لرمضان وغالب همت بنفقات رحلة كتلك؟ وكانت إجابة رمضان أن مشروع مسجد ميونيخ له فروع ومكاتب فى العديد من بلدان تكفلت بتلك النفقات ... تلك الإجابة التى انطوت على كون المشروع يحظى بقاعدة عريضة من الأتباع فى العالم الإسلامى، بل ربما بين أتباع جماعة "الإخوان المسلمين". وهنا عمد قصايب إلى التحذير من أن ينزلق المشروع فيضحى شديد التسييس، حيث أعلن لأعضاء اللجنة المجتمعين أن "هدفنا هو بناء مسجد فى ميونيخ، لا أن ننخرط فى السياسة مطلقاً".

هذا، وقد اختمرت تلك القضايا على مدار عام بأكمله (١٩٦٠) ... استأنف رمضان خلاله تكتيكاته من سفرة هنا إلى رحلة هناك متحدثا فى المحافل ومهاجما الشيوعية – كل ذلك باسم لجنة بناء مسجد ميونيخ ومصلحة مسلمى ألمانيا ... فيما يكتب قصايب ونمنقانى إلى وزارة الشئون الاجتماعية البافارية ليسألاها أن تتدخل كيما تعود اللجنة إلى مسارها التى أنشئت من أجله ... بيد أن ذلك قد تزامن مع مباغتة المسئولين البافاريين بقدوم "جماعة الإسلام" المفاجئ ... فلا تلقى خطاباتهما جوابا، ليتأزم الموقف خلال عام ١٩٦١، حيث التقى قصايب فى السادس من شباط/ فبراير مسئولين بافاريين ليخبرهم بأن سعيد رمضان قد أضحى يمثل "مشكلة" لأكثر من سبب. فنظرا لنشاطه السياسى المحموم، كان رمضان شخصا غير مرغوب فيه فى العديد من البلدان العربية. "ورغما عن كونه نجم المشهد الإسلاموى"، كما ذهب قصايب، "إلا أن حقيقة الأمر كانت عدم مقدرته على جمع الأموال اللازمة لبناء المسجد. أما الأموال التى تم التعهد بتوفيرها خلال

موسم الحج الماضى فلم يتم جمعها". وفى رسالة بتاريخ ١٩٦١/٢/١٧ إلى مدير الأمن البافارى "فيلهلم بورمايستر"، ذكر قصايب "أن لجنة بناء المسجد لم يكن لديها فى البنوك سوى ٧٨٨٩٠ مارك ألمانى (نحو ١٤٥٠٠٠ دولار أمريكى بأسعار عام ٢٠٠٨)، أما المشروع بكامله فقد قدرت نفقاته بـ ١,٢ مليون مارك (٢,٢ مليون دولار أمريكى بأسعار عام ٢٠٠٨)". هذا، وقد أعرب قصايب عن أمله فى أن يتم إحلال آخر محل سعيد رمضان.

لقد تزامنت أحداث ذلك العام (١٩٦١) مع إرسال "روبرت دريهر" لرمضان لمقابلة "غرهارد فون منده" ... "فون منده"، الذى كان يفكر فى اقتحام مكتب رمضان ... أما ضابط اتصال "فون منده" بجهاز الاستخبارات الألمانية، "زيغفريد أونغرمان"، فقد أقنعه بأن يهجر تلك الفكرة. كذا، فقد ساعدت بعض القلاقل فى مكتب "فون منده" فى إثنائه عن الفكرة ... تلك التى كانت لتستدعى باى ميرزا هاييت للانضمام، بيد أن هاييت وولى قيوم قد كانا فى شقاق ونفور، إذ قام قيوم بزيارة هاييت فى بيته فى كولونيا ليخبره بأنه على علم تام بنشاطه لحساب حكومة ألمانيا الغربية ليهرع هاييت إلى "فون منده" الذى أسرع بالكتابة إلى ضابط الاتصال خاصته ليعرب عن قلقه من إلمام قيوم بالترتيبات.

أما الرواتب فكانت هَماً آخر لفون منده الذى لم يكن لديه إلا مخصصات مالية هزيلة، وهو ملمح آخر يشير إلى عجز ألمانيا الغربية عن منافسة أمكومليب العملاقة. وقد شكا هاييت إلى "فون منده" من أن مهاراته غير مقدرة رغما عن أنه قد عمل لحساب الألمان منذ مهمته فى عملية "تسيبلين"، التى أرساها "فالتر شيلينبرغ" اعتبارا من عام ١٩٤٢، وكانت مجموعة من الأقليات السوفييتية قد تعاونت مع الألمان إبان الحرب الكونية الثانية ... ففى معرض شكايته، كتب هاييت مخاطبا "فون منده" أن "ألمانيا الغربية لديها أموال طائلة إلا أنها شحيحة فى الإنفاق على

المسلمين ... ثم يُطلب إلى المسلمين أن يظلوا أصدقاء، إن ذلك لأمر عجاب !!".
كذا، فقد كان ولى قيوم دائم الكتابة إلى "فون منده" بشأن ذلك التقتير ... وفى عام ١٩٦١، يفرض "فون منده" لولى قيوم راتبا شهريا مقداره ٤٥٠ مارك ألمانى "تقديرا لخدماته وجهوده السابقة لصالح ألمانيا".

لقد استطاع "فون منده"، أخيرا، جعل قيوم وهاييت يكتبان تقريرا عن سعيد رمضان ... حيث سلطا الضوء على "غالب همت" ساعد "رمضان" اليمنى، والذى سيضحى لاحقا رئيسا لمجلس إدارة المسجد لثلاثة عقود متصلة ليتحول المسجد على يديه مركزا للنشاط الإسلاموى الدولى. لقد كان تأثير "همت" جليا فى بواكير ستينيات القرن العشرين، وذلك للمراقب الأريب فحسب ... حيث كانت فكرته - وكان ما يزال بعد طالباً - أن يدعو رمضان للإمساك بزمام المسجد وإداره دفته عوضا عن "فون منده" والجنود السابقين. أما الآن، فهو أمين خزانة لجنة بناء المسجد، كذا فقد رافق رمضان فى جولته بالشرق الأوسط لجمع الأموال اللازمة لبناء المسجد. وبحلول منتصف عام ١٩٦١، كان "همت" ينظم لقاءات رمضان مع المسئولين البافاريين خلال رحلات الأخير من جنيف قاصدا ميونيخ. كذا، فقد كان همت ملازما لرمضان كظله، وكان يحل محله حين غيابه. هذا، وقد ذهب قيوم وهاييت فى تقريرهما لفون منده إلى أن همت كان يوزع صحيفة لبنانية شيوعية المنزع، هى صحيفة "المجتمع" - حيث أشارا إلى كون همت ذا ميول شيوعية. على أن صحة ذلك الزعم تبقى غير مؤكدة، إلا أنه كان إشارة باكرة إلى كون همت يتمتع بشبكة مصالح وعلاقات دولية واسعة.

وبالرغم من ضآلة حجم أنشطة "فون منده" إذا ما قورنت بأنشطة أمكومليب، إلا أن الرجل قد كان له نفوذ واسع داخل أروقة البيروقراطية الألمانية. وهكذا، شرع مسئولو وزارة الشئون الاجتماعية البافارية فى توجيه أسئلة قاسية لرمضان بشأن

مخاوف الجنود السابقين. ففى أحد اللقاءات، سأله المسئولون عن حجم الأموال التى قام بجمعها بالفعل، فأجاب رمضان بأن المبلغ قد بلغ مليون مارك ألمانى - وهو القدر ذاته الذى ذكره رمضان مرارا - إلا أنه رفض الإفصاح عن المتعهد بمنح تلك الأموال. وحين ذهب المسئولون إلى أن رمضان هو ذاته لب المشكلة - حيث استقطب أفراد المجموعة دون جمع لأية أموال - أجابهم رمضان باستعداده لتقديم استقالته مؤكدا لهم على ضرورة ألا يتم تسييس المسجد.

بيد أن المسجد كان قد سيس بالفعل. فالمسجد الذى أراده الألمان مشروعا سياسيا بادئ الأمر، قد أضحى الآن منقسما على نفسه تتجاذبه المصالح المتنافسة. فعلى مدار عامين كاملين ... ظل الطلبة العرب يحطون من قدر الجنود السابقين، وبخاصة نور الدين نمنقانى - الذى نال نقدا حادا لاذعا، فضاق ذرعا فى نهاية الأمر ليرسل خطابا موجزا فى السابع من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦١ إلى رمضان طالباً إعفاءه من منصب نائب رئيس مجلس إدارة لجنة بناء المسجد. هذا، وقد وصف نمنقانى اللجنة بأنها لجنة تفتقر إلى القدر اللازم من الاحتراف، كذا فقد وجه سهام النقد إلى رمضان لعدم إيضاحه لرحلته لجمع الأموال إيضاحا بينا، بل ذهب إلى كون رمضان قد هدده بأن يقاضيه حين أثار هذا الأمر فى الماضى. وكانت اللجنة تستعد لعقد اجتماعها فى أواخر تشرين الثانى/نوفمبر ١٩٦١، لذا طلب نمنقانى إلى رمضان الحضور والإجابة عن الأسئلة بشأن رحلة جمع الأموال. هذا، وقد شهد الاجتماع نهاية الصراع الدائر للسيطرة على مقدرات المسجد.

وأخيراً، وبعد عديد من إرجاءات وإلغاءات، اجتمعت لجنة بناء مسجد ميونيخ فى السادس والعشرين من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦١ ... حيث انعقدت اللجنة بكامل قوامها المكون من ثلاثين من الجنود السابقين والطلبة. أما سعيد رمضان،

فقد ألقى كلمة مطولة برر فيها أنشطته التى تضاربت الآراء بشأنها بوصفه رئيس مجلس إدارة اللجنة ... حيث قال إن الأموال ترد تباعا فما إن يستكمل التمويل حتى يُشرع فى بناء المسجد. ثم قام رمضان بالكشف عن شخصية ممول بناء المسجد الذى تبرع بمليون مارك ألمانى، فكان رجل أعمال سعودى الجنسية. إذا، فبفضل ذلك المبلغ إلى جانب موجات من تبرعات أقل، ستكون اللجنة قد مضت أشواطا بعيدة على طريق تحقيق هدفها. إلا أن العديد من أعضاء اللجنة قد خامرتهم هواجس وشكوك، إذ تدوول أن غالب همت كان قد فقد الإيصالات الدالة على التبرع خلال رحلة الحج فى العام السابق بما يشير إلى قيامه بإصدار الإيصالات واستلام الأموال ليزعم أنه قد فقد الإيصالات. ووفقا لهذا، يكون بإمكان همت الزعم بفقدان الإيصالات، ومن ثم الاستيلاء على مبالغ بقيمة الإيصالات التى زعم أنه فقدها. إلا أن همت قال إنه لم يفقد سوى بضعة إيصالات فارغة لم تدون بها أية مبالغ. كذا، فقد طلب الجنود السابقون إلى أعضاء اللجنة، همت ورمضان، شرح كيفية قيامهما بتمويل الرحلة إلى الشرق الأوسط - وإيراد هوية الشخص أو الجهة الداعمة لهما.

عند ذلك، عمد رمضان إلى حيلة سياسية بارعة. فعوضاً عن الامتناع عن الإجابة عن أية أسئلة، تقدم رمضان باستقالته وانسحب. فإذا لم يكن قد نال التقدير اللازم، إذا فلا بأس من الاستقالة. وهنا قامت اللجنة بإجراء تصويت لاختيار رئيس مجلس إدارة جديد حيث قام الطلبة بالتصويت لصالح رمضان غيابيا. إلا أن هذه المرة قد شهدت رسوخ قدم الجنود السابقين حيث توافدوا زمرا. أما التضارب بشأن موعد انعقاد الاجتماع - حيث كان من المقرر له أن يعقد فى تشرين الأول/ أكتوبر، ثم أرجئ الموعد إلى بدايات تشرين الثانى/ نوفمبر، ثم أخيرا إلى السادس والعشرين منه - فقد كان فى غير مصلحة الأعضاء حديثى

السن من جماعة "الإخوان المسلمين" الذين كانوا متفرقين - أنذاك - على امتداد الجنوب الألمانى. فبدلا من الفوز بتفويض جديد للمنصب على نحو ما كان رمضان يرمى، إذ به يخسر بفارق صوتين اثنين ... ليحل محله على قنطمير - المحارب القوقازى الشمالى العتيد ليضع بذلك رجال "فون منده" مرة أخرى فى دائرة الممسكين بزمام مشروع المسجد والمسيطرين عليه. وفى تلك الأثناء، كان رمضان قد عاد إلى الاجتماع متوقعا أن يشهد إعادة انتخابه ... فلما رأى ما حدث، هاج وماج، وانصرف قاصدا الفندق المجاور حيث يقيم. هذا، وقد زعم رمضان أنه كان ضحية مؤامرات ومكايد حيكت ضده، ليقصد جنيف فى اليوم ذاته. لقد بدا أن رمضان يخسر الأصدقاء فى الشرق الأوسط - فقبل شهر فحسب من تلك الأحداث، عمدت المملكة الأردنية إلى سحب جواز سفره الدبلوماسى، حيث كانت تسعى، آنذاك، إلى ترميم علاقاتها مع مصر - والآن قد باءت خطته لإقامة مركز فى ميونيخ قوامه كوادر طلابية مثالية بالفشل. إلا أن رمضان لم يكن ضعيفا كما كان يبدو ساعتها. أجل ... لقد فاز قنطمير فى التصويت، إلا أن لائحة اللجنة ونظامها الأساسى قد استلزما فوز المرشح لمنصب رئيس مجلس الإدارة بغالبية ثلثى الأصوات كحد أدنى. وبالرغم من كون رمضان لم يحشد جميع الطلبة لحضور الاجتماع، إلا أنه قد استقطب أصواتا تكفى لمنع قنطمير من الفوز بالمنصب. كذا، فلم يدرك رمضان الخطأ الذى حدث حتى قام بيروقراطى ألمانى ثاقب النظر بالتعقيب كتابة فى هامش محضر الاجتماع "إن نصاب ثلثى الأصوات لم يكتمل". إذا، فقد أخفق قنطمير فى الفوز فى التصويت ... ليبقى رمضان رئيسا لمجلس إدارة لجنة بناء المسجد.

أدت الوقائع السابقة إلى إنهاء وجود الجنود السابقين فى لجنة بناء المسجد، إذ قرروا أن ليس بإمكانهم هزيمة رمضان. أما حسن قصايب، فقد استقال من

منصبه كسكرتير للجنة، وأما الجنود السابقون فقد أبوا أن يشاركوا فى أية أنشطة لاحقة ... الأمر الذى جعل زمام اللجنة فى أيدى الطلبة، وكذا فى أيدى الأمريكيين على ما كان يبدو. ويا للمفارقة ... فقد انتهى النفوذ الألمانى على مقدرات اللجنة نتيجة ملاحظة فنية لم ينتبه إليها إلا بيروقراطى ألمانى. لقد دأب "فون منده" على استغلال بيروقراطيى بافاريا لاجتذاب نور الدين نمنقانى لتشكيل جماعته وتعبيد الطريق أمام بناء مسجد ميونيخ، وقد حدته آمال لخلق جبهة من المسلمين ذوى ولاء للأهداف السياسية الألمانية ... أما الآن، فقد تم تجاوزه بواسطة لاعب أكثر حذقا وأوفر مهارة.

إن الخطأ الذى ارتكبه "غرهارد فون منده" كان ارتكانه بشدة إلى أناس ذوى ماض مشين: العاملين السابقين فى الأوستمنستريوم. إن المهام السابقة لأولئك العاملين كانت ضمانة بأنهم سيكونون أوفياء لفون منده والقضية الألمانية، إلا أن أنشطتهم النازية قد أكسبتهم سوء الأحدوثة، إذ لطخت سمعتهم، ولم يعد - بالتالى - ممكناً الوثوق بهم. ففى العالم الثالث، وصمتهم الدعاية السوفييتية بأنهم "نازيون"، بينما نظر الإسلاميون، من أمثال سعيد رمضان، إلى مصداقيتهم الدينية الواهية بازدراء ... حتى أن إبراهيم كوجا أوغلو، ذلك المخضرم، قد وجه بعضا من سهامه بحق نمنقانى ناعتا إياه بـ"دمية بيد النازى". كل ذلك جعل من اليسير على رمضان أن يدخل الحلبة ثانية، ليتيه بشبكة علاقاته الدولية ويفاخر بها، ويحيى الوعد ببناء مسجد يأخذ بالألباب.

إن الاستفتاء غير الموفق هذا ... كان نقطة تحول هامة فى تاريخ بناء المسجد. إذ عمد "روبرت دريهر" وباقى عصبته الأمريكية إلى تمتين علاقاتهم بسعيد رمضان أملا فى أن ينجح رمضان فى أن يجعل للغرب مصداقية وصوتا مسموعا فى العالم الإسلامى. وكان الهدف ... أن يكون مسجد ميونيخ منبرا لرمضان. ولتحقيق هذا

الهدف، تم الزعم بأن الاستخبارات الأمريكية قد مارست ضغوطا على الأردن لمنح رمضان جواز سفر، وأنها قد مولت مشاريع "لتلميع صورته" من أمثال "مؤتمر الإسلام الأوروبى" الذى نظمه "دريهر". وبما أن تلك الخطط قد حالفها التوفيق، فقد أضحى "الإخوان المسلمون" يسيطرون على مقاليد مشروع بناء مسجد ميونيخ. إذا، فقد بقى سؤال هام ... أيعمد "سعيد رمضان" إلى مساعدة أصدقائه القدامى، أم سيضرب عنهم صفحا ليسلك طريقا من صنعه هو؟

بخروج الجنود السابقين من اللجنة، شرع رمضان يتحرك بسرعة ... إذ عمد إلى ملء منصب سكرتارية اللجنة الشاغر نتيجة استقالة حسن قصايب، حيث وقع الاختيار على "أحمد شميده"، وهو شاب ألمانى اعتنق الإسلام عام ١٩٥٧، وكان يصدر مجلة اسمها "الإسلام" منذ عام ١٩٥٨، حيث أصبحت تلك المجلة لسان حال لجنة بناء المسجد - بما يجسد ملمحا هاما من رؤية سعيد رمضان الرامية إلى خلق كيان شبيه بجماعة "الإخوان المسلمين" باللجنة ... الأمر الذى استدعى طائفة من المؤسسات، وليس مجرد مسجد فحسب، كانت إحداها مؤسسة أو أداة دعائية مثلتها مجلة "الإسلام" خير تمثيل.

وفى آذار/ مارس ١٩٦٢، قام سعيد رمضان بتوحيد الطلبة المسلمين فى ألمانيا تحت لواء منظمة أطلق عليها "مجلس الجمعيات الإسلامية بألمانيا". أما اختيار الطلبة كلبنات تكوين المجلس، فكان نمطيا ... فكما الحال فى لجنة بناء المسجد، لم يكن رمضان متحمسا للمسلمين التقليديين من أمثال الجنود السابقين، مثله فى ذلك مثل جميع الإسلامويين، إذ كان رمضان يرغب فى تكوين كادر إسلامى أفضل ... الأمر الذى استدعى تواصلا مع طلبة حديثى السن يتسمون بالانطباعية وعدم تشكل ملامح دربهم أو تضاريس شخصياتهم بعد. هذا، وقد عقد اجتماع "مجلس الجمعيات الإسلامية" فى السابع عشر والثامن عشر من آذار/ مارس ١٩٦٢

بمدينة "ماينتس" الألمانية بحضور مجموعات طلابية من العديد من مدن ألمانيا الغربية، كذا بحضور خمسين ممثلاً قاموا بانتخاب "شميده" سكرتيرا للجنة بناء المسجد لإحداث التناغم المطلوب. ووفقا لمصادر "فون منده"، فقد قام سعيد رمضان بتمويل الاجتماع، وهو ما يستدعى سؤالاً حول هوية القائم بتمويل رمضان، إلا أن المصادر لم تشر إلى ذلك. إن الهدف الأساسى من وراء هذا الاجتماع كان توجيه انتقادات لاثنين من ألد أعداء رمضان ... مصر "الناصرية"، و"إسرائيل". أما مقالة رمضان التى انتقد فيها جمال عبد الناصر، فحتما قد لاقت استحسان داعميه الأمريكيين، إلا أنه يصعب معرفة انطباعاتهم بشأن انتقاده لإسرائيل ... إذ لم تكن العلاقات فيما بين واشنطن وتل أبيب بمقدار القوة التى هى عليه الآن. فلعل "وكالة الاستخبارات المركزية" كانت على استعداد - آنذاك - لتقبل انتقاد رمضان لإسرائيل بغية الاحتفاظ بمناوئ شرس للشيوعية إلى صفها.

وحين أضحت قاعدة رمضان "الألمانية" تنعم بالاستقرار، شرع رمضان ينشط بقوة وحماسة على الصعيد الدولى. ففى أيار/ مايو ١٩٦٢، سافر هو وأحمد شميده إلى مكة للمشاركة فى تدشين رابطة العالم الإسلامى، تلك الرابطة التى ما تزال، إلى الآن، أهم تجمع ينتظم المسلمين على امتداد العالم بأسره. وكان ذلك تتويجا لعقود من الجهود الرامية لتوحيد المسلمين كافة ... إن لم يكن تحت لواء خليفة للمسلمين كما كانت الحال فى ظل دولة الخلافة الإسلامية سابقا، ففى كيان عالمى بمقدوره إرساء معايير وضوابط، وتمثيل المسلمين كناطق بلسانهم. هذا، وقد اضطلع رمضان بدور كبير فى "إرساء رابطة العالم الإسلامى" حيث شارك فى صوغ اللوائح المنظمة. كذا، فقد قاد جناح "السلفيين الجدد" خلال مؤتمر التدشين - وبخاصة جماعة "الإخوان المسلمين" ... حيث كان الهدف جعل الرابطة كيانا سياسيا أكثر سفورا. وخلال المؤتمر، تقمص رمضان أكثر من دور ... إذ حضر

المؤتمر بصفته رئيسا لمنظمة المؤتمر الإسلامى، وهو الكيان الذى قام رمضان بإحيائه بالاشتراك مع أمين الحسينى - مفتى القدس، فضلا عن كونه ممثلا عن مسلمى ألمانيا الغربية. وبالنظر إلى ما لتدشين رابطة العالم الإسلامى من أهمية، فقد عمد "غرهارد فون منده" إلى إرسال ولى قيوم إلى المؤتمر بهدف جمع المعلومات. وقد قام قيوم بإرسال مذكرة مفصلة عن الكيان الوليد، بيد أنه لم ينجح فى توكيد النفوذ الألمانى ... ففى نهاية المؤتمر، قام ستة عشر مسئولا سعوديا بزيارة إلى ألمانيا الغربية، وذلك لمقابلة سعيد رمضان، وليس "فون منده" أو أيا من المسئولين الحكوميين. وبالرغم من ضآلة المعلومات عن تلك الزيارة، إلا أنها قد أوضحت كيف نجح رمضان فى تدويل "مسلمى ميونيخ"، و"مسجد ميونيخ" إلى درجة لم يكن ليتخيلها "فون منده".

لقد بدا أن نشاط سعيد رمضان وحضوره هنا وهناك لأمر فى صالح الولايات المتحدة الأمريكية، إلا أن الأرجح أن واشنطون لم تكن تدرك جميع ما كان يقوم به الرجل. فروبرت دريهر، وبصفة خاصة، قد بدا سعيدا لتمويل مؤتمرات رمضان، بيد أنه غالبا كان لا يعلم سوى شذرات قليلة عن أنشطة ذلك الإسلاموى، إذ لم يكن يعلم أن رمضان رجل شديد الاستقلالية لا يمكن لأحد السيطرة عليه أو إخضاعه - حتى بواسطة منظمة إسلامية، فما بالنا بأخرى دون ذلك. إلا أنه، وفى الأجل القصير، ساعد انخراط رمضان فى "رابطة العالم الإسلامى" فى تمتين مصداقية الجماعة بشأن مناهضتها للشيوعية، وهو عين ما كانت واشنطن ترمى إليه. وبالرغم من أن العديد من المراقبين - آنذاك - كانوا يرون أن الإسلام هو "العدو الطبيعى" للشيوعية، إلا أن ذلك لم يكن "تحصيل حاصل". فعلى سبيل المثال، وبعد مضى تسعة أيام فقط أعقبت تدشين الرابطة، عمد تنظيم منافس - وهو مؤتمر العالم الإسلامى - إلى عقد مؤتمر فى العاصمة العراقية بغداد. ونظراً لكونه

التنظيم الإسلامى الأبرز على امتداد العالم آنذاك، فقد رعى الزعيم العراقى عبد الكريم قاسم فعاليات اجتماعات المؤتمر. وعبد الكريم قاسم هو [ديكتاتور] عسكرى ذو ميول يسارية أطاح الملكية فى العراق عام ١٩٥٨ . وبطبيعة الحال، ونظرا لحرصه واهتمامه بتوحيد صفوف المسلمين وتنظيم جهودهم، كان من الطبيعى أن يكون سعيد رمضان من بين الحضور، بل كان يمكنه المنافسة على رئاسة المؤتمر ... إلا أن عبد الكريم قاسم كان يقود مسارا مواليا للسوفييت، إلى الحد الذى استشعر رمضان معه أن وجوده بالمؤتمر ينطوى على خطر يتهدد حياته. لذا، فقد عمد إلى إرسال أحد معاونيه لحضور المؤتمر ... وهو "محمود موفتيتش"، الجندى البوسنى السابق فى أسراب الدفاع النازية، والذى تربطه علاقات بمفتى القدس أمين الحسينى، واتحاد مسلمى ألمانيا فى هامبورغ.

هذا، ومن الأرجح أن تكون تلك الفترة هى أكثر فترات حياة سعيد رمضان خطرا وتهديدا ... إذ أعلن جمال عبد الناصر أن رمضان أحد قادة "الإخوان المسلمين"، أما الشرطة السويسرية فذهبت إلى أن مجموعة قوامها ستة رجال قد أرسلت إلى سويسرا بهدف اغتيال رمضان، حيث اعتقلت بعضا منهم وتم إجهاض المحاولة. وخوفا منه على ما قد يتهدد حياته ويعرضها للتهلكة، فقد اقتنى مُسدساً يسهل إخفاؤه بمعاونة الشرطة، لم يحضر رمضان اجتماع مؤتمر العالم الإسلامى ببغداد، إلا أنه كان ما يزال قادرا على مساعدة أمكومليب لتمرير أحد أفضل من يلهب حماسة المسلمين ... إنه "غريب سلطان".

أما سلطان فكان يشحذ مهاراته للدعاية المستترة لأمكومليب، وذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية ... وكانت إحداها كلمة ألقاها فى محفل "الانترناشيونال هاوس" الجليل، وهى مؤسسة لا تهدف إلى الربح أسست عام ١٩١٩ لتكون ملتقى الباحثين من أرجاء العالم كافة للاجتماع وتبادل الأفكار ووجهات النظر. وهناك ... قدم

سلطان نفسه كباحث تترى، حيث ألقى كلمة من تسع عشرة صفحة عنوانها "الكولونيالية وأنماطها الحديثة".

واستهل سلطان كلمته بالهجوم على الكولونيالية ... ذلك النهج الذى يجد قبولاً واسعاً لدى الطلبة والباحثين المنتمين إلى العالم النامى. إلا أنه أعقب ذلك بمد بساط الهجوم ليشمل الاتحاد السوفييتى الذى فرض هيمنته على عديد من البلدان. هذا، وقد اتسمت المناقشات بالحيوية والنشاط. وبعدها بأيام قلائل كتب سلطان مذكرة إلى "إسحاق باتش"، الذى كان يترأس - آنذاك - قسم المشاريع الخاصة بأمكومليب فى نيويورك إذ كان "روبرت دريهر" قد أزاحه من ميونيخ.

وفى مذكرته، كتب سلطان يقول: "وفقاً لما يمكن لى أن أحكم به، فإن التقرير قد نجح فى تحقيق أهدافه ... إذ اشتعلت مناقشات مستعرة حوله، حيث انتهيت إلى انطباع مفاده أن الطلبة الحضور، رغما عن كونهم يدرسون بالجامعات الأمريكية، إلا أنهم لسبب أو لآخر كانوا يتبنون وجهة النظر السوفييتية لا الأمريكية، أو لعلهم لا يدرون عن وجهة النظر الأمريكية شيئا. لقد كان غريب سلطان - آنذاك - مواطناً أمريكياً، إذ ارتحل من ميونيخ إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٧، تاركاً ميونيخ بلا رجل مسلم قادر على تهذيب زوايا "كوجا أوغلو" الحادة. إلا أن سلطان لم يكن خارج المشهد بالكلية، فقد استمر فى العمل لدى أمكومليب بقسم "المشاريع الخاصة"، حيث كان له انتشار حارب بموجبه الشيوعية فى الجبهة الداخلية. أما الوجوه التى تقمصها فتعددت واتسعت وكانت جد مبتكرة، إذ كان سلطان يلتزم الحقيقة قدر الإمكان لخلق جبهات لها مصداقيتها. ففى كلمته بالانترناشيونال هاوس، تم تقديم سلطان على أنه باحث بمعهد دراسات الاتحاد السوفييتى (إحدى جبهات أمكومليب الأمامية)، بيد أنه أيضا كان ممثلا معتمدا "بمنتدى الناخبين الجمهوريين والديمقراطيين"، وكاتبا حرا بمجلة "الاتحاد الأمريكى لنقابات العمال"، فضلاً عن كونه

مؤسساً للعديد من المنظمات المزعومة مثل "المنظمة الثورية الوطنية لتحرير شعوب الاتحاد السوفييتى الإسلامية"، و"منظمة لاجئى الاتحاد السوفييتى المسلمين". وبصفته رئيسا لقسم "الكتاب" بتلك المنظمة الأخيرة، فقد سافر غريب سلطان إلى القاهرة عام ١٩٦٢ لإلقاء كلمة بعنوان "الكتاب السوفيو-آسيويون ومعضلة الإبدا ع".

واستعراضاً لمهاراته فى "التشبيك"، عمد سلطان إلى تزوير دعوة لحضور "مؤتمر بغداد" عن طريق استغلال معارفه الباكستانيين ... إذ كتب إلى "منصور الدين أحمد" من "المعهد المركزى لدراسات الإسلام" ليسأله إن كان يرغب فى أن يكون الشخصية المحورية لمؤتمر حول تقرير المصير. وفى خطاب إلى "منصور الدين" بتاريخ الخامس من نيسان/ أبريل ١٩٦٢، أرفق له سلطان شيكا بمبلغ مائتى دولار أمريكى صادرا عن "لجنة تقرير المصير"، وهى كيان دعائى سرى يدار بواسطة "اللجنة الوطنية لأوروبا الحرة" - وهى مؤسسة شقيقة لأمكومليب. كذا، فقد كتب سلطان إلى منصور الدين مبديا رغبته فى حضور "مؤتمر بغداد"، إلا أن منصور الدين أجابه بأن الحصول على دعوة تمكنه من الحضور لهى مهمة صعبة تتطلب قدرا كبيرا من البراعة، ذلك أن الديكتاتور العراقى عبد الكريم قاسم كان يعارض حضور أى أمريكى فعاليات ذلك المؤتمر ... بيد أن منصور الدين تعهد لسلطان أن يعمل على استمالة صديق له هو "إنعام الله خان" - الأمين العام لمؤتمر بغداد. كذا، فقد عمد سلطان إلى التحدث إلى سعيد رمضان الذى وعده بمخاطبه أصدقائه للاصطفاف حول سلطان وتمكينه من حضور المؤتمر. وفى النهاية، وافق عبد الكريم قاسم على حضور سلطان المؤتمر، فكان بذلك الممثل الوحيد للولايات المتحدة الأمريكية.

هذا، وقد عمد سلطان إلى استغلال فترة إقامته لحضور المؤتمر أقصى استغلال ممكن ... إذ عقد جلسات خاصة مع إسلاميين بارزين لإقناعهم بشرور الشيوعية

ومثالبها، كذا فقد أجرى حوارا مع رئيس الوفد السوفييتى، وحوارات لتليفزيون بغداد، فضلا عن إلقائه كلمة شن فيها هجوما عنيفا على الاتحاد السوفييتى والصين لممارساتهما الكولونيالية فى آسيا الوسطى. بيد أن الوضع فى بغداد لم يكن مستقرا، حيث طلب إليه المغادرة. ففى لقاء معه، أورد سلطان أن "شخصا أخبره بأنه مهدد بالاختطاف أو الاغتيال". لذا، غادر سلطان بغداد مبكرا، إلا أن مؤتمر بغداد قد ظل علامة فارقة فى مساره العملى، ونقطة بارزة فى مسار الولايات المتحدة الأمريكية لتوظيف "الإسلام" واستغلاله لمآربها إبان خمسينيات القرن العشرين، ويرجع الفضل فى ذلك - جزئياً - إلى جهود سعيد رمضان.

أما أكبر الخاسرين فى هذا الأمر برمته، فكانوا مسلمى ميونيخ. ففى البدء، كان المسئولون الألمان حريصين على دعم مشروع مسجد ميونيخ - فالمشروع، فى النهاية، كان فكرة "غرهارد فون منده" التى نفذها نور الدين نمنقانى، إمام أسراب الدفاع النازية سابقا. وحين اضطلع سعيد رمضان بمسئولية المشروع لاحقا، ظل "فون منده" يؤمن بضرورة قيام ألمانيا الغربية بدعم المشروع نظرا لما ستحظى به من علاقات عامة إيجابية. هذا، وقد نحى "فون منده" باللائمة على رمضان بشأن المشاكل القائمة بلجنة بناء المسجد، إلا أنه خلص إلى وجوب مضى ألمانيا قدما بهذا المشروع عن طريق توفير قطعة أرض لإقامة المسجد عليها، والتبرع بمائة ألف مارك ألمانى لإتمام المشروع.

إلا أنه وقد أصبح جليا أن أصدقاء "فون منده" من الجنود السابقين قد استبعدوا نهائيا من المشروع ... فقد أضحى تحمس ألمانيا ومبادرتها الكريمة هباء منثورا. وحين قام أحمد شميده وغالب همت وآخرون من أتباع سعيد رمضان بمخاطبة وزارة الشئون الاجتماعية الباقارية عام ١٩٦٢ للمساعدة فى تخصيص قطعة أرض لإقامة المسجد، تم رفض مطلبهم بطريقة مهذبة لبقة ... حيث أُخبِروا

بأن الوزارة كانت معنية بالأمر لأن المشروع كان يستهدف اللاجئين، أما وقد زالت عضوية لجنة بناء المسجد عن أولئك اللاجئين، فلم يعد للجنة حاجة إلى دعم حكومى. وبما أن حكومة ألمانيا الغربية قد كفلت حرية المعتقد، فقد كان الطلبة أحرارا فى استئناف تحقيق أهدافهم، إلا أنهم لن يحظوا بدعم الدولة. هذا، وربما كانت معارضة رمضان قد بدت أمراً حسناً، إلا أنها قد أكدت حقيقة كون "فون منده" وجملة حلفائه فى "بافاريا"، و"بون" قد أخفقوا فى مهمتهم. وبعد ذلك بعام، وتحديدا فى العاشر من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٣، أورد نور الدين نمنقانى أن كنيسة القديس بولس، حيث ولدت الفكرة برمتها ليلة الكريسماس الباردة من عام ١٩٥٨، لم تعد متاحة لأن يمارس فيها الجنود السابقون صلواتهم ... الأمر الذى أوضح أنه لم يعد لديهم مكان لأداء الصلاة ... فما بالنا بمسجد متكامل الأركان؟!

أما نمنقانى، فقد كان يشعر بالمرارة والأسى. فبعد شهور أربعة من الاجتماع العاصف الذى فشل فيه، هو والجنود السابقون، فى إزاحة سعيد رمضان ... عمد إمام أسراب الدفاع النازية إلى كتابة خواطره وانطباعاته عن الأحداث[٩٥] ... تلك الخواطر التى شُذِبت وأعيد صياغتها إما بواسطة "فون منده"، وإما -وهو الأرجح- بواسطة مارغريت دولينغر، زوجة حسن قصايب الألمانية ... حيث اتشح النص بوابل من الهجوم التهكمى على سعيد رمضان. فعلى سبيل المثال، ورد بالنص أن "سعيد رمضان كان متشبثا بلجنة بناء مسجد ميونيخ كأمل وحيد متبق". وبخلاف الرطانة المستخدمة، اتسمت آراء نمنقانى وملاحظاته بحسن الحدس ونفاذ البصيرة ... ما جعلها تنفذ إلى أعماق دوافع رمضان وأنشطته، كذا فقد كانت تمثل رؤية ثاقبة سبرت أغوار الراديكاليين الإسلاميين عبر عقود عديدة.

هذا، وقد أورد نمنقانى أن سعيد رمضان قد وجه سهام النقد إلى اللاجئين رامياً إياهم بجهلهم بالإسلام، وإفراطهم فى معاقرة الخمر. فوفقا لنمنقانى، كان

علىَ رمضان أن يكون أكثر رحمة فى سعيه لفهم أولئك الجنود السابقين. فجهلهم لا يعد مستغربا إذ نزحوا من بلد شيوعى سعى، على نحو ممنهج، إلى تدمير شوكة الدين فى نفوس أتباعه. فبدلا من أن يعمد رمضان إلى الترفق بنمنقانى، وإرشاده إرشادا فيه رفق وحنو، قام رمضان بتعنيفه وتوبيخه وإعطائه درسا فى كيفية التعامل، فضلا عن تهديده بالكتابة إلى السلطات كاشفا عن زلاته ... وقد أخبره رمضان بأنه قد امتنع عن القيام بذلك حرصا على مشاعر الألمان وعدم إخبارهم بكونهم قد انتقوا إماماً غير كفء للاضطلاع بمهام أوكلت إليه. وبالرغم من كون رمضان قد شارك المسلمين احتفالاتهم فى الأعياد، إلا أنه قد اختفى تماما حين عمد نمنقانى إلى المشاركة فى الاحتفالات ... إذ كان لا يضمر أدنى احترام للرجل المسن، فى دلالة واضحة على أن ثورته لم تكن لتعبأ بالتقاليد ألبتة. فمن وجهة نظر رمضان، كان نمنقانى إماما رجعيا ... وكان نمنقانى يعلم بهذا الضرب من الاتهام، إذ سبق له سماعه فى الاتحاد السوفييتى حين ألقى به فى المعتقل بحجة أنه ليس ثوريا بما فيه الكفاية.

ويكتب نمنقانى عن رمضان: "فى واحدة من كتاباته، يعلن رمضان أن المسلمين الذين يدرسون فى ألمانيا سيضحون ذات يوم حكام بلدان العالم الإسلامى، وأن اللاجئين لابد وأن يحرصوا على الإذعان لرأيهم والائتمار بأوامرهم". كذا، فقد أورد نمنقانى أن رمضان قد أخبره بأن أولئك الرجال الطاعنين فى السن لن يكون باستطاعتهم العودة ثانية إلى ديارهم ومواطنهم، ذلك لأنهم ليسوا مسلمين حقيقيين ... فإذا ما عادوا إلى بلدانهم فسيتسببون فى إحداث أزمات هناك. إذا، فالاتحاد السوفييتى هو أحسن حالا فى ظل غيابهم عنه.

إلا أن المؤكد – عند هذا المنعطف – هو استحالة معرفة ما قاله سعيد رمضان بالفعل. إن هذه الروايات لتعكس وجهة نظر نمنقانى، إلا أنها تتفق وذكريات صغار

مساعدى رمضان عنه ... الذين اعترفوا بقيامه بازدراء الجنود السابقين. هذا، وقد أوضحت لقاءاتى وبعض أولئك الطلبة ممن لا يزالون على قيد الحياة - أن ثمة مشاكل كانت تواجههم بشأن "نسخة" الإسلام التى اعتنقها الجنود السابقون. وقد كانت آراء رمضان وجدالاته تجسيدا للفكر الإسلاموى البحت، بما يشبه تماما أفكار "سيد قطب" ومن بعده "أسامة بن لادن". فالزعم بأن الجنود السابقين لا يستحقون العودة إلى ديارهم وأنهم أسوأ حالا من الشيوعيين، كان يتفق وأساسيات الإسلام الراديكالى.

أما إبراهيم كوجا أوغلو، فقد كان يذكر المجتمع الإسلامى - على الدوام - بما منى به من خسارة ... فالإمام - بغلظته وفظاظته وفجاجته العلمية ... وهو الذى أنشأ أول جماعة فى ألمانيا الغربية لدعم اللاجئين ... كان قد أزيح أولا على أيدى الألمان لقبوله دعما أمريكيا، ثم على أيدى الأمريكيين أنفسهم لصالح سعيد رمضان الأبعد دربة والأكثر صقلا. لقد تم استخدام الرجل وتوظيفه من قبل "عناصر سياسية"، إلا أن هدفه الأساسى - عبر دربه الممتد - كان خدمة اللاجئين المسلمين فى جنوب ألمانيا. وبافتقاره إلى الدبلوماسية كما العهد به دائما من افتقار إليها، نحى كوجا أوغلو باللائمة على "فون منده" لاستمالته لنمنقانى منذ سنوات خمس انصرمت.

"إنه لمن الخزى لجماعتنا الدينية الإسلامية فى غرب أوروبا [الإسلام] أن نتلقى اتصالات من ضيوف أجانب يسألون عن موضع لإقامة الصلاة - عن مسجد أو ما شابه ... فيكون علينا الرد بعدم وجود ما يطلبونه. إن ألمانيا الاتحادية تسعى لرأب الصدع الذى أحدثه الألمان إبان الحرب الكونية الثانية. ويبقى السؤال: ما بال اللاجئين المسلمين هم فقط من خسر كل شىء فى تلك الحرب؟! ... وما بالهم هم وحدهم من يتم تجاوزهم ويعمد إلى تجاهلهم؟!"

الفصل الثانى عشر

إذ ينفلت الزمام

انتصف ليل السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦١ ... وكان الحفل المقام بمناسبة بلوغ "بول دريهر" الخامسة والأربعين على وشك الانتهاء، حيث شارك "دريهر" الاحتفال بذكرى مولده مجموعة كبيرة من الأصدقاء والزملاء الذين أمضوا تلك الأمسية فى الرقص والشراب، حيث أدرك معظمهم أن جمعهم لم يكن للاحتفال بذكرى مولد "دريهر" فحسب، وإنما كان حفلا لتوديعه.

فبعد أربعة أعوام من العمل فى ميونيخ رئيسا لشئون اللاجئين، قرر "دريهر" الاستقالة من منصبه، والعودة إلى "قواعده" ... "وكالة الاستخبارات المركزية" بواشنطن. لقد كان الرجل يفضل نمط الحياة فى ميونيخ، فقد أحب المدينة وأحب أهلها ... إلا أن رحلته قد بلغت منتهاها.

وكان لاجئون عدة قد حضروا الحفل لتقديم الشكر إلى "دريهر"، وكان جلهم من اللاجئين السوفييت الذين عملوا فى "راديو الحرية" ... أما المسلمون ممن عملوا لحساب "بوب دريهر"، أو "سعيد رمضان"، فمن الأرجح ألا يكون مثل هذا الحفل ليناسبهم. أما "دريهر"، فقد سعى جاهدا إلى إيراد الكلمات المناسبة، فقال فى ألمانيته الركيكة: "إننى أومن بأننا أناس يجمعنا هدف موحد".

إن "دريهر"، وعلى خلاف سابقه "إسحاق باتش"، قد عمد إلى استنبات

مجموعات جديدة كجزء من استراتيجية أكثر صرامة. فالطلبة المسلمون وسعيد رمضان قد لقى جميعهم دعما وموآزرة ما كانا ليخطرا ببال أحد قبل سنوات قلائل مضت ... فقد نجا سعيد رمضان، قبل أسابيع فقط من حفل الوداع هذا، من محاولة لإطاحته من قبل "الجنود السابقين" العاملين لحساب "غرهارد فون منده"، ليصبح "الملك المتوج" للجنة بناء مسجد ميونيخ دون أدنى منافسة من أحد كائنا من كان. وكان ذلك – بطريقة أو بأخرى – بفضل جهود "بوب دريهر"، الذى قام بدعم رمضان وتمويل مؤتمراته – حيث خلق منبرا لذلك الإسلاموى المصرى فى أوروبا، فضلا عن استدعاء دعم بعض من الذين تعاونوا مع الألمان فيما مضى، من أمثال الزعيم القوقازى "أحمد نبى ماغوما"، والزعيم "سعيد شامل" الداغستانى. إن الولايات المتحدة كانت قد سعت، فى الماضى، إلى تجنيد "فون منده" لإدارة شئون اللاجئين، إلا أن "دريهر" قد عمد إلى إبعاده جانبا. كذا، فقد كان هناك الدور الذى

اضطلع به "دريهر" لتوطين رمضان فى أوروبا ... الأمر الدال بجلاء على النشاط الوافر وروح المبادرة، وهو ما كان المرء ليتوقعه من "بوب دريهر" ... مقاتل الحرب الباردة، والخبير المحنك بأوديسا وموسكو، ورجل "وكالة الاستخبارات المركزية" الحريص على إعادة تنظيم "راديو الحرية" على نحو جذرى، وكذا غربلة صحافييه الذين يأملون أن يكونوا من ذوى الشأن فى ميونيخ.

إذا ... فبماذا عاد كل ذلك على الولايات المتحدة الأمريكية؟ لقد كان من الجلى أن "دريهر" قد كسب حليفا هاما إلى صفه. ففيما يتعلق بالشيوعية، فإن جماعة "الإخوان المسلمين" والولايات المتحدة الأمريكية يفكران بالأسلوب نفسه. فعلى سبيل المثال، قام سعيد رمضان فى الرابع والعشرين من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٦١ بإرسال خطاب إلى "آرثر شليزنغر-الابن" ... أحد المستشارين البارزين للرئيس الأمريكى المنتخب حديثاً - جون فيتزجيرالد كينيدى ... جاء فيه: "حين يكون العدو مسلحا بأيديولوجية ديكتاتورية شمولية، وتنتظم فى خدمته كتائب من مؤمنين أوفياء مكرسين لتلك الأيديولوجية ... فإن أولئك المنتهجين سياسات مغايرة لابد وأن يخوضوا حلبة المنافسة باعتماد النوع ذاته من الفكر والأسلحة، بحيث تكون روح تكتيكاتهم مناقضة تماما لعقيدة العدو وإيمانه - وأن يكون الهدف دحض تلك العقيدة وذلك الإيمان. فوحدها القوى الشعبية، فى ردات فعلها الصادقة، هى التى تتمكن من مواجهة أخطار الاختراق الشيوعى". لقد كان الخطاب أشبه ما يكون بالتماس لإدارة كنيدى الجديدة لاستئناف الشراكة الاستراتيجية ما بين الولايات المتحدة الأمريكية والإسلامويين من أمثال رمضان.

بيد أن الأحداث المتبدية فى ميونيخ قد ألقت بظلال من الشك على مدى ما لشراكة كتلك من فاعلية وثقل. إذ كان رمضان، حينذاك، مسئولا عن مشروع بناء المسجد، إلا أنه كان يعمل فى استقلالية تامة عن الولايات المتحدة. أما الألمان

والأمريكيون، فكان يجمعهم الهدف ذاته والفكرة عينها: إحكام السيطرة على المسجد وإحكام السيطرة على المسلمين بألمانيا، ومن ثم استخدامهم فى مجابهة الشيوعية ... وكان مسلمو ألمانيا ما يزالون فى ميونيخ، فكان يمكن - بالتالى - استخدامهم فى الأغراض الدعائية المستترة، إلا أن رمضان لن يكون زعيما لهم فى المشهد العالمى. إذ كان يبدو أنه لم يكن معنيا بتوحيد المسلمين لمجابهة الشيوعية على النحو الذى خطط الأمريكيون له. ويوضح الأمر بجلاء تحليل لوكالة الاستخبارات المركزية يرجع إلى عام ١٩٥٣ ذهب إلى أن رمضان كان معنيا بشدة بحشد الأفراد من حوله التماسا للنفوذ ... ذلك النفوذ الذى كان فى حاجة إليه لاستخدامه لنشر رؤية جماعة "الإخوان المسلمين" عن الإسلام، حيث عمد إلى إزاحة أولئك الذين لم يساعدوه فى تحقيق ذلك الهدف. لقد كان معظم مسلمى ميونيخ غير ذى نفع له، إذ كانوا جنودا سابقين طاعنين فى السن ذوى دراية دينية محدودة. ولعل الأهم كونهم أناسا ناضجين دنيويى النزعة يتسمون بالعناد وتنحصر اهتماماتهم فى أوطانهم الأم. أما رمضان، فكان يريد كوادر شابة فتية تتسم بالانطباعية والتلقائية تسهل قولبتهم لاستخدامهم فى نشر ثورته على امتداد العالم. لقد كان الرجل يقود حركة جديدة سعت إلى مداواة جروح العالم وأوصابه عن طريق العودة إلى تعاليم الدين. إذا ... فلا عجب ألا يكون قد وحد مسلمى ميونيخ، إذ لم يكن ذلك ليتطرق إلى فكره أو يدور بخلده ألبتة ... فالرجل لم يكن راغبا فى جماعة "مظلية"، بل كان يصبو إلى خلية هادرة.

أما الأمريكيون فكانوا ينسحبون من المشهد، إذ قررت أمكومليب عدم الاستعانة بآخر ليحل محل "بوب دريهر". ففى المقابل، سيعمد نائبه "ويليام كلمب" إلى الإبقاء على المدفوعات الممنوحة لجماعات اللاجئين، إلا أنه لن يحتضن مواهب أو مهارات جديدة، وسيفقد الاتصال بسعيد رمضان الذى كانت بؤرة اهتمامه تنصب على

"الإخوان المسلمين". أما الأمريكيون فى ميونيخ، فقد أضحوا غير ذوى نفع له، فلم يأخذ أيا منهم زمام المبادرة لإحياء تلك العلاقة التى كانت تربطهم به ذات يوم. وأما خطاب رمضان الذى أرسله إلى "شليزنغر"، فلم يتم الرد عليه. كذا، فقد تم حل إدارة شئون اللاجئين، فيما قامت أمكومليب بتغيير موح ذى مغزى ودلالة. ففى عام ١٩٦٤، وكما فى مرات عديدة سابقة، عمدت أمكومليب إلى تغيير اسمها ليصبح "لجنة راديو الحرية"، ومن ذلك الحين فصاعدا سيكون اهتمامها منصبا على خدمات البث. أما لاحقا، حين سيكشف عن دور "وكالة الاستخبارات المركزية" وعلاقتها بالمنظمة، وذلك فى بداية سبعينيات القرن العشرين، سينفصل "راديو الحرية" عن الوكالة ليندمج فى محطة الإذاعة الشقيقة، "راديو أوروبا الحرة". كذا، فسيتم إخضاع محطتى الإذاعة هاتين إلى إشراف "مجلس الإذاعة الدولية" الذى أنشئ عام ١٩٧٣، والذى كان يدار من قبل وزارة الخارجية الأمريكية.

وليس أدل على تغيير الولايات المتحدة لسلم أولوياتها من إرسال "بوب دريهر" إلى فيتنام، حيث ساعد الفيتناميين الجنوبيين فى إدارة محطات إذاعية تعمل كغطاء ضمن وحدة العمليات الخاصة السرية المدعومة من قبل "وكالة الاستخبارات المركزية"، والمعروفة "بالقيادة العسكرية لتقديم المساعدة لفيتنام/ فريق الدراسات والملاحظات" ... حيث عمل "دريهر" بوحدة الدعاية السرية بها لمدة دورة واحدة. وبمثل ما كانت الحال فى ميونيخ، بدا "دريهر" بعيدا عن الأجواء المحيطة به لا يدرى شيئا عن طبيعة الأثر الذى انطوى عليه نشاطه بفيتنام ... إذ لم يكن يتحدث الفيتنامية، كذا فلم تكن لديه أدنى فكرة عما يتم بثه هناك. لقد أرسل الرجل إلى فيتنام كخبير استشارى حيث ساعد فى ضخ ملايين الدولارات فى نشاط كان يجهله بالكلية.

وفى عام ١٩٧٢، أحيل "دريهر" إلى التقاعد حيث كان يبلغ السادسة والخمسين. وكان الرجل محتفظا بشقته الرائعة فى "فيرجينيا"، والتى يمكن منها رؤية مبنى

"الكابيتول" من بعد. وكانت سفراته الخارجية قد توقفت، وبذا طويت صفحة من صفحات حياة "دريهر" الذى وافته المنية فى الرابع والعشرين من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ فى فيلادلفيا إثر سكتة دماغية ألمت به.

فى أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢، أقام معهد الشرق الأوسط بواشنطن اجتماعا بفندق "ستاتلر هيلتون" حفل بكوكبة من الحضور، وكان محور الاجتماع: "الإسلام فى الاتحاد السوفييتى" ... حيث كان هذا الحقل من الدراسات يكتسب أهمية متزايدة وزخما متناميا، بعد أن كان هملا فيما مضى. هذا، وقد قامت وزارة الخارجية الأمريكية بتمويل جانب من نفقات الاجتماع الذى كان الهدف من وراء إقامته "فتح الأبواب لدراسة أسيا الوسطى"، وذلك فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان جميع نجوم هذا الحقل ضمن حضور الاجتماع ... من أمثال غريب سلطان وباى ميرزا هاييت، فضلا عن أكاديميين مرموقين من جميع أنحاء العالم. كان الكل حاضرا فيما عدا "غرهارد فون منده".

ففى خطاب بتاريخ السادس من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٢ إلى غريب سلطان، كتب "فون منده" يقول: "إننى لم أتلق دعوة لحضور الاجتماع، وذلك على الأرجح للأسباب التى ذكرتها لى". وكان "فون منده" يأمل فى أن يعمد إلى معارفه فى أمكومليب للحصول على دعوة لحضور الاجتماع. واستطرد "فون منده" قائلا: "ومن جهة أخرى، فقد وجهت دعوة لحضور الاجتماع إلى الدكتور باى ميرزا هاييت، وهو الذى يعمل موظفا بوحدة دراسات أوروبا الشرقية، تلك الوحدة التى أديرها أنا ... أنا النازى الكبير على حد زعمهم ... إننى أستشعر هذا التمييز ظلماً لى".

وعلى أية حال، وبغض النظر عن كونه ظلماً أو إنصافاً ... فقد كانت تلك الواقعة تأريخا لبداية عهد جديد اتسم بصعوبة التغاضى عن الميول النازية العميقة لأناس من

أمثال "غرهارد فون منده" ... إذ شهد ذلك العهد الجديد إعدام "أدولف إيخمان" فى القدس ... إذ كان "إيخمان" هذا أحد مهندسى الهولوكوست بحق اليهود ... كذا، فقد شهد العهد الجديد قيام "راؤول هيلبرغ"، وهو مؤرخ وعالم سياسى أمريكى نمساوى المولد بإصدار كتابه: "إبادة يهود أوروبا" ... ذلك السفر القيم. فخلال أربعينيات القرن العشرين وخمسينياته، كان الهولوكوست أقرب ما يكون إلى المحرمات من حيث التداول. إلا أنه، مع بدايات هذا العهد الجديد، صار أحد حقول الدراسات الجادة الرصينة، وأضحى الناس يدركون من شارك فيه. وهنا ... يتذكر "ريتشارد إدغار بايبس"، وهو أكاديمى أمريكى من أصل بولندى، فى لقاء جمعنى به فى الخامس والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦ بمدينة "كيمبريدج" بولاية "ماساتشويتس" الأمريكية ... لمحات من الماضى، حين كان أستاذا فى مقتبل العمر بجامعة "هارفارد"، إذ أسهم فى تنظيم اجتماع فندق الهيلتون، المذكور آنفا. يقول "بايبس": "لقد كان فون منده معروفا بكونه نازيا ... وذلك بالقطع هو السبب الذى دعا المنظمين إلى عدم توجيه الدعوة إليه بالحضور، إذ كانت سمعته معلومة جلية".

كذا، فقد سارت خطوات استبعاد "فون منده" عن مشروع مسجد ميونيخ على نحو مطرد ... إذ لم يعد لديه أية معارف بلجنة بناء المسجد. وفى بدايات عام ١٩٦٣، أعلن الجنود السابقون انسحابهم من المجموعة، وهو ما أضفى صفة الرسمية على حقيقة ظلت قائمة لعام أو نحوه. أما سعيد رمضان، فقد كان - فى تلك الأثناء - يمضى قدما ويغذ السير. وتوكيدا لطموحاته العراض فيما يخص المجموعة، عمد رمضان إلى تغيير اسمها من لجنة بناء مسجد ميونيخ لتصبح "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا".

وقد منى "فون منده" بخسارة أخرى بوفاة "على قنطمير" فى السادس عشر من نيسان/ أبريل ١٩٦٣ عن عمر قارب السابعة والسبعين (١٨٨٦/٥/٩ -

١٩٦٣/٤/١٦). فلسنوات عديدة، كان "فون منده" يساعد ذلك الزعيم كليل العينين. وحين توفى "قنطمير"، أرسل "فون منده" إشارة إلى ضباط الاتصال الاستخباراتيين ملتمسا المساعدة فى محو أية آثار دالة على تعاون الثنائى (فون منده وقنطمير) ... حيث أورد فى تلك الإشارة: "إن السيد قنطمير، الذى جمعتنى وإياه علاقة صداقة، كان يعمل لسنوات عدة لصالح عدد من الوكالات الألمانية، حيث عمدت ألمانيا إلى الاضطلاع بنفقات تمويله. لذا، فإننى أرى أنه من مصلحة ألمانيا أن تبحث فيما خلفه الرجل مما يدل على ذلك التعاون".

هذا، وقد تأكد عجز "فون منده" من خلال علامات الاستفهام التى حامت حول العمال الأتراك الذين وفدوا إلى ألمانيا ... (العمال الضيوف Gastarbeiter. فمنذ الستينيات، كان اقتصاد ألمانيا الغربية، الذى شهد طفرة وازدهارا كبيرين، يجذب العمال الأجانب. ونتيجة تزايد أعداد أولئك العاملين، كتب أحد ضباط اتصال "فون منده" الاستخباراتيين للسؤال عن ميلهم إلى إثارة القلاقل ... أما السؤال، فقد اشتمل على مفارقة بادية: فلسنوات طويلة ... عمد "فون منده" إلى صوغ استراتيجيات كبرى لتوظيف الإسلام واستغلاله دون أن يكون تحت إمرته عديد من المسلمين. أما الآن، فثمة العديد من المسلمين وقد وفدوا إلى ألمانيا الغربية، إلا أن "فون منده" لم يعد ممسكا بزمام السلطة بشأن مسجد ميونيخ بعد ... المسجد الذى يعد أداة تتيح له السيطرة على أولئك المسلمين. وقد سعى "فون منده" إلى إقامة علاقات جديدة، فقام باى ميرزا هاييت باختراق أحد التجمعات الطلابية الإسلامية فى كولونيا[٩٦]، بينما شرع "فون منده" فى إمداد التجمع بالأموال ... إلا أن "فون منده" كان ينشط على الهامش. إذا ... فقد انتصر سعيد رمضان.

ويبدو أن جهاز استخبارات ألمانيا الشرقية "الشتازى" قد علم بما آل إليه أمر "غرهارد فون منده" من عزلة وتهميش. ففى السادس عشر من كانون الثانى/ يناير

١٩٦٢، عمد عملاء "الشتازى" إلى إنهاء عملية "الهجرة الآسيوية"، والتى استمرت طيلة سنوات سبع، تم خلالها إخضاع نشاط "فون منده" ومنظمته للمراقبة. هذا، ولعل "الشتازى" قد سره إضعاف شوكة "تيودور أوبرليندر" - رئيس "فون منده" القديم، أو لعله قد بلغ المنتهى فى توجيه ضربات إلى جماعة "الأوستمنستريوم". وعلى أية حال، لم يعد "فون منده" ذا أهمية - حينها ... فحتى حكومة ألمانيا الغربية قد عمدت إلى إعادة ترتيب سلم أولوياتها، إذ كانت تأمل فى تحسين علاقاتها مع الشرق - وهو ما مثل البذور الأولى لسياسة "الوفاق". أما باى ميرزا هاييت، فسيتم إرساله إلى محفل جديد ... إلى "دلهى" الهندية، حيث أخبرته وزارة الخارجية الألمانية بتخفيض حدة نبرة الرطانة المعتمدة. إن أمثال تلك العمليات لم تكن لتخطر بالبال قبل سنوات قلائل ماضية.

أما "فون منده"، فقد بدأت أعصابه تستثار ... إذ عانى أزمة قلبية شديدة فى عام ١٩٥٦ حيث أمره الأطباء بالإقلاع عن التدخين، فامتثل الرجل للأوامر. إلا أنه شرع ثانية فى التدخين فى عام ١٩٦٢ . أما الأعمال التى كان يضطلع بها، هو وهاييت، فكان لها آثار جسام. ففى يوم الإثنين - السادس عشر من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٦٣، كان "فون منده" بمكتبه المطل على نهر "الراين"، حيث كان يقرأ واحدا من التقارير الاستخباراتية العديدة التى حفل بها مكتبه. وكان التقرير موجزا للأحداث الجارية - آنذاك - فى الاتحاد السوفييتى. وعلى مكتبه، فيما الملف قابع بصفحاته المشرعة قبالته، عصفت أزمة قلبية بالرجل لترديه صريعا فى الحال.

وبوصفه منسقاً استخباراتياً، لم يكن "غرهارد فون منده" متقولبا فى أنموذج نمطى ... إذ لم يعمل الرجل لحساب جهاز الاستخبارات الألمانى، كذا فلم يعمل لدى المكتب الاتحادى لحماية الدستور. إلا أنه - وبالمقابل - كانت ترد إليه الأموال من كل حدب وصوب ... إذ كان المكتب الاتحادى لحماية الدستور يقوم بتمويله،

وهكذا فعلت وزارة خارجية ألمانيا الغربية. أما منظمة "فون منده"، فكانت أقرب ما تكون إلى شركة نمطية من الشركات الألمانية متوسطة الحجم، تلك التى كانت تمثل العمود الفقرى لاقتصاد ألمانيا الغربية آنذاك. لقد كان مكتب "فون منده" يقع أسفل شقته السكنية مباشرة. أما زوجته، كارولين اسبيزيت، فقد اضطلعت بدور هام فيما اختص بعمله، خاصة حين ارتبط دورها بالتعامل مع العالم الناطق بالإنكليزية، أو بتلك الاجتماعات شديدة الأهمية مع أولئك المنتمين إلى الاتحاد السوفييتى ... أما الأبناء فقد ساعدوا فى الأعمال الإدارية المكتبية.

هذا، وقد وافقت وزارة الخارجية الألمانية على أن تتكفل بنفقات جنازة فون منده "تقديرا للخدمات الجليلة التى أسداها الفقيد لوطنه كرئيس لمكتب "أجانب بلا وطن"، ومكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية". إلا أن الوزارة اشترطت اشتراطا واحدا ... "إنه ليتعين أن يعامل الأمر بسرية تامة، والحرص الشديد على ألا تبدو وزارة الخارجية الألمانية – على الملأ – كداعم مالى".

لم يكن إيجاد خليفة لفون منده بالأمر الهين ... إذ استلزم براعة ومهارة. أما حكومة ألمانيا الغربية، فقد فكرت فى "زيغفريد أونغرمان" ... ضابط اتصال الاستخبارات الاتحادية الألمانية خاصة "فون منده"، إلا أن هذا الطرح قوبل بالرفض بوصفه مهمة شديدة التعقيد يصعب تنظيمها ... إذ كان المفترض أن تعطى منظمة "فون منده" الانطباع بكونها مستقلة عن الحكومة، فكيف يتفق هذا و"أونغرمان" نفسه موظف حكومى؟! هذا، وقد احتشد العديد من اللاجئين لتأييد "أونغرمان" – أو أياً غيره – لخلافة "فون منده". وفى النهاية، قررت الحكومة أن تغلق النشاط برمته.

أفضى ذلك كله إلى مشهد غير سار: إذ اتضح أن ابن "فون منده" وابنته قد

كانا يتلقيان مبالغ كأبيهما، ومن ثم فقد طالبا بتعويضات. كذا، فقد زعم ابنه، إيرلنغ، أن بعض الأغراض العائلية قد تم الاستيلاء عليها من مكتب أبيه. أما لاحقا، فقد سألت زوجته، كارولين اسبيزيت، ما إذا كان يمكنها استخدام اسم "مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية" ... ومن الجلى أنها أرادت أن تحتفظ بديمومة سير نشاط المنظمة كـ"بيزنس" عائلى، إلا أن وزارة الخارجية الألمانية قد قابلت طلبها بالرفض. كذا، فلم تسلم ملفات "فون منده" من النزاع عليها. فبعد عام تقريبا من وفاته، ظلت أوراق "فون منده" فى خزائن للحفظ غير مؤمنة فى مكتبه المطل على نهر "الراين" ... وقد خشى المسئولون أن تقع جملة من تلك الأوراق - وجلها قد مهر بخاتم "سرى للغاية" - فى أيدى "الأعداء".

هذا، وقد احتفظ ابنا "فون منده" بأوراقه الشخصية، بالرغم من أن العديد منها كانت أوراق خاصة بالعمل. لم يكن مآل أوراق "فون منده" الخاصة بالعمل، والتى انتظمتها مائة من المجلدات الضخمة على نحو التقريب، أرشيف الاستخبارات الألمانية - حيث كانت لتحفظ مثل ملفات "وكالة الاستخبارات المركزية" - فى خزائن محكمة، إن لم يتم إعدامها فى الحال. وبالمقابل، وفى أعقاب جدال ومشاحنات بيروقراطية معقدة، آلت تلك الأوراق إلى وزارة الخارجية الألمانية. وبعد عقود قلائل، تم الإفراج عنها، وأضحت - الآن - متاحة للعامة.

ومع رحيل "روبرت دريهر"، ووفاة "غرهارد فون منده" ... ترجل المتنافسان الغربيان ورحلا عن الساحة. أما المصالح الأمريكية، فكان لها وجهة أخرى - وبخاصة صوب فيتنام، فاهتمام الولايات المتحدة الأمريكية بالإسلام كسلاح من أسلحة الحرب الباردة لم يكن ليعاد إحياؤه إلا بعد خمسة عشر عاما ... حين قام الاتحاد السوفييتى بغزو أفغانستان. هذا، وقد عمد مكتب التقييم النهائى التابع للبنتاغون الأمريكى بتفويض مؤسسة RAND بكتابة تقرير عن توظيف "غرهارد

فون منده" للمسلمين. أما "ألكس ألكسييف"، وهو باحث مغامر، فقد كتب تقريرا عن الأوستمنستريوم ... ذلك التقرير الذى لم يتم الإفراج عنه بعد، وهو بعنوان "القوميات السوفييتية فى الاستراتيجية الألمانية إبان الحرب الكونية الثانية ١٩٤١-١٩٤٥". وقد أوضح "ألكسييف" الدلالات بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية حين عكفت على تسليح المسلمين السوفييت لمجابهة "موسكو". ويذهب التقرير إلى أن "تلك الدراسة ينبغى أن تكون محل اهتمام القائمين على التخطيط العسكرى والاستراتيجى الذين يشرعون فى تناول قضية القوميات السوفييتية من منظور استراتيجى". ويمضى "ألكسييف" متذكرا الأوستمنستريوم، وكيف كان الألمان ذوى فاعلية فى استغلال الانقسامات التى اتسمت بها الإثنيات المنتمية إلى الاتحاد السوفييتى. وبما أن العديد من تلك المجموعات الإثنية قد كونت جزءا من الجيش السوفييتى الذى كان قد غزا أفغانستان لتوه، كان لدى الولايات المتحدة فرصة لتكرار تكتيكات الألمان وتجنب الوقوع فيما وقعوا فيه من أخطاء. كذا، فقد أشار "ألكسييف" إلى أن العديد من أفراد تلك المجموعات الإثنية يعيشون أيضا فى أفغانستان بما يمنحهم مسوغا قويا لمحاربة "موسكو".

لقد كانت الدراسة التى أعدها "ألكسييف" جزءا من نقاش أوسع أفضى إلى تسليح الجهاديين الإسلاميين لمحاربة السوفييت. لقد كان الأمر شبيها باستغلال الألمان البارع لهم ... فالألمان قد زرعوا أمين الحسينى - مفتى القدس - وأنشأوا مدارس دينية تم فيها تقديم دورات لتأهيل الدعاة. كذا، فقد سعوا إلى تعيين زعماء دينيين فى مناطق تجمع المسلمين السوفييت ... كل ذلك بغرض تحفيز القوات المسلمة على القتال. وعلى صعيد آخر، كان لدى واشنطن سابقة أكثر جلاء لدعمها للمجاهدين الأفغان، ألا وهى دعمها لحلفاء أمين الحسينى - جماعة "الإخوان المسلمين". وفى دعمها لسعيد رمضان، فقد ربطت واشنطن نفسها فى تحالف مع

جماعات المقاومة الإسلامية السرية - التى تعد الإلهام الحقيقى لمن صار يطلق عليهم اسم "المجاهدين الأفغان". ونظرا لعدم قدرتنا على الولوج إلى ملفات "وكالة الاستخبارات المركزية"، فإنه لا يمكننا تقرير وجود ارتباط سببى يربط ما بين ميونيخ وأفغانستان، إلا أنه من الأرجح أن يكون الاستخدام المبكر لجماعة "الإخوان المسلمين" قد جعل من السهل على الاستخبارات الأمريكية أن تقوم بتسليح الأفغان. وحين أوقفت الولايات المتحدة دعمها بعد عقدين من الزمان، وتحديدا فى أعقاب أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، لجأ الكثيرون إلى النظر إلى أفغانستان على كونها المرتكز التاريخى الذى ارتكن إليه هذا الهجوم ... إن تحليل الأمر على هذا النحو قد كان صائبا، بيد أن قليلين فقط هم من أدركوا أن الأنموذج الأولى لمثل هذا كان مرتكزه فى ميونيخ بألمانيا.

وكانت ألمانيا الغربية - بالفعل - قد شرعت تمضى قدما صوب "التقارب" مع الكتلة الشرقية، فلم يعد مسئولوها - إذاً - فى حاجة إلى المسلمين، إلا قليلا ... فموت "غرهارد فون منده" قد أنهى مراقبة ألمانيا الغربية للجماعات الإسلامية الراديكالية حتى تسعينيات القرن العشرين، حين أفضت نشأة تنظيم "القاعدة" وانتشار الإرهاب الإسلاموى إلى إعادة توجيه أنظار الاستخبارات الألمانية ثانية نحو تلك الجماعات. وحينها - فقط - أخضع مسجد ميونيخ والطلبة العرب - الذين أضحوا اليوم من كبار السن - إلى مجهر الفحص والمراقبة مرة أخرى.

إلا أن جماعة واحدة قد أبقيت على خشبة المسرح، ألا وهى جماعة "الإخوان المسلمين" ... فأعضاؤها لم يفقدوا حماستهم ولم تتشتت رؤاهم ... لذا، فقد أفادوا من موطئ القدم هذا الذى أتاحته ألمانيا الغربية والاستخبارات الأمريكية لهم. وبتؤدة وهدوء، عمد الإخوان المسلمون إلى تحويل مسجد ميونيخ إلى قاعدة انطلاق لاختراق العالم العربى.

حـــروب حديثـــة

الفصل الثالث عشر

الإخوان المنتصرون

وأخيراً... تحقق الحلم في الرابع والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٧٣ ... إذ انطلق صوت الأذان لأول صلاة تقام في المركز الإسلامي بميونيخ - أو مسجد ميونيخ - الذي كان قد افتتح لتوه. لقد كانت تلك الصلاة أول صلاة تقام في مسجد على امتداد التاريخ البافاري برمته، وكان المسجد هو السادس على امتداد ألمانيا الغربية بأسرها.

إن مسجد ميونيخ، الذى بلغت نفقات إنشائه ثلاثة ملايين مارك ألمانى (أو ما يعادل خمسة ملايين دولار أمريكى بأسعار عام ٢٠٠٩)، قد بنى على طراز المساجد العثمانية بمئذنة رفيعة مدببة يبلغ ارتفاعها ٣٥ مترا (حيث يطلق المعماريون على هذا النمط من المآذن: القلم الرصاص) ... مئذنة يعلو قمتها هلال ذهبى. كذا، فقد كان ثمة سلم حلزونى يصل إلى شرفة المؤذن، وإن كان السلم قطعة معمارية رمزية فحسب ... إذ كان الأذان يرفع من داخل المسجد لا من شرفة المؤذن. أما المسجد نفسه، فكان تكوينا ذا شكل بيضاوى، أطلق عليه اسم "البيضة الذرية"، حيث بنيت القبة باستخدام الخرسانة المسلحة وتم تغطيتها ببلاطات لازوردية اللون، أما الداخل ... فكان يحوى غرف اجتماعات ومكاتب وخزانة كتب. إن مسجد ميونيخ كان عملا لمعمارى تركى يدعى "عثمان أديب غوريل" ... ذلك المعمارى الذى سعى إلى تصميم بناء جذاب قليل النفقة.

أما مراسم الاحتفال بتدشين المسجد، فقد حضرها نحو مائتين من الشخصيات

المرموقة والدبلوماسيين، من بينهم العديد ممن كانوا، قبل ١٥ عاما من تاريخ التدشين، طلبة سيطروا على مقاليد مشروع بناء المسجد. بيد أن أى مراقب لمسيرة بناء المسجد سيلحظ ملمحا معيبا انطوى عليه مشهد الافتتاح. فحين جاء الدور على القائم على مسجد ميونيخ لتقديم "المفتاح الذهبى" هدية إلى ممول المشروع، لم يكن "سعيد رمضان" هو من سلم "المفتاح" بحافظته المصنوعة من جلد الماعز إلى أحد الشيوخ الجالسين بعيدا ... بل كان لطالب باكستانى شرف تأدية ذلك الطقس. ولم يكن رمضان متغيبا فحسب، بل كان قد هجر مشروع المسجد ضجرا واستياء حيث كاد يطرد من لجنة البناء.

لقد بلغ نفوذ رمضان مداه قبل ذلك بأحد عشر عاما حين أسهم فى تكوين "رابطة العالم الإسلامى". وكان الرجل قد عمل بدأب شديد لعقود فى سبيل توحيد صفوف المسلمين فى العالم أجمع حول هدف مشترك. وبتدشينه لرابطة العالم الإسلامى، نجح

رمضان فى بناء مؤسسة أقيمت لتبقى ... حيث كان فى أوج نفوذه خلال الاجتماع المصيرى الذى شهد قيامه – بشخصه – بتسليم المقترح الرسمى لإنشاء الرابطة إلى الملك سعود بن عبد العزيز، العاهل السعودى آنذاك[٩٧]. وكان سعيد رمضان راغبا فى تذويب الفوارق القومية ونشر الإسلام لتكون له الكلمة العليا. بيد أن السعوديين كانوا قد بسطوا نفوذهم على رابطة العالم الإسلامى منذ البداية على النحو الذى أوضحته مراسم حفل التدشين. فالمملكة السعودية كانت قد سيطرت على جميع المناصب العليا، وهى التى اضطلعت بالتمويل. هذا، وكان العديد من أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" قد توددوا إلى المملكة ... فالمملكة هى موضع الحرمين الشريفين والمشاعر المقدسة، فضلا عن ثرائها ومن ثم قدرتها على تمويل أى مشروع بحاجة إلى أموال طائلة من مكتبات ومدارس إلى مراكز تدريب وحركات تبشيرية عالمية النطاق. كذا، فالأسرة المالكة هناك (آل سعود) تتبنى ضربا محافظا من "الإسلام" يشبه فى أوجه عديدة ذلك المتبع من قبل الجماعة. هذا، وقد وجد العديد من أعضاء الجماعة ممن تعرضوا للاضطهاد فى مصر ملجأ لهم فى المملكة، حيث قبل جلهم الأموال السعودية. إلا أن رمضان قد امتنع بشدة عن قبول أموال من المملكة فى عزمه على البقاء مستقلا، حتى حين عمد السعوديون بشدة إلى استمالته بأموالهم. وفى عام ١٩٦٣، طلبت "رابطة العالم الإسلامى" إلى رمضان جعل مركزه الإسلامى بجنيف السويسرية أول مقر لها بالخارج، إلا أنه رفض طلبها، فضلا عن رفضه للمساعى التى رمت إلى تحويل مجلته "المسلمون" أداة رسمية للرابطة. أما الخطاب الذى أرسله رمضان للرابطة متضمنا رفضه لأموالها فكان ممهورا بجهة إصدار وهمية – هى "إسلامستان" ... فى إشارة إلى رفضه التام لأن تسيطر أية دولة على نشاطه، أو أن تفقده استقلاله. إلا أن السعوديين لم يصرموا حبائلهم برمضان من فورهم. إذ كان رمضان – آنذاك – ما يزال يحمل جواز سفر دبلوماسيا كسفير فوق العادة لرابطة

العالم الإسلامى. إلا أنه قد عمد، لاحقا، إلى استخدام جواز سفر باكستانى ... فى إشارة جاءت – على الأرجح – لتفصح عن كونه قد ضاق ذرعا بأفاعيل السعوديين.

وبتغير ميزان القوى فى إقليم الشرق الأوسط، انفض الطلبة من حول "سعيد رمضان" وتركوه قائما. وقد تضافرت عوامل عدة أفضت إلى ذلك ... كان أبرزها العامل المالى. ولعل نور الدين نمنقانى كان منحازا حين أورد أن رمضان كان "ضجيجا بلا طحن"، إذ كان يعد كثيرا ولا يفى إلا بالقليل ... إلا أن نمنقانى كان محقا فيما ذهب إليه، إذ كان رمضان مثيرا للجدل على نحو كبير، إلى درجة أن الكثيرين ممن تعهدوا بتقديم الأموال لم يفوا بتلك التعهدات، فلم يف بها إلا أقل القليل. وكان رمضان قد حصل على أكبر تعهد بمنح الأموال من أحد رجال الأعمال السعوديين، إلا أن احتمالات أن يفى الرجل بتعهده كانت قد تضاءلت نتيجة خلاف رمضان مع السعوديين وانفصاله عنهم.

أما الذى اضطلع بدور "بروتس" فى هذه الدراما فكان "غالب همت" ... إذ تكهن بعض الزملاء من الطلبة أن "الهوية القومية" قد كان لها دور فى المعضلة القائمة ... إذ كان رمضان مصريا، فيما كان همت سوريا ... حيث كان فرع "الإخوان المسلمين" السورى أكثر الأفرع نشاطا بعد نظيره المصرى. وكان يترأس الفرع السورى، "عصام العطار" ... الذى قدم أوروبا فى أوائل ستينيات القرن العشرين حيث اختارها ملجأ له فى المنفى. هذا، ومن الأرجح أن كان غالب همت قد أراد أن يجلب "العطار" إلى ميونيخ، عوضا عن رمضان. إلا أن "العطار" قد رفض الأمر ليستقر فى مدينة "آخن" الألمانية وينشئ مركزا إسلاميا بها. هذا، فيما ذهب آخرون إلى افتراض أن المشكلة الحقيقية كانت تكمن فى افتقار همت إلى "مثالية" رمضان الذى كان يأمل فى نشر الرؤية الإسلامية من خلال التعليم والتثقيف. أما همت، فكان "سياسيا" بأكثر مما كان رمضان – الأمر الذى أدى، بالفعل، إلى أن

عانى المركز الإسلامى مستقبلا عنيفا ذا قلاقل وأنواء. وفى هذا الصدد، فإن "كمال توفيق الهلباوى" المتحدث باسم جماعة "الإخوان المسلمين" فى التسعينيات، والذى أسس الرابطة الإسلامية فى بريطانيا MAB فى عام ١٩٩٧، وترأس إدارتها، والذى تربطه علاقات بكل من همت ورمضان ... يذهب إلى القول بأن "سعيد رمضان كان إسلامويا تقليديا يعرف تعاليم الإمام حسن البنا، إذ كان يحيا فى منزله". واستطرد الهلباوى قائلا: "ربما عمد بعض الأعضاء الجدد إلى انتهاج اقتراب سياسى على نحو أكبر حيث لم يكن أولئك مهتمين بعنصر التعليم. كذا، فربما لم يعر البعض تعاليم الإمام البنا اهتماما كافيا" ... جاء ذلك فى حوار جمعنى بالهلباوى فى العشرين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥ بلندن.

وبحلول منتصف الستينيات، أضحى سعيد رمضان وقد ضاق ذرعا بالطلبة ... وذلك وفقا لعبيد الله مجددى الذى ظل بلجنة بناء مسجد ميونيخ عقب ترك رمضان لها. يقول مجددى: "لقد سئم الطلبة رمضان الذى قال إنه لن يربطه بهم أى رابط بعد ذلك".

أما همت - فيتذكر الأمر على نحو مغاير، إذ قال: "إن رحيل رمضان لم يكن له أدنى علاقة بالاختلافات القومية أو بمستوى الطموحات المتباين". ويضيف: "لم يكن لرمضان دور ليضطلع به فى لجنة بناء المسجد، كذا فقد كانت تحيطه مشاغل كثيرة - لاحقا - لم يعر رمضان معها اهتماما باللجنة ... كان رمضان قد حضر بعض اجتماعات قليلة، إلا أنه قد اعتذر عن عدم الحضور لاحقا مبررا الأمر بكونه لم يعد قادرا على المضى قدما فى هذا الشأن ... ولا أدرى السبب الذى دفعه إلى ذلك. لقد كان الجهاد من أجلنا فى ميونيخ عبئا لم يكن عاتق سعيد رمضان ليقوى عليه".

وقبل أن يترك رمضان ميونيخ للمرة الأخيرة، وذلك عام ١٩٦٦، على نحو التقريب

... عمد الرجل إلى تحذير "فضل يزدانى"، ذلك الباكستانى الذى سيضحى خليفة له فيما بعد، من أنه قد صار محاطا بحفنة من الانتهازيين السياسيين. كذا، فقد حذره رمضان - باسما - من مغبة المكايد السياسية، ومن احتمالية أن يكون العرب ينظرون إلى أنفسهم على أنهم أفضل من سائر المسلمين الآخرين. واختتم رمضان تحذيره ليزدانى بالقول: "سوف تخبرك الليالى من هم العرب" ... على نحو ما جاء على لسان "يزدانى" حين التقيته فى ميونيخ فى الثامن والعشرين من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٥ .

فى البدء، بدا الطلبة وكأن قد حلت بهم لعنة. فبعد رحيل رمضان، لم يكن لديهم منسق ذو خبرة. كذا، فلم يكن لديهم أدنى فكرة عن كيفية اجتذاب الأموال، وكانوا يفتقرون إلى الموارد اللازمة لحملات جمع الأموال. أما رحيل الجنود السابقين، فقد وضعهم أيضا فى مأزق. فحين كان رجال "فون منده" ما يزالون جزءا من خطة بناء المسجد، كان بإمكان المسلمين الاطمئنان إلى الحصول على قطعة أرض بالمجان فضلا عن اعتراف الحكومة بمشروعهم باعتباره هيئة خيرية - الأمر الذى يعنى أن تكون المنح والهبات معفاة من الرسوم الضريبية. إلا أن المسئولين الألمان كانوا قد تراجعوا عن منح هذين الامتيازين. فلسنتين بأكملهما، سعى الطلبة إلى تجميع الأموال اللازمة لمشروعهم دونما جدوى.

وهنا تدخل "فضل يزدانى" ... الذى طلب إليه رمضان أن ينضم إلى لجنة بناء المسجد عام ١٩٦٠، حيث رأى فيه مخايل "مثالى مقتدر". وينتمى يزدانى إلى عائلة ذات شأن تربطها بالعالم الإسلامى روابط جيدة ... ذلك أن رمضان - المتسم دوما بنزعة عالمية - لم يكن على الأرجح راغبا فى أن يسيطر العرب على المشروع، دون غيرهم. لذا، فقد عمد إلى قرار حكيم صائب باختياره يزدانى، الذى ثبت أنه مكرس للقضية. لقد أرسله أبوه لدراسة الطب فى ألمانيا، إلا أنه هجر دراساته للالتحاق بلجنة بناء المسجد ... ليصبح رئيسا لها بعد أن تغير اسمها إلى "الجماعة

الإسلامية بجنوب ألمانيا"، وذلك فى عام ١٩٦٥ - بعد مغادرة رمضان. ومن خلال الأب الذى كان من رجال الأعمال الباكستانيين الذين أصابوا نجاحا ... تم تقديم يزدانى إلى السفير الباكستانى فى ألمانيا الغربية، الذى قدمه - بدوره - إلى سفارات بعض البلدان الإسلامية. لقد أدت الاحتجاجات التى خرجت من تلك السفارات إلى جعل وزارة الخارجية الألمانية تضغط على المسئولين البافاريين لمنح تلك الجماعة الإسلامية إعفاءات ضريبية مميزة ... حيث وفر هذا الامتياز الثمين لها عشرات الآلاف من الدولارات على امتداد ثلاثة عقود ونصف تالية.

وفى النهاية، تمكن الطلبة من جمع أموال تكفى لابتياع قطعة أرض على أطراف ميونيخ، فضلا عن تأجير خدمات المعمارى الذى سيعهد إليه بتصميم مبنى المسجد. هذا، وقد أُرسِى حجر أساس المسجد عام ١٩٦٧، حيث ألقى السفير الباكستانى لدى ألمانيا كلمة بهذه المناسبة. إذا، فقد أضحى اكتمال بناء المسجد وشيكا.

إلا أن أزمة جديدة قد جاء دورها. لقد كان التمويل الأساسى المقدم ليزدانى واردا من المملكة الليبية ... والتى كان لغالب همت علاقات وروابط بها من خلال جماعة "الإخوان المسلمين"، حيث كان من المتوقع أن يقوم البلاط الملكى الليبى بتمويل المشروع. أما أساسات المبنى فكانت قد أرسيت، وأما الهيكل الخرسانى فكان قد أقيم ... حتى لقد تم تركيب المولدات وأنابيب التدفئة. هذا، وتشهد ليبيا فى الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩ انقلاباً عسكرياً أطاح بالملكية بها قاده ضابط يدعى معمر القذافى، والذى عمد إلى إيقاف ضخ الأموال اللازمة لبناء المسجد - الذى كان ما يزال هيكلا حيث تعرض لعوامل البلى المختلفة، إذ أخذ الصدأ طريقه إلى الأنابيب التى سبق تركيبها. أما يزدانى، فقد يمم - يائسا - شطر السفارة الليبية، والتى كانت تأتمر حينها بأوامر العقيد معمر القذافى ... حيث ناشد القائمين عليها بالسماح بتدفق الأموال بغية استكمال مشروع المسجد ... فما كان من السفير إلا أن أرسل

سكرتيرا لديه لاستطلاع الموقف والوقوف على أحوال موقع البناء. وحرصا منه على تلميع صورته وصقلها أمام العالم الإسلامى، وافق القذافى على دفع المبلغ المتبقى اللازم لاستكمال المسجد (نحو ١,٥ مليون مارك ألمانى، آنذاك). وبحلول عام ١٩٧١، صارت الأموال تتدفق ليفتتح المسجد فى الرابع والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٧٣ - كما وردت الإشارة فى مستهل الفصل الحالى.

وبعد أشهر قلائل ... اجتمع أعضاء الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا مرة أخرى فى ميونيخ ... حيث سيشكل الاجتماع المذكور الهيئة التى سيعمل بموجبها المسجد لعقود تالية واضعا إياه فى قبضة الجناح ذى التوسع السياسى، السعودى التمويل من أجنحة "الإخوان المسلمين" ... وبعبارة أخرى، فى قبضة غالب همت. وكما العهد فى كل من اجتماعات الجماعة نصف السنوية، كان القرار الرئيسى حول هوية الأحق بتولى منصب الرئاسة. وكان يزدانى قد اضطلع بالمنصب منذ عام ١٩٦٥ وبدا أنه واثق فى الفوز لا محالة. فبالتعاون مع أحمد شميده، ذلك الألمانى الذى اعتنق الإسلام وأشركه رمضان فى تأسيس "رابطة العالم الإسلامى" عام ١٩٦٢ ... قام يزدانى بجمع الأموال اللازمة لبناء مسجد ميونيخ.

إلا أن يزدانى لم يكن من بين الحضور ... إذ كان قد عاد إلى باكستان ليبقى إلى جوار والده المريض. وفى أثناء غيابه، اضطلع البعض بحملة تشهير[٩٨] ذهبت إلى كون يزدانى قد أثرى حسابه الشخصى من أموال المشروع، إلا أنه قد تم تفنيد تلك التهمة ودحضها لاحقا حيث تم إسقاطها، إذ كانت مزاعم لا أساس لها من الصحة. أما المقاولون الكبار، فقد قامت السفارة الليبية بدفع مستحقاتهم مما جعل من العسير على أى فرد أن يقتطع أموالا لحسابه. بيد أن الشائعات قد جعلت يزدانى مهددا ... حيث احتشد فصيل من الطلبة العرب ضده. ومثلما كانت الحال تماما حين قام الطلبة العرب بتنحية اللاجئين المسلمين قبل عقد من الزمان، كان

التصويت هذه المرة مغلقا ومثيرا للجدل، حيث عمد الطلبة العرب إلى الدفع بمرشحين اثنين أحدهما سورى (غالب همت) والآخر مصرى. وفى الجولة الأولى للتصويت، لم يفز أى من المرشحين بأغلبية ثلثى الأصوات، ليلى ذلك انسحاب المرشح المصرى ليفوز همت مدعوما بأصوات العرب المتكتلين وراءه. وحين علم يزدانى بالأمر، فت ذلك فى عضده على نحو بالغ.

وفى لقائى بيزدانى، قال الرجل: "إننى أقر بكونى سعيدا لأن المسجد قد اكتمل بناؤه ... إلا أنه بين الحين والآخر أجدنى محبطا كسيفا بعض الشىء لما آلت إليه الأمور ... إذ لم تكن تلك الأمور مثالية على النحو الذى توقعت أن تكون عليه". فإحدى المشاكل التى ذكرها يزدانى كانت التشديد على العرب دون من عداهم من المسلمين. واستطرد يزدانى: "لقد تحدثت إليهم حول إتاحة الفرصة أمام المسلمين على اختلافهم، إلا أن ذلك لم يلق قبولا لديهم ... إذ كانوا يريدون فصيلا واحدا: العرب".

هذا، وقد بدت فكرة كون العرب قد تحالفوا معا لاستبعاد أحد الباكستانيين فكرة تآمرية أو كونها زفرات حرى لمهزوم. فربما كان التشابه مع استبعاد جنود آسيا الوسطى السابقين فيما مضى محض مصادفة، إلا أن أحداث العام التالى قد أظهرت بجلاء الطبيعة الاستبعادية للجماعة. ففى عام ١٩٧٤ رفع مائة عامل تركى (من العمال الضيوف) مظلمتهم ضد "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا". هذا، وقد زعم أولئك الأتراك أنهم وآخرين قد حرموا عضوية الجماعة لأكثر من مرة، بالرغم من أن لائحة الجماعة تنص على "أنه يحق لأى مسلم أن ينضم إلى عضوية الجماعة ما دام يؤمن بأهدافها ويدعم مصالح المجتمع وأهدافه" ... وقد قال الأتراك إنهم قد فعلوا – فقد ساندوا عمليات بناء المسجد ودعموها، وهم يريدون الآن أن يساهموا فى إدارته. ألم يعهد ببناء المسجد إلى معمارى تركى؟!... إلا أن الجماعة صوتت ضد انضمام الأتراك لعضويتها قائلة إن ذلك مدعاة لإحداث الفرقة ونقض الاتساق وعرى التماسك.

وفى عام ١٩٧٥، سعى الأتراك ثانية إلى الانضمام لعضوية الجماعة، مدعومين فى تلكم المرة بفضل يزدانى الذى كان ما يزال، آنذاك، عضوا رسميا من أعضاء المسجد. أما الاجتماع فكان مقصورا على الأعضاء، فلم يسمح لغيرهم بالمشاركة. هذا، وقد طالب يزدانى أن يتاح لأى فرد داخل المسجد حضور الاجتماع ... وكان العديد من الأتراك قد وفدوا أملا فى كسر احتكار العرب لعضوية الجماعة. كذا، كان يزدانى يأمل فى احتشادهم لتأييده ... إلا أن غالب همت ومناصريه قد صوتوا لجعل الاجتماع مغلقا مقصورا على الأعضاء. تلا ذلك قيام يزدانى برفع دعوى أمام المحكمة متهما جماعة "الإخوان المسلمين" باحتكار السيطرة على مقدرات المسجد بما يشبه قيامها باختطاف المسجد عنوة. أما همت وأتباعه، فوفقا لمحضر الاجتماع، فقد ذهبوا إلى "كون الاتهام باطلا غير ذى موضوع، فليس لدى يزدانى ما ينهض دليلاً على ادعائه". لقد أزيح يزدانى نهائيا عن الجماعة، وكانت تلك نهاية علاقته بمسجد ميونيخ. وعلى امتداد الأعوام التالية، عمل يزدانى مترجما بإحدى المحاكم حيث أبعد نفسه تماما عن أى شىء قد يربطه بمسجد ميونيخ.

ومرة أخرى ... تناولت جماعة المسجد قضية السماح للأتراك بالانضمام لعضوية الجماعة. إن العديد ممن منع من حضور الاجتماع المغلق كانوا من "العمال الضيوف" ... تلك الظاهرة التى مثلت جزءا من موجة جديدة غير مسبوقة من هجرة المسلمين صوب أوروبا. لقد تم إخبار أولئك الذين منعوا فى السابق بأن قد صار بإمكانهم حضور الاجتماع. ونظرا لكون ألمانيا لا تحوى إلا القليل من المساجد، بل كان جل دور العبادة الإسلامية بها أقرب إلى زوايا أو غرف يقوم اللاجئون باستئجارها ... فقد كان أولئك الأتراك تملؤهم الحماسة للانضمام إلى "مسجد" – بقدر ما تحمله الكلمة من معان ... مسجد ذى قبة ومئذنة، ذلك المشاد بالفعل على غرار المساجد العثمانية. وفضلا عن ذلك، فقد اتسع نشاط "الجماعة الإسلامية

بجنوب ألمانيا" ليشمل مساجد فى "نورمبورغ"، و"أولم" ... ذلك التوسع الذى كان السبب فى تغيير اسمها. هذا، وقد شعر الأتراك بأن الجماعة لابد لها من قاعدة واسعة النطاق بألا تقتصر على حفنة الطلبة ... هؤلاء الذين قيض لهم إدارة المشروع وتسييره خلال الخمسة عشر عاما المنصرمة.

إن إدارة الجماعة قد رفضت الالتماس بالانضمام إلى عضويتها ... ليلى ذلك قيام الجماعة بتعديل دستورها للحد من العضوية بها. فدستور الجماعة قبل التعديل قد نص على أحقية أى فرد ذى اهتمام بأمر المسجد فى الانضمام لعضوية الجماعة، إلا أن الدستور قد عدل لخلق فصيلين اثنين: فصيل يضم "الأعضاء الاعتياديين" الذين يحق لهم غشيان المسجد وتأدية الصلوات به ... وفصيل آخر يضم أولئك القائمين على إدارته وتسيير شئونه. وكان القرار يعنى أن الأتراك يحق لهم أداء صلواتهم والتبرع بالأموال دون أن يكون لهم حق التصويت. ويا للمفارقة الساخرة، فقد عكس القرار دور الأتراك فى المجتمع الألمانى بصفتهم من "العمال الضيوف" إذ حرموا صفة "المواطنين غير منتقصى الحقوق".

أما الرواية الرسمية للاجتماع، فنصت على أن فصيل القائمين على الإدارة قد رغبوا فى أن يظل الفصيل صغير الحجم بحيث يتمكنون من تسيير شئون الجماعة على نحو كفء. وإبان الاجتماع المذكور، كانت "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا" تضم واحدا وأربعين عضوا فحسب، وهو العدد ذاته تقريبا الذى كانت تضمه قبل ذلك بعشر سنين حين كان اسمها "لجنة بناء مسجد ميونيخ"، وكان اهتمامها ينصرف بالكلية إلى تشييد المسجد ... ورغما عن كونها صارت تضم أعضاء على امتداد الجنوب الألمانى، إلا أنها قد احتفظت بإدارتها المركزية ذاتها.

وعلى مدار ربع القرن التالى، سيعمل غالب همت على الإفادة من ذلك التماسك

... حيث مضى قدما بالمركز الإسلامى بميونيخ عبر مسار انطوى على قدر من مغامرة ... إذ سيضحى المركز منظمة قومية لها أفرع فى القارة الأمريكية، مرسية حجر الأساس لمنظمات أوروبية ما تزال قائمة إلى اليوم، بما يؤكد أن "نسخة" الإخوان المسلمين المعتمدة للإسلام سيقيض لها أن تكون النسخة الأكثر نفوذا فى الغرب بأسره. إن مسجد ميونيخ سيضحى عرضة للقصف والحرق، بيد أنه سيضحى محورا للجهاد ... إذ عمد القائمون عليه إلى تجنيد الشباب المسلم للحرب فى البوسنة. كذا، فإن من دينوا لاحقا بالإرهاب سيعمدون إلى اختيار مسجد ميونيخ كوجهتهم المفضلة لائذين بأعتابه ... أما همت فسيجبر ذات يوم على الاستقالة من منصب رئيس المسجد حين يتم اتهامه بالقيام بتمويل تنظيم القاعدة.

بيد أنه وقبل أن تأخذ جميع تلك الأحداث والوقائع مجراها، سيكون غالب همت قد وجد شريكا قويا ليعادل به كفته المرجوحة نتيجة ضعفه. لقد كان همت انعزاليا حيث كان يحيا بعيدا من المسجد، وكان ظهوره فى المحافل العامة أمرا نادر الحدوث. كذا، فقد كان من الصعب العثور على صور فوتوغرافية له. وعلى مدار تواتر الأعوام، عمد الرجل إلى رفض جميع الدعوات الموجهة إليه لإجراء لقاء أو حوار معه. أما "الشريك القوى"، ويدعى "يوسف ندا" ... فكان على النقيض من همت تماما ... إذ كان متحمسا متوقدا وهاجا، وانبساطيا ودودا - شغوفا بالشهرة أيما شغف، محبا للظهور أيما حب. لقد أتاح ندا علاقات هامة لغالب همت، أتاحتها له، بدورها، شبكة علاقاته المترامية الأطراف. وكان ندا يكبر همت بسنوات ... ندا ذلك الإخوانى المخضرم الذى قام بتوفير التمويل اللازم لمسجد ميونيخ، وإمداد "الإخوان المسلمين" داخل مصر بشبكة علاقات دولية واسعة النطاق. فإذا كان سعيد رمضان قد مثل "الرؤية الثاقبة"، وكان غالب همت قد مثل "العقل المدبر" للجماعة ... فإن يوسف ندا هو "مهندس علاقاتها" ... ذلك الرجل

الذى مزج ببراعة متناهية كلا من العنصر البشرى والعنصر التمويلى.

لقد انضم يوسف ندا إلى جماعة "الإخوان المسلمين" وكان لا يزال شابا - آنذاك - فى الإسكندرية. ويتذكر ندا تلك الأيام حيث كان ثمة مشاجرة فى الشارع بين مجموعتين من الأشخاص ... لم ينهها إلا تدخل مجموعة يلبسون ملابس الكشافة، عرف ندا أنهم من جماعة "الإخوان المسلمين"[99]، فانضم إلى الجماعة فى عام ١٩٤٨ ليصبح عضوا ملتزما إذ رأى فى الجماعة طريقا للخلاص الوطنى. وحين بلغ الثالثة والعشرين ألقى القبض عليه وزج فى السجن ... لقد كان ذلك فى عام ١٩٥٤، حيث صدرت الأوامر من جمال عبد الناصر بالقبض على أى ممن كانت له علاقة بالإخوان، كذا فقد قام بحظر الجماعة وتشتيت أعضائها كل مشتت. لقد كانت تلك حملة الاعتقالات التى أفلت سعيد رمضان من الوقوع فيها، إلا أن ندا قد تم القبض عليه ليعتقل لعدة سنوات. ويتذكر ندا أيام السجن قائلا: "لقد رأينا وسائل تعذيب شتى من الصعق بالكهرباء، والغمر فى مياه مثلجة، والسياط، والكلاب، و، ... وغيرها". وبينما كان سجينا، التقى ندا قيادات كبيرة فى جماعة "الإخوان المسلمين" وراء القضبان ... حيث ستظل تلك الروابط قائمة على امتداد حياة الرجل.

وفى البدء، ركز ندا جهوده فى "البيزنس"، حيث عمل بمعمل للجبن والألبان كان قد أسسه، إلا أنه لم يحتمل العيش فى "مصر عبد الناصر". آنذاك، كان ندا ما يزال يشعر بقربه من جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أنه قد تم حظر الجماعة ... وشعر ندا بمدى وطأة الرقابة اللصيقة، فالتمس سبيلا لمغادرة البلاد. وفى عام ١٩٦٠، ارتحل إلى النمسا لدراسة "تصنيع الأجبان"، وذلك لرغبته فى أن تكون تلك حرفته حين العودة إلى أرض الوطن. وفى النمسا، تواصل الرجل - على الفور - مع أعضاء الجماعة بالمنفى حيث سمع بالطلبة المسلمين فى ميونيخ. وفى العام

ذاته، غادر ندا بيته الجديد فى "غراتس" النمساوية قاصدا ميونيخ لمشاركة الطلبة احتفالهم بعيد الأضحى.

وكانت تلك بداية تعرفه إلى غالب همت. وفى البداية، كانت لقاءات الرجلين متباعدة وغير منتظمة ... إذ كان ندا يرتحل بين الحين والآخر إلى ميونيخ، إلا أنه لم يكن عضوا أصيلا فى المجموعة ... كذا، فقد أخذت علاقته بميونيخ تضعف تدريجيا حين عمد إلى ممارسة "البيزنس" فى المملكة الليبية حيث حزم أمتعته قاصدا طرابلس ... وهو الأمر الذى أتاح للطلبة المسلمين فى ميونيخ تمويلا مبدئيا لبناء المسجد.

وفى ليبيا، طلب البلاط الملكى إلى ندا أن يكون المستشار الزراعى للبلاد، فوافق الرجل. كذا، فقد فاز بامتياز استيراد مواد بناء من النمسا ... ومثلها فى ذلك مثل معظم مشاريع ندا، كان الامتياز يشبه احتكار ارتكن إلى شبكة علاقات الرجل الواسعة. وبسقوط الملكية فى ليبيا فى إثر الانقلاب العسكرى الذى قاده معمر القذافى فى الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٩، غادر ندا البلاد ... حيث زعم أن قد تم تهريبه خارج الأراضى الليبية نظرا للعلاقات الوثيقة التى كانت تربطه بملك البلاد السابق، إدريس السنوسى، حيث ارتحل أولا إلى تونس ومنها إلى اليونان، ثم إلى ألمانيا ... حيث توطدت صداقته بغالب همت ... عندها قرر ندا الاستقرار فى أوروبا، وسعى للبحث عن سكن له، فانتقل إلى كانتون "كامبيونا" جنوب سويسرا بالقرب من بحيرة "لوغانو" - وهى أرض إيطالية ولكنها فى التراب السويسرى. وفى تلك الأثناء، كان كل من همت وندا لصيقين للغاية، حيث طلب همت إلى ندا الانضمام إلى "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا"، حيث التحق بها عام ١٩٧١ . وسرعان ما عمد همت إلى "كامبيونا" للسكن بها، وذلك على بعد خطوات قلائل من بيت ندا، إذ لم يكن يفصل بيتيهما سوى ديار قليلة.

وحين عقدت الجماعة الإسلامية اجتماعها عام ١٩٧٣، غادر ندا "كامبيونا" قاصدا ميونيخ لحضور الاجتماع – ولعقود ثلاثة لاحقة، ستتم إدارة شئون مسجد ميونيخ، وكذا الشبكة المتنامية من المراكز الإسلامية فى ألمانيا ... من كانتون "كامبيونا" الإيطالى. وفى الاجتماع المذكور، تم استبعاد سعيد رمضان رسميا نظرا لتغيبه غير المبرر، حيث قام ندا بالتصويت لصالح القرار.

هذا، وقد أسهم ندا فى ربط مسجد ميونيخ بشبكة "الإخوان" السعودية. فالرجل ما تزال تربطه علاقات وثيقة بجماعة "الإخوان المسلمين" فى مصر، حيث يقول إنه ظل لعقود طوال مفوض العلاقات الخارجية فى الجماعة. على أنه من الصعب معرفة مدى صحة هذا الزعم، لكن ندا قد قام بالفعل بمهام لعب خلالها دور مفوض الإخوان حين قصد إيران إبان الثورة الإسلامية بها التى أسقطت حكم الشاه لتحل محله جمهورية ثيوقراطية تحت إمرة الخمينى. كذا، فقد كان ندا مفوضا إلى أفغانستان لمساعدة المجاهدين هناك فى صراعهم ضد السوفييت. لقد أراد ندا إحلال السلام فيما بين الحكومات، وكانت لديه خطط استلزمت التعاون، لا التناحر، بين السلطات. وفى هذا الإطار، لم يكن ندا يشبه رمضان الذى لم يجبن مطلقا من التصادم مع الحكومات ... إلا أن ندا، بطريقة أو بأخرى، كان أكثر ثورية من رمضان. فعلى حين بقى رمضان فى جنيف منعزلا مستبعدا، فإن "بيزنس" ندا المحموم، وجهوده الدبلوماسية قد شقت الطريق فى خضم بحر لجى متلاطم الأمواج لثورة عالمية النطاق محورها الزخم الإسلامى ونشاطه المتنامى. إن التزاوج ما بين البترودولارات (ممثلة فى التمويل السعودى) وأيديولوجية جماعة "الإخوان المسلمين" ... قد أعد المشهد لفشو الفكر الإسلاموى، ليس فقط على امتداد العالم الإسلامى، بل فى أرجاء العالم الغربى أيضا ... ذلك الفكر الذى كان محوره متمثلا فى "يوسف ندا" و"غالب همت" و"المركز الإسلامى بميونيخ".

الفصل الرابع عشر

فيما أبعد من «ميونيخ»

قضبان النوافذ ... وقد علاها الصدأ الذى تناثرت قشوره - ورقائق من الطلاء نافرة من جدران الغرفة ... وفى كل ملمح من ملامح تلك الشقة السكنية ما ينكر بالمعمار القاهرى النمطى للطبقة المتوسطة المصرية، فيما عدا سيارتى الشرطة المنتظرتين قبالة العقار ... حيث جلس الضباط فيهما يراقبون كل من يدخل الشقة المذكورة، وكل من يخرج منها ... إنه مقر "الجماعة" ... جماعة "الإخوان المسلمين".

ورغماً عن أن الجماعة قد تم حظرها عام ١٩٥٤ ... إلا أنه قد سمح لها بممارسة بعضا من نشاط. كذا، فرغما عن اتخاذ السلطات لإجراءات صارمة ضد الجماعة بين الحين والآخر، وذلك لفرض النظام - إلا أنه قد سمح لأعضائها بأن يجتمعوا ويعربوا عن آرائهم ومواقفهم كتابة. بل لقد سمح للجماعة أن تتقدم بمرشحين يمثلونها لخوض الانتخابات البرلمانية. هذا، وتقدر بعض البلدان الأجنبية أنه فى دولة كمصر دمرت فيها المعارضة المنظمة عبر نصف قرن من الأنظمة الديكتاتورية المتعاقبة، فإن جماعة "الإخوان المسلمين" هى الجماعة الوحيدة المتبقية المنضوية على استقلالية حقة. إن رسالة "الجماعة" الداعية إلى الإحياء الدينى هى رسالة عمدت الحكومات المصرية المتعاقبة إلى حجبها - إلا أنها قد أخذت، بمرور الزمن، فى التعايش معها بل واحتضانها إذ ارتأت تلك الحكومات أن دعمها للإسلام - (وهو دعم صورى بالطبع) - هو

سبيل لإضفاء صفة الشرعية على حكمها. إن جماعة "الإخوان المسلمين" جماعة بالغة التأثير يصعب التخلص منها، أو إلغاؤها نهائيا.

أما فى داخل المقر، فتتمظهر طبيعة "الجماعة" النافرة وعقيدتها العدائية فى أرجاء الشقة كافة. إذ ثبتت على جدرانها صور لشهداء "الإخوان المسلمين" من أمثال الشيخ أحمد ياسين، من حركة المقاومة الإسلامية "حماس"، والذى اغتالته إسرائيل عام ٢٠٠٤ ... كذا، فالشباب يدخل ويخرج إما لجلب التقارير إلى المقر، وإما لإرسال الأوامر والتعليمات لآلاف الخلايا المنبثقة من "الجماعة" - على امتداد كامل أرجاء البلاد. أما المرشد العام للإخوان المسلمين - آنذاك - فقد كان "مهدى عاكف" ... تلك الشخصية الساحرة ذات الابتسامة الماكرة ... أما غرفة مكتبه، فكانت تحوى أريكتين ومكتبا وخريطة العالم الإسلامى المنتشرة فى كل مكان، والمماثلة لتلك التى رأيتها فى مكتبة لندن التى رحت أتجول ما بين

صفوف الكتب المكدسة بها على نحو ما جاء بتوطئة الكتاب. "من هذه الشقة الصغيرة، نقوم على إدارة شئون الإسلام فى العالم بأسره"[100] ... عبارة بها الكثير من المبالغة، بيد أنها لا تبدو مستغربة – خاصة وقد وردت على لسان رجل كمهدى عاكف، المرشد العام لتلك الجماعة ذات التأثير الطاغى.

إن مهدى عاكف، مثله فى ذلك مثل غالب همت ويوسف ندا، يمثل فصيلا من "الإخوان المسلمين" سعى إلى التعايش السلمى مع السلطات. وخلافا لسعيد رمضان وغيره من المنظرين الراديكاليين، حرص عاكف على أن يلقى قبولا لدى الحكومات المصرية حيث رغب فى أن ينخرط الإخوان المسلمون فى خضم اللعبة السياسية وأن يصيروا جزءا من النظام السياسى المصرى. كذا، فما يزال الرجل راغبا فى تطبيق الشريعة الإسلامية فى مصر، بيد أنه يقول إن ذلك يجب أن يتم على نحو متأن عن طريق دعم المستويات القاعدية، لا أن يتم فرض "الشريعة" من عل، على النحو الذى اتبعته إيران بعد ثورتها الإسلامية. وككثير من مخضرمى جماعة الإخوان، قضى عاكف سنوات طويلة خلف قضبان السجون المصرية، إذ أمضى ثلاثة وعشرين عاما ... عشرون منها امتدت منذ عام ١٩٥٤، حين تم حظر الجماعة، وحتى عام ١٩٧٤ حين أعلن الرئيس المصرى الراحل، أنور السادات، عفوا شمل جميع أعضاء الجماعة ... وثلاثة امتدت ما بين عامى ١٩٩٦ و١٩٩٩ ... حين عمد الرئيس الأسبق حسنى مبارك إلى قمع نشاط الجماعة، على نحو ما كان يفعل بين الحين والآخر.

وبعد أن أطلق سراح عاكف فى عام ١٩٧٤، سرعان ما تواصل الرجل مع "براغماتيين" آخرين من الحركة، من أمثال الشيخ يوسف القرضاوى. كذا، فقد صارت لعاكف صلات ربطته بمجلة "الدعوة"، والتى كان السادات قد وافق على إعادة إصدارها، وكانت رمزا لبداية نزوع جديد أكثر براغماتية للإخوان

المسلمين انطوى على اكتساب قبول السلطات عن طريق تخفيض حدة نبرة الخطاب الهجومى ضد الحكومة. إن كلا من غالب همت ويوسف ندا قد كانا قريبين من أولئك "البراغماتيين"، الذين نعتهم العالم السياسى الفرنسى "جيل كيبل" - بـ"الإخوان المسلمين الجدد"، على حد ما ورد فى كتابه "النبى والفرعون"[١٠١] الصادر عام ١٩٨٤ .

وقد كان أحد أهداف مهدى عاكف ترميم هيكل جماعة "الإخوان المسلمين"، بعد المداهمات العديدة التى طالته، وبعد ارتحال الكثيرين من أعضاء الجماعة البارزين طلبا للجوء خارج البلاد. هذا، وقد استدعى الأمر عملا قاعديا متأنيا نتج عنه إعادة إحياء الجماعة والصعود الملفت لها، إذ تعد أوسع الحركات السياسية نفوذا فى مصر. كذا، فقد أرادها عاكف شبكة دولية من المنظمات ... شبكة حيكت خيوطها بعناية وإتقان لتكون محصنة منيعة ضد أى ديكتاتور يعتلى قمة السلطة فى البلاد ... وهو ما قاده إلى همت وندا فى ميونيخ.

وخلال الفترة التى امتدت ما بين عامى ١٩٨٤ و١٩٨٧، أقام عاكف فى ميونيخ إماما للمركز الإسلامى بها. ولم يكن التوقيت محض مصادفة، إذ كانت السنون التى أعقبت اغتيال أنور السادات عام ١٩٨١ سنين قاسية لجماعة الإخوان. وكان المركز الإسلامى بميونيخ ملاذا لعاكف الذى كان زعيمه الروحانى، فيما أدار غالب همت الشئون القانونية للمركز من بيته فى "كامبيونا" الإيطالية.

وكان مهدى عاكف الذى ولد فى الثانى عشر من تموز/ يوليو ١٩٢٨، قد تخرج فى المعهد العالى للتربية الرياضية فى مصر عام ١٩٥٠ . وفى ميونيخ، كان الرجل يمارس السباحة فى كل يوم تقريبا، حيث شدد على أنه قد كان

يسبح مع الألمان ... ويقول إنه ليس لديه أى مأخذ سلبى ضد المواطنين الألمان، إلا أنه يعيب عليهم أنهم خصصوا قطعة الأرض المقام عليها المسجد بالقرب من موضع لتجميع المخلفات والقمامة ومحطة لمعالجة الصرف الصحى، حيث عزا الأمر إلى الصلف والعنت لا إلى قلة أموال الطلبة المسلمين آنذاك ... قائلا: "إنه الموضع الوحيد الذى اعتمدته الحكومة الألمانية لإنشاء المسجد!!" إلا أن الموقع بأكمله قد أخضع لبرنامج حكومى أنفقت خلاله أموال طائلة لتجميله وأضحى حاليا مضمارا للركض وحلبة لركوب الدراجات. وكان الأمر يعنى للرجل إضافة إلى قائمة انتصارات الإخوان المسلمين ... حيث قال: "لقد قمنا بتجميل الموقع الذى صار الآن مليئا بالأشجار ... إنه واحد من أجمل المواقع فى ألمانيا بأسرها". وأيا ما كان الدور الذى اضطلع به عاكف فى هذا التجميل الحضرى، فقد قاد الرجل ثورة غير مسبوقة لتنظيم الشأن الإسلامى على امتداد القارة الأوروبية.

قبيل أشهر قلائل من تدشين مسجد ميونيخ فى آب/ أغسطس ١٩٧٣، عقدت المراكز الثقافية الإسلامية الأوروبية اجتماعا فى حى المسارح بلندن بهدف تكوين شبكة من الجماعات ذات الفكر المشترك. وقد حضر الاجتماع العديد من النشطاء، من بينهم غالب همت الذى كان قد تم تنصيبه للتو رئيسا للجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا. وفى إشارة للمساعى السعودية للهيمنة على المشهد الإسلامى المسيس تنظيميا، كان رئيس الاجتماع طبيبا سعوديا يدعى الدكتور نديم محمد عطا الله إلياس، فيما انتخب غالب همت لمجلس الأمناء، هو وخورشيد أحمد، وهو ناشط باكستانى ذو شأن. هذا، ولم ينجح الاجتماع من فوره فى تأسيس شبكة أوروبية وفق ما كان المراد، إلا أنه كان خطوة أولى على هذا الدرب.

وبعد ذلك بأربعة أعوام، أحرز الإخوان المسلمون نجاحا تمثل فى اجتماع عام ١٩٧٧ عند بحيرة "لوغانو" السويسرية[١٠٢] ... حيث رحب ندا بالمشاركين الذين كان يعرف معظمهم معرفة شخصية أو أولئك الذين سيضحون لاحقا شركاء له فى "البيزنس" الذى يديره. وكان أحد أبرز الحضور الشيخ يوسف القرضاوى، الذى كان يكتب - فى تلك الآونة - لمجلة "الدعوة". ويصفته الزعيم الروحانى لجماعة "الإخوان المسلمين" اليوم، كان الرجل رمزا بارزا منذ خمسينيات القرن العشرين. ويتذكر ندا حين كان معتقلا مع غيره من أعضاء الجماعة عام ١٩٥٥ أن سمح السجانون لهم بأداء الصلاة. وحين ارتفع صوت الأذان، "لم أكد أصدق الأمر، لقد كانت المرة الأولى التى أسمع فيها الأذان فى المعتقل ... حيث كان القرضاوى إماما للمصلين يومها".

إن اجتماع "لوغانو"، هذا، كان بداية العملية الشاقة لإعادة إحياء جماعة "الإخوان المسلمين". ففى أوروبا، وفى ظل حماية القوانين والمؤسسات الديمقراطية، أتيحت للإخوان حرية إرساء مؤسسات ذات استمرارية وديمومة ... حيث كانت المؤسسة الأولى هى "المعهد العالمى للفكر الإسلامى". وفى العام التالى (١٩٧٨)، عقدت مجموعة "لوغانو" اجتماعا فى المملكة العربية السعودية، وقررت أن يكون مقر المعهد بالولايات المتحدة الأمريكية، حيث طلب إلى إسماعيل راجى الفاروقى - الذى كان من بين حضور اجتماع "لوغانو" - أن يفتتح المعهد فى "بنسلفانيا" بالقرب من جامعة "تمبل".

كذا، فقد حضر اجتماع "لوغانو" إسلاميان بارزان كان لهما دور كبير فى انتشار فكر "الإخوان المسلمين" فى الولايات المتحدة الأمريكية، هما: "جمال برزنجى"، و"أحمد توتونجى". فحين دشن "الفاروقى" المعهد العالمى للفكر الإسلامى عام ١٩٨١، قام برزنجى بالتوقيع على وثائق شهر المعهد وتسجيله.

كذا، فلبرزنجى وتوتونجى علاقات وثيقة بيوسف ندا ... حيث كان برزنجى يعمل بإحدى شركات ندا اعتبارا من عام ١٩٧٨، ولمدة خمسة أعوام. كذا، فقد قام ندا برعاية نصير آخر للإسلام السياسى بالولايات المتحدة الأمريكية، ألا وهو "هشام يحيى الطالب" الذى عمل بشركات ندا - حيث دعمه ندا لعضوية "الجماعة الإسلامية بجنوب ألمانيا". وفى اجتماع عقد فى المركز الإسلامى فى ميونيخ عام ١٩٧٨، دفع ندا بهشام الطالب ليكون مرشحا ذا حقوق تصويتية بمسجد ميونيخ، بالرغم من أنه لا يحيا فى أوروبا ... ناهيك عن ميونيخ ذاتها.

أما توتونجى وبرزنجى والطالب ... فثلاثتهم من أكراد العراق، حيث أتموا دراساتهم بالمملكة المتحدة، ليرتحلوا إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى بدايات ستينيات القرن العشرين. وقد أسهم توتونجى وآخرون فى إنشاء اتحاد الطلبة المسلمين فى الولايات المتحدة وكندا فى جامعة "ألينوى" فى "أربانا شامبين" بالولايات المتحدة، وذلك فى عام ١٩٦٢ - والذى يعد أول منظمة للإخوان المسلمين هناك. لذا، فإن مساهمتهم فى اجتماع "لوغانو" كانت بالتوازى مع الأحداث المتبدية فى أوروبا، فصار للإخوان المسلمين موطئ قدم بالولايات المتحدة. إن عملهم لحساب ندا ومساهماتهم فى مسجد ميونيخ لتظهر أن الروابط ما بين أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية كانت آخذة فى النمو. إن يوسف ندا قد أمضى فترة من حياته فى الولايات المتحدة، حيث ولد ثلاثة من أبنائه هناك فى الفترة ما بين عام ١٩٧٨، وعام ١٩٨٢ ... وكان ندا يحيا فى إنديانابوليس - عاصمة ولاية إنديانا الأمريكية - حيث عمد برزنجى وتوتونجى والآخرون إلى تحويل جماعتهم الطلابية إلى حركة وطنية ... وهو النهج ذاته الذى كان يوسف ندا وغالب همت رائديه فى ألمانيا: تكوين جماعة طلابية، ثم تحويلها حركة وطنية، ثم إرساء منظمة باستخدام الأموال السعودية واعتماد

الأيديولوجية الإخوانية. ومثلما فعل ندا فى ميونيخ، فقد قام بتوفير الأموال اللازمة لمقر إنديانابوليس. وسرعان ما اشتمل الموقع، الذى بلغت مساحته نحو ٤٢ فدان، على مسجد وفصول تعليمية واستراحات للإقامة والمبيت وصالة ألعاب رياضية ومكتبة حوت ثمانين ألف مجلد. وبحلول الثمانينيات، صار الموقع مقرا للوقف الإسلامى لأمريكا الشمالية، وجمعية الطلبة المسلمين فى الولايات المتحدة وكندا، ورابطة كانت قد أنشئت - آنذاك - هى الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية.

وفى تلك الأثناء، كانت أهمية المركز الإسلامى فى ميونيخ ما تزال آخذة فى الازدياد. وفى عام ١٩٨٢، تغير اسم المركز، ليصبح "التجمع الإسلامى بألمانيا"، ليعكس مدى انتشاره على امتداد البلاد حيث كان له أفرع فى جميع المدن الرئيسية فى ألمانيا الغربية.

وحرصا منها على إبراز أهميتها الدولية، ظلت الجماعة تجتذب أعضاء فى الخارج، بحيث صارت عضوية مسجد ميونيخ عنوانا للفخار ومبعثا على الشرف. فبعد سنوات قلائل من استبعاد باكستانى، ورفض أتراك كأعضاء بها، تم قبول جماعة من غير العرب ... والاختلاف فيما بين الحالتين، أن المقبولين كانوا نشطاء إسلاميين بارزين، كان من بينهم خورشيد أحمد - على سبيل المثال ... وخورشيد كان من بين حضور اجتماع لندن ١٩٧٣، كذا فقد كان أكثر ممثلى "الجماعة الإسلامية" أهمية فى أوروبا ... و"الجماعة الإسلامية" (أو "جماعت إسلامى" باللغة الأردية) هى جماعة أسسها أبو الأعلى المودودى فى الهند البريطانية عام ١٩٤١ . وبالإضافة إلى خورشيد، كان هناك عضو بارز آخر، ألا وهو "عصام العطار" - رئيس جماعة "الإخوان المسلمين" السورية، الذى هاجر إلى بلجيكا فى أوائل الستينيات، ثم استقر فى عام ١٩٦٨ فى مدينة "آخن"

بألمانيا الغربية. ويجسد الرجلان - خورشيد أحمد وعصام العطار - قدرة الحركة الإسلاموية على التدويل وتجسير هوة التباينات الإثنية التى تعمل على فصم عرى العالم الإسلامى. وبالرغم من وجود اختلافات شخصية وتباينات أيديولوجية فيما بين همت والعطار وخورشيد، إلا أن ثمة مشتركات كثيرة قد جمعت بينهم فى أوروبا. هذا، ويرى الثلاثة أنفسهم طليعة موجة جديدة من النشاط الإسلاموى فى الغرب. وبطبيعة الحال، فلم يكن أيا منهم يحيا فى ميونيخ أو تربطه بمسجدها أية رابطة ... إذا، فلم يكن مسجد ميونيخ سوى قاطرة لجهادهم.

وبمثل ما كان مكتب الإرشاد فى القاهرة، فإن مركز تلك الجهود المضنية الرامية إلى بناء شبكة مؤسسات كان مفاجئا بعض الشئ. فالقاعدة الأوروبية للإخوان المسلمين تقع - الآن - فى مركز ماركفيلد للمؤتمرات، والذى كان - فيما مضى - ساحة لتدريب أطقم رجال الإسعاف على أطراف ماركفيلد، وهو حى سكنى يقع على أطراف المدينة ويحوى كنيسة وثلاث حانات - خارج ليستر، والتى كانت - فيما مضى - مدينة لصناعة النسيج إلى الشمال من لندن. وعلى خلاف تجمعات المسلمين الكبيرة فى المدن الأوروبية، فإن مقر ماركفيلد هو أشبه ما يكون بحرم جامعى مصغر: مروج مشذبة تتناثر فى محيطها غرف للسكنى، ومسرح ومكتبة. هذا، وتمثل إحدى البنايات هناك مقرا لاتحاد المنظمات الإسلامية بأوروبا، والذى كان يترأسه الدكتور أحمد الراوى كاظم ...

والراوى من مواليد عام ١٩٤٧ بمدينة "راوة" بمحافظة الأنبار العراقية ... حيث كانت جماعة "الإخوان المسلمين" جزءا هاما من الحياة المجتمعية هناك ... إذ كان أعضاؤها ضمن أكثر قاطنيها توجهاً نحو التقدم. وفى لقائى مع الراوى فى ماركفيلد فى الحادى والعشرين من تموز/ يوليو ٢٠٠٤، ذكر لى الرجل أنه

كان يعتبر نفسه عضوا بجماعة الإخوان المسلمين، بالرغم من تشديده على أنه لم يلتحق رسميا بالجماعة مطلقا. إن إطاحة الملكية فى العراق عام ١٩٥٨، وبزوغ ديكتاتورية عسكرية هناك - قد جعل العراق بيئة طاردة، الأمر الذى حدا بالراوى إلى ترك الوطن عام ١٩٧٥ قاصدا المملكة المتحدة لدراسة هندسة الإنشاءات. وقد نال الراوى درجة الدكتوراه من جامعة دندى باسكتلندا، ليستقر لاحقا فى لوفبرا بالقرب من ماركفيلد. وكقوة محركة من قوى "الإخوان المسلمين" فى المملكة المتحدة وأوروبا على امتداد ثلاثة عقود كاملة، استطاع الراوى أن يجد مقرا لاتحاد المنظمات الإسلامية بأوروبا، رغما عن أنه قد عانى الأمرين لتوضيح الأساس المنطقى وراء هذا الاختيار ... إذ يقول: "نحن هنا فى الـMidlands، أو "وسط البلاد" ... إذا، فنحن هنا فى موقع مركزى متوسط ... إذ يوجد مطار غير بعيد من هاهنا".

كذا، فثمة عنصر إضافى ... إذ إن مركز ماركفيلد للمؤتمرات مملوك للمؤسسة الإسلامية بليستر، والتى تأسست عام ١٩٧٣، والتى يرتبط مالكوها والقائمون عليها بعلاقات وثيقة مع "الجماعة الإسلامية" فى باكستان. هذا، وتروج "المؤسسة الإسلامية" للحوار بين الأديان، حيث كان ولى العهد البريطانى - الأمير تشارلز - أحد روادها ... وكان ذلك قبل أن يشاع أن المحاضرين بالمؤسسة قد عمدوا إلى تأييد "حركة المقاومة الإسلامية - حماس"، وأن مكتبتها تحفل بكتب لأقطاب التنظير الإسلاموى وأدبيات ذلك الفكر من أمثال "سيد قطب"، و"هارون يحيى"[١٠٣] ... ناهيك عن قطبهم الروحانى الأكبر - يوسف القرضاوى. هذا، وتتوافق عقلية أحمد الراوى مع أجواء تلك العوالم الفكرية.

إن اتحاد المنظمات الإسلامية بأوروبا قد أصبح "جماعة مظلية" لعديد من الجماعات الإسلامية التى ترتبط بجماعة "الإخوان المسلمين"، إما بروابط ثقافية

وإما بروابط تنظيمية ... تلك الروابط التى أكد عليها الراوى بقوله: "نحن لا نتبع أحدا خارج أوروبا، بيد أن لنا علاقات وثيقة بجماعة الإخوان المسلمين ... نحن نرتبط بهم من خلال وجهة نظر مشتركة".

وفى عام ١٩٩٠، عمد الاتحاد إلى إنشاء "المعهد الأوروبى للعلوم الإنسانية" بغرض تدريب الأئمة وصفوة المسلمين. أما فى عام ١٩٩٧، فأنشأ الاتحاد كيانا آخر هو "المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث" بغرض نشر الأفكار الدينية لجماعة "الإخوان المسلمين" على امتداد أوروبا، فضلا عن إنشاء "مؤسسة الوقف الأوروبى" لجمع الأموال لأنشطة الحركة. وإلى جانب كون الاتحاد الشركة القابضة التى تنتظم تلك الكيانات، فإنه يعد أيضا اللوبى الوحيد لمسلمى أوروبا. هذا، وقد أجرى الاتحاد اجتماعات مع مسئولى الاتحاد الأوروبى والفاتيكان. أما الممول الرئيسى لاتحاد المنظمات الإسلامية بأوروبا فمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للأعمال الخيرية والإنسانية - ومقرها دبى بالإمارات العربية المتحدة ... وهى مؤسسة لها روابط بجماعة "الإخوان المسلمين".

إن فورة إنشاء المنظمات لتؤكد على ملمح هام من ملامح جماعة "الإخوان المسلمين" - كونها ليست جماعة ذات أهداف دينية. فالجماعة تشدد على ضرورة أن يتم تأويل القرآن وفقا لحرفية النص، وذلك لتشكيل كل ملمح من ملامح الحياة الدنيوية. هذا، وتهدف "الجماعة" - بالأساس - إلى تطبيق تلك الرؤية، ومن ثم حاجتها إلى مؤسسات للقيام بذلك. إن جماعة "الإخوان المسلمين" المصرية كانت، قبل حظرها فى الخمسينيات، تدير أنشطة سياسية وصحفا واتحادات للشباب وجمعيات نسوية وجناحاً مليشياوياً شبه عسكرى ... وذلك على غرار الأحزاب الفاشستية فى حقبة الثلاثينيات. وفى أوروبا، عمدت "الجماعة" إلى تطبيق الهياكل السابق ذكرها (باستثناء الجناح شبه العسكرى).

ويكمن الفارق الأساسى فيما بين "الجماعة" وبين الأحزاب الفاشستية فى كون "الجماعة" تنشط كأقلية دينية، لذا فإنها تستخدم تكويناتها ليس لأسلمة المجتمع المعاصر - إذ يعد ذلك هدفا شديد الطموح فى الوقت الراهن - وإنما لبسط نفوذها على المجتمعات الإسلامية فى الغرب بهدف حماية تلك المجتمعات من "علمانية" المجتمع الغربى، والارتقاء بالمسلمين عن طريق إرشادهم إلى اتباع الرؤية الضيقة "الإخوانية" للإسلام.

ونظرا لأن الإسلام المعاصر لا يمتلك هيكلا دينيا رسميا ينتظمه، فإن تحدى جماعة مؤسساتية تزعم كونها لسان حال المسلمين لهو أمر صعب عسير ... لذا، فإن تكوين جماعة منافسة يبدو السبيل الوحيد لتحقيق ذلك. إن جماعة "الإخوان المسلمين"، بما تملكه من براعة تنظيمية فائقة، كانت أكثر يقظة وأسرع فى التحرك من أية جماعة إسلامية أخرى - بدءا من المؤتمر الإسلامى الأوروبى لسعيد رمضان المموَّل من قبل "وكالة الاستخبارات المركزية" فى ستينيات القرن العشرين وصولا إلى اتحاد المنظمات الإسلامية بأوروبا برئاسة أحمد الراوى. لذا، فإنه ليس من قبيل المصادفة أنه فى هاتين الحالتين -وفى كل الحالات الواقعة بينهما - أن عمد أولئك ممن هم خارج جماعة "الإخوان المسلمين" إلى تمويل أنشطتها. ذلك لأن جماعة "الإخوان المسلمين" خارج مصر ليست فى جوهرها منظمة جماهيرية، بل هى جماعة من صفوة المنظمين الذين وضعوا أسس التعريف بالإسلام فى الغرب. إن المركز الإسلامى فى ميونيخ، فضلا عن جميع المنظمات التى أنشئت بعده، لم يكن لديه أكثر من حفنة قليلة من المسئولين الرسميين الذين لم ينشطوا لخدمة مسلمى ميونيخ ... والدليل على ذلك أن الأتراك، الذين كانوا يمثلون وحدهم ٩٠٪ من مسلمى ميونيخ خلال السبعينيات، كانوا محرومين من عضوية المركز ... وبالمقابل، كانت قيادات المركز مهووسة

بفكرة الحشد والتنظيم. أما فى أثناء الحرب الباردة، فإن جماعات المسلمين تلك لم يكن لها تأثير يذكر فى المشهد الدولى سوى كون أفرادها أشبه بأحجار الشطرنج التى يتم تحريكها كيفما اتفق لمحاربة الشيوعية ... بيد أنه فيما كانت تلك الجماعات تقطع بعض خطوات على طريق التطور ... طرأ أمر لم يكن متوقعا، إذ أضحت أوروبا - والتى كانت بمنأى عن العالم الإسلامى ذات يوم - ذات أهمية محورية لمستقبل هذا العالم ... كذا، فعقب سنوات طوال من الجهود التنظيمية المضنية، أضحت جماعة "الإخوان المسلمين" مهيأة لإدارة دفة المسيرة بما أوتيت من زعامة باتت تميزها.

الفصل الخامس عشر

نحو بلورة الجدل

فى عـام ١٩٦٦، وقف "تيـودور مـاركـار" – رئيس مكتب الاتصـال الألمانى الغـربى – مخـاطبا مجموعة من الأتراك كانوا على وشك مغـادرة اسطنبول للعمل فى كولونيـا بألمانيا الغربية، حيث أرسلها نبوءة: "إن الكثير منكم سيعمدون إلى إرساء حياة جديدة فى ألمانيا، حيث ستضعون جذورا لكم ... أما أوطانكم الأم فلن تزوروها إلا بصفتكم ضيوفا عليها".

حين قيلت الكلمات السابقة، قليل هم من وافق عليها سواء من الأتراك أو من الألمان. أما الأتراك، فكانوا يلبون حاجة الألمان الغربيين الماسة إلى العمالة ... تلك العمالة التى كانت المعجزة الاقتصادية الألمانية فى أمس الحاجة إليها. وكانت نسبة البطالة بين صفوف الألمان الغربيين - آنذاك - صفرا ... حيث كانت الشركات آخذة فى التوسع باطراد. ففى أثناء تلك الحقبة التى سبقت ظاهرة "العولمة" - تلك الظاهرة التى أتاحت للشركات الانتقال بين أرجاء المعمورة لتدشين المصانع إلى جوار أماكن تجمع العمالة، والأسواق ... كانت الشركات فى ألمانيا الغربية بحاجة إلى عمال للعمل بمصانع تلك الشركات فى ألمانيا نفسها. هذا، وكانت ألمانيا قد جلبت بالفعل عمالا من إيطاليا وإسبانيا واليونان، كذا، فإنها ستقوم بالأمر ذاته فى السنوات اللاحقة حيث ستجلب عمالا من البرتغال وتونس والمغرب ويوغوسلافيا. وعلى أية حال، فإن "العمال الضيوف"

كانوا يعدون عمالة مؤقتة – إذ كانوا يخضعون لحركات إحلال بعد قدومهم من أوطانهم الأم بأعوام قلائل.

كذا، فإن العمال الأتراك كانوا يدركون أنهم يمثلون عمالة مؤقتة ... أولئك العمال الذين قدم معظمهم من المناطق غير الصناعية بتركيا، وبخاصة من المناطق الريفية الشاسعة بوسط الأناضول. وكان العمل فى ألمانيا الغربية يمثل فرصة العمر بالنسبة لهم ... حيث الأعمال والوظائف التى ترعاها نقابات العمال بألمانيا، تلك الوظائف التى يمكن أن تؤمّن لهم، كعمالة غير ماهرة، أضعاف الأموال التى بمقدورهم أن يتحصلوا عليها فى بلدهم الأم. إن أهداف أولئك العمال كانت بسيطة تمثلت فى مساعدة عائلاتهم، وربما إمكانية التقاعد ذات يوم فى إقليم "البحر الأسود" فى مسكن يتم بناؤه باستخدام المدخرات التى جمعوها أثناء عملهم بألمانيا الغربية. وبالفعل، فقد كان أولئك العمال يحيون حياة بسيطة

ويرسلون مدخراتهم إلى الأهل بالوطن ... فما من أحد قد راودته فكرة بناء مسكن له فى الأراضى الألمانية.

وعلى مدار الأعوام، أضحى مفهوم "العمال الضيوف" وقد فقد بريقه ... إذ شكا أصحاب الأعمال من ارتفاع نفقات تدريب العاملين الجدد، فضلا عن أن العمال كانوا يريدون أن يبقوا فى ألمانيا. لذا، فقد تم حلحلة الضوابط المنظمة بعض الشىء، فكان أن سمح لقوة العمل الأجنبية بالبقاء فى ألمانيا بدلا من الحركة الدائرية للقدوم والارتحال. وبالإضافة إلى ذلك، فقد سمحت حكومة ألمانيا الغربية للعمال باستقدام عائلاتهم إلى ألمانيا. وحين أوقفت ألمانيا الغربية جلبها للعمالة عام ١٩٧١، كان أكثر من ٧٠٠٠٠٠ تركى يعيشون بالفعل على أراضيها. وفى السنوات اللاحقة، استمرت حركة الهجرة إلى ألمانيا إذ سمح للأتراك بالسفر إلى ألمانيا الغربية للانضمام إلى أفراد العائلة الذين يحيون هناك. وللمرة الأولى فى تاريخ ألمانيا، كانت أعداد كبيرة من المسلمين قد استقرت بها. أما اليوم، فإن عدد المنتمين إلى أصول تركية - والذين يحيون فى ألمانيا - يبلغ نحوا من مليونى نسمة أغلبهم من المسلمين. كذا، فإن نحوا من ١,٥ مليون مسلم من بلدان أخرى، وبخاصة البوسنة وبلدان المغرب العربى، يعيشون الآن بها.

وعلى امتداد أوروبا، توجد أشباه ونظائر لتلك السمات الديموغرافية. فعصر الفتوحات الإسلامية الكبرى قد خلف العديد من المسلمين على أطراف القارة، فى كوسوفو والبوسنة، وكذا فى شبه جزيرة القرم ... كذا، فقد حكمت الدولة الأموية لقرون طوال ما كان يعرف آنذاك بالأندلس (إسبانيا والبرتغال حاليا). كان للاحتكاك مع العالم الإسلامى أثر عميق، إذ أعاد إلى المشهد الغربى الأعمال التى أُنجزت فى مجالات العلوم والآداب والفلسفة والرياضيات، والتى فقدت حين

انهيار الإمبراطورية الرومانية، ذلك كونها قد حفظت فى المكتبات الإسلامية الكبرى. أما منذ القرن الخامس عشر الميلادى فى أعقاب سقوط آخر معاقل المسلمين فى غرناطة على أيدى الإسبان عام ١٤٩٢ ... فكان الغرب الأوروبى بأكمله يكاد يخلو من المسلمين ... أولئك الذين كان ينظر إليهم - فى بعض الأحايين - نظرة فزع واستغراب. إلا أنهم قد أضحوا - لاحقا - موضع هوس محموم. وفيما بعد أصبح المسلمون موضع افتتات بعد أن اشتهروا بحريمهم وعمائمهم وسجاجيدهم الطائرة فى أعقاب ترجمة ألف ليلة وليلة.

أما بعد موجات الهجرة التى أعقبت نهاية الحرب الكونية الثانية، فقد ظلت الصورة الذهنية عن المسلمين قائمة، إلا أن المسلمين كانوا -- آنذاك - يحيون بالفعل فى قلب أوروبا الغربية. هذا، وقد دفع الاقتصاد، مثلما كانت الحال فى ألمانيا الغربية، ببلدان أوروبا الغربية إلى استجلاب العمالة من الخارج ... حيث فضلت بعض الدول جلب عاملين من مستعمراتها السابقة، حيث لم يكن الأمر يعنى بالضرورة أن يكون أولئك العاملون من المسلمين، وذلك كما حدث حين تم جلب "الهندوس" من شبه القارة الهندية إلى بريطانيا، أو جلب المسيحيين والأرواحيين[١٠٤] من وسط إفريقيا باتجاه بلجيكا. بيد أن جل المهاجرين كانوا من المسلمين. وحين فصل الستار الحديدى بين غرب أوروبا وشرقها ... صار "المنجم" الذى يُجلب منه العمال من ذوى الأجور المتدنية يقع إلى الجنوب من البحر المتوسط، فى بلدان المغرب العربى بشمال إفريقيا ... فضلا عن تركيا.

أما فى فرنسا، فقد كان لانتهاء الحقبة الكولونيالية والحرب الأهلية الجزائرية أثر فى زيادة أعداد المسلمين بها من حجم لا يذكر قبل الحرب الكونية الثانية إلى أكثر من ٤ مليون مسلم اليوم ... ووفقا لبعض التقديرات، فإن عدد المسلمين اليوم بفرنسا يبلغ ٦ ملايين، أو ما نسبته ١٠٪ من إجمالى تعداد السكان بها. (فى

فرنسا وبعض البلدان الأوروبية، لا يسأل القائمون على تعداد السكان عن ديانة المرء أو انتمائه العرقى). أما فى بريطانيا، فإن المسلمين الذين قدموها خلال الحقبة الكولونيالية - وكانوا تجارا فى الأغلب - قد كونوا تجمعات خاصة بهم. وفى أعقاب الحرب الكونية الثانية، اشعلت الحرب الأهلية فى شبه القارة الهندية شرارة موجات متعاقبة من الهجرة كانت أشبه بالطوفان. وقد تزايدت أعداد المسلمين فى بريطانيا، من ٢٣٠٠٠ مسلم فقط عند نهاية الحرب الكونية الثانية إلى ٣٦٠٠٠٠ مسلم عام ١٩٧١، لترتفع الأعداد لتبلغ مليونى مسلم اليوم. أما فى غرب أوروبا بأكمله، فإن أعداد المسلمين تتراوح ما بين ١٥ مليون و٢٠ مليون مسلم، ويمثل هذا أربعة أمثال عدد المسلمين فى الولايات المتحدة الأمريكية، والتى يبلغ عدد سكانها - على نحو التقريب - عدد سكان ذلك الغرب الأوروبى.

وفى البداية، لم يضطلع الدين بدور رئيسى فى الحياة اليومية للعمال الضيوف. إذ عمدت الشركات إلى التوائم مع الدين المعتنق من قبل العمال الجدد، حيث قامت بإنشاء بعض المواضع كيما يتمكن أولئك العمال من تأدية صلواتهم بها. ففى عام ١٩٦٥، على سبيل المثال، قام مصنع راينهارت وماكس مانيسمان لصهر المعادن فى "ديوزبورغ" بوادى "الرور" بألمانيا بإنشاء أماكن لتأدية الصلاة. أما العامل الذى يأنس فيه زملاؤه حلاوة فى الصوت وعلما دينيا يبز به أقرانه ... فيعمدون إلى جعله إماما يؤمهم فى الصلاة. إلا أنه وبمرور الزمن، زادت الرغبة فى التمتع بحياة دينية اعتيادية. هذا، ولم يكن أغلب المهاجرين المسلمين من ذوى اليسار بما يمكنهم من بناء مساجد لهم ... لذا، فقد عمدوا إلى استئجار مساحات قد خصصت لأغراض تجارية بعينها، ثم تحويلها أماكن لتأدية الصلوات. وعادة ما تنهض تلك الأماكن - التى لا تكاد تلحظ - دليلا على التمييز عند معاملة المسلمين، وذلك على نحو سلبى. ونظراً لكون

الحكومات قد قامت بعرقلة الجهود الرامية إلى بناء مساجد كبيرة، فإن المهاجرين كانوا (وما يزالون) يرتقون أولى درجات السلم الاقتصادى، ومن ثم افتقارهم للتمويل اللازم لبناء مساجد كبيرة.

وفيما اختص بجماعات عديدة، فإن الدين كان ما يزال مرتبطا بأرض الوطن الأم. فالأتراك فى ألمانيا قد جلبوا معهم جماعات ذات أفكار دينية بعينها مثل الطريقة السليمانية[١٠٥]، وأتباع نجم الدين أربكان. أما أتباع الطريقة السليمانية، فكانوا نخبة من الأتقياء المحافظين الذين أسسوا "اتحاد المراكز الثقافية الألمانية" فى عام ١٩٧٣، والذى ينظم دروسا لتعليم القرآن الكريم للصغار. أما أتباع نجم الدين أربكان، فقد أنشأوا الحزب الدينى القومى "مللى غورروش"، ومعناها ... "الرؤية الوطنية" - ذلك الحزب الذى عمد إلى تنشئة نشطائه وأنصاره وتربيتهم على أفكار جماعة "الإخوان المسلمين". وفى تركيا، عمدت الدولة إلى الحد من أنشطة تلك الجماعات ... أما فى الغرب، فقد تمتعت بحرية الحركة نظرا لكون الفكر الدينى هناك غير مقيد أو مطوق. وخوفا من انتشار الهوس الدينى فيما بين أتراك ألمانيا، وخوفا من إمكانية أن تغزو المشكلة تركيا ذاتها ... عمد المسئولون الأتراك إلى إنشاء منظمة أطلق عليها اسم "الاتحاد التركى للديانات" - وهو فرع من "الإدارة العليا للشئون الدينية فى تركيا - ديانت أشلرى". وعلى مدار سنوات عديدة، قام "الاتحاد التركى للديانات" بتمويل العديد من المساجد الكبيرة فى ألمانيا ورفدها بالأئمة والدعاة. ففى عام ٢٠٠٧ وقعت الحكومتان الألمانية والتركية معاهدة لإضفاء الصفة الرسمية على الأمر. أما فى البلدان الأوروبية الأخرى، فكان الأمر مشابها لما حدث فى ألمانيا ... ففى فرنسا، يترأس موظف حكومى جزائرى "الجامع الكبير" فى باريس - أما بريطانيا، فتحوى العديد من المساجد المتسمة بالفخامة والأبهة، والتى يقوم بتمويلها شيوخ وأمراء من بلدان الخليج العربى. هذا، وكان

المهاجرون إلى أوروبا يحتاجون - فيما مضى - عقودا طويلة لترك بصمتهم المعمارية هناك ... أما فى أوروبا القرن العشرين، فقد اتسم الأمر بإنجازه فى وقت قصير.

تنبه العالم الإسلامى إلى ذلك التحول الديموغرافى. فحينما حطّ سعيد رمضان فى أوربا لأول مرة فى خمسينيات القرن العشرين، كانت أوربا ملاذاً، ذلك لكونها ليست جزءاً من العالم الإسلامى، من ثم، كانت منفصلة وآمنة، وكان تكوين التنظيمات هناك رد فعل على القمع فى الوطن. بيد أنه، ومع تزايد عدد السكان المسلمين هناك، استردت أوربا وضعها كجزء من العالم الإسلامى.

كانت أوربا، ولوقت طويل تعتبر "دار حرب" عند المسلمين، لكن هذا الوضع انتفى عنها فى وجود ملايين المسلمين بها. وسواء عُزى الأمر إلى مجرد الحظ أو إلى نفاذ البصيرة، كانت الجماعة قد وطدت أقدامها هناك عند حدوث ذلك التغير.

فى فندق صغير على أطراف العاصمة البريطانية، وقف الدكتور محمد محمود الهوارى يوجه كلمته إلى الحضور باجتماع المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث، والذى امتدت أعماله فى الفترة ما بين الثامن والثانى عشر من تموز/ يوليو ٢٠٠٤. أما الحضور، فكانت مهمتهم مساعدة مسلمى أوروبا فى الاندماج فى المجتمع الغربى عن طريق إحداث نوع من التوائم فيما بين ما تقتضيه الشريعة الإسلامية وبين القوانين الوضعية ذات الصبغة العلمانية السائدة فى المجتمعات التى يحيون بها. ونظرا لكون الإسلام ينظم الكثير من الأمور الدنيوية - مثل الأمور المالية، ومواقيت الصلاة، والطعام المباح أكله ... فإن الحاجة لتعن إلى إسداء نصائح عملية محددة فى هذا الشأن على نحو أكثر من أى من الأديان الأخرى. هذا، وتتراوح الأسئلة لتشمل تلك التى على شاكلة: هل يمكن للمرء أن يتعامل مع البنوك

أو صناديق التقاعد التى تنبنى على نظام "الفائدة" - تلك المحرمة فى الإسلام كونها ضربا من ضروب الربا؟ أو متى تكون صلاة المغرب - خلال الانقلاب الصيفى فى شمال اسكندنافيا؟ أو ما العمل لو كان المرء جائعاً ولم يجد طعاماً حلالاً؟

فى الاجتماع المذكور، قرر الحضور تناول الحياة العائلية بالبحث والتشاور. وكان "الهوارى"، ذلك العالم المرموق الذى يحيا فى مدينة "آخن" الألمانية، يناقش مشكلة هامة ومألوفة لدى كل أب أو جد فى العصر الحديث، ألا وهى مشكلة "الجنس". ووفقا للهوارى ذى الثلاثة والستين عاما، فإن أطفال المسلمين قد حوصروا بالثورة الجنسية فى الغرب، إذ تعين عليهم أن يبقوا أطهارا ذوى عفة بألا يمارسوا الجنس، بل ينتظرون حتى يشبعوا غرائزهم ورغباتهم الجنسية بعد الزواج. وكان الأمر مطلبا عاديا والتماسا للأخلاق الحميدة، يمكن سماعه بصورة متواترة داخل المساجد والكنائس والمعابد ... على امتداد العالم بأسره.

ثم انعطف النقاش إلى نقطة حرجة تمثلت فى السبب وراء تلك الثورة الجنسية ... ليعلن الهوارى أن السبب يكمن فى أنشطة اليهود ومساعيهم، حيث إن لديهم مخططات سرية للسيطرة على العالم عن طريق إضعاف الروابط العائلية لدى أتباع الديانات الأخرى. هذا، وقد أعلن الهوارى للحضور أن ذلك ليس تكهنا أو رجما بالغيب من جانبه، وإنما كان دليله ... كتاباً ... أخذ يردد بعض عباراته على مسامعهم.

أما الكتاب، فكان "بروتوكولات حكماء صهيون" ... الذى قرأ الهوارى منه الفقرة التالية: " ... وعلينا إغواء الناس بالخمر والمجون المبكر عن طريق وكلائنا وتابعينا من المعلمين، والخدم فى البيوتات الغنية، والنساء فى أماكن اللهو، بالإضافة إلى من يسمين (نساء المجتمع) والراغبات من زملائهن فى الفساد والترف ... يجب أن

نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا. إن فرويد منا، وسيظل يعرض العلاقات الجنسية فى ضوء الشمس لكى لا يبقى فى نظر الشباب شيء مقدس، ويصبح همه الأكبر هو إرواء غرائزه الجنسية، وعندئذ تنهار أخلاقه ...".

وفى الاجتماع المذكور، تناول أعضاء "المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث" سلسلة من الأسئلة التى طرحها عدد من مسلمى أوروبا عليهم. هذا، ويعد المجلس الكيان الأكثر نفوذا فى تشكيل التوجهات الإسلامية فى أوروبا، وكذا فى الولايات المتحدة الأمريكية من خلال مؤسسة شقيقة. ويعمد المجلس إلى تحديد مسار الحوارات الدينية، وكذا تعريف المسلمين هناك بما يحل لهم فى دينهم وما يحرم عليهم. إلا أن مشورته ليست ملزمة رغما عن انتشارها على الانترنت وعلى صفحات الكتب التى توزع على المساجد على امتداد القارة الأوروبية. أما الأئمة والدعاة فيتلقون دورات تدريبية فيما يتبناه المجلس من نهج تفكيرى، ويتم توجيههم نحو اعتماد اقتراباته التحاورية حين يعمد أولئك الراغبون فى الفتيا إلى طرح أسئلتهم عليهم.

وقد يذهب المرء إلى الجدل فى أن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى أوروبا" و"المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث" وغيرهما من الكيانات المماثلة هى تجمعات للأقلية. إذ إن بكل مجتمع جماعات مشابهة كالمينونايت والآميش فى الولايات المتحدة الأمريكية[١٠٦] ... حيث يعيش أفرادها وفقا لقوانين تهدف إلى إحياء ماض مثالى لا يمت بصلة إلى الواقع المعاش. إذا، فماذا يضير لو أن بعضا من الإسلاميين جاهدوا لخلق جماعة مماثلة لأنفسهم؟ قد تكون المقارنة سليمة وفى محلها ... إلا أنه بأخذ أعداد المسلمين ممن يهاجرون إلى أوروبا فى الحسبان، فسيختلف الأمر تماما. فالمجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث لا يضع القوانين المنظمة لجماعة من الأقليات الهامشية غير ذات الشأن، بل يقوم بتحديد المعايير الحاكمة

التى تستهدف عشرات الملايين من المواطنين الأوروبيين ... أولئك الممثلين لثانى أكبر ديانة من حيث الانتشار فى أوروبا.

فى داخل مسجد صغير على أطراف العاصمة الفرنسية، باريس، أخذ "مراد عمرو" يلهب مشاعر الجمع المحتشد بخطابه الحماسى فى أعقاب صلاة العشاء ... "غير بعيد من هنا ثمة مسلمون ومسلمات يعاقرون الخمر"، قالها ذلك الداعية البدين ذو الستة والعشرين ربيعا، والذى كان مغنيا للراب فيما مضى. "هل يعقل هذا؟ هل يعقل أن يغشى هؤلاء الأندية الليلية والحانات ... بالله هل ترضون بأمر كهذا؟!"

وفيما كان "عمرو" يكمل خطابه، علت همهمات الاستنكار والاستهجان من الجموع المحتشدة ... فمضى الداعية الشاب يقول: "يجب أن تتمحور الحياة بأسرها حول المسجد، ليس فقط للصلاة ... بل فى كل شاردة وواردة - من فصول تعليم اللغة للأطفال إلى الحياة الاجتماعية للمسلمين - هذا، وإلا سيضحى المسلمون هم وجيرانهم الفرنسيون سواء بسواء، إذ لن يكون، حينها، ثمة شىء يميزهم. إن المجتمع يجب أن ينبنى وفقا لأسس الإسلام وأركانه".

و"مراد عمرو" هو شاب مسلم تعرفت إليه وامتدت رفقتنا لبضعة شهور ... هذا، ولم يعمل "عمرو" باتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا، بل اختلف إلى مكاتبه لتلقى التدريبات والتواصل مع نشطاء آخرين. كذا، فإن الرجل يواظب على الاطلاع على مقررات المجلس الأوروبى للإفتاء والبحوث وجديد فتاواه، معتبرا "يوسف القرضاوى" أبرز المفكرين المعاصرين دراية وعمقا. ويعيش "عمرو" بمعزل عن المجتمع الفرنسى حيث يذرع "باريس" مستخدما عربته الصغيرة من طراز "فيات Punto" خلال تطوافه بطريقها الدائرى.

فى ذلك اليوم، كان "عمرو" فى ضاحية "أوبرفيلييه" العشوائية لإجراء "مداخلة

سريعة"، وهو المصطلح الذى يطلقه على خطبه الحماسية لحشود الجماهير لمناصرة الشأن الإسلامى. وقبل أن يدلف إلى المسجد، داعب "عمرو" خصلات شعر طفلين يرتديان "الكوفية" الفلسطينية المميزة بلونيها الأبيض والأسود، ويجمعان تبرعات لإحدى الجمعيات الخيرية التى ترعى أيتاما فلسطينيين.

يقول الداعية الشاب: "إننى أختلف إلى مساجد كثيرة لأداء الصلاة ... كذا، فإننى أغشى الجموع الحاشدة بالمساجد لإلقاء كلمة هنا وخطبة هناك ... وهلم جرا. إننى دائما وكأنما على سفر وترحال ما بين هذا المسجد أو ذاك – ليل نهار. كذا، فإننى أجل "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" ويعجبنى ما يقوم به من أدوار ومهام ... إذ أعرف بعضا من قياداته وجانبا من جهودهم".

هذا، وقد نشأ "مراد عمرو" فى باريس، وهو الابن الأصغر ضمن تسعة أبناء لمهاجرين جزائريين. وقد أدمن "عمرو" تعاطى المخدرات وأصدر ألبوما لموسيقى وأغانى الراب ... تلك المنتشرة فى أوساط قاطنى الإسكان الشعبى والعشوائيات. كذا، فقد أمضى بعضا من وقت خلف القضبان. ومنذ أعوام خمسة، اهتدى "عمرو" ليترك حياة "الشارع" تلك، ويعود إلى حظيرة الإسلام وذلك بفضل أحد أعضاء "جماعة التبليغ" – وهى جمعية دعوية لا سياسية. وما يزال "عمرو" يرتدى ذلك النوع من الكنزات المقلنسة السميكة التى تعود إلى فترة ما قبل "الهداية" إلى سبيل الرشاد .. إلا أن بعضا من توازن قد وفره غطاء للرأس أو "الطاقية"، وفى بعض الأحيان، عباءة قطنية غير سابغة تنحسر لتكشف عن ساقيه.

كان خطاب "مراد عمرو" للحشود مقتضباً موجزاً، بيد أنه كان غاية فى التأثير إذ ألهب مشاعرهم ... وقد استدعى قصته مع المخدرات والليالى التى أمضاها فى "البدروم" خشية والديه. وهنا طفق رجل فى الصف الأول من الحشد يبكى ...

فلربما قد ذكرته الكلمات بعضو من العائلة - قد يكون ابنا له أو نحو ذلك. ثم اتبع "عمرو" ذلك بشن هجوم انتقد فيه المسلمين الذين ضلوا السبيل وتنكبوا جادة الطريق ... أولئك الذين يمضون أعمارهم فى الحانات والمراقص والمواخير بين رقص ومجون وعلاقات خارج دائرة الزواج، فضلاً عن النساء اللاتى لا يلتزمن بالاحتشام والزى الشرعى ويقمن علاقات مع رجال غرباء. هذا، وقد أنصت الجمع - وقوامه مائة وخمسون - ليهمهموا بين الحين والآخر بما يدل على القبول والاستحسان. وفى نهاية الكلمة، قوبل الداعية الشاب بعاصفة مدوية من التصفيق وودعه الجمهور بكوب من الشاى وقليل من حلوى ... ليثب بعد ذلك فى سيارته "الفيات" قاصدا بيته - إذ كانت العاشرة مساء ... إذا، فسيكون محظوظا إذا نال قسطا من ساعات ست ينامها قبل صلاة الفجر ليصحو وينجز بعض أعمال - ثم ينطلق فى جولة تلو الأخرى.

إن مهام نشطاء جماعة "الإخوان المسلمين" من أمثال "مراد عمرو" قد تسارعت وتائرها خلال تسعينيات القرن العشرين لتمتد إلى سنوات القرن الجديد ... تلك المهام التى استترت عن العامة قد أسهمت فى تحديد هيكل الإسلام فى القارة الأوروبية. إلا أن خطبا جللا قد قلب الأمور رأسا على عقب ... إنها أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، والتى أشارت أصابع الاتهام بشأنها إلى شبكة "الإخوان المسلمين" الأوروبية. وبعد عقود طويلة من النشاط الخفى ... أضحت "الجماعة" محورا للاهتمام ثانية.

خلال خمسينيات القرن العشرين وستينياته، وضعت الاستخبارات الألمانية نصب عينيها كلا من الجنود السابقين، والطلبة العرب، والمسلمين الساعين إلى السيطرة على مشروع مسجد ميونيخ ... حيث عمدت إلى مراقبتهم والتحرى عنهم. أما المكتب الاتحادى لحماية الدستور/ فرع ميونيخ، والذى عهد إليه بمهمة مراقبة

"التطرف الداخلى" لكبح جماحه ... فقد عمد إلى تمويل "غرهارد فون منده" ليقوم بمراقبة لجنة بناء المسجد مراقبة لصيقة. إلا أن تلك الرقابة لم تعد قائمة، وذلك فى أعقاب وفاة "فون منده". لذا، فلم تنتبه ألمانيا الغربية إلى تحول "المركز الإسلامى فى ميونيخ" إلى بؤرة، بل بوتقة للنشاط الإسلاموى على امتداد العالم بأسره.

من القلائل الذين كانوا لصيقين بمشروع المسجد ممن لقوا اهتماما من الخارج، يبرز "أحمد فون دنفر" ... الذى كان محررا لمجلة "الإسلام"، لسان حال مسجد ميونيخ والناطقة باسمه هو و"التجمع الإسلامى بألمانيا". والمجلة، التى أسسها "أحمد شميده" فى الخمسينيات، قد آلت إلى المسجد حيث أديرت بواسطة "شميده"، ثم "فون دنفر" حتى عام ٢٠٠٣ - حين توقفت عن الصدور أصبحت موقعاً الكترونيا الآن. أما "فون دنفر" فكان متأثرا للغاية بخورشيد أحمد الذى ورد ذكره آنفا ... حيث التقاه "فون دنفر" بعد انضمامه إلى مجلس إدارة المسجد فى بداية الثمانينيات. وقد ارتحل "فون دنفر"، لاحقا، إلى بريطانيا للدراسة بالمؤسسة الإسلامية بليستر، والتى تأسست عام ١٩٧٣ ... حيث قام بكتابة عدد من المؤلفات بالإنكليزية والألمانية ... مؤلفات تعكس الفكر الإسلاموى التقليدى القائل بأن "الإسلام هو الحل". وفى الخامس من نيسان/ أبريل ١٩٨٥، اشترك "فون دنفر" فى تأسيس جمعية خيرية، هى "جمعية الإغاثة الإسلامية" فى "لوتسيلباخ" - وهى بلدة صغيرة بالقرب من "فرانكفورت" التى احتضنت تنظيما آخر هو "دار الإسلام" الذى يرتبط العاملون به بعلاقات مع مسجد ميونيخ ... أما "جمعية الإغاثة الإسلامية"، فقد قامت برفد أفغانستان بالأموال والمؤن، إلا أن "فون دنفر" كان قد أنكر ضلوع الجمعية فى تمويل مجاهدى أفغانستان، بيد أنه فى تلك الأثناء كانت الجمعيات الخيرية الأفغانية - ومقرها باكستان - رديفا للجهاد (أو الحرب المقدسة). وللمرة الأولى خلال عقدين كاملين، تعمد الاستخبارات الألمانية إلى إخضاع مسجد ميونيخ

لرقابتها غير الرسمية.

وسرعان ما أشارت دلائل أخرى إلى أهمية مسجد ميونيخ. ففى عام ١٩٩٠، زعم "محمد سالم عبد الله" – كبير مسئولى أرشيف منظمة العالم الإسلامى أن هذا المسجد هو الموضع الذى تصاغ فيه سياسات العالم بأسره ... وهو الزعم الذى قوبل بعاصفة من التوبيخ الحاد من قبل مجلة "الإسلام". أما "أحمد فون دنفر" وآخرون قريبون من المركز الإسلامى بميونيخ، فقد شاركوا فى مؤتمرات بالخارج جمعتهم بقادة "الإخوان المسلمين" المرموقين، وكذا المؤتمر الذى عقد فى السودان تحت رعاية الدكتور حسن الترابى ... ذلك الإسلاموى الداهية. كذا، فقد وقع المركز فى خلاف مع "معهد الشرق" فى هامبورغ، وهو واحد من أبرز مراكز الدراسات الإسلامية فى ألمانيا.

وفضلا عما سبق، فقد كان لمسجد ميونيخ ارتباطات مريبة بظاهرة الإرهاب، بالرغم من أن حوادث الإرهاب قد تم النظر إليها – آنذاك – على كونها أحداثا عابرة فردية أو نتيجة لمصادفة محضة. وفى ثمانينيات القرن العشرين، كان "محمود أبو حليمة" يختلف إلى مسجد ميونيخ – على نحو منتظم – التماساً للمشورة الروحانية من "أحمد محمود خليفة"[١٠٧] – رئيس المركز الإسلامى حينذاك. ولم يلبث "أبو حليمة" أن غادر ميونيخ قاصدا الولايات المتحدة الأمريكية حيث دين واعتُقل لتورطه فى محاولة تفجير مركز التجارة العالمى فى عام ١٩٩٣ . أما "ممدوح محمود سالم"[١٠٨] – الذى شاع أنه الممول الرئيسى لتنظيم القاعدة والمعلم الشخصى لأسامة بن لادن ... فقد تم القبض عليه فى عام ١٩٩٨ فى بلدة صغيرة بالقرب من المسجد أثناء رحلة عمل له فى ألمانيا. وقبل تسليمه إلى الولايات المتحدة، اتصل سالم بخليفة طلبا لاستشارة "روحانية" (تم محاكمة سالم لاحقا وعوقب باثنتين وثلاثين سنة فى السجن). أما خليفة، فقد أكد لقاءه بكل من سالم وأبى

حليمة قائلا إن ذلك كان من سوء الطالع، إذ ما كان له أن يتبين كل عابر نظرا لأن مشورته متاحة للجميع.

كانت الاستخبارات الألمانية، منزعجة حيث أجرت تحقيقا شاملا موسعا بشأن "معارف" سالم. ومن بين جميع أولئك "المعارف"، برز اسم واحد ذو دلالة ... "مأمون دركزنلي"[109] – وهو رجل أعمال سورى يقيم فى "هامبورغ" حيث كان يواظب على الاختلاف إلى مسجد صغير هناك، هو مسجد "القدس". وعليه، فقد داهمت الشرطة الألمانية، منزل "دركزنلى" فى بحثها عن قائمة بمعارفه المنتمين إلى مسجد "القدس"، حيث وجدت اسم رجل بعينه هو "محمد عطا"[110]. وفى أعقاب ذلك، لم تكن الشرطة الألمانية واثقة مما فى حيازتها ... لذا، فقد عمدت إلى إسقاط التحريات وإيقافها. وبعد ذلك بعامين، وتحديدا فى الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ - كان "محمد عطا" يقود الطائرة الأولى التى فجرت أحد برجى مركز التجارة العالمى. هذا، وقد كشفت التحريات عن كون مسجد "القدس" هو البوتقة التى شهدت "ردكلة" من قاموا بالتفجير. أما "دركزنلى"، فلم يحاكم ألبتة، إلا أنه كان "حلقة وصل" شائنة ربطت ما بين المركز الإسلامى بميونيخ وبين قوى الإرهاب والتطرف.

ونظرا للصدمة المروعة التى لحقتها نتيجة هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، عمدت الحكومة الأمريكية إلى تكثيف هجومها على جماعة "الإخوان المسلمين" ... إذ اهتم المحققون، على نحو بالغ، بإحدى قاطرات "يوسف ندا" الاستثمارية - ألا وهو "بنك التقوى"، والذى كان "غالب همت" يترأس مجلس إدارته، وقد بدا أنه ما من "إسلاموى" فى أوروبا إلا كان قد اشترى أسهما به بما جعل قائمة حملة أسهمه "ثبتا" يحوى أسماء "الإخوان المسلمين" فى أوروبا. هذا، وقد أرسى "ندا" البنك كأحد أوائل البنوك التى تعمل بالتوافق مع مقتضيات

الشريعة الإسلامية. فبدلا من القيام بمنح المودعين "فائدة بنكية" لقاء ودائعهم به ... عمد "بنك التقوى" إلى اعتبار عملائه مستثمرين ومنحهم أرباحا من الأموال التى يقوم بإقراضها. إلا أن "ندا" لم يستثمر أموال البنك على نحو محترف - إذ صرح "ندا" نفسه بأنه استثمر معظم تلك الأموال فى مشاريع ماليزية قبيل الأزمة المالية الآسيوية (١٩٩٧) مباشرة - فأصاب البنك ضرر بليغ وأعلن إفلاسه. أما المحققون الأمريكيون، فأعلنوا أن "بنك التقوى" كان مضخة لتمويل الإرهاب، فيما أعلنت الولايات المتحدة أن كلا من "غالب همت"، و"يوسف ندا" هما مولان للأنشطة الإرهابية، وهو الأمر الذى صادقت عليه الأمم المتحدة ... ليتم تجميد الحسابات البنكية لكليهما.

أما التجمع الإسلامى بألمانيا، فقد واجه أزمة مالية مفاجئة. فباعتباره المسئول المالى للتجمع، كان "غالب همت" يقوم بالتوقيع على الشيكات ... أما الآن، فقد تم تجميد جميع ما كان مسئولا عنه (وكان التجمع الإسلامى بألمانيا قد زالت عنه صفة "الجمعية الخيرية" ... تلك الصفة التى لطالما جاهد فضل يزدانى لاكتسابها فى ستينيات القرن العشرين - إلا أن الأمر لم يكن له علاقة بهجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، إذ جرت تلك الوقائع فى عام ١٩٩٨ حين فشل المسئولون بمسجد ميونيخ فى استيفاء البيانات اللازمة لتمديد أجل تلك الصفة). هذا، وقد أوردت مجلة "الإسلام" لقاء حاول فيه "أحمد خليفة" إيراد مبررات لقيام "غالب همت" - الذى لم يكن يحيا فى ميونيخ لسنوات طويلة - بإدارة شئون التجمع. وبعد نحو ثلاثة عقود بأكملها، عمد "همت" إلى الاستقالة فى الثالث عشر من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٢ .

وبعد سنوات قلائل، وقعت الهجمات الإرهابية التى هزت كلا من "مدريد"، و"لندن" ... حيث أصيب المحققون فى تلك الأحداث بالدهشة لكون المشتبه فيهم من

صغار السن الذين ينتمون إلى الجيل الثانى والجيل الثالث من المسلمين الذين ولدوا فى أوروبا. ففى أغلب الحالات، شرع هؤلاء يتلمسون بدايات مسيراتهم كراديكاليين من خلال احتضانهم لأيديولوجية جماعة "الإخوان المسلمين" إذ انجذبوا إلى رسالتها الطوباوية. إن الصلات التى تربط ما بين "الجماعة" والإرهابيين قد بدت وكأنها إيذان بطى صفحة "الإخوان" إلى الأبد ... فمسجد ميونيخ قد زايلته ملامح الهيمنة والزعامة، أما رموزه فقد دينوا بتهمة الإرهاب ... وهكذا – بدت قاعدة انطلاق "الإخوان المسلمين" الأوروبية على شفا جرف هار، إذ كانت قاب قوسين أو أدنى من نزاع بات يتهددها ... إلا أن ذلك لم يقع. فبمثل ما كانت عليه الحال فى الخمسينيات، أخذ نفور الحكومات الغربية من "الإخوان المسلمين" يستحيل هوسا وافتتانا ... وبذا صارت فصائل الإسلام الديكتاتورية المعادية للغرب صرعة أيما صرعة، فإذا كان افتتان "الخمسينيات" بهدف محاربة الشيوعية، فإن افتتان "اليوم" هو بغرض دحر الإرهاب واستئصال شأفة التطرف.

الفصل السادس عشر

«الخمسينيات» تعيد إنتاج نفسها

يوسف ندا ... وقد جلس فى أبهة ملكية مسترخيا على مقعد يستوحى روح الملكيات الغابرة - بجوار نافذة تطل على معالم أوروبا. أما "الفيلا" التى يقطنها، فتقع على قمة أحد التلال المشرفة على بحيرة "لوغانو"، والتى تتخذ مياهها المدهامة مسارا أفعوانيا ما بين منحدرات جبال "الألب" الغاصة بغابات ممتدة وكثيفة ... ولا يعكر صفو تلك الطبيعة البكر سوى بلدات قلائل نحتت على ضفاف البحيرة.

وكان مقر "ندا" يزخر بتذكارات من رحلاته حول أركان المعمورة الأربعة - ممثلا لجماعة "الإخوان المسلمين". فعلى طاولة هنا، وضعت مزهرية زجاجية زرقاء من باكستان ... وعلى أخرى هناك، وضعت شمعدانات فضية من شمال إفريقيا ... فيما زينت ثالثة آنية معدنية عجيبة على هيئة قرن "فول سودانى" - وكأنها تذكار أو شاهد على تخصصه العلمي ... إذ تخرج فى كلية الزراعة بجامعة الإسكندرية. أما الأثاث، فكان توليفة مزجت ما بين الطرز الشرقية والغربية، وقد ازدانت الأرضيات بأبسطة وسجاد يدوى من آسيا الوسطى. إن "ندا" قد وهنت قواه الآن - إلا أنه لا يزال حيويا نشيطا مرتديا قميصا رمادى اللون ذا كبكات، ورابطة عنق زاهية، وسترة سوداء وبنطالا رماديا. أما عيناه ... فسوداوان، وأما عثنونته ... فمشذبة. وكان الرجل يبدو منهكا، إلا أنه قد اعتدل فى جلسته ليورد تعريفا حرص على إعطائه لنفسه:

"إذا قيل إننى مهندس ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى رجل أعمال ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى مصرفى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى رجل صناعة ... فهذا صحيح.

وإذ قيل إننى أعمل فى التطوير العقارى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى سياسى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى ناشط ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى ديمقراطى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى اشتراكى ... فهذا صحيح.

وإذا قيل إننى إسلامى ...فهذا صحيح.

أما إذا قيل إننى إرهابى أو أمول الإرهاب أو كانت لدى صلات بالإرهاب ... فهذا خطأ وخداع وتضليل ... وهذه أمور تتعارض مع إيمانى ودينى وكل ما أومن به".

تلك سيرة ذاتية مقتضبة يصعب الجدال بشأنها ... فالنشاط الإرهابى الذى دين "يوسف ندا" بممارسته، وقيام الولايات المتحدة بتوجيه أصابع الاتهام إليه ... كان وكأنما هو محاولة يائسة من قبلها للقيام بفعل ما - أى فعل ... وذلك فى أعقاب هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ .

وحقيقة الأمر، فإن التعاون المكثف بين المحققين الأمريكيين ونظرائهم السويسريين، واتهام "ندا" بتمويل الإرهاب كان اتهاماً تنقصه الأدلة ... إذ فشل أولئك المحققون فى طرحه على الرأى العام على نحو مقنع. أما "بنك التقوى"، فقد كان استثمارا مأساويا أشبه بالكارثة لأعضاء جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أن الأرجح أنه لم يكن أداة سرية لتمويل أنشطة الإرهاب. إن عملاء البنك، أو "المستثمرين" كما أطلق عليهم، قد خولوا "ندا" فضاء رحبا وحرية فى توجيه "زكاواتهم" كيفما أراد. وبذا، فحين تدفقت الأموال على البنك خلال مفتتح نشاطه الذى اتسم بأرباح طائلة، كان "ندا" مخولا بتوجيه الزكاة إلى أى عمل خيرى أيا ما كان. هذا، ويمكن للمرء أن يتخيل أن جانبا من تلك الأموال قد ذهب إلى بعض الجماعات والتنظيمات المريبة القريبة من جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أن أمرا كهذا لم يتم إثباته قط ... إذ لم يكن أى تحويل من تحويلاته البنكية موضع ريبة أو تشكك يكفى لتخويل المحققين حق مقاضاته، ناهيك عن إدانته.

إن مشاق سنوات طوال من الجهد الدءوب لم تضعف نشاط أى من "يوسف ندا"

أو "غالب همت"، بل لقد بعثت فيهما حيوية وطاقة مفعمة. أما "ندا"، فقد استمرأ دور "الضحية" ... فعمد إلى إنشاء موقع الكترونى له لدحض أية ادعاءات "سخيفة" بحقه[111]. كذا، فقد أمضى الرجل ما لا حصر له من ساعات أخذ خلالها يشنف آذان الصحافيين والأكاديميين والمحققين بأحاديث عن "مآثره الإسلاموية". ففى سلسلة من الحوارات المطولة مع قناة "الجزيرة" القطرية، زعم "ندا" أنه المفوض السياسى لجماعة "الإخوان المسلمين" أو وزير خارجيتها.

إلا أن مصير الرجلين ... "ندا"، و"همت" ألمح إلى تطور مثير: فبشكل أو آخر، كانت أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر أفضل ما وقع لجماعة "الإخوان المسلمين". أجل ... لقد تم اتخاذ إجراءات صارمة لفرض النظام، حيث عانى الإخوان المسلمون غير قليل. إلا أن الأمر الأكثر أهمية أن جعلت تلك الهجمات معظم الغربيين يعمدون إلى تقييم "الإسلامويين" وفقا لمعيار وحيد، هو: هل الشخص إرهابى؟ فإذا كان كذلك، فسوف يتم اللجوء إلى السلطة الرسمية بكامل نفوذها وسطوتها ... من تعذيب واضطهاد وقمع واعتقال، ... وخلافه. أما إذا لم يكن كذلك، فبها ونعمت - فيكون الشخص بلا شائبة تشوبه ... إذا، فهو لا ينتمى إلى تنظيم "القاعدة"، ولا يعمد إلى القلاقل وإثارة الغبار. وبذا، لا يقتصر الأمر على قبوله، بل يمتد إلى تقديره وإعلاء شأنه. فبعيدا عن كون هؤلاء يمثلون "معضلة مأزومة" ... فإن آراءهم المتطرفة لتعد دليل ثقة ومصداقية، إذ بمقدورهم توجيه خطابهم إلى "الشارع الإسلامى" ... وقد أضحوا يمثلون كنزا ثمينا ... لقد أضحوا "شركاء حوار".

إنه صباح باكر ... حيث انطلق "هيرفيه تيريل"١١٢ مسرعا إلى داخل أحد المقاهى التى تزينها حليات من النحاس وخشب السنديان - على الجانب المقابل لكنيسة "مريم المجدلية" بوسط باريس ... تلك الكنيسة التى تشبه المعابد

الإغريقية. لقد كان "تيريل" فى طريقه إلى العمل، وتحديدا ... فقد كان قاصدا "وزارة الداخلية الفرنسية"، حيث يعمل مسئولا بإدارة الأديان بها ليشارك فى صوغ سياسة خاصة بمسلمى فرنسا. وحين التقيت "تيريل" أول مرة فى الرابع عشر من أيار/ مايو ٢٠٠٤ بباريس ... كانت فرنسا تحترق - إذ كانت تجمعات المسلمين وقد أضرمت فيها النيران. بيد أن الرجل لم يكن مشوشا، إذ كان موقنا تماما أن فرنسا قد اختارت الاستراتيجية الصائبة للتعاون مع جماعة "الإخوان المسلمين".

تعد فرنسا واحدة من أكبر بلدان أوروبا من حيث عدد المسلمين بها ... ذلك العدد الذى يتجاوز أربعة ملايين مسلم. هذا، وقد ضخ المهاجرون المسلمون إلى فرنسا دما شابا فى أوصال مجتمع هرم ذى هيكل ديموغرافى ينتظم غالبية من كبار السن ... كذا، فقد ساعد أولئك المهاجرون فى نسج روابط تجارية وثقافية مع العالم الإسلامى. إلا أن أغلب المهاجرين المسلمين يقطنون فى تجمعات عشوائية فقيرة كتلك التى كان يحيا بها "مراد عمرو" - الداعية الشاب الذى أوردنا ذكره فى الفصل السابق ... حيث يحيون بمعزل من المجتمع الفرنسى، وتندر فرص التحصيل التعليمى، كذا ... تعد فرص التوظف شحيحة للغاية. إن هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ قد ألقت الضوء على تلك المجتمعات التى تم تجنيد شبابها المسلم للجهاد ضد الغرب فى أفغانستان. وفى عام ٢٠٠٥، عمد العشرات من الآلاف إلى التظاهر وإضرام النيران فى السيارات ليلة تلو ليلة ... أما "هيرفيه تيريل"، أو بالأحرى "برنار غودار"، فكان واحدا من جماعة موظفين حكوميين رفيعة المستوى عهد إليها بالتوصل إلى حل لذلك المأزق العضال.

لقد قرر المسئولون الفرنسيون بالفعل، فى عام ٢٠٠٢، أن المسلمين بفرنسا

باتوا فى حاجة إلى صوت يعبر عن آمالهم ورغباتهم، فكان أن أسسوا "المجلس الفرنسى للدين الإسلامى" ... على أن يتم اختيار أعضائه بالاقتراع، إلا أن مشكلة قد واجهت أولئك المسئولين - من سيكون له حق التصويت؟ إذ لا يدرج المواطنون الفرنسيون انتماءاتهم الدينية بالوثائق الحكومية ... لذا، فلا تملك فرنسا قائمة أو حصرا بالمسلمين بأراضيها. أما الحل، فقد كان يكمن فى قيام المساجد باختيار ممثلين. وبطبيعة الحال، فسوف تحظى المساجد الكبيرة بأصوات أكثر من نظيرتها للمساجد الصغيرة ... وذلك ارتكانا إلى نظرية مفادها كون المساجد الكبيرة تمثل أعدادا أكبر من المسلمين ... تلك الصيغة التى أفادت منها مجموعة وحيدة، هى "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا"- وثيق الصلة بجماعة "الإخوان المسلمين".

إن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" هو مزيج من جماعات إسلاموية متعددة تجد جذورها فى "المركز الإسلامى" فى جنيف، والذى أسسه "سعيد رمضان". وفى عام ١٩٨٩، أضحى للاتحاد صيت وشهرة حين تم فصل طالبتين مسلمتين من المدرسة لارتدائهما الحجاب ... فما كان من الاتحاد إلا أن شرع فى تنظيم التظاهرات احتجاجا على ما حدث[١١٣]، وسرعان ما وطد بنيانه وثبت أركانه كقوة داخل عشوائيات المدن الفرنسية الكبرى. فإلى حينها، كانت المنظمات الإسلامية بفرنسا مصنفة وفقا للبلدان التى ينتمى إليها أعضاؤها. بيد أن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" قد دعا إلى صيغة جامعة شاملة - هى "الإسلام الفرنسى" ... صيغة لا تقصى أحدا، رغما عن كون "الاتحاد" لم ير أدنى غضاضة فى تمويل تلك "الصيغة" باستخدام تمويلات خارجية. هذا، وقد حصل "الاتحاد" على أموال طائلة من البلدان العربية. وإلى اليوم، ووفقا لمسئولى "الاتحاد"، فإن ربع ميزانية "الاتحاد" السنوية، والتى لا تتعدى الثلاثة ملايين يورو (بما يعادل أربعة

ملايين دولار أمريكى)، لترد من مانحين بالخارج ... وبخاصة من المملكة العربية السعودية، ودولة الإمارات العربية المتحدة، ودولة الكويت.

إن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" تربطه وشائج وصلات بجماعة "الإخوان المسلمين" ... وذلك وفقا لهيرفيه تيريل، معترفا ورافعا أحد حاجبيه ... ليستطرد قائلا: "إذا ما قلت إن الاتحاد شىء وجماعة الإخوان المسلمين شىء آخر ... فهذا ضرب من السذاجة. أجل ... إنهما الشىء ذاته، بيد أنهما قد ارتضيا بالقواعد الحاكمة هاهنا لرغبتهما فى خوض غمار اللعبة. ولهذا السبب، يبقى إغراؤهما غير محدود لأولئك الذين لا يفقهون حقيقة الأمور".

وقد بقيت أسأل نفسى، هل ينتمى "الرجل" لأولئك الرهط؟ إذا ... فما الداعى إلى "تكييف" قوانين الاقتراع لصالح مساجد "الإخوان المسلمين" الكبيرة - تلك المولة من قبل المملكة العربية السعودية؟! ربما تعين على وزارة الداخلية الفرنسية إرساء نظام اقتراع حريص على مخاطبة مسلمين آخرين ... مسلمين أكثر "علمانية" ممن لا يختلفون - بالضرورة - إلى المساجد يوميا.

إلا أن "تيريل" اعترض بشدة قائلا: "إن محاباة الإخوان المسلمين لهو بيت القصيد ... فالتعامل معهم لا يشكل أدنى مشكلة ... بل، على العكس - فعلى امتداد أوروبا بأسرها، فإن الجماعات الوحيدة التى تدرى كيف تجد لنفسها موطئ قدم بالمجتمع هى الجماعات الإسلاموية" ... أجل، فالإخوان المسلمون وجماعتهم لا يمثلون - بحال - جميع المسلمين، إلا أنهم ذوو جاذبية لتيريل نظرا "لامتلاكهم سمات ثقافية تخولهم الحديث بيسر مع المسئولين الحكوميين" من أمثاله. وبعبارة أخرى، فإنهم يرتدون بزات غربية، وحائزين شهادات جامعية، فضلا عن قدرتهم على صوغ مطالبهم على نحو يسهل على السياسى فهمه. ولعل الأمر قد ذكرنى

بقرار "أمكومليب" بالتوقف عن دعم "إبراهيم كوجا أوغلو" ... ذلك الزعيم المسلم المسن، وذلك لمصلحة "سعيد رمضان". فعوام البشر لا يرقون إلى أن يكونوا محاورين ذوى كفاءة ... كذا، فليس لديهم برنامج سياسى يمكن التباحث حوله ومناقشته ... إن العوام لطوام أينما يوجهوا لا يأتوا بخير.

كذا، فإن "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا" لذو جاذبية وبريق - ذلك كونه يملأ فراغا قائما فى الخدمات الاجتماعية ... فراغا لا ترغب الدولة فى التعامل بشأنه. هذا، وتمنح مساجد "الاتحاد" دورات تعليمية بعد ساعات الدوام المدرسى، فضلا عن دور حضانة للأطفال، ومجالات لأنشطة المرأة. إن إحدى مؤيدات هذا النهج هى "دنيا بوزار"١١٤، وهى عالمة اجتماع مرموقة ... هذا، وتذهب تلك العالمة الفرنسية المسلمة - فى كتاب لها صدر عام ٢٠٠١ بعنوان "إسلام الضواحى" إلى أن الجماعات - من أمثال جماعة "الإخوان المسلمين" - تعد همزة الوصل ما بين المجتمع والمهاجرين المسلمين، والوسيط فيما بين الفريقين. فخدمات تلك الجماعات - وفقا لبوزار - تساعد على اندماج المسلمين فى المجتمعات الغربية. إلا أن "بوزار" قد عدلت عن آرائها ووجهات نظرها بعد أن تابعت مجرى تطور الأحداث وسيرها على امتداد سنوات قلائل لاحقة. فبدلا من دمج المسلمين فى المجتمعات الغربية، فإن صيغة جماعة "الإخوان المسلمين" الجامعة المانعة لتنسج شرنقة حول أتباعها، ومن ثم حرمانهم التواصل مع المجتمعات المعاصرة، إلا قليلا. إذ عادة ما يتم تقزيم التعليم، فضلا عن تضاؤل فرص النجاح الوظيفى. ووفقا لبوزار: "إنها رؤية مجتمعية تصنف البشر ... فهم إما (إسلاميون) أو (غير إسلاميين). إن تلك الجماعات لترنو إلى أسلمة كل شىء". وباحتضانهم لمنظمات من أمثال "اتحاد المنظمات الإسلامية فى فرنسا"، فإن الساسة الغربيين ليذهبون - بالضرورة - فى ركاب ذلك النسق، بقبولهم

الضمنى للمعتقد الإسلاموى الذاهب إلى أن "الإسلام هو الحل".

هذا، وقد شرعت "دنيا بوزار"، وغيرها من مسلمين ومسلمات، فى إدراك أن معظم المشاكل التى تواجه المسلمين ليس لها أدنى صلة بالدين – ومن ثم فمن العبث تخويل جماعة دينية – أيا ما كانت – إيجاد حلول لتلك المشاكل ... إن مشاكل المسلمين تسود فى أوساط المهاجرين الفقراء كافة: البطالة، وانخفاض مستوى جودة التعليم، ومعدلات الجريمة المرتفعة. إن المشاكل المذكورة هنا لا "دين" لها، ومن ثم فإن ربطها بالإسلام لأمر غير مقبول. أما مقولة أن "الإسلام هو الحل" ... فمقولة لها نصيب كبير من الغواية والإغراء –إلى الحد الذى شرعت معه الولايات المتحدة الأمريكية فى صوغ سياسات مماثلة وجدت أصداء لها فى ممارساتها منذ خمسة عقود خلون.

فى أواخر عام ٢٠٠٥، قررت وزارة الخارجية الأمريكية أن مسلمى أوروبا فى حاجة إلى مساعدة الولايات المتحدة ودعمها ... فالكثير منهم يعيشون فى "مجتمعات موازية"[١١٥] منفصلة عن المجتمع القائم. أما التطرف والعنف، فكانا فاشيين ... فلم يكن من قبيل المصادفة – إذا – أن يكون ثلاثة من الأربعة الذين اقتحموا برجى مركز التجارة العالمى بنيويورك خلال هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ... قد تم "ردكلتهم" فى أوروبا. كذا، فلم يكن قيام الإرهابيين "الإسلامويين" بقتل المئات فى "لندن"، و"مدريد" أمرا عرضيا. إذا، ووفقا للخارجية الأمريكية، فإن أوروبا بحاجة إلى مساعدتها فى إرساء شبكة دولية "للتباحث حول ظاهرتى التهميش والتطرف".

لقد كانت الولايات المتحدة الأمريكية هدفا لهجمات الراديكاليين الإسلامويين، إلا أن المجتمع الأمريكى لم يولد العنف الذى نلفاه فى القارة

الأوروبية ... ولطالما تباحث الخبراء حول السبب المفضى إلى تلك الظاهرة، حيث أشار بعضهم إلى أن المسلمين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية عادة ما يكونون فى حالة توظف أو أنهم قد قدموا بهدف الدراسة. وفى المقابل، فإن المسلمين المهاجرين إلى أوروبا قد وفدوا للعمل فى مهن ترتبط بالتصنيع، حيث لم تعد تلك المهن قائمة بعد. إن أولئك المهاجرين إلى أوروبا هم من ذوى "التعليم الفنى"، إلا أنهم تنقصهم المهارات اللازمة للحصول على فرص أخرى للعمل والتوظف ... الأمر الذى يتركهم نهبا لليأس وفريسة للإحباط المتولد عن تبطلهم وفراغهم. كذا، فإن اختلاف طبيعة الخدمات الاجتماعية المقدمة فى كل من أوروبا والولايات المتحدة له ارتباط وثيق بتلك المشكلة. ففى الولايات المتحدة الأمريكية، فإن المسلمين العاطلين من العمل لا يجدون سوى مزايا محدودة تساعدهم فى التواؤم مع وضع كهذا ... لذا، فإذا أراد هؤلاء "الحياة" - يتعين عليهم العمل لساعات طوال. أما فى أوروبا، فإن العاطلين من العمل لديهم مزايا تأمينية سخية تضمن لهم الحياة، وتوفر لهم الكثير من الوقت ... ذلك الفراغ الذى يتيح لهم الانخراط فى الممارسات المتطرفة. كذا، فقد تدوولت تفسيرات أخرى للظاهرة محل البحث: منها أن العنف الإسلاموى، هو فى أغلبه ظاهرة عربية وباكستانية ... ففيما تتشكل غالبية كتلة المسلمين المهاجرين إلى أوربا من هذين الإقليمين، فإن مسلمى الولايات المتحدة يتسمون بكونهم مزيجا متنوعا تنتمى عناصره إلى فسيفساء من مواطن شتى.

إلا أن أحدا لم يتناول ما أعلنته خطة الخارجية الأمريكية: كون الولايات المتحدة بها قيادات إسلامية أفضل. وفى مؤتمر عقد يومى الخامس عشر والسادس عشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ٢٠٠٥ بمقر السفارة الأمريكية بالعاصمة البلجيكية، بروكسل، - وتحت رعاية وزارة الخارجية الأمريكية، والمعهد الملكى البلجيكى

للعلاقات الدولية، وعدد من المنظمات الأهلية الأمريكية ... التقى جمع ضم ٣٢ مسلما أمريكيا يمثلون "الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية"، و٦٥ مسلما بلجيكيا بهدف الحوار ... وكان عنوان المؤتمر: "المجتمعات المسلمة ومشاركتها المجتمعية: حوار بلجيكى/ أمريكى".

ومن الوجهة التاريخية كان الأمر هزلا ... إذ كان المؤتمر أقرب إلى بائع ماء فى حارة السقائين، أو كناقل التمر إلى هجر. فالجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية قد أسست من قبل أشخاص تربطهم علاقات وثيقة بيوسف ندا وقيادات الإخوان المسلمين فى أوروبا. إذا ... فوزارة الخارجية الأمريكية قد أوفدت إسلامويين من جماعة "الإخوان المسلمين" ذوى جذور فى أوروبا لتعريف مسلمى أوروبا بكيفية التنظيم والاندماج فى المجتمعات التى يحيون بها ... بل إن الأمر الأكثر إثارة أن عددا من أولئك المسلمين الأوروبيين الذين تمت دعوتهم إلى حضور المؤتمر كانوا أنفسهم جزءا من شبكة جماعة "الإخوان المسلمين".

وكان أحد المشاركين بلجيكى يدعى "ميشيل بريفو"[١١٦] ... كان قد اعتنق الإسلام، وكان - إبان عقد المؤتمر - نائبا لرئيس "المنتدى الأوروبى الإسلامى للمنظمات الشبابية والطلابية"، وهو تنظيم ينتمى إلى جماعة "الإخوان" السعودية، ومدعوم من قبل "اتحاد المنظمات الإسلامية فى أوروبا" ... ذلك التنظيم المظلى للإخوان المسلمين فى أوروبا. كذا، فقد كان "بريفو" نائب الأمين العام لمسجد "الصحابة" بمدينة "فرفييه" بإقليم "والونيا" البلجيكى ... وهو بؤرة لنشاط جماعة "الإخوان المسلمين" فى بروكسل، وموئل "مؤسسة الأقصى الخيرية" التى تعمل على جمع التمويلات لصالح "حركة المقاومة الإسلامية - حماس" ... تلك المؤسسة التى تم حظرها فى العديد من البلدان الأوروبية كألمانيا وهولندا لدعمها الأنشطة الإرهابية. هذا، وقد كان مؤتمر الحوار ببروكسل فرصة لنشطاء جماعة "الإخوان

المسلمين" من أمثال "ميشيل بريفو" للاجتماع بنظرائهم الأمريكيين. وفضلا عن ذلك، فقد أسهمت الخارجية الأمريكية فى استقدام المسلمين البلجيكيين إلى الولايات المتحدة لتدريبهم كأئمة ودعاة من قبل "الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية"، وللمشاركة فى برنامج تدريب صيفى نظمته الجمعية فى "شيكاغو". وبإيجاز ... كان مؤتمر بروكسل حلقة للتشبيك والتنظيم ما بين أعضاء جماعة "الإخوان المسلمين" ... قام بتمويلها المواطن الأمريكى - دافع الضرائب!!

هذا، وقد أعلن مسئولو الخارجية الأمريكية أن الوزارة قد دعت أفرادا مدانين بالتطرف، إلا أنهم قالوا إن سجل أعمال أولئك المدانين لم يكن ليعنيهم ... فالأمر الأهم كان وضعهم الحالى. ففى شهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكى، صرح السفير الأمريكى فى بروكسل، توم كريس كورولوغوس، بأن "بعض المنظمات التى شاركت فى مؤتمر بروكسل قد دينت بكونها منظمات إرهابية ... أجل، قد يكون بعض أعضاء تلكم المنظمات قد أدلوا ببيانات وصمت بكونها إرهابية الطابع، إلا أن وجهة نظرنا كانت تتمثل فى أن يرتكن انتقاؤنا إلى السياسات المعلنة والأنشطة المحددة للأفراد والمنظمات الآن بالنظر إلى اندماج المسلمين فى المجتمعات الأوروبية والأمريكية التى يحيون بها. ثم فى لهجة أقرب ما تكون إلى نبرة استعراض مسرحى، خلص "كورولوغوس" إلى أن "أربعة مؤتمرات أو خمسة كذلك المؤتمر قد تفضى إلى شبكة من المسلمين المعتدلين".

إلا أن مخاطبات "كورولوغوس" الداخلية قد أسفرت عن أهداف أقل إيثارية ... ففى برقية بتاريخ الثانى عشر من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦، أقرت السفارة الأمريكية فى بروكسل أن "تعاطى السفارة مع المسلمين البلجيكيين يعتبره بعض أعضاء المجتمع البلجيكى، وكذا عدد من المسلمين، تدخلا فى شئون بلجيكا

الداخلية". وتخلص البرقية إلى أن الأمر قد تم تبريره - لا على إرسائه لشبكة من المسلمين المعتدلين، وإنما بالأحرى "لتدعيم مصداقيتنا لدى كل من المسلمين والأغلبية البلجيكية وذلك بهدف خلق صورة أكثر إيجابية للولايات المتحدة فيما يخص سياساتها وقيمها ومجتمعها".

وفى عام ٢٠٠٧، حدث أمر مماثل فى ألمانيا ... فقد ساندت القنصلية الأمريكية فى ميونيخ بشدة إقامة "أكاديمية إسلامية" فى مدينة "بنتسبرغ" البافارية. وكان وراء إقامة تلك الأكاديمية جماعة تربطها علاقات وثيقة بالحزب الدينى القومى "مللى غوروش" ... ذلك الحزب الذى أوردنا ذكره فى الفصل السابق، والذى كثيرا ما يدرج فى قوائم المنظمات المتطرفة فى ألمانيا ... حيث كان ذلك سببا فى معارضة الحكومة البافارية، بقيادة حزب الاتحاد الاجتماعى المسيحى المحافظ، لإنشاء الأكاديمية. هذا، وكان الموقف معقدا - إذ بدت جماعة "بنتسبرغ" وقد سعت جاهدة لإبعاد نفسها عن شبهة التطرف، إلا أن ذلك لم يكن ليقنع المسئولين الألمان الذين آثروا التمهل إلى حين - قبل قبولهم بالنهج الوسطى الأكثر اعتدالا من قبل تلك الجماعة. لذا، فقد خلق تبنى الخارجية الأمريكية السريع للجماعة واحتضانها لها ازدواجية سياسية عجيبة: فإدارة الرئيس جورج بوش-الابن التى عنفت "أوروبا العجوز" لعجزها وتساهلها فى مجابهة قوى التطرف والإرهاب ... هى ذاتها التى وبخت حكومة أوروبية محافظة بسبب نهجها الصارم غير المهادن للإسلامويين بها.

إن نهج الخارجية الأمريكية قد شكل جانبا من تغيير أشمل فى استراتيجيتها. فوفقا لبرقية أرسلتها السفارة الأمريكية فى برلين بتاريخ السابع عشر من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ إلى الخارجية الأمريكية، فإن "الاستراتيجية قد تمثلت فى سياسة لاستخدام الأمريكيين المسلمين للتواصل

مع غيرهم من المسلمين". وهو ما جاء متوازياً مع الجهود الأمريكية - إبان الخمسينيات - لتجنيد مسلمى ميونيخ لأغراض دعائية مماثلة. وبالرغم من أنه قد فاحت منها شبهة استغلال "الإسلام"، إلا أن السياسة تلك، فى أكثر من وجه لها، لا تعد متضاربة: إذ ما الضير فى إرسال مواطنين أمريكيين للإعلام بما جرى فى الولايات المتحدة؟ وهنا تكمن المشكلة ... من يصلح لأداء مهمة كتلك؟ وبمثل ما جرى فى الخمسينيات والستينيات، وقع اختيار الولايات المتحدة على الإخوان المسلمين.

أما المدافع الأكبر عن تلك الاستراتيجية الجديدة ... فكان عالم السياسة الأمريكى الشهير "روبرت لايكن" من مركز "نيكسون"[١١٧]. ففى مقالة بارزة له بالاشتراك مع زميله "ستيفن برووك" وردت بدورية Foreign Affairs الأمريكية فى عددها صدور آذار/ مارس - نيسان/ أبريل ٢٠٠٧ - أورد الثنائى نقاطا جديدة ذات دلالة ومغزى. فعلى سبيل المثال، أشار "لايكن" و"بروك" إلى أن جماعة "الإخوان المسلمين" كانت تعامل - فى غالب الأحوال - على أنها كتلة واحدة، وأن المسئولين فى الغرب قد تجاهلوا التيار المعتدل فى الحركة. كذا، فقد أشارا إلى أن الإرهابيين قد نظروا بازدراء إلى الإخوان المسلمين لعدم قيامهم بتبنى مفهوم "الجهاد العالمى" - وبذا، وفى سياق سياسات إقليم الشرق الأوسط، فإن جماعة "الإخوان المسلمين" ليست الأكثر عنفا أو تطرفا ... كذا، فقد أشارا - وبحق - إلى ضرورة ألا تخشى الولايات المتحدة الأمريكية التعامل مع جماعة "الإخوان المسلمين" - أو غيرها من الجماعات - إذا كان ذلك يصب فى مصلحتها، إذ كتبا يقولان: "على صناع القرار الأمريكى أن يعمدوا إلى تحليل كل جماعة على حدة، وانتقاء الجماعات الملائمة للتواصل معها. كذا، فعليهم فى بحثهم المحموم عن "إسلاميين معتدلين" أن يدركوا أن جماعة "الإخوان المسلمين" تعد اختيارا ملائما

وفرصة سانحة".

قلة هم من يمثل "انبهار" الغرب بجماعة "الإخوان المسلمين" ونفوره منهم فى الوقت ذاته بقدر ما يمثله "إبراهيم الزيات" ... الذى آلت إليه مقاليد التجمع الإسلامى بألمانيا فى عام ٢٠٠٢ (وكان عمره حينذاك ثلاثة وثلاثين ربيعا) ... حين أجبر "غالب همت" على ترك المنصب، ليصبح بذلك رابع من يتولونه - بعد سعيد رمضان وفضل يزدانى وغالب همت. هذا، ويمثل الزيات الجيل الجديد ... ذلك الجيل الذى هو - بشكل أو بآخر - حصاد سنوات طويلة من جهود الإسلامويين لإيجاد موطئ قدم لهم فى أوروبا، ومن ثم إرساء مؤسسات دائمة هناك.

وقد ولد "إبراهيم فاروق محمد الزيات" فى عام ١٩٦٨ بألمانيا لأب مصرى يعمل إماما لمسجد "ماربورغ" وأم ألمانية اعتنقت الإسلام. هذا، وقد درس "الزيات" الاقتصاد والقانون فى جامعات "ماربورغ"، و"كولونيا"، و"دارمشتاد" بألمانيا، وحصل على درجة الماجستير فى الاقتصاد عام ١٩٩٥ بأطروحة تناولت "رؤية تقويمية حول الأنظمة الاقتصادية الإسلامية"، إلى جانب أطروحته للدكتوراه حول "الزكاة كبديل للتأمين الاجتماعى بالمجتمع الغربى". هذا، ويدرك الزيات جيدا كيفية صنع القرار السياسى فى ألمانيا ... التفاعل ما بين مستجمعات الأفكار والكنائس والمؤسسات السياسية حيث يلتقى صناع الرأى للتباحث حول الأفكار التى تتم غربلتها بواسطة الأحزاب السياسية للوصول إلى إجماع حول السياسة المزمع تنفيذها. ولا يعنى ذلك ضربا من نشاط أو تنظيم قاعدى شعبى، بل هو نظام لترسيخ أقدام الصفوة وتقوية عضدها ... تلك الصفوة التى يعوِّل عليها لاقتلاع الأفكار الراديكالية واجتثاث شأفتها والوصول إلى حلول ذات معنى. وكمنسق وحاشد من الطراز الأول، يدرك الزيات ذلك الأمر جيدا. وفى بعض الأحايين يبدو الزيات وكأنه لا يفعل شيئا سوى الانتقال من مؤتمر إلى آخر ... فمن أكاديمية

سياسية تابعة لهذه الكنيسة البروتستانتية أو تلك، إلى طاولة مستديرة لإحدى الكنائس الكاثوليكية، ومن ندوة للحزب الاشتراكى الديمقراطى حول الحوار بين الحضارات إلى لجنة فرعية للبرلمان الأوروبى بشأن الأقليات ... وهكذا دواليك ... هو دائم الحضور إذ يترك انطباعا قويا ومؤثرا - مرتديا بزة زرقاء وقميصاً أبيض تزينه رابطة عنق مزركشة - رجل أقرب ما يكون إلى مدير شاب بأحد البنوك الاستثمارية ... أو كما وصفه "هارتفيغ مولر"، من المكتب الاتحادى لحماية الدستور، بأنه أقرب إلى "دبلوماسى أوروبى" من كونه "عنكبوتا بشبكة التنظيمات الإسلاموية".

بيد أن ما يجعل "الزيات" نسيجا وحده بالمقارنة بمجايليه من ذوى الطموح السياسى ... هو انخراطه فى النسق الإسلاموى. فكما أسلفنا، استقر والده المصرى فى ألمانيا إماما لمسجد "ماربورغ"، ومسئولا عن شئون المسلمين بها. هذا، ولم يتخلف الابن عن الركب، إذ كان إما مؤسسا أو ضالعا فى تأسيس جميع المؤسسات المنشأة حديثا ذات الصلة بجماعة "الإخوان المسلمين" فى أوروبا ... كمؤسسة الوقف الأوروبى (عضو مجلس إدارة له حق التحكيم)، واتحاد المنظمات الإسلامية فى أوروبا (عضو مجلس إدارة)، واتحاد الطلاب المسلمين (رئيس سابق)، وجمعية دعم المساجد وبنائها فى أوروبا (محكم)، والندوة العالمية للشباب الإسلامى (الممثل الأوروبى)، ومعهد التعليم الإسلامى (عضو)، وجمعية علماء الاجتماعيات المسلمين (المدير المساعد)، والمنتدى الأوروبى الإسلامى للمنظمات الشبابية والطلابية (عضو مجلس إدارة).

وكان ذلك - فقط - نشاطه فى المجال العام ... فقد اكتسب ثروته أيضاً من خلال الإسلام، فهو رئيس مجلس إدارة شركة SLM للتجارة والاستثمار العقارى - وهى شركة ذات مسئولية محدودة، وهى شركة لشراء العقارات وبيعها نيابة عن

المساجد. وكان أحد أكبر عملائه جماعة (مللى غورروش) التركية الإسلاموية - والتى فاقت الإخوان المسلمين من حيث النفوذ فى ألمانيا نظرا للعدد الكبير من الأتراك المقيمين على أراضيها ... بيد أن "الزيات" قد أسهم فى تجسير تلك الهوة من خلال علاقاته التجارية والشخصية. هذا، وقد أنشأ "الزيات" شركته تلك فى عام ١٩٩٧، ولما يزل فى التاسعة والعشرين من عمره، بالتعاون مع إسلاموى آخر يدعى "أوغوز أوتشونجو" ... وهو تركى يشغل حاليا منصب السكرتير العام لمللى غورروش. و"الزيات" متزوج من طبيبة تركية هى الدكتورة "صبيحة أربكان"، وهى عنصر بارز فى "مركز دراسات المرأة المسلمة" التابع للمعهد الأوروبى للعلوم الإنسانية - وهو معهد فرنسى لإعداد الأئمة الأوروبيين. و"صبيحة أربكان" هى أخت "محمد صبرى أربكان" - السكرتير العام السابق لمللى غورروش، وابن شقيق "نجم الدين أربكان" مؤسس الحركة. أما شقيقة "الزيات" فمتزوجة من "عبد الرحمن كمال الهلباوى" - وهو نجل الدكتور "كمال الهلباوى" المتحدث السابق باسم التنظيم الدولى لجماعة الإخوان المسلمين فى أوروبا. أما ارتباطات "الزيات" بالإسلاموية العالمية فعميقة للغاية إلى الحد الذى سلّط عليه أضواء كثيرة فى كبريات وسائط الإعلام الألمانى. ففى كتاب "الحرب فى مدننا" Der Krieg in unsern Stadten، أورد مؤلفه الصحافى الألمانى "أودو كونستانتين أولفكوته" وصفا للزيات بأنه "عنكبوت فى وسط شبكة من التنظيمات الإسلاموية الإرهابية"، وهو الوصف الذى ورد على لسان "هارتفيغ مولر" كما أسلفنا. والكتاب غاص بأخطاء جسيمة وتوكيدات صارخة حدت بمجموعة محامىّ "الزيات" إلى الضغط على دار النشر لحذف بعض العبارات. إلا أن مجمل رؤية الكتاب قد أصابت "كبد الحقيقة" ... "الزيات" هو أحد أكثر الإسلامويين نفوذا فى أوروبا.

ويبقى السؤال: أيمكننا أن نطلق على "إبراهيم الزيات" وأمثاله - من نشطاء

"الجمعية الإسلامية لأمريكا الشمالية" فى شيكاغو إلى أعضاء "اتحاد المنظمات الإسلامية" فى فرنسا - أنهم أعضاء بجماعة "الإخوان المسلمين"؟ بل هل يكون من الإنصاف أن نطلق عليهم تلك الصفة - فى حين أن غالبيتهم قد ولدوا بالغرب، بل ربما لا يتحدثون العربية أو الأردية، فضلا عن كونهم يلتزمون بالأعراف والقوانين المحلية؟ ... فى حالة "إبراهيم الزيات"، فإن الحكومة المصرية لتزعم أنه عضو بجماعة "الإخوان المسلمين"، وما يتضمنه ذلك من أن الجماعة ما يزال لديها شبكة من الأفراد الذين يأتمرون بأوامر "مهدى عاكف" فى القاهرة ويدعمون الجماعة فى مصر. هذا، وقد قام الرئيس المصرى الأسبق، حسنى مبارك، بإحالة "الزيات" مع أربعين من قيادات الإخوان المسلمين في مصر إلى المحكمة العسكرية الاستثنائية في كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٦، حيث حكم على "الزيات" غيابيا فى نيسان/ أبريل ٢٠٠٨ بالسجن لمدة عشر سنوات ... إلا أن السجل المصرى لحقوق الإنسان لغاص بالتجاوزات والانتهاكات، وخاصة فيما يتعلق بتعذيب "الإخوان المسلمين"، بما يجعل من الصعوبة بمكان الوثوق فى ما يدلى به المسئولون الحكوميون فى هذا الصدد. بل الأدهى من ذلك أن زعم موقع "الإخوان المسلمين" الرسمى على الانترنت Ikhwanweb أن "الزيات" عضو بالجماعة ... إلا أن الموقع قد قام فى العشرين من شباط/ فبراير ٢٠٠٧ بنشر تكذيب من "الزيات" الذى أنكر أية صلة تربطه بالجماعة.

بيد أن السؤال غير ذى موضوع بدرجة أو بأخرى ... إذ ينشط الإخوان المسلمون، اليوم، وفق مسارين ... أحدهما محدود كتنظيم سياسى مصرى، والآخر بصيغة تتلاءم كثيرا والحالة الغربية فى القرن الحادى والعشرين - كمحيط أيديولوجى ينتظم أعمال "يوسف القرضاوى" و"سيد قطب" و"سعيد رمضان" و"أحمد فون دنفر"، بل يمكن وصفه على نحو أوسع ليشمل جميع الحركات المماثلة

على امتداد المعمورة إلا قليلا، بما فى ذلك الجماعة الإسلامية بباكستان وملى غوروش التركية. لذا، ووفق ما سبق، فإنه يصعب أن يذهب المرء إلى اعتبار "إبراهيم الزيات"، بما له من ارتباطات بكل تلك الجماعات، مغردا خارج السرب الإخوانى. وبالرغم من محاولاته لكى يبعد عن نفسه أى ارتباط بجماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أن معركته قد منيت بالخسارة ... ففى عام ٢٠٠٥، عمد "الزيات" إلى مقاضاة إحدى البرلمانيات الألمانيات لمنعها من استخدام تلك الصفة حين الإشارة إليه، إلا أن المحكمة قد أيدت حق تلك البرلمانية فى إبداء رأيها القائل "بكونه أحد أذرع الجماعة".

أما فى محاوراتى مع "الزيات"، فإننى أنحو إلى تجنب نعته بتلك الصفة. فعلى مدار أعوام، اقتربت من الرجل فأضحيت أعرفه جيدا، إذ حاورته مرتين وجمعتنا مؤتمرات عديدة من بينها سلسلة من جلسات نقاشية مغلقة رعتها الكنيسة الكاثوليكية الألمانية بهدف إزالة الحدود ما بين الإسلامويين من جهة، وجهاز الأمن فى ألمانيا من جهة أخرى. وفى إحدى تلكم الجلسات، رأيت "الزيات" يدافع باستماتة عن جماعة "الإخوان المسلمين" كتنظيم إصلاحى تقدمى شديد الأهمية - وهى حقيقة من الصعب إنكارها فى واقع الحياة السياسية المصرية. بيد أننى قد أدركت أيضا السبب وراء رفضه لأن ينسب إليه الانتماء إلى "الجماعة". فالزيات قد ولد فى ألمانيا حيث يختلف أبناؤه إلى مدارس "مونتيسورى" العالمية، فضلا عن اتسامه بروح دعابة، وإن كانت لاذعة بعض الشىء. إن الرجل ليرفض أن يوصم بكونه دمية فى يد "مهدى عاكف" - مرشد الإخوان - يحركها كيفما شاء، أو بكونه أداة فى أيدى "عواجيز" الجماعة بالقاهرة.

إن اللقاء الأخير الذى جمعنى بالزيات قد جرت وقائعه بمكتبه بكولونيا. فبعد توليه رئاسة التجمع الإسلامى بألمانيا، عمد "الزيات" إلى نقل أنشطة التجمع

وعملياته من ميونيخ إلى كولونيا، بالرغم من أن التجمع كان ما يزال مقره كائنا بمسجد ميونيخ ... وهو ما جاء ليعكس تاريخاً للتنظيم من تحكم الأقوياء. فحين كان "غالب همت" على رأس مسجد ميونيخ، كان يقيم فى سويسرا، وحين أضحى "الزيات" رئيسا له، كان يديره من كولونيا ... إذا فقد ظل مسجد ميونيخ أداة، بل سلاحا ينتضى فى صراعات باتت تتسع دوائرها.

إن مقر "الزيات" ومكتبه بشارع "أوستر آتر" بكولونيا هو مقر عديد من منظمات إسلاموية التوجه - من بينها "جمعية علماء الاجتماعيات المسلمين"، و"اتحاد الطلاب المسلمين"، ومكتبة، ودار حضانة خاصة بالتجمع الإسلامى بألمانيا، ومكاتب "المجلس الإسلامى بألمانيا" ... والمجلس هو تنظيم مظلى ينتظم عددا من المنظمات الإسلامية أشهرها "مللى غوروش". لقد قصدت إلى مقر "الزيات" باكرا، حيث لبثت فى المكتبة بانتظار قدومه، حيث قادنى إلى المكتبة موظف حيانى بنظرة ملؤها الارتياب مشيرا لى بيده إلى أحد المقاعد للجلوس ... إلا أن أساريره قد انفرجت حين سألته عن إمكانية أن يرشح لى كتابا يتناول مقدمة موجزة عن الإسلام، فما كان منه إلا أن دفع بين يدىَّ بنسخة من كتاب "السلوكيات الإسلامية" لأحمد فون دنفر ... والكتاب عبارة عن سلسلة من المقالات بقلم زمرة من أشهر المؤلفين الإسلاميين، من بينهم "خورشيد أحمد"[١١٨] - الذى يعد معلما لفون دنفر.

وما هى إلا دقائق حتى أهلَّ "الزيات" ... أكثر امتلاء وأغزر شيبة عما كان عليه فى المرة الأخيرة التى جمعتنى به. ثم غادرنا المقر لنركب عربته الـ BMWمن الفئة الثالثة. وحين أضحينا فى غمار زحام الطريق، تذكرت السبب الذى دفعنى للإعجاب به.

"يقول الكثيرون إن إين جونسون هو عميل لجهاز الاستخبارات المركزية، ذلك كونه لا يكتب إلا فيما ندر".

فجاءت إجابتي: "هذا ما يقوله رئيسي أيضا".

"إذا - عليك أن تكتب أكثر وأكثر ... ألا يقولون إن الكسل خطيئة".

وأثناء اختراقنا للزحام الجاثم، صرنا نتبادل طرفة هنا وملحة هناك في جو من الدعابة المازحة ... في طريقنا لتناول الغداء.

وما أن وصلنا وجهتنا حتى ترجلنا قاصدين ذلك المطعم التركي. وسريعا أخذ "الزيات" بزمام الأمر حيث أمر بسلطانية حساء وصحن كبير حوى شرائح لحم علتها قطع من الخبز المحمص، فيما غرق اللحم في صوص الزبادي بالثوم ... ليباغتني بإخراج حافظة نقوده بسرعة ليؤدي قيمة الغداء قبل أن تبدر عني التفاتة أو ردة فعل ... قائلا: "لاتنس أنك الآن في حضرة عربي ... قضي الأمر!!"

كان "الزيات" قد مر بأوقات عصيبة ... إذ كان المسئولون الألمان يريدون حوارا مع "المسلمين" - وهو مصطلح غريب بعض الشيء ... فهو يجمع صنوفا مختلفة تماما ... فمن أتراك الجيل الأول الذين لا يتحدثون الألمانية إلا لماما إلى مهاجري "البوسنة" وألمان "الداخل" المتحولين إلى اعتناق الإسلام. إن أولئك المسئولين يدركون أن "الزيات" وحلفاءه في "مللي غورروش" يمثلون طوائف عدة من المسلمين، وبخاصة الشبيبة الحائرة الأكثر اضطرابا ... أولئك الذين يمثلون التهديد الأمني الأكبر. بيد أن "الزيات" وشبكة علاقاته المترامية قد صارا معلومين في ألمانيا، حيث لم يكن "الزيات" - دائما - موضع ترحيب. فالمركز الاتحادي للتعليم السياسي - على سبيل المثال - قد أدرجه متحدثا ومحاورا

معتمدا عن شئون المسلمين، فكان للأمر ثقل ملموس - ذلك أن المركز كان قد أنشئ فى أعقاب نهاية الحرب الكونية الثانية للترويج للتعليم الديمقراطى فى المجتمع الألمانى الغربى، حيث غالبا ما يتم النظر إلى توصياته كونها آمنة لا تنطوى على أية أخطار. بيد أنه حين أشار المعلقون إلى ارتباطات "الزيات" بالعوالم الأيديولوجية لحركة "الإخوان المسلمين"، سرعان ما عمد المركز إلى استبعاد اسمه من موقعه على الانترنت. إلا أن "الزيات" بدا وقد أحرز إنجازا حين شارك فى المؤتمر الإسلامى الذى نظمته الحكومة الألمانية ... وكان جهدا حكوميا استهدف إقامة حوار رسمى مع المجتمع الإسلامى فى ألمانيا. إلا أنه حين أعلن عن وجود "الزيات" بالمؤتمر، كان اللجوء إلى استبعاده على الفور. وفى عام ٢٠٠٩، داهمت الشرطة الألمانية عدة مساجد وزوايا للصلاة لها صلات بجماعة "الإخوان المسلمين"، حيث أوردت صحيفة Suddeutsche Zeitung فى عددها الصادر بتاريخ الحادى عشر من آذار/ مارس ٢٠٠٩ أن "الزيات" هو على رأس التنظيم فى ألمانيا، بما كان من شأنه مزيد من تلطيخ صورته وتشويه سمعته.

كل هذا قد أفضى إلى إقصاء "إبراهيم الزيات" عن الصفوف الأولى لشركاء الحوار، بيد أنه قد استأنف جعل شبكة علاقاته نشيطة فاعلة بما أتاح لآخرين الانضمام إليها. إن هذا الدور - على الأرجح - لم يكن هو عين ما يبغيه الرجل، إلا أنه دور قد أجاده هو و"الإخوان المسلمون" على امتداد أعوام طويلة. فقبل أعوام قلائل، أرسل "الزيات" أموالا إلى وكالة "طيبة" الدولية للغوث بفرجينيا بالولايات المتحدة الأمريكية، وهى منظمة بوسنية ترتبط بعلاقات مع تلك الجماعات الأصولية. وبالفعل، فقد اعترف "الزيات" بقيامه بتحويل الأموال إليها، بيد أنه قال إنه إنما فعل ذلك نيابة عن ممولين سعوديين. وحين سألته عن السبب وراء تورطه مع السعوديين

... كان جوابه صادما: "لتجنب وقوع الأسوأ" ... وهو تبرير نمطى يتنصل من المسئولية ... تبرير يرد كثيرا على لسان أناس قد لبثوا كثيرا فى معية جماعات سيئة السمعة تطالها سوء الأحدوثة.

إن رموز جماعة "الإخوان المسلمين" دائما ما يقولون إنهم لا تربطهم أية علاقة بالإرهابيين، إلا أنهم يعترفون بوجود علاقات ما حين يتم سؤالهم عن ارتباطات بعينها ... إن تلك الرموز تمتنع عن إعطاء بيانات واضحة، كذا فإنها لا تعمد إلى إحداث قطيعة بائنة بالماضى. إن التجمع الإسلامى بألمانيا لم يعترف بماضيه ألبتة إذ لم يعر تاريخه أدنى اهتمام. ففى اجتماعه السنوى الذى أقيم فى أواخر عام ٢٠٠٨، احتفل التجمع بالذكرى الخمسين لإنشائه، بالرغم من أنه لم يكن قد أنشئ بعد كلجنة بناء المسجد حتى ستينيات القرن العشرين ... حيث زعم التجمع - بموقعه على الانترنت - أنه قد أنشئ بواسطة الجنود السابقين (الذين اجتمعوا للمرة الأولى عام ١٩٥٨، ومن ثم ذلك الاحتفال باليوبيل الذهبى)، إلا أنه لم يذكر كونه قد عمد إلى استبعاد أولئك الجنود وإقصائهم. وكان التجمع قد شرع فى منح جائزة باسم "سعيد رمضان" لأولئك الذين خدموا "القضية"، إلا أنه لم يذكر أن "رمضان" نفسه كان قد أقصى أيضا. هذا، فضلا عن إشارة التجمع إلى أن رهطا من الراديكاليين قد كانت لهم بعض صلات بمساجده، وأن هذا لا يمثل سوى استثناء من القاعدة ... إن الماضى دائما ما تتم إعادة كتابته ... أو ضرب الصفح عن وقائعه.

إلا أن ذلك لم يمنع أن يتمتع "الزيات" بشبكة صداقات واسعة ... إذ انطلت على البعض مزاعم جماعة "الإخوان المسلمين" الذاهبة إلى أن صرامتها المتجلمدة إنما تعبر عن الأصالة. ولعل أفضل مثال على ذلك هو "فيرنر شيفاور"، وهو أنثروبولوجى ألمانى مرموق كتب كثيرا عن الإسلامويين فى تركيا وألمانيا. هذا، ويعد أسلوب

"شيفاور" حداثيا للغاية ... فالمبحوثون يتم إعطاؤهم أسماء مستعارة، كذا، فإنه يتم التعامل مع إجاباتهم على نحو ظاهرى (أى كما أدلوا بها). ولا يقوم "شيفاور" بأى جهد بحثى عميق، بل يقتصر على مضاهاة الروايات بعضها ببعض لإيجاد رابط منطقى ينتظمها ... كذا، فإن مجهوده البحثى ينبع من شعور بالذنب من أن الأجانب هم ضحية المجتمع الألمانى القمعى.

وقد أخبرنى "إبراهيم الزيات" أن تكوين صداقات لهو أمر مهم، إلا أنه قد رغب فى إعلامى بأمر أكثر أهمية. فبعد أن فرغنا من غدائنا، والشاى الذى أعقبه ... كان "الزيات" قد تحدث عن جميع "الجماعات" التى انتمى إليها، وكذا كل المصاعب التى واجهها ... وقد انطوى الأمر على درس هام ود الرجل أن يخبرنى به، حيث ملت إلى الأمام مصغيا إليه ... كان الأمر يتعلق بجماعة قد رغبت فى بناء مسجد فى "برلين" ... إنها جمعية "إنسان"، وهى جمعية مسجلة ومشهرة وفقا للقانون الألمانى. وكانت "إنسان" قد أنشئت بواسطة عدد من المسلمين فى أعقاب أحداث الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، وكانت بحاجة إلى بعض الأموال. هذا وقد عمد "الزيات" إلى مخاطبة "مؤسسة الوقف الأوروبى" لمنح الجمعية عدة ملايين من "اليورو" لشراء قطعة أرض فى برلين لإنشاء المسجد عليها. وحين ذاع خبر شراء الأرض، ثارت موجة من الغضب بشأن ضلوع "الزيات" فى الصفقة، فما كان من البلدية إلا أن امتنعت عن إعطاء رخصة البناء للجمعية ... وهنا سألت "الزيات" ما إذا كان الأمر يتعلق باشتراك جماعته فى الهجمات بوسيلة أو أخرى.

"لا ... إذ إنه ما إن يذاع خبر عن بناء مسجد، حتى يصطف الجميع لمعارضة الأمر ... إن المساجد يجب أن تشيد فى الخفاء".

"من المؤكد أن ذلك ينافى الحقيقة ... لقد زرت مدنا ألمانية عديدة، حيث شهدت

مسلميها يتواصلون مع المجتمعات التى يحيون بها. كذا، فقد حظوا بدعم واسع لمشاريعهم ... أجل، إن الأمور لا تجرى دوما على هذا النحو، فما تزال العنصرية تمثل مأزقا كبيرا ... إلا أننى أرى أنه فى الأجل الطويل، فإن الشفافية هى الرهان الرابح. أليس مشروع بناء ذلك المسجد فى برلين بواسطة جماعة صغيرة من النشطاء المولين من قبل الإخوان المسلمين هو لب المشكلة ؟!"

وهنا جاء رد "الزيات" صالحا لكل زمان - لا يبليه طول العهد ولا اختلاف الأوان ... رد كان يمكن أن يرد على لسان "غرهارد فون منده" أو "روبرت دريهر" أو "سعيد رمضان" ... "ليس الأمر على تلك الشاكلة ... إن السرية لهى مربط الفرس هاهنا ... إذ ما دام الأمر سريا، فبمقدورك بناء أى مسجد تشاء، بغض الطرف عمن وراء تمويله ... إذا، ما عليك إلا أن تبقى الأمر فى طى الكتمان".

خاتمة

من داخل المسجد

إنه يوم الخميس، التاسع من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٤ ... حيث كان المركز الإسلامى بميونيخ شبه خاو ... أما الداخل، فكان ذا وهج إذ أسهمت نوافذ المسجد الكبيرة، وكذا قطع "القاشانى" اللامعة التى تكسو جدرانه فى جعل الداخل يبدو دافئا ... إلا أن الحوائط الخرسانية لم تمنع برد أوائل الشتاء من أن يتسرب للداخل.

في ذلك اليوم، كان "أحمد فون دنفر" يذرع أرجاء المسجد الأربعة مرتديا سترة فرائية مقلنسة. إن ذلك الرجل الضخم بلحيته الكثة وأعوامه الخمسة والخمسين لأشبه بجوّال بافارى يجوب غاباتها، لولا جلبابه القصير الذى يظهر من وراء سترته ... ذلك الجلباب الأخضر الذى يمثل الزى الذى اعتمده الرجل معلنا للعالم أنه لم يعتنق الإسلام فحسب، بل كونه منتميا لإحدى جماعاته ... الجماعة الإسلامية الباكستانية.

أما والدا "فون دنفر"، فقد ولدا فى "ريغا" - عاصمة لاتفيا، وهى المدينة ذاتها التى ينتمى إليها آباء "غرهارد فون منده".إن هذا الميناء القديم الذى أنشأه الفرسان والتجار الألمان خلال العصور الوسطى - ليضم أقلية ألمانية كبيرة الحجم، وذلك قبل انشطار ألمانيا فى القرن العشرين حين لم تفقد مساحات شاسعة من أراضيها فحسب، بل فقدت أيضا هيمنتها على أوروبا الشرقية. وحين تم تهجير والدى "فون

دنفر" عند نهاية الحرب الكونية الثانية ... استقر الزوجان فى إقليم "الراين" حيث ولد "فون دنفر" فى العاشر من أيار/ مايو ١٩٤٩ . هذا، ويعد "أحمد فون دنفر" أنموذجا نمطيا لتلك الفورة فى المواليد التى شهدتها ألمانيا فى الفترة ما بين عامى ١٩٤٦ و١٩٦٤ ... حيث نشأ فى رغد من العيش فى "فرانكفورت" - عاصمة المصارف الألمانية لينهى فترة تعليمه المدرسى ويلتحق بالخدمة العسكرية ... وهناك اكتشف الشاب "فون دنفر" الإسلام، حيث يقول: "كان لدى متسع من الوقت أثناء فترة خدمتى بالجيش. فآنذاك، كان على المرء أن يقضى ثمانية عشر شهرا مجندا ... فما كان منى إلا أن عمدت إلى تمضية تلك الأوقات فى القراءة، فقرأت كثيرا ... لقد قرأت عن ديانات العالم، حيث كان "الإسلام" - الدين الوحيد الذى وجد قبولا لدىّ".

وقد شرع "فون دنفر" يمارس "الإسلام" خبط عشواء، لينجذب رويدا إلى "ميونيخ" حيث طفق يزور المركز الإسلامى هناك اعتبارا من أواخر السبعينيات،

وذلك عقيب سنوات قلائل من افتتاحه فى عام ١٩٧٣ . لقد كان ذلك هو الزمن الذى سعت جماعة "الإخوان المسلمين" خلاله إلى العودة مجددا بعد سنوات من القمع والاضطهاد ... حيث بدأت فى إنشاء شبكة علاقات وعمدت إلى ترتيب صفوفها. وبالرغم من أن أبواب المسجد كانت قد أوصدت فى وجه عوام الأتراك المسلمين، إلا أن المسجد قد عمد إلى تعديل لائحته لإتاحة الفرصة أمام المنظمين الإسلامويين المرموقين من أرجاء العالم قاطبة للانضمام إلى مجلس إدارته. وقد شمل ذلك كلا من "خورشيد أحمد"، و"خرم جاه مراد"[١١٩]... وهما اثنان من زعماء الجماعة الإسلامية الباكستانية. يقول "فون دنفر" إن "مراد" هذا قد اضطلع بدور هام فى حياته ... وسرعان ما ارتحل "فون دنفر" إلى إنكلترا للدراسة بالمؤسسة الإسلامية بليستر، تلك التابعة للجماعة الإسلامية، ليرتحل بعدها إلى باكستان لمزيد من التدريب المتقدم ... لقد كان ذلك إبان الجهاد الأفغانى ضد الاتحاد السوفييتى، حيث كانت باكستان – آنذاك – أحد معاقل الإسلام السياسى.

لسنوات ... كان "فون دنفر" ذلك المسلم الألمانى الشاب ضمن نشطاء المسجد السياسيين من العرب والباكستانيين كبار السن ... ومع مرور الأيام، أضحى "فون دنفر" يضطلع بأدوار هامة، إذ عمد إلى تأليف كتب بالإنكليزية والألمانية ... كتب تؤيد "المسلمات" النمطية للإسلام السياسى: تجمعات بعينها تحتضن المسلمين وتدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية فى البلدان الغربية ودعم حركات الجهاد المسلح أينما يكون المسلمون عرضة لأية أخطار ... لقد أضحى الرجل مسئولا عن المسجد.

إن "فون دنفر" متحمس للحديث عن تاريخ مسجد ميونيخ. وفى أغلب الأحايين، فإن جماع ما يصبو الآخرون إلى معرفته هو الروابط التى تربط المسجد بالتطرف والإرهاب. إن "الرجل" قد أجاب عن العديد من الأسئلة حول "محمود أبو حليمة"، وتفجيرات مركز التجارة العالمى عام ١٩٩٣، ناهيك عن "ممدوح محمود سالم"[١٢٠]

وتنظيم القاعدة ... فضلا عن أية أسئلة أخرى حول تفجيرات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ وتجميد ودائع "غالب همت" وأرصدته المالية، واستقالته من جميع المناصب التى كان يشغلها حينا من الدهر.

لقد وجد "فون دنفر" الأمر أكثر تشويقا وإثارة للحديث عن خمسينيات القرن العشرين ... حيث كان يعلم بشأن الجنود السابقين، إلا أنه قال إنهم قد رحلوا بمحض اختيارهم خلافا لما قيل عن طردهم واستبعادهم. وبغموض متعمد فى الكلام، أقر "فون دنفر" بهدف الطلبة الطموح المتمثل فى الإحياء الإسلامى على امتداد العالم بأسره، وذهب ليقول: "إن للفريقين رؤى متباينة ... فاللاجئون كانوا ذوى توجهات داخلية، فيما كان الطلبة ذوى توجهات عالمية".

كذا، كان "فون دنفر" يعلم بشأن "سعيد رمضان" ... وكان ما قاله عن رمضان - فى الأرجح - صائبا، على الأقل من وجهة نظر جماعة تعمد إلى تجاهل تاريخها وغض الطرف عنه ... وذهب "فون دنفر" يقول: " إذا ما سألت من يأتون هنا لأداء الصلاة عن سعيد رمضان، لألفيت قلة قليلة تعرف اسم الرجل".

أجل ... لقد استبعد "سعيد رمضان" من لجنة بناء مسجد ميونيخ، كذا فقد أقصى عن إحياء جماعة "الإخوان المسلمين"، إلا أنه ظل رمزا أسطوريا فى عالم الإسلام السياسى حتى بعد أن تقاعد فى جنيف، حيث ظل هناك ساعيا إلى الإبقاء على صورته وهالته ... وبين الحين والآخر، كان الرجل مثارا لاحتدام الجدال بشأنه.

فعقب رحيله مباشرة فى منتصف الستينيات، كان رمضان محور محاكمات "الإخوان المسلمين" ... إذ تم الكشف عن محاولة ثانية لاغتيال جمال عبد الناصر، حيث تم الزعم بأن رمضان كان المحرض على تلك المحاولة. أما الشرطة السرية

للنظام الناصرى، فقد أذاعت عن أرتال من الوثائق والأسلحة والأموال لإثبات ضلوعه فى محاولة الاغتيال الفاشلة ... إلا أن ورود تلك الشواهد من نظام شمولى ديكتاتورى قد جعل من الصعب بمكان على المرء أن يحكم بحيدة ونزاهة ... إذ يختلط الزائف بالأصيل، وما من دليل. أما الشرطة السويسرية، فقد قلبَت الرأى مليا عن ماهية "سعيد رمضان" ... لتذهب إلى خلاصة مفادها "كون سعيد رمضان - بالتوازى مع آخرين - عميلا لكل من المملكة المتحدة والولايات المتحدة الأمريكية". وفى تقرير آخر، عمد مسئول سويسرى إلى تذكير السلطات بأن رمضان قد تعاون بإخلاص مع الشرطة السويسرية ... ومن ثم سُمح له بالبقاء فى الأراضى السويسرية.

ولقد كان "سعيد رمضان" - كالعديد من الإخوان المسلمين - مهووسا بالثورة الإسلامية الإيرانية مفتتنا بها ... تلك الثورة التى قادها آية الله الخمينى عام ١٩٧٩ . وبالرغم من كونه "سنيا" - بخلاف الإيرانيين ومذهبهم "الشيعى" - إلا أنه كانت تربطه بطهران علاقات جيدة ... الأمر الذى أفضى إلى تورطه - فى عام ١٩٨٠ - فى جريمة اغتيال الدبلوماسى الإيرانى على أكبر طبطبائى فى العاصمة الأمريكية، واشنطن ... ذلك الدبلوماسى الذى بقى وفيا للشاه المخلوع محمد رضا بهلوى، مما حرض مهووس أمريكى يدعى "داوود صلاح الدين" - كان قد اعتنق الإسلام - على قتله.[١٢١] أعقب ذلك فرار "صلاح الدين" إلى جنيف حيث استطاع "رمضان" أن يهيئ له عودة آمنة إلى العاصمة الإيرانية، طهران، والتى يقيم بها الآن. أما "صلاح الدين"، فقد ذكر لى فى مكالمة هاتفية له من طهران فى الثامن والعشرين من شباط/ فبراير ٢٠٠٦ أن رمضان لم يكن ضالعا فى تلك الجريمة على الإطلاق ... إذا، فقد كان الرجل حريصا على إبعاد أية اتهامات عن صاحبه ... فرمضان وصلاح الدين كانا قد التقيا فى العاصمة الأمريكية، واشنطن، فى عام ١٩٧٥ أثناء إلقاء رمضان لإحدى المحاضرات، ومن يومها ما يزال صلاح

الدين يكن له إجلالا وتوقيرا، إلا أنه اعترف بأن رمضان كان له دور مساعد فى أعقاب عملية الاغتيال تلك بالقيام بالتستر عليه وحمايته فى جنيف، ثم إجراء الترتيبات الخاصة بعودته ثانية إلى طهران.

وخلال الخمسة عشر عاما الأخيرة من حياته، لم يعد سعيد رمضان رجل المرحلة. أما "الإسلاموية"، فكان نجمها صاعدا ... إلا أن رمضان كان -آنذاك- معتل الصحة. هذا، ويصف الابن "طارق رمضان"، وهو ناشط وداعية إسلامى شهير، أباه بأنه لم يكن يتمكن لسنوات طوال من متابعة الأحداث العالمية إلا عن بعد، إذ كان دائما ما يخلد إلى فترات صمت طويلة يغرق خلالها فى ذكريات وأفكار تحوطها غلالة من مرارة وأسى.[١٢٢]

فماذا عن أولئك الذين أبعدوا عن مسجد ميونيخ؟ فى أعقاب وفاة "غرهارد فون منده"، فقدت جماعات اللاجئين الرجل الذى كان يرعاهم ويرفدهم، ولكن ما انفصمت عراهم وما حلت رابطتهم ... أما "ولى قيوم خان"، فقد قاد التركستانيين، إذ أصبح رئيسا للجنة الوحدة القومية التركستانية بألمانيا. كذا، فقد أسس جريدة "مللى تركستان" ببرلين والتى كانت تطبع فى الفترة الممتدة من عام ١٩٤٣ وحتى عام ١٩٧٩ . وقد وافت "قيوم" المنية فى "دوسلدورف" بألمانيا عام ١٩٩٣ . وأما "باى ميرزا هاييت"، فقد استمر فى العمل لصالح ألمانيا الغربية حيث كان موضع هجوم صحيفة "الازفستيا" الروسية فى عددها الصادر بتاريخ ١٩٦٨/٩/٢٩ ... هذا، وقد واصل "هاييت" نشاطه الأكاديمى فكتب مصنفا عن ثورة "باسمشى".[١٢٣]

وهنا يلح سؤال هام: ما الذى كان ليجرى إن كان قدر لغرهارد فون منده أن يحيا إلى الآن؟ هل كان لأتباعه أن يعيدوا فرض سيطرتهم على مشروع مسجد ميونيخ؟ ... قد يكون ذلك ممكنا، إلا أنه أمر مشكوك فيه. فخلال سنوات ثلاث

أعقبت وفاة "فون منده"، قام نائبه "فالتر شينك" بإدارة مكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية، الذى أصبح فى غير محله وكأنما أضحى خارج الزمن، مجموعة صغيرة من غلاة أنصار الحرب الباردة ينشطون فيما يتجه العالم نحو سياسة "الوفاق". وحين تم إغلاق المكتب نهائيا فى عام ١٩٦٦، لم يستطع "شينك"، الذى كان كفون منده له ارتباطات نازية عميقة، أن يجد عملا مناسبا ... فأخذ يسرف فى الشراب الذى أودى بحياته. أما "فون منده"، فقد سبق "شينك" إلى أجله المحتوم، وكان قد أسرف بالفعل، ليس فى الشراب كنائبه، وإنما فى العمل والتوتر اللذين أوديا بحياته. هذا، ويصعب تخيل أن يكون لمكتب الخدمات البحثية لأوروبا الشرقية أى دور فى مستقبل ألمانيا الإسلامى الجديد.

هذا، وقد استمر "نور الدين نمنقانى" فى الإدارة الدينية للاجئين المسلمين فى ألمانيا ... تلك الجماعة التى تمخضت فأتت بلجنة بناء مسجد ميونيخ ... وفى النهاية، تقاعد الرجل وارتحل إلى تركيا. أما "إبراهيم كوجا أوغلو"، فقد استمر فى مشاحنات وتناوش مع "نمنقانى" طيلة الوقت، حيث كان "كوجا أوغلو" يكتب بين الحين والآخر مخاطبا الحكومة البافارية أو المسئولين الاتحاديين متهما "نمنقانى" بانعدام الكفاءة. وفى طرسوس بجنوب تركيا، قضى "نور الدين نمنقانى" نحبه عام ٢٠٠١، ورغما عن الاختلافات الكبيرة ما بين "كوجا أوغلو"، و"نمنقانى"، إلا أن الرجلين قد لاقا المصير ذاته. فحتى النهاية، لم يتمكن أيا منهما من بناء مسجد لأتباعه، إذ لم يجد الرجلان سوى "الزوايا" الصغيرة التى ألحقت بالمصانع واستؤجرت بثمن زهيد ليؤدى فيها المسلمون صلواتهم ... إذا، فلم يشهد أىٌ منهما مسجد ميونيخ. أما "غريب سلطان"، ذلك الجندى الشاب الذى عمل لحساب "الأوستمنستريوم"، ثم لحساب "الأمكومليب" ... فقد رجع إلى ميونيخ بعد سنوات طويلة من الأعمال الدعائية ومهام "البروباغندا" بالولايات المتحدة الأمريكية. فحين

شرعت "الأمكومليب" فى التركيز على البث الإذاعى فى منتصف الستينيات، أضحى "سلطان" على رأس "الديسك" التترى، حيث كان يعمل تحت الاسم المستعار "فانيس ايشمباى" Fanis Ishimbay. وقد تقاعد الرجل، وتوفى بمنزله فى ميونيخ فى الرابع عشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ٢٠١١ . كذا، فلم يشهد "سلطان" مسجد ميونيخ. فماذا عن المسلمين فى المستويات القاعدية؟ بقى البعض فى معية "نمنقانى"، فيما فضل البعض معية "كوجا أوغلو". ولكن بمرور السنين، أضحت أعداد أولئك المسلمين أقل مقارنة بعشرات الآلاف من المهاجرين الأتراك الذين وفدوا إلى ميونيخ للعمل فى إطار منظومة الاقتصاد الألمانى المزدهر ... حيث اختلف البعض إلى المسجد أثناء الإجازات، فيما امتنع آخرون عن ذلك.

أما "فون دنفر"، فكان قد فرغ من أداء صلاة العصر ... إذ قال متأملا: "إنها قصة المسجد وتاريخه ... أجل إنها قصة هامة، حتى على المستوى الدولى ... أما الآن، فقد أضحى المسجد كيانا محليا ... فالتاريخ، كعادته، لا يتوقف عند حدث أيا ما كان، ومن ثم فقد تجاوز التاريخ مسجد ميونيخ أيضا". وبعد ساعة من جلوس "فون دنفر" بالمسجد، شعر الرجل بالبرد يدب إلى أوصاله ... فالوقت لم يكن قد تجاوز صلاة العصر إلا قليلا، ومع هذا - كانت الشمس وكأنما قد غربت ... فأشبع المسجد بلون يميل إلى ضرب من الحمرة، إنه مغيب شتوى. إن احتمالية معرفة ما حدث بالفعل فى ميونيخ لتبدو آخذة فى التراجع ... وكأن ثمة اتفاقا فى التوقيت، شرع "فون دنفر" يفوه فى نبرة تعزية ومواساة: "لقد كان الحدث بعد خمسة عشر عاما، أو عشرين تلت الحرب الكونية الثانية ... لقد كان الزمن غير الزمن الذى نحيا فيه الآن. أما الظروف التى انتظمت أمورا وحوادث دارت هاهنا، فيظل من الصعب إدراكها أو تخيلها".

نبذة عن المؤلف

إين دينيس جونسون ... هو أحد أهم صحافيى التحقيقات الاستقصائية فى العالم، وهو من مواليد مدينة "مونتريال" أكبر مدن مقاطعة "كيبك" الكندية. حصد "جونسون" عددا كبيرا من الجوائز العالمية عن تحقيقاته، ومنها جائزة "البوليتزر" عام ٢٠٠١ . وبداية من عام ١٩٩٧، عمل "جونسون" فى صحيفة "وول ستريت" ولمدة ١٣ عاما، احتل خلالها عدة مناصب تحريرية قيادية، وذلك قبل أن يترك الصحيفة ليتفرغ للكتابة. هذا، وقد اختارته مؤسسة "نايمان" للصحافة زميلا بجامعة هارفارد بين عامى ٢٠٠٦ و٢٠٠٧ . ويقيم "جونسون"، الحاصل على بكالوريوس فى الدراسات الآسيوية، وماجستير فى الدراسات الصينية، حاليا فى العاصمة الصينية، بكين، كاتبا متفرغا بعد اعتزاله الصحافة. ولجونسون كتاب يحمل عنوان "العشب البرى ... ثلاثة أوجه للتغير فى الصين الحديثة". إضافة إلى ذلك، فهو يهودى ذو توجهات يمينية تصطبغ كتاباته وتحليلاته وتعليقاته أحياناً، بظلال انتماءاته الفكرية والعقائدية. بيد أن هذا لا يقلل من قيمة جهوده الاستقصائية، ودراساته الجادة القيّمة كما تتبلور فى هذا الكتاب الكاشف والمستفز فى آن.

هوامش الترجمة

١- مارغريت دولينغر امرأة ألمانية من أب ألمانى وأم يونانية، وهى صحافية وكاتبة عملت فى صحيفتى Munchner Merkur و Suddeutsche Zeitung الألمانيتين، كما عملت بإحدى برامج الإذاعة البافارية.

٢- والخريطة صادرة عن المؤسسة الإسلامية، ومقرها ماركفيلد/ ليستر بالمملكة المتحدة ... والتى تأسست عام ١٩٧٣ .

٣- خاركوف هى ثانى أكبر مدينة فى أوكرانيا من حيث المساحة وعدد السكان بعد العاصمة (كييف). أسست المدينة فى القرن السابع عشر وبقيت عاصمة لأوكرانيا حتى مطلع ثلاثينيات القرن العشرين.

٤- جمهورية بشكورتوستان (بشكيريا) هى جمهورية ضمن روسيا الاتحادية تقع جنوب الأورال على الحدود الفاصلة بين قارتى أوروبا وأسيا، حيث تشغل الغابات نصف أراضيها. ويقطن بشكيريا ممثلو قوميات مختلفة، وتشكل القومية الروسية غالبية سكانها.

ولفظ "بشكير" مشتق عن تسمية شعب كان يقطن مشارف جبال الأورال منذ القدم. وقد ورد

ذكرها فى مدونات الجغرافى العربى "المسعودى" فى القرن التاسع الميلادى. كما وصف ابن فضلان فى القرن العاشر هذا الشعب الطورانى بأنه شعب يحب القتال ويعبد الطيور والحيوانات.

وقد اعتنق الشعب البشكيرى الإسلام فى القرن الثانى عشر الميلادى. وكانت أراضى بشكيريا بعد غزوها من قبل المغول تنتقل من حكم خانية مغولية إلى خانية أخرى.

وفى عام ١٥٥٢، قام القيصر الروسى "إيفان الرهيب" بغزو مدينة "قازان" التترية، الأمر الذى دفع البشكير الذين كانوا تحت حكم خانية "قازان" إلى الانتقال إلى حكم إمارة موسكو. ودعا إيفان الرهيب البشكير الذين لم يتخذوا قرارا بعد إلى الانتقال إلى رعاية القيصر الروسى طوعا. وقضت الاتفاقية المبرمة بين القيصر الروسى والبشكير بأن يتعهد القيصر بعدم طردهم من أراضيهم وعدم إجبارهم على ترك الدين الإسلامى. أما رعايا القيصر الجدد - البشكير - فتعهدوا بأداء الخدمة العسكرية ودفع الضرائب. لذلك، بقى إيفان الرهيب فى ذاكرة البشكير كقيصر أبيض يتصف بالطيبة.

لكن بعد تربع سلالة "رومانوف" على العرش القيصرى الروسى، ازداد استياء البشكير من

السياسة القيصرية الجديدة، الأمر الذى حملهم على إثارة الفتن والانتفاضات، حيث شاركوا فى حرب الفلاحين الروس التى ترأسها زعيمهم يميليان بوغاتشوف، أما قوات البشكير فترأسها قائدهم القومى سالافات (صلوات) يولابف.

٥- فى كتابه "الحكم الألمانى لروسيا - دراسة فى سياسات الاستيطان"، أورد ألكسندر دالين تقديرا بقيام الألمان بأسر قرابة أربعة ملايين جندى سوفييتى بنهاية عام ١٩٤١، فى حين أورد آخرون مثل اليكس اليكسى (فى كتابه "القوميات السوفييتية فى الاستراتيجية الألمانية إبان الحرب ١٩٤١-١٩٤٥) تقديرا بثلاثة ملايين. وفى هذا الصدد، فقد عمدت إلى اختيار التقدير الأدنى. (المؤلف).

٦- بعد نجاح الثورة البلشفية فى روسيا، وقبل أن يستتب الأمر تماما للشيوعيين، أراد هؤلاء استمالة المسلمين فى البلاد، واستثارتهم ضد الحكم القيصرى الذى كان يضطهدهم ويعتدى على حرماتهم، وذلك من أجل أن يساند المسلمون الشيوعيين الثائرين ضد المعارضة الموالية للحكم السابق، فأصدر مجلس "قومسيرى" البلشفى نداء موجها إلى المسلمين عام ١٩١٧، جاء فيه:

إن إمبراطورية السلب والعنف والرأسمالية توشك أن تنهار، والأرض التى تستند عليها أقدام اللصوص الاستعماريين تشتعل نارا.

وفى وجه هذه الأحداث الجسام نتجه بأنظارنا إليكم يا مسلمى روسيا والشرق، أنتم يا من تشقون وتكدحون، وعلى الرغم من ذلك تحرمون من كل حق أنتم أهل له.

أيها المسلمون فى روسيا، أيها التتر على شواطئ الفولغا وفى القرم، أيها الكرغيز والسارتيون فى سيبيريا والتركستان، أيها التتر والأتراك فى القوقاز، أيها الشيشان فى أنحاء القوقاز، أنتم يا من انتهكت حرمات مساجدكم وقبوركم واعتدى على عقائدكم وعاداتكم، وداس القياصرة والطغاة على مقدساتكم.

ستكون حرية عقائدكم وعاداتكم، وحرية نظمكم القومية، ومنظماتكم الثقافية، مكفولة لكم منذ اليوم، لا يطغى عليها طاغ، ولا يعتدى عليها معتد.

هبوا، إذا، فابنوا حياتكم القومية كيف شئتم فأنتم أحرار لا يحول بينكم وبين ما تشتهون حائل، إن ذلك من حقكم إن كنتم فاعلين.

واعلموا أن حقوقكم، شأنها شأن حقوق سائر أفراد الشعب الروسى، تحميها الثورة بكل ما أوتيت من عزم وقوة، وبكل ما يتوافر لها من وسائل: جند أشداء، ومجالس للعمال، ومندوبون عن الفلاحين ... إذا، فشدوا أزر هذه الثورة، وخذوا بساعد حكومتها الشرعية ... إلى آخر ما جاء فى ذلك النداء الخادع.

وما كان من المسلمين حين سمعوا ذلك النداء إلا أن أسرعوا يجمعون قواهم، فبادرت شعوب إسلامية كانت مستعمرة مضطهدة تحت الحكم الروسى القيصرى فأعلنت استقلالها، واستعادت سيادتها على أرضها. وتكونت جمهوريات إسلامية عديدة، لكنها لم تكن شيوعية، ولم تكن خاضعة خضوعا كليا للشيوعيين الذين قاموا بالثورة فى روسيا، وما كانت هذه الدول، وهى ملتزمة بإسلامها وعقائدها ومفاهيمها الإسلامية، لتتحول إلى الشيوعية، لأنها تتناقض مع الإسلام تناقضا كليا فى جذورها الاعتقادية وفى تطبيقاتها ونظمها.

وما هى إلا فترة وجيزة، حتى ثبت الشيوعيون أقدامهم، وأحكموا قبضتهم. فلما تمكنوا، واستتب لهم الأمر، قلبوا ظهر المجن، وأسفروا عن حقيقتهم الكالحة، حيث توجهوا بجيشهم المعروف بالجيش الأحمر، فأعملوا أسلحتهم فى المسلمين وحصدوا الجمهوريات الإسلامية حصدا.

ولقد قام الشيوعيون إبان فترة حكمهم بأعمال وحشية ومذابح رهيبة لم يشهد لها التاريخ مثيلا فى أحقابه المتطاولة، كاشفين عن وجه أكثر شراسة وعنفا من وجه الحكم القيصرى الذى أسقطوه.

٧- الداغستانيون هم سكان "داغستان"، وتعنى بالتركية بلد الجبال، وتقع على بحر قزوين.أما إلى حدودها الجنوبية والجنوبية الغربية فتقع كلا من أذربيجان وجورجيا، فيما تحدها غربا وشمالا جمهوريتا الشيشان وكالميكيا وإقليم ستافروبول.

٨- الكالميك هم سكان "كالميكيا"، وهى جمهورية روسية عند ملتقى قارتى آسيا وأوروبا فى سهوب منطقة بحر قزوين. تعود أصول الكالميك إلى شرق آسيا، وهو الشعب الوحيد فى أوروبا الذى يعتنق البوذية، إذ انفصلوا عن المغول وهاجروا إلى الشطر الأوروبى من روسيا ليستقروا فى السهول الشاسعة هناك. وكان الكالميك الأوائل بدوا رحلا.

٩- الشيشان هم سكان جمهورية "الشيشان"، والتى تبعد ألف ميل جنوبا من موسكو، وتحدها كل من داغستان وجورجيا وجنوب أوسيتيا من الجنوب، وداغستان وروسيا شمالا، وأوسيتيا

الشمالية وأنغوشيا غربا.

١٠- الأوسيتيون: هى مجموعة عرقية آرية من جبال القوقاز تعيش فى منطقة أوسيتيا، وهى مجموعة هندو/ أوروبية شرقية تتحدث اللغة الأوسيتية كلغة أولى واللغة الروسية كلغة ثانية، وتدين بالمسيحية الأورثوذكسية مع وجود أقلية مسلمة بينها.

١١- ولى قيوم عليم خان ... ولد بطشقند فى الخامس عشر من تموز/ يوليو ١٩٠٤، ودرس الثانوية فيها، ثم درس العلوم السياسية فى جامعة برلين، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٤١ . كان قائدا ل"فيلق تركستان"، وهى وحدة عسكرية مقاتلة أنشئت من قبل النازيين عام ١٩٤١، وتشكلت من أسرى الحرب التركستانيين بالسجون الألمانية.

١٢- الجندى الأوزبكى هو "إسحاقيان نارزيكول"، والذى وردت سيرته فى كتاب "ستيفن كرين Stephen L. Crane المعنون: "ناج من حرب مجهولة: قصة حياة إسحاقيان نارزيكول" ١٩٩٩ .

وقد ولد نارزيكول فى تركستان بتاريخ ٢٦/ ٥/ ١٩٢٣، حيث اشترك فى الحرب الكونية الثانية. وفى عام ١٩٤١، تم تدريبه كجندى فى الجيش الأحمر ليتم إرساله للدفاع عن الممتلكات السوفييتية فى البلقان من استيلاء الألمان عليها. وقد وقع نارزيكول أسيرا فى أيدى النازيين الذين أودعوه معسكرا لأسرى الحرب، حيث خاض "حربا مجهولة" ... تلك التى أريد بها تحرير موطنه الأم من قبضة السوفييت. كذا، فقد أمضى نارزيكول بعض الوقت متنقلا ما بين بولندا وتشيكوسلوفاكيا والاتحاد السوفييتى وألمانيا وفرنسا. هذا، وقد ألقى الشيوعيون القبض عليه فى أوروبا الشرقية فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، كذا فقد قامت وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية بتجنيده لحسابها. وبعد تطواف طال كثيرا، استقر إسحاقيان نارزيكول فى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث توفى بتاريخ ١٣/ ٣/ ١٩٨٩ بولاية ديلاوير.

١٣- ولد باى ميرزا هاييت فى قرية يارقوقان فى ولاية نمنقان فى وادى فرغانة الواقع فى أوزبكستان حاليا ... وكانت ولادته فى السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر ,١٩١٧ وكان أحد الأبناء التسعة للزوجين رابعة هاييت وميرزا محمود ميرزا أوغلو. أظهر فى صباه ولعا بالأدب وشغفا بالفن، ورغم الصعوبات التى واجهتها أوزبكستان فى ثلاثينيات القرن العشرين، إلا أن باى ميرزا تخرج فى جامعة طشقند فى عام ١٩٣٩، وهى السنة نفسها التى استدعى فيها للخدمة

فى الجيش السوفييتى حيث خدم فيه برتبة ملازم. غادر باى ميرزا نمنقان فى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٩ ليتم تعيينه ضابطا فى سلاح الدبابات فى بولندا، وشارك فى الحرب الكونية الثانية تحت راية الجيش الأحمر حتى وقع تحت الأسر الألمانى عام ١٩٤١ حيث قاتل مع الألمان ضد الروس فى كتيبة سميت "كتيبة تركستان"، حيث جمعت عددا لا يستهان به من التركستانيين للقتال مع الألمان ضد الروس أملا فى تحرير تركستان.

١٤- مجموعة "شاه زندة" تتألف من ضريح "تركان آقا" وضريح "طوغلوغ تكين" وضريح "شيرين بيكة آقا" وضريح "أمير زادة"، وبها أيضا ضريح "قثم بن العباس بن عبد المطلب"، وهو ابن عم النبى محمد. ويذكر أنه قد تم فتح مدينة سمرقند عام ٥٦ هجرية فى عهد معاوية بن أبى سفيان تحت قيادة سعيد بن عثمان بن عفان. وممن استشهد فى ذلك الفتح "قثم بن العباس"، الذى أقام له أهل سمرقند - بعد أن أسلموا - مزارا ومشهدا سمى "مزار شاه زندة" - أى مزار السلطان الحى، لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون.

١٥- يعود أصل كلمة "القوزاق" وفقا لبعض الباحثين إلى كلمة "كازاك" التركية المشتقة من كلمة "خزر"، إلا أن الكلمة، ومنذ بدايات القرن السادس عشر الميلادى، أخذت تشير إلى جماعات من الأقنان السلاف المسيحيين الذين فروا من ضياع النبلاء فى أوكرانيا وروسيا واستقر بهم المقام فى السهوب الجنوبية على ضفاف أنهار الدنيبر والدينستر والدون. ومع نهاية القرن السادس عشر أصبحت مناطق نهر الدون ونهر الدنيبر مملكة للقوزاق الذين حولوا أماكن إقامتهم إلى مستوطنات ثابتة. ويختلف الباحثون حول سبب تسميتهم بالقوزاق، فيقول البعض إن انحدار القوزاق يعود إلى عهد الحكم المغولى-التترى حين كانوا يدفعون إتاوة بشرية للحكام المغول - التتر ويرسلون رعاياهم ليؤدوا الخدمة العسكرية فى صفوف القوات المغولية. أما كلمة "القوزاق" فوفقا لهذا الرأى - فمشتقة من كلمة تركية تعنى "الفرسان الأخفاء". وبعد تفكك الدولة المغولية احتفظ القوزاق بتنظيمهم العسكرى واستوطنوا بعض المناطق الواقعة فى أودية نهرى الدنيبر والدون. ويشير البعض إلى أن القوزاق أطلقوا على أنفسهم هذه التسمية باعتبار أنهم أحرار مثل التتر، فيما أشار آخرون إلى أنهم اعتبروا أنفسهم أعضاء "الأورطة الذهبية"Golden Horde - مثل المغول والتتر ... فيما قال البعض إن النبلاء البولنديين سموهم بذلك الاسم احتقارا لهم. وقد تزايدت صفوف "القوزاق" بعد أن انضمت إليهم عناصر من سائر الأنواع والأجناس من فقراء ونبلاء وتتر. أما "القوزاق" - بالذات - فكانوا يعتبرون أنفسهم دوما شعبا

حرا، ولا يعترفون بكونهم ينحدرون من الأقنان الروس أو الأوكرانيين.

١٦- كان على فؤاد اردين عضوا بالبرلمان التركى، كما كان الرئيس السابق لأكاديمية الأركان التركية وقائد أركان الزعيم التركى "جمال باشا". أما حسين حسنى أمير اركيلت فكان من أتراك القرم حيث هاجرت عائلته إلى تركيا بعد سقوط القرم. هذا، وقد جاء إخفاق الجيش الألمانى على مشارف موسكو بسبب الثلوج فى شتاء عام ١٩٤١، وإمكانية أن يتطاول المدى الزمنى للحرب - كنقطة تحول فى "السياسة الشرقية" للرايخ الثالث. ففى كانون الثانى/ يناير ١٩٤٢، شرع فى تكوين الفيالق الشرقية من الأقليات الإثنية المنتمية إلى الاتحاد السوفييتى. وكانت زيارة اردين واركيلت لبرلين هى التى مهدت لهذا التحول المفاجئ فى السياسة الألمانية ... تلك الزيارة التى جاءت فى أعقاب زيارة قام بها هذان الضابطان التركيان إلى الجبهة الشرقية فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤١، لتفقد الأحوال هناك.

وكانت رغبة كلا الضابطين أن تطلق السلطات الألمانية سراح الجنود السوفييت الأسرى من ذوى الإثنيات التركية، والذين كانوا ينتمون قبل وقوعهم فى الأسر إلى الجيش الأحمر ويحاربون تحت لوائه. هذا، وقد تم استقبالهما فى مقر "أدولف هتلر" حيث اقترحا عليه تشكيل وحدات يكون قوامها متطوعون من أولئك الأسرى، وذلك على غرار "فيلق الإسلام" الذى أرساه التركى "نورى باشا" خلال الحرب الكونية الأولى. وفى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٤١، وافق هتلر على مقترح إنشاء فيالق تضم جنودا من القوقاز والأتراك التتر.

هذا، ويذكر أنه بعد أن وضعت الحرب الكونية الثانية أوزارها، عمد الحلفاء إلى تسليم جميع أولئك الجنود إلى الاتحاد السوفييتى، حيث قام الروس بإعدامهم عن آخرهم فلم يستثنوا أحدا من عائلاتهم. إلا أن قليلا هم من تناول هذا الأمر من أمثال "جنكيز داغجى"، وهو من أتراك القرم حيث حارب ضمن صفوف الألمان ضد الاتحاد السوفييتى. وقد تمكن "داغجى" من الفرار من أحد المعسكرات الإنكليزية لأسرى الحرب، وقام بكتابة بعض الكتب التى سرد فيها ذكرياته عن الحرب. وقد قورن "داغجى"، من قبل النقاد، بالروائى الروسى "الكسندر سولجنستين" الحائز جائزة "نوبل" للأدب عام ١٩٧٠ . وقد توفى "جنكيز داغجى" فى لندن فى الثانى والعشرين من أيلول/ سبتمبر ٢٠١١ .

١٧- أسراب الدفاع Schutzstaffel كانت منظمة تابعة للحزب النازى تأسست عام ١٩٢٥،

ووضعت تحت إمرة الجناح العسكرى للحزب عام ١٩٢٦ . وفى عام ١٩٣٩، أضحت "أسراب الدفاع" وحدة شبه عسكرية مستقلة تضطلع بمهام بوليسية فى صلب الحزب النازى.

١٨- انتفاضة وارسو هى عملية عسكرية كبرى قام بها جيش المقاومة البولندية Armia Krajowa لتحرير العاصمة البولندية وارسو من يد القوات النازية، وجرى الإعداد لهذه الانتفاضة بالاتفاق مع الجيش الأحمر السوفييتى المتمركز على المشارف الشرقية للمدينة مستغلين بذلك تقدم القوات السوفييتية والانسحاب التدريجى للقوات الألمانية فى أعقاب الخسائر المتتالية التى منيت بها فى المراحل الأخيرة من الحرب الكونية الثانية على الجبهة الشرقية، إلا أن القوات السوفييتية أوقفت تقدمها بعد فترة وجيزة مما أعطى القوات الألمانية فرصة كافية لإعادة تنظيم الصفوف وتدمير المدينة والقضاء على المقاومة البولندية التى ظلت تقاتل على مدار ثلاثة وستين يوما بدون أى دعم خارجى يذكر.

بدأت الانتفاضة فى الأول من آب/ أغسطس ١٩٤٤ كجزء من مخطط عام وضعته المقاومة البولندية حمل الاسم الكودى "عملية العاصفة" Akcja Burza، ومع اقتراب القوات السوفييتية من وارسو أصبح الهدف الأساسى لحركة المقاومة البولندية هو طرد القوات الألمانية من المدينة وتقديم المساعدة فيما يختص بمحاربة ألمانيا ودول المحور، فضلا عن أهداف سياسية ثانوية أخرى تمثلت فى تخليص المدينة من القوات النازية.

مع بداية الانتفاضة نجحت المقاومة البولندية فى السيطرة على الجزء الأكبر من وسط المدينة، غير أن القيادة السوفييتية تجاهلت المحاولات البولندية لتحقيق أى اتصال لاسلكى بين وارسو وموسكو، وتوقف التقدم السوفييتى عند حدود العاصمة البولندية، واندلعت "حرب شوارع" بين القوات الألمانية وحركة المقاومة البولندية. وبحلول الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر، تقدمت القوات البولندية تحت القيادة المركزية السوفييتية، وتمكنت من احتلال الضفة الشرقية لنهر فستولا حيث الجهة المقابلة لمواقع المقاومة البولندية. ومع ذلك، لم يتمكن سوى ١٢٠٠ فرد فقط من أفراد المقاومة من العبور للضفة الغربية، إلا أنهم لم يجدوا أدنى دعم من القوات السوفييتية، علاوة على انقطاع الدعم الجوى السوفييتى من أقرب القواعد الحربية لمسرح الأحداث، والتى تبعد مسيرة خمس دقائق (طيران) من وارسو، مما رفع من أسهم المزاعم الذاهبة إلى تعمد "ستالين" إيقاف تقدم قواته لإفشال العملية برمتها، والتأكد من هزيمة القوميين البولنديين، والتمهيد للسيطرة على بولندا بعد نهاية الحرب.

١٩- برسلاو - هى التسمية الألمانية لمدينة بولندية قديمة، معروفة بتاريخها الذى يرتبط بجامعتها العريقة التى أنشئت عام ١٧٠٢، وتقع على نهر "الأودر" فى الجنوب الغربى من بولندا بالقرب من الحدود الألمانية. وقد استولت القوات البروسية على المدينة عام ١٧٤١ خلال عهد فريدريك الثانى، ضمن الصراع الأوروبى، فأصبحت مدينة ألمانية منذ ذلك الوقت ... وظلت كذلك إلى أن هزمت ألمانيا النازية فى الحرب الكونية الثانية، فعادت المدينة إلى بولندا عام ١٩٤٥، واستعادت اسمها البولندى القديم "فروتسواف" Wroclaw.

20- Studien Sur Kolonisation in der Sowjetunion Breslau 1933.

21- Der nationale Kampf der Russland-turken Berlin 1936.

٢٢- كتيبة العاصفة: وقد اشتقت التسمية من فصائل العاصفة التابعة للجيش الألمانى، والتى كانت تنشط خلال الحرب الكونية الأولى ... وغالبا ما سمى أفرادها بأصحاب "القمصان البنية" نسبة للون زيهم العسكرى.

٢٣- حلف مناهضة الكومنترن: اتفاق أبرمته ألمانيا النازية مع الإمبراطورية اليابانية (وانضمت لهما بلدان أخرى) - فى الخامس والعشرين من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٣٦، وكان موجها ضد الأنظمة الشيوعية (الكومنترن) بصفة عامة، والاتحاد السوفييتى بصفة خاصة.

٢٤- حيث اتخذ الاقتراح صورة خطاب بتاريخ الثامن والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٤٠ (على الأرجح)، وكان زميل "فون منده" اليهودى يدعى الدكتور "فريدريش ليفى".

٢٥- مصطفى شوقاى بك أوغلو: زعيم سياسى تركستانى ولد فى الخامس والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٨٩٠ فى قرية أيولى ترانغو بمنطقة قزيل أردا بتركستان الغربية (قازاخستان) ببلاد ما وراء النهر. نال جده لقب "ضادكا"، الذى يعادل "سلطان". أما أبوه، شوقاى، والمعروف ب "البك القاضى"، فقد توفى عام ١٩١٦ . وينحدر أصل "مصطفى شوقاى" من جهة أمه من أمراء الخان الذين حكموا إمارة خيوة (خوارزم).

عندما كان مصطفى فى الثامنة اندلعت انتفاضة بقيادة الإمام "مادلين" ضد القياصرة الروس، وقد أخمدت تلك الانتفاضة بأمر القيصر "نيكولاس الثانى"، وتم الاستيلاء على جميع أراضى الأهالى حيث أعطيت للمستوطنين الروس.

أنهى مصطفى دراسته الثانوية بالمدرسة الروسية بطشقند بتفوق، ثم أكمل دراسته الجامعية بكلية الحقوق بجامعة سان بطرسبورغ، وطور من شخصيته السياسية الديمقراطية بالتواصل مع الكثير من الأنشطة الاجتماعية، واستطاع أن يصبح عضوا فى البرلمان الروسى (الدوما)، وأن ينقل للمجلس صورة مأساة القمع الدموى لانتفاضة ١٩١٦ ... تلك الانتفاضة التى كانت ردة فعل صارخة ضد السياسات الجديدة للقيصر التى حاولت إجبار المسلمين على الالتحاق بصفوف الخدمة العسكرية، كذا فقد كانت صرخة ضد مظالم وشكاوى أخرى ارتبطت باقتصاد الحرب الكونية الأولى. وقد استمرت تلك الانتفاضة، أو بالأحرى الثورة، والمعروفة بثورة "باسمشى" مندلعة وواصلت انفجارها طيلة ١٥ عاما تالية داخل المناطق الأوزبكية والطاجكية، بصفة عامة، مدفوعة فى ذلك بتطلعات وآمال قومية ودينية جديدة للاستقلال ضمن صفوف العديد من مسلمى آسيا الوسطى الذين أضحوا شديدى العداء للديكتاتورية السوفييتية الملحدة. وفى الوقت الذى تم فيه سحقها على يد الجيش الأحمر، إلا أن الثورة قد كشفت جليا عن المظالم بعيدة الغور التى تعرض لها المسلمون الروس. وقد كانت تلك الثورة، أيضا، بإيعاز من المسئولين العسكريين الأتراك المتقاعدين، فضلا عن دعم الاستخبارات البريطانية لها - الأمر الذى وصم المسلمين بتهمة الولاء للقوى الأجنبية.

وفى عام ١٩١٧، اجتمعت وفود من جميع ولايات تركستان لتأسيس أول حكومة منتخبة مؤقتة لتركستان على أساس "الشورى الإسلامية"، وسميت حكومة "قوقند ذاتية الحكم المنتخبة"، وتم تعيين مصطفى شوقاى وزيرا للخارجية، وكان رئيس الحكومة، محمد جان تينيش باى أوغلو، ثم انتدب "شوقاى" لحضور المؤتمر الأول لعموم القيرغيز فى "أورينبورغ"، حيث أسسوا أول حزب سياسى بقازاخستان "الأش أوردا".

إلا أن البلاشفة لم يلتزموا بالتعهدات بوثيقة حكومة قوقند، وتعرضت قوقند للهجوم ولم تكن لديهم أسلحة كافية ولا دعم دولى، فتم الاستيلاء على المدينة، وبدأت المذابح والعنف والنهب والقتل دون محاكمات، فاضطر "شوقاى" إلى مغادرة تركستان إلى باريس.

ومن باريس، استطاع أن ينشط سياسيا عبر منظمة "الوحدة الوطنية لتركستان"، و"جماعة برومثيوس" ... واستطاع أن يعمل بجهد كبير ليجمع شتات التركستانيين المبعدين فى المنفى، واضطلع بدور هام فى منفاه ليحصل على استقلال وطنه وتحرير تركستان.

وألقى "شوقاى" الكثير من المحاضرات فى باريس ولندن ووارسو ليفضح فيها الطبيعة القمعية للنظام الإمبريالى البلشفى. وقام بنشر صحيفة "ياش تركستان" - أى تركستان الشابة - فى كل من لندن وباريس وألمانيا وبولندا. بيد أنه، وبعد دخول الألمان فرنسا أثناء الحرب الكونية الثانية، اعتقل "شوقاى" وأرسل إلى برلين. وقد عمد الألمان إلى تكوين "فيلق تركستان" المسلح، والمكون من عناصر تركستانية - "أسرى حرب" اعتقلوا أثناء حرب الألمان مع الروس، فعرض عليه النازيون قيادة الفيلق، ولكنه رفض. وفى أثناء ذلك، انتدب هو وكلا من "غرهارد فون منده"، و"ولى قيوم خان" لمعاينة أحوال سجناء أسرى الحرب التركستانيين فى كل من بولندا وأوكرانيا. وفى هذه الرحلة، أصيب "شوقاى" بالحمى وتوفى من أثرها فى السابع والعشرين من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١ ... وقيل إنه سمم بأمر من القائد الألمانى النازى، ألفريد روزنبرغ، المشنوق سنة ١٩٤٦ .

٢٦- فى آيار/ مايو ١٩٤٥ دخلت إحدى فرق الجيش السوفييتى التى اقتحمت برلين باحة سجن "موبايت" حيث لم يبق أحد هناك، لا الحراس ولا المعتقلون، وحملت الريح إلى الباحة قصاصات من الورق وبعض القمامة، وانتبه أحد الجنود إلى ورقة مكتوب عليها بالروسية: "أنا الكاتب التترى المعروف موسى جليل، المعتقل فى سجن موبايت كأسير حرب، على ما يبدو أنه سيتم إعدامى عما قريب، وإذا صدف وأن وقعت هذه الورقة بأيدى الجنود الروس، فبلغوا تحياتى إلى كل الرفاق الكتاب فى موسكو". ومن ثم كتب قائمة بأسماء هؤلاء الكتاب الذين بعث إليهم بتحياته، كذا فقد كتب عنوان عائلته. وهكذا بلغت روسيا أولى الأخبار عن الشاعر التترى "موسى جليل" وبطولاته، والمؤلفات الإبداعية له، وهى عبارة عن مفكرتين حوتا مائة قصيدة شعرية ... قصائد نالت شهرة عالمية ودخلت تاريخ الأدب فى القرن العشرين: "دفاتر من سجن موبايت".

وقد ولد "موسى جليل" فى الخامس عشر من شباط/ فبراير ١٩٠٦، وكان الولد السادس فى أسرة صاحب بقالة. وكان موسى يحب سماع الحكايات والأساطير التى كانت تسردها له جدته. ولم يكد يبلغ السادسة حتى التحق بالمدرسة حيث تعلم القراءة والكتابة بسرعة فائقة. وقد بذل الأب كل ما فى وسعه من أجل أن ينال أولاده التعليم، حيث أدخل موسى أفضل مدارس الإمبراطورية الروسية آنذاك - المدرسة الحسينية - فى أورينبورغ. وكان موسى يهوى الرسم والغناء فى صغره، إلا أن شغفه بالمطالعة طغى على كل شىء عداها.

وكان يقع بالقرب من المدرسة مكتبة "المعرفة"، حيث كان موسى يجلس للمطالعة، حيث لم يكن بإمكانه أن يفعل ذلك فى البيت، نظرا إلى فقر الأسرة التى لم يكن لديها مال وفير لشراء الكيروسين لإشعال القناديل، مما تضطر العائلة معه إلى النوم باكرا.

وقد بدأ موسى، ذو الحس المرهف، بنظم الشعر حين بلغ التاسعة، وكان يحلم بأن يصبح شاعرا - وقد كتب شعره حول الطبيعة والفراشات والأوز. وفى آب/ أغسطس ١٩١٩، صدرت صحيفة "النجم الأحمر" فى أورينبورغ، وكانت باللغة التترية. هذا، وقد أحضر موسى إلى إدارة تحرير الصحيفة أول أشعاره، وهو فى الثالثة عشرة من العمر. وطبعت أشعاره للمرة الأولى فى هذه الصحيفة بعنوان "السعادة"، وظهرت تسع قصائد للشاعر المبتدئ فى الجريدة نفسها لاحقا.

وفى عام ١٩٢١، ضربت أورينبورغ موجة من الجفاف الرهيب، ولم يكن فى وسع الأسرة العيش على راتب الأخ الضئيل، خاصة وأن الأب كان قد توفى فى ذلك الوقت، ناهيك عن وفاة شقيقين يصغران موسى جراء الجوع والفاقة مما اضطره إلى أن يغادر المنزل ليخفف العبء عن والدته. وفى هذه الأثناء يساعده أحد الأساتذة من معارفه ليصبح طالبا فى المدرسة السياسية العسكرية، ومن ثم فى معهد التعليم الشعبى. وفى عام ١٩٢٥، يرسل للعمل لقراءة المحاضرات فى القرى التترية. وهكذا استمر فى التنقل بين هذه القرى مدة سنتين، تلا ذلك انتقاله للعمل فى موسكو محررا لمجلة الأطفال "الرفاق الشباب".

وفى النصف الثانى من الثلاثينيات، دعى "موسى جليل" إلى أن يترأس إدارة قسم استديو الأوبرا التترية لدى كونسرفاتوار موسكو. أما فى عام ١٩٣٩، فقد افتتح فى "قازان" مسرح للأوبرا تم إنشاؤه على أساس الاستوديو ... وينتقل "موسى جليل" مع الفنانين إلى "قازان"، ويعمل هناك مسئولا عن القسم الأدبى. وتعتبر حقبة الثلاثينيات فترة ازدهار الإبداع الشعرى لجليل، حيث يقرض الشعر ويؤلف القصائد والنصوص للأغانى، أما الحدث المهم فكانت قصائده: "ساعى البريد"، و"فى حقل الشوفان"، و"رومانسية الحنين".

وفى الثانى والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٤١، فى ذات صباح صيفى مشمس، يتهيأ موسى جليل مع زوجته أمينة وابنته تشولبان للذهاب خارج المدينة لزيارة صديق له، ولكن كل شيء يتغير عند سماعه عبر الأثير عن بدء الحرب. ويقوم جليل فى اليوم التالى بتقديم طلب إلى اللجنة

العسكرية للالتحاق بالجبهة. وفى الثالث عشر من تموز/ يوليو يلبس البزة العسكرية ويلتحق بالقوات العسكرية، وتقرر القيادة العسكرية إبقاء جليل فى مؤخرة الجبهة كونه شاعرا مشهورا، ورئيسا لاتحاد الكتاب، لكن موسى يرفض ذلك، ويطلب نقله إلى الخطوط الأمامية للجبهة لمقاتلة "الأعداء".

وفى حزيران/ يونيو ١٩٤٢، حوصرت الفرقة العسكرية التى حارب فيها جليل على يد النازيين. وأصيب بجراح بالغة ووقع فى الأسر. ولمعرفة النازيين أن موسى شاعر معروف، فقد أدخلوه فى إطار لجنة الرايخ القومية، إلا أنه بدأ يقود مجموعة سرية مقاومة لخطط الهتلريين.

هذا، وتجدر الإشارة إلى أن المنظمة السرية التى كان الشاعر منضويا تحت لوائها - كانت تُعِد لانتفاضة الأسرى فى الرابع عشر من آب/ أغسطس ١٩٤٣، إلا أنه، وقبل عدة أيام من تنفيذ ذلك، قام "الغستابو" - البوليس السرى الألمانى - بتعقب أثر المنظمين، حيث اعتقل جليل ورفاقه وأرسلوا إلى سجن "موبايت"، وتم محاكمتهم فى شباط/ فبراير ١٩٤٤ وإصدار حكم الإعدام بحقهم، حيث أعدم مع رفاقه العشر فى الخامس والعشرين من آب/ أغسطس ١٩٤٤ .

٢٧- يهود الجبال: جماعة يهودية لها خصوصيتها الإثنية واللغوية، يعيش أعضاؤها فى "داغستان" و"أذربيجان" (ومن هنا يشار إليهم بلفظ "يهود داغستان"، كذا يشار إليهم باسم "يهود التات"). ويسمى يهود الجبال أنفسهم (جوهور). ولكن مصطلح "يهود الجبال" ذاته هو مصطلح روسى صكته السلطات الروسية القيصرية فى منتصف القرن التاسع عشر بعد ضم المنطقة إليها.

وتشير الدلائل اللغوية والتاريخية إلى الأصول الإيرانية ليهود الجبال، فلهجتهم من أصول إيرانية شمالية دخلت عليها كلمات تركية وعبرية. وقد تكونت الجماعة نتيجة هجرة اليهود المستمرة من شمال إيران (وربما من الإمبراطورية البيزنطية) لأذربيجان حيث استوطنوا بين متحدثى لغة "التات" التى أصبحت لغتهم. وقد بدأت هذه العملية فى منتصف القرن السابع الميلادى مع الفتح الإسلامى للمنطقة، واستمرت حتى غزاها المغول فى القرن الثالث عشر الميلادى. وفى هذه الفترة، اتصل يهود الجبال بيهود الخزر. وقد انقطعت الصلة بعد ذلك بين يهود الجبال وبقية يهود العالم حتى بداية القرن التاسع عشر تقريبا.

٢٨- معاهدة ميونيخ، أو إملاء ميونيخ كما يحلو للتشيك والسلوفاك تسمية هذه المعاهدة لغيابهم عنها - هى اتفاقية أبرمت فى ميونيخ فى الثلاثين من أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨ بين ألمانيا النازية

وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا، وافقت فيها القوى العظمى على إشباع أطماع هتلر التوسعية فى أوروبا. وكانت نتيجة هذه المعاهدة تقسيم تشيكوسلوفاكيا بين كل من ألمانيا وبولندا وهنغاريا.

وكان هتلر قد ادعى أن حكومة تشيكوسلوفاكيا ليست عادلة فى معاملاتها مع الألمان الذين يعيشون فى المناطق الحدودية الفاصلة بين تشيكوسلوفاكيا وألمانيا فى منطقة السوديت، وأن أراضيهم يجب أن تكون جزءا من الأراضى الألمانية. وقد سعى "نيفيل تشامبرلين"، رئيس وزراء بريطانيا، آنذاك، إلى التوصل إلى تسوية سلمية، فاقترح مؤتمرا يضم هتلر وموسولينى وإدوار دالادييه - رئيس وزراء فرنسا، وتشامبرلين - فى ميونيخ فى التاسع والعشرين، والثلاثين من أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨ تمخض عنه توقيع معاهدة ميونيخ.

وكان "إدوارد بينش" - رئيس جمهورية تشيكوسلوفاكيا - يظن، آنذاك، أن اتفاقية الدفاع المشترك التى تربطه بفرنسا وتربط فرنسا ببريطانيا سوف تعزز موقف بلاده فى النزاع الدائر على إقليم السوديت، غير أن موقف الحلفاء جاء مغايرا لتوقعاته حيث لم تمنعهم الاتفاقية من ردع هتلر أو إثنائه عن موقفه ... لذا، تسمى المعاهدة بخيانة ميونيخ ... تلك المعاهدة التى سمحت لألمانيا بضم الإقليم.

٢٩- أعلن هتلر المعركة على الفن الحديث ... إذ وقف فى القاعة الكبرى فى بيت الفن Kunst Haus - مهددا الفن بالتطهير، غير أنه حدد للفنانين منهجية الفن، وبالتالى أطلق على ما كان يرتأى هو أنه "الفن الصحيح" مصطلح "الفن الألمانى" - أخذا بعين الاعتبار مصلحته السياسية فى حربه الإقصائية ضد كل ما لا ينتمى إلى العرق الآرى.

كان الفن التجريدى - وما يزال - مصدر تهديد للديكتاتوريات، لأنه - وفقاً لرؤية الأنظمة السياسية التى لا تتوافق مع حرية التعبير - يحمل فى طياته تعابير نقدية ومناهضة للفكر القائم فى المجتمع. هذا، وقد حكم النظام النازى على كل ما هو حديث بالمنحط، وكان تداوله محظوراً.

ووفقا لفهم أية ديكتاتورية فى العالم، فإن الفن يجب أن يكون واضحا وبسيطا، ولا يحتاج إلى عظيم تفكير أو كبير عناء لفك ما يريد أن يعبر عنه الفنان. كذا، يجب أن يكون مقبولا من قبل الجماهير، عدا عن أنه عنصر مشجع لبناء هيكلية المجتمع كما كان يعتقد.

لكن الحقيقة كانت أن الفن مجرد سلعة تعكس رؤية الحاكم. لذلك، افتتح هتلر، بنفسه، بيت الفن

الألمانى كما كان يسمى، آنذاك der Deutschen Kunst - Haus ودعا إلى أن يكون الفن فى خدمة أيديولوجية الحزب الاشتراكى القومى العمالى الألمانى (النازى).

٣٠- قانون حقوق الجنود الأمريكيين - والمعروف رسميا باسم "قانون إعادة تكيف العسكريين" - وقعه الرئيس الأمريكى فرانكلين روزفلت فى الثانى والعشرين من حزيران/ يونيو ١٩٤٤ . ومن بين أحكامه، وفر القانون لقدامى المحاربين فى الحرب الكونية الثانية الدعم المالى فى صورة تطمينات ضد البطالة. ولعل الأمر الأكثر أهمية هو إتاحة القانون لفرص تعليمية سخية تراوحت بين التدريب المهنى والتدريب العملى، وصولا إلى التعليم العالى وسهولة الحصول على القروض لشراء منزل أو ممارسة أعمال تجارية.

٣١- فى كتابها الشهير: "من الذى دفع أجرة الزمار؟ الحرب الباردة الثقافية"، تميط مسئولة الاستخبارات الأمريكية "فرانسيس ستونور ساوندرز" اللثام عن الدور الذى اضطلعت به وكالة الاستخبارات المركزية لتجنيد المثقفين عبر العالم، وسرطنة الأوساط الفكرية والعلمية من خلال تمويل الدراسات المشبوهة واستحداث المعاهد والمراكز التى تعيد صوغ الحقائق وتشكيل العقول وتوجيه الرؤى بشكل يتوافق والأسلوب الأمريكى.

وقد اضطلعت "منظمة الحرية الثقافية"، باعتبارها ذراع التجسس السرى لوكالة الاستخبارات المركزية، بدور كبير فى استمالة عدد هائل من الفنانين والإعلاميين والمفكرين لدعم طروحاتها من خلال المعارض الفنية والمؤتمرات والصناعة السينمائية ووسائل الإعلام المختلفة.

ولعل أخطر المشاريع التى أوردتها المؤلفة فى هذا السياق، مشروع "الحرب السيكولوجية" الأمريكية الذى تبناه "أيزنهاور" إبان الحرب الباردة - وكان الهدف منه الانتصار فى "الحرب الكونية الثالثة" دون الاضطرار لخوضها. فالأفراد والمؤسسات الممولون من وكالة الاستخبارات المركزية كان المتوقع أن يقوموا بأدوارهم كجزء من حملة إقناع ضخمة فى حرب دعاية، كانت الدعاية فيها تعرف بأنها: "أى جهد أو تحرك منظم لنشر معلومات أو أفكار خاصة عن طريق الأخبار أو طرح قضايا بعينها ثم التخطيط لها وتصميمها بهدف التأثير على فكر جماعة معينة وسلوكها". كانت "الحرب السيكولوجية" أحد المقومات الأساسية فى هذا الجهد، وكانت تعرف بأنها:

"الاستخدام المخطط من قبل الدولة للدعاية وأنشطة أخرى غير القتال؛ بغرض توصيل أفكار ومعلومات تؤثر على آراء وتوجهات وعواطف وسلوك جماعات أخرى، وعلى النحو الذى يدعم

تحقيق الأهداف القومية". كذا، فقد كان يتم تعريف الدعاية الأكثر تأثيرا بأنها تلك التى "يتحرك فيها الشخص المستهدف فى الاتجاه الذى تريد لأسباب يعتقد أنها أسبابه".

٣٢- فى أوائل الخمسينيات، استطاع شخص واحد أن يفعل أكثر ممن عداه لوضع أجندة الحرب الثقافية الأمريكية ... وكرئيس للجنة القومية من أجل أوروبا الحرة، وكمستشار لأيزنهاور لشئون الحرب السيكولوجية، كان "تشارلز دوغلاس جاكسون" واحدا من أكثر خبراء الاستراتيجية السرية نفوذا وتأثيرا فى الولايات المتحدة الأمريكية. وكان جاكسون، الذى ولد فى نيويورك عام ١٩٠٢، ابنا لرجل صناعة ثرى يعمل باستيراد الرخام من أوروبا. تخرج جاكسون فى جامعة "برنستون" فى عام ١٩٢٤، والتحق بشركة العائلة مما أتاح له فرصة للسفر إلى أوروبا كثيرا، وأتاح له أن يقيم علاقات ستكون مصادر بالغة الأهمية بالنسبة له فى قابل الأيام. وفى عام ١٩٣١، التحق جاكسون بإمبراطورية هنرى لووس كمسئول إعلانات. أما أثناء الحرب الكونية الثانية، فقد كان واحدا من أهم إخصائيى الحرب السيكولوجية الأمريكية، فقد كان نائبا لرئيس مكتب الإعلام العسكرى فيما وراء البحار وشمال إفريقيا والشرق الأوسط، ثم نائب رئيس إدارة الحرب السيكولوجية التابعة لقوة الحملة المتحدة التابعة لمركز القيادة العليا، وكانت بقيادة "أيزنهاور". وبعد انقضاء الحرب، عاد جاكسون إلى مؤسسة Time-Life حيث أصبح نائبا للرئيس. وفى عام ١٩٥١، دعى للمشاركة فى دراسة لوكالة الاستخبارات المركزية توصى بإعادة تنظيم الوكالة، وأفضى به ذلك إلى وظيفة مدير من الخارج لعمليات الوكالة السرية عن طريق حملة الحقيقة واللجنة القومية من أجل أوروبا الحرة التى أصبح رئيسا لها فيما بعد. كذا، فقد كان جاكسون عضوا فى اللجنة التنفيذية لإذاعة أوروبا الحرة.

٣٣- سينكيانغ أو (كاشغر): أحد أشهر مدن تركستان الشرقية وأهمها، حيث كانت عاصمة تركستان الشرقية، ونقطة تقاطع الروافد الجنوبية والشمالية والوسطى لطريق الحرير "القديم". وفى القرن الثانى الميلادى، كانت "كاشغر" إحدى ممالك الأقاليم الغربية، لتصبح - على عهد سلالة تانغ - إحدى المدن الأربعة الغربية الكبرى. وقد اجتاحت القوات الصينية تركستان الشرقية عام ١٩٤٩، واحتلتها ... فأطلق عليها الصينيون "سينكيانغ"، وهى كلمة صينية تعنى "المستعمرة الجديدة".

٣٤- تعد "مؤسسة تولستوى" منظمة أهلية غير هادفة للربح أسست فى السادس والعشرين من نيسان/ أبريل ١٩٣٩ بواسطة الكسندرا تولستايا (١٨٨٤ - ١٩٧٩)، الابنة الصغرى للروائى

الروسى الشهير "ليف تولستوى"، وكذا سكرتيرته الشخصية. ويقع مقر المؤسسة فى مقاطعة روكلاند بولاية نيويورك الأمريكية. وكان الهدف الأصلى من وراء إنشاء تلك المؤسسة مد يد العون للاجئين السوفييت من أوروبا والاتحاد السوفييتى. ثم اضطلعت المؤسسة، لاحقا، بدور هام فى مساعدة المرحلين السوفييت، وكذا المنشقين والرعايا السابقين للاتحاد السوفييتى للاستقرار فى الغرب. ومن بين الأهداف الحالية للمؤسسة نشر التعليم والدورات التدريبية فى أرجاء المعمورة.

وللمؤسسة العديد من هيئات الإغاثة الإنسانية، إذ لديها دور للمسنين، وملاجئ للأيتام، ومؤسسات ثقافية تقدم خدماتها بالمجان، ودور حضانة، ومؤسسات تعليمية.

أما الكسندرا تولستايا، فقد زج بها البلاشفة فى السجن عام ١٩٢٠، إلا أنها قد عينت، فى العام الذى تلاه، مديرة لمتحف تولستوى فى ياسنايا بوليانا. وفى عام ١٩٢٩، تركت الكسندرا الاتحاد السوفييتى وارتحلت صوب الولايات المتحدة الأمريكية حيث أسست المؤسسة المذكورة. هذا، وقد قامت الكسندرا، فى سنوات لاحقة، بمساعدة العديد من المثقفين الروس (من أمثال "فلاديمير نابوكوف" و"سيرغى رحمانينوف") فى الفرار من العسف البلشفى والاستقرار فى الولايات المتحدة.

ولعل أبرز ما كتبت الكسندرا، والتى عرفت أيضا بالاسم "ساشا"، كتاب "تولستوى الحقيقى"، وكتاب "مأساة تولستوى"، فضلا عن كتاب هو أقرب ما يكون من تجسيد سيرة والدها "تولستوى – قصة حياة أبى".

هذا، وإلى جانب اضطلاع مؤسسة تولستوى ببعض المهام لحساب جهاز مكافحة التجسس التابع للجيش الأمريكى – كان من المرجح أن ثمة ارتباطات قد جمعت المؤسسة بفرانك ويزنر، من إدارة التخطيط بوكالة الاستخبارات المركزية ومسئول "العمليات المغطاة" الأمضى أثرا منذ الحرب الكونية الثانية، وخلال الخمسينيات برمتها. وفى عام ١٩٥٣، تلقى "مكتب الاستراتيجية السيكولوجية" إبان ولاية "أيزنهاور" التماسات لمساعدة مؤسسة تولستوى، والتى كانت تعانى – آنذاك – مصاعب مالية، حيث أحال المكتب طلبات العون المالى إلى "ويزنر" الذى أقر بأن المؤسسة بحاجة إلى المساعدة وأنها لن تترك لتنهار. ويذكر أن "ويزنر" هذا هو والد "فرانك ويزنر–الابن"، والذى عمل سفيرا للولايات المتحدة الأمريكية إلى مصر فى الفترة ما بين ١٩٨٦

و ١٩٩١ ... وهو صديق شخصى للرئيس المصرى الأسبق حسنى مبارك.

٣٥- عبد الرحمن على أوغلو فاتالبايلى دودانغينسكى (١٩٠٨-١٩٥٤)- لواء بالجيش السوفييتى انضم لقوات النازى خلال الحرب الكونية الثانية. ولد "فاتالبايلى" فى قرية دودانغا بالقرب من نقشوان/ أذربيجان ... حيث تلقى تعليمه فى عدد من المدارس العامة والعسكرية فى "باكو" ليرتحل إلى "لينينغراد" حيث انضم إلى صفوف الحزب الشيوعى، والتحق بالكلية الحربية حيث درس بها لثلاثة أعوام. وفى عام ١٩٣٦، طرد "فاتالبيلى" من الحزب جراء قيامه بالكذب بشأن "طبقته الاجتماعية"، حيث نسب نفسه إلى طبقة "الفلاحين". تلا ذلك انخراطه فى الحرب السوفييتية/ الفنلندية (١٩٣٩)، حيث منح وسام "النجمة الحمراء". وفى عام ١٩٤١، رقى إلى رتبة اللواء، إلا أنه وقع فى أيدى القوات الألمانية (النازية) فى جبهة "البلطيق" فى أيلول/ سبتمبر من العام ذاته، حيث أرسل إلى معسكر لأسرى الحرب.

وفى عام ١٩٤٨، تمت دعوته إلى مصر ليصبح مستشارا حربيا للعرب خلال الحرب مع إسرائيل. أما فى عام ١٩٥٣، فقد التحق بالعمل لدى "راديو الحرية" بميونيخ ليصبح رئيس "الديسك" الأذربيجانى. وفى الرابع والعشرين من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٤، وجد "فاتالبايلى" مشنوقا فى شقة بميونيخ. ودارت الشكوك حول ضلوع جهاز الاستخبارات السوفييتية الـ KGB فى تصفيته، إلا أن ذلك ظل أمرا غير مؤكد تنقصه الدلائل.

٣٦- "روبير"، هو الاسم الكودى لميخائيل كيديا، من جورجيا ... والذى انخرط فى أنشطة كثيرة استهدفت الاتحاد السوفييتى فى الفترة الممتدة من عشرينيات القرن العشرين إلى خمسينياته. هذا، وقد هاجر "كيديا"، وهو عضو بلجنة جورجيا القومية، فى وقت باكر من وطنه الأم إلى فرنسا، وتعاون مع الاستخبارات الألمانية أثناء الحرب الكونية الثانية. وخلال عامى ١٩٤٢ و١٩٤٣ عمد كيديا إلى تجنيد لاجئى حرب من القوقاز وغيرها للقيام بعمليات إنزال مظلى ألمانية parachute operations داخل أراضى القوقاز. أما فى عام ١٩٤٣، فقد قام برحلات إلى تركيا لتنظيم عدد من الحركات التصعيدية عند الحدود التركية/ القوقازية. وفى منتصف عام ١٩٤٤، حين بات من شبه المؤكد هزيمة الألمان فى الحرب، سعى كيديا إلى الاتصال بالحلفاء لتقديم خدماته حيث زعم أنه أنقذ حياة بعض اليهود فى فرنسا.

هذا، وقد أجرى "كيديا" اتصالات مع "مكتب الخدمات الاستراتيجية" عن طريق "يورى

سكارزنسكى"، وهو روسى أبيض نزح إلى فرنسا قادما من ألمانيا بمساعدة "كيديا". كذا، فقد فر "كيديا" إلى جنيف بسويسرا - لاحقا - خلال الأشهر الأخيرة من الحرب.

فضلا عن هذا، عرض "كيديا" خدماته على الولايات المتحدة الأمريكية. ورغما عن رغبته العارمة فى العمل لحساب الاستخبارات الأمريكية، إلا أن "مكتب الخدمات الاستراتيجية"، وخليفته "وكالة الاستخبارات المركزية" قد رفضا طلبه. فوفقا لتقرير لوكالة الاستخبارات المركزية، فإن كيديا "رجل نو ملف شائن". هذا، وقد زُعم أنه مع حلول كانون الثانى/ يناير ١٩٤٦ كان لكيديا علاقات قوية ربطته بالاستخبارات السوفييتية.

إلا أن منظمات الولايات المتحدة لم تنظر جميعها إلى "كيديا" نظرة عدائية. فحتى كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨، زُعم أن "كيديا" كان يمد "جهاز مكافحة التجسس" التابع للجيش الأمريكى بالبيانات والمعلومات، رغما عن أن وكالة الاستخبارات المركزية لم تفصح عن مدى نشاطه فى هذا الخصوص.

٣٧- هو ميخائيل كيديا.

٣٨- التحالف القومى للتضامنيين الروس Narodno Trudovoi Soywz (NTS) هى منظمة روسية يمينية مناهضة للشيوعية تم تأسيسها عام ١٩٣٠ على أيدى جماعة من صغار المهاجرين الروس المناهضين للشيوعية، وذلك فى بلغراد الصربية (والتى كانت - آنذاك - جزءا من المملكة اليوغوسلافية).

هذا، وقد أنشئت المنظمة كردة فعل إزاء الجيل القديم من اللاجئين الروس، الذين كان ينظر إليهم على أنهم قد أصابهم الجمود إذ استسلموا لهزيمتهم فى الحرب الأهلية الروسية. أما الشبيبة التى أسست المنظمة فقد قرروا الاضطلاع بدور إيجابى فعال فى محاربة الشيوعية عن طريق دراسة الثقافة السوفييتية "البازغة"، وسيكولوجية الفرد فى الاتحاد السوفييتى، فضلا عن تطوير برنامج سياسى يرتكن إلى مفهوم "التضامنية".

إن الأيديولوجية التضامنية للتحالف القومى قد تأسست وفقا للمفهوم المسيحى للمسئولية الاجتماعية الجمعية لأفراد الوطن بشأن رفاهية كل منهم، والتعاون الطوعى فيما بين شرائح المجتمع المختلفة (وليس طبقاته) ... وذلك فى مواجهة صراع الطبقات وفق المفهوم الماركسى. كذا، فقد أمنت الأيديولوجية بقوة بقداسة الفرد، وذلك على نقيض ما آمنت به "الجمعية" الماركسية.

ونود أن نورد هنا نصا ورد بملصق للتحالف القومى للتضامنيين الروس يرجع إلى عام ١٩٦٧، ويلخص فلسفة التحالف:

على خلاف الشيوعية، فإن "التضامنية" لترسى أساسا يرتكن إلى روح "القرن العشرين" فى التعامل مع القضايا الجارية فى عالم اليوم ... إذ ترفض "الاقتراب" المادى البحت فى تناول المشكلات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية - كذا، فهى ترى أن "الإنسان"، وليس "المادة" - هو لب مشكلة العصر. وفضلا عن ذلك، فإنها ترفض مفهوم "الصراع الطبقى" والعداوات، وتسعى إلى إحلال مفهوم التعاون (التضامنية) والأخوة والتسامح المسيحى والخيرية محل ذلك المفهوم الكريه الشائن. وتؤمن "التضامنية" بكرامة "الفرد" أيا من كان، وتسعى لترسيخ حقه الثابت فى حرية التعبير عن الرأى، وحرية الضمير، والحق فى التنظيم السياسى. على أن "التضامنيين لا يزعمون - بأية حال من الأحوال - بأن أفكارهم المطروحة تمثل القول الفصل فيما يخص المشاكل كافة، إلا أنهم يؤمنون بأن "الإنسان" - وهو سيد "القنبلة الذرية" - يجب عليه، أيضاً، أن يصبح سيدا لنفسه وسيدا لمصيره.

٣٩- لفيف: يعود أصل المدينة إلى عام ١٢٠٠ ميلادية - فى فترة الإمبراطورية الأوكرانو-روسية، حيث أنشأها الأمير "دانييلو" وسماها باسم ابنه "ليف" ... Lev وكانت المدينة - على مر العصور - مسرحا للصراع بين القوى التى حاولت احتلال المنطقة. ففى عام ١٣٤٩ احتلها البولنديون وضموها إلى المملكة البولندية (البولونية) والبولو-ليتوانية. وفى عام ١٧٧٢، ضمت إلى الإمبراطورية النمساوية الهنغارية ... وبعد سقوط الإمبراطورية أثناء الحرب الكونية الأولى، أصبحت عاصمة ما يعرف بجمهورية أوكرانيا الغربية، ثم ما لبث البولنديون أن احتلوها من جديد لتضم لجمهورية "بولندا الثانية". وأثناء الحرب الكونية الثانية، وتحديدا فى عام ١٩٣٩، ضمت المدينة إلى الاتحاد السوفييتى ضمن الجزء الأوكرانى لمدة عامين، ثم احتلها الألمان عام ١٩٤١ حتى عام ١٩٤٤ ...

حيث عادت إلى الاتحاد السوفييتى من جديد. وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى، أصبحت المدينة تابعة للدولة الأوكرانية الحالية.

٤٠- ديتمولد: محافظة تقع فى ولاية شمال الراين/ فستفاليا.

٤١- أولتسن: مدينة تقع فى ولاية سكسونيا السفلى فى شمال ألمانيا.

٤٢- براكفيده: مدينة تقع فى بيليفيلد فى ولاية شمال الراين/ فستفاليا.

٤٣- اشتعلت شرارة انتفاضة ألمانيا الشرقية بإضراب عن العمل قام به عمال البناء ببرلين الشرقية فى السادس عشر من حزيران/ يونيو ١٩٥٣، وسرعان ما تحول الإضراب - فى اليوم التالى مباشرة - انتفاضة عارمة واسعة النطاق ضد حكومة "جمهورية ألمانيا الديمقراطية". هذا، ويطلق على تلك الانتفاضة - الانتفاضة الشعبية لألمانيا الشرقية Volksaufstand in der DDR ... كذا، فقد اعتبر يوم السابع عشر من حزيران/ يونيو اليوم الوطنى لألمانيا الغربية بعد أن تم توحيد "الألمانيتين".

أما الانتفاضة، والتى جرت وقائعها فى برلين الشرقية، فقد تم إخمادها بواسطة القوات السوفييتية الموجودة فى ألمانيا بالتعاون مع جهاز الشرطة الألمانى. وبالرغم من تدخل القوات السوفييتية، إلا أن موجات الإضراب والتمرد لم يتم إخمادها بسهولة ... فحتى بعد انقضاء يوم السابع عشر، استمرت التظاهرات قائمة فى أكثر من خمسمائة موقع بالبلاد.

٤٤- كانت انتفاضة "هنغاريا" (١٩٥٦) تمردا قوميا تلقائيا ضد حكومة البلاد التى كانت تدور فى فلك الاتحاد السوفييتى وتلهج بحمده. وقد استمرت الانتفاضة مشتعلة منذ الثالث والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر وحتى العاشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٦ ... وكانت أول تهديد حقيقى لهيمنة السوفييتية منذ إجلائها للنازى فى نهاية الحرب الكونية الثانية، واحتلالها لأوروبا الشرقية. ورغما عن فشل الانتفاضة، إلا أنها كانت ذات تأثير طاغ، إذ اضطلعت بدور كان له توابعه فى إسقاط الاتحاد السوفييتى بعد عقود لاحقة.

هذا، وقد بدأت الانتفاضة بتظاهرة طلابية انضم إليها آلاف احتشدوا فى مسيرة اخترقت وسط العاصمة "بودابست" فى اتجاهها لمبنى البرلمان مصحوبة بعربة بها مكبرات للصوت تبث إرسال "راديو أوروبا الحرة". وقد قام وفد من الطلاب بدخول مبنى الإذاعة فى محاولة لإلقاء مطالبهم عبر الأثير، إلا أن الوفد قد احتجز بالمبنى. وحين طالب المتظاهرون بالخارج بإطلاق سراح الوفد الطلابى المحتجز، قامت الشرطة بإطلاق النيران على أعضاء الوفد مما أسفر عن وفاة طالب منهم. وعلى الفور، لف الجثمان بعلم البلاد وحمل على الأعناق ... وكانت تلك البداية الحقيقية للانتفاضة، أو بالأحرى الثورة. وحين تواترت الأنباء عن مجريات الأحداث، عمت الفوضى وساد العنف أرجاء العاصمة.

وسرعان ما انتشرت شرارة التمرد على امتداد هنغاريا بأكملها، فانهارت الحكومة ... حيث قام الآلاف بتنظيم أنفسهم على هيئة ميليشيات واجهت الشرطة النظامية والقوات السوفييتية. أما الشيوعيون المؤيدون للسوفييت وكذا أفراد الشرطة النظامية، فقد تم قتل بعضهم واعتقال بعض آخر ... أما السجناء القوميون، فقد تم إطلاق سراحهم وإمدادهم بالسلاح والعتاد. كذا، فقد قامت مجالس العمال التى تشكلت جراء الانتفاضة بتجريد حزب العمال الهنغارى الحاكم من سلطاته، وطالبت بتغييرات سياسية. وفى هذا السياق، عمدت حكومة تشكلت حينها إلى حل "جهاز أمن الدولة"، معربة عن نيتها الانسحاب من "حلف وارسو" وتعهدها بإجراء انتخابات حرة نزيهة.

وبنهاية تشرين الأول/ أكتوبر، كان القتال قد توقف فى أغلبه حيث شاع جو من الهدوء والاستقرار.

وبعد الإعلان عن الرغبة فى التفاوض بشأن انسحاب القوات السوفييتية، تراجع "المكتب السياسى" عن موقفه وشرع فى سحق الانتفاضة/ الثورة. وفى الرابع من تشرين الثانى/ نوفمبر، قامت قوة سوفييتية ضخمة بغزو "بودابست" وأقاليم أخرى من البلاد. أما المقاومة الهنغارية، فقد ثابرت فى جهادها حتى العاشر من ذلك الشهر. هذا، وقد كانت حصيلة الصراع مقتل ما يزيد عن ٢٥٠٠ هنغارى، و٧٠٠ من أفراد القوات السوفييتية، فضلا عن نزوح نحو ٢٠٠٠٠٠ هنغارى كلاجئين خارج البلاد. أما الاعتقالات الجماعية والاتهامات، فقد استمرت لأشهر لاحقة وبحلول كانون الثانى/ يناير ١٩٥٧، كانت الحكومة السوفييتية المشكلة حديثا قد قمعت جميع أشكال المعارضة الجماهيرية.

وعلى مدى أكثر من ثلاثة عقود، كانت المناقشات العامة حول تلك الانتفاضة/ الثورة ممنوعة فى هنغاريا ... إلا أن إرهاصات حركة التحرر فى أواخر الثمانينيات قد جعلها موضع الدراسة العميقة والجدل الواسع. ومع تدشين "الجمهورية الثالثة" فى هنغاريا فى عام ١٩٨٩، أعلن يوم الثالث والعشرين من تشرين الأول/ أكتوبر - اليوم الوطنى للبلاد.

٤٥- ألفريد سوفيه (١٨٩٨ - ١٩٩٠) ديموغرافى وأنثروبولوجى واقتصادى ومؤرخ فرنسى. أورد "سوفيه" لفظة "العالم الثالث" Tiers Monde، إذ كان هو من نحتها، فى مقالة بالأوبزرفاتور الفرنسية L'Observateur بتاريخ الرابع عشر من آب/ أغسطس ١٩٥٢ .

٤٦- وثيقة مجلس الأمن القومى الأمريكى ١٦٢/ ٢، بتاريخ ٣٠/ ١٠/ ١٩٥٣، قد حددت ملامح سياسة "الحرب الباردة" خلال إدارة الرئيس "أيزنهاور". وقد نصت الوثيقة على أن الولايات المتحدة الأمريكية بحاجة إلى الاحتفاظ بكيان عسكرى مهيب ومرهوب الجانب، مع التشديد على القدرة على القيام بأعمال انتقامية واسعة النطاق باستخدام القوة الغاشمة، وأن الولايات المتحدة ستنظر إلى الأسلحة النووية باعتبار إمكانية استخدامها شأنها شأن غيرها من الأسلحة الأخرى.

كذا، فقد ذهبت سياسة "أيزنهاور" إلى أنه إذا حاول الاتحاد السوفييتى أو الصين الشيوعية الهجوم على أى من بلدان "العالم الحر"، حينها يحق للولايات المتحدة أن ترد الهجوم بهجوم نووى، ليس من الضرورى أن تجرى وقائعه فى ساحات القتال ... بل يمكن توجيهه مباشرة إلى العمق الروسى أو الصينى. وقد عضد هذا المنحى - على سبيل المثال - حين نشر "ريتشارد نيكسون"، نائب الرئيس آنذاك، مقالة فى "النيويورك تايمز" بتاريخ الرابع عشر من آذار/ مارس ١٩٥٤، أورد فيها أنه "كيلا يقضى علينا الشيوعيون رويدا رويدا فى حروب (صغيرة) على امتداد العالم ... يمكننا الارتكان - مستقبلا - وبالأساس إلى قوتنا الانتقامية الثأرية واسعة النطاق، والتى بمقدورنا استخدامها فى مواجهة الشيوعية (مصدر العدوان الرئيسى)، وذلك فى المكان والزمان اللذين نختارهما".

٤٧- حركة "أمة الإسلام": تعتبر "أمة الإسلام" Nation of Islam فى الولايات المتحدة الأمريكية إحدى المنظمات، أو المؤسسات، أو القوى الفاعلة فى صفوف الأمريكيين السود، وتكاد تكون أكثرهم نفوذا بما تملكه من تنظيم وإدارة فاعلة بين المسلمين السود. وتعتبر "أمة الإسلام" القوة الكبرى فى صفوف المسلمين السود، رغما عن عدم توافر معلومات شاملة عن أعداد أفرادها. ولقد تبنت هذه المنظمة "الإسلام" بمفاهيم خاطئة، غلبت عليها الروح العنصرية. هذا، وقد تأسست "أمة الإسلام" عام ١٩٣٠ على يد رجل أسود مجهول الأصول اسمه "والاس فرد محمد"، ظهر فى "ديترويت" بشيكاغو عام ١٩٢٩، ثم اختفى بمثل ما قد ظهر فجأة، ليحمل لواء الحركة من بعده رجل اسمه "إليجا محمد"، والذى تأصلت على يديه البدع والانحرافات فى عقيدة تلك المنظمة.

ومن أهم عقائد المنظمة، اعتقاد تفوق الجنس الأسود على الجنس الأبيض، وأن الملاك أسود اللون، أما الشيطان فأبيض. كذا، يعتقد أفراد المنظمة أن الإله ليس شيئا غيبيا، بل يجب أن

يكون متجسدا فى شخص. وهذا الشخص هو "فارد". لذا، فالصلاة عندهم عبارة عن قراءة الفاتحة مع التوجه نحو مكة، واستحضار صورة "فارد" فى الذهن. كذا، فهم يعتقدون أن "إليجا محمد" من ضمن رسل الله. هذا، وقد كان "إليجا محمد" لا يؤمن بالغيبيات كلها، وقد فرض على أفراد المنظمة الصوم فى شهر كانون الأول/ ديسمبر من كل عام، وألزمهم بدفع ١٠٪ من كل ما يكسبونه لصالح الحركة.

وقد توسم "إليجا محمد" فى أحد الشباب النباهة الثورية والقدرة الإقناعية ... وكان الشاب يدعى "مالكولم اكس"، الذى قام "إليجا" بضمه إلى مجلس إدارة الحركة، وجعله وزيرا – أى إماما – لمعبد رقم (٧) بنيويورك ... وقد أبدى "مالكولم" كفاءة دعوية فائقة، حيث زار الجامعات والحدائق والسجون وأماكن تجمع الناس ... وأسلم على يديه الكثيرون، من بينهم الملاكم العالمى "كاسيوس كلاى"، والذى أصبح اسمه بعد الإسلام "محمد على كلاى". ولقد فتحت قنوات التلفاز أبوابها لمالكولم، حيث أجرى المناظرات على الهواء، ليذيع صيته بقوة.

إلا أن تحولا جذريا قد حدث فى حياة "مالكولم اكس" حين ذهب لأداء فريضة الحج عام (١٣٨١ هجرية – ١٩٦٢ ميلادية) ...

حيث التقى العلماء والمشايخ، وقابل ولى العهد السعودى، آنذاك، الأمير فيصل بن عبد العزيز آل سعود – الذى قال له "إن حركة أمة الإسلام خارجة عن الإسلام بما تعتقده من ضلالات ... فطاف "مالكولم" بلاد الإسلام للاستزادة، فدخل مصر والسودان، والتقى شيخ الأزهر، كذا فقد التقى مفتى الديار المصرية، ليعود إلى الولايات المتحدة ويعلن إسلامه من جديد، وليبدأ مرحلة جديدة وخطيرة فى حياته.

عاد "مالكولم"،الذى غير اسمه ليصبح "مالك شباز"، إلى الولايات المتحدة عام ١٩٦٣، وشرع فى الدعوة للعقيدة الصحيحة، وحاول إقناع "إليجا محمد" بالحق والذهاب لأداء فريضة الحج، لكن "إليجا" رفض بشدة وطرده من الحركة، فشكل "مالك" جماعة جديدة سماها "جماعة أهل السنة"، وأخذ فى الدعوة إلى الدين الصحيح، فانضم إليه الكثيرون، أولهم "والاس" ابن "إليجا محمد" نفسه.

أما "إليجا"، فقد شرع فى تهديد "مالك" بالقتل، ولكن "مالك" لم يخف أو يتوقف ... فشن عليه "إليجا" حملة دعائية إعلامية شرسة لإبعاد أنظار الناس عنه، فلم تزده هذه التهديدات إلا

إصرارا. أما الصحف الأمريكية فقد اشتركت فى التضييق على "مالك"، على الرغم من أنها كانت تفتح له أبوابها من قبل حين كان يدعو للدين الباطل والعقيدة الفاسدة.

ظل "مالك شباز" يدعو للعقيدة الصحيحة غير عابئ بالتهديدات إلى أن أغتيل فى الحادى والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٦٥، حيث أطلق ثلاثة من الشباب السود الرصاص عليه أثناء إلقائه محاضرة فى جامعة "نيويورك"، فمات من فوره ... وكان يومها فى عامه الأربعين.

لقد كانت عملية اغتيال "مالك شباز" أو "مالكولم اكس" - بما لفها من غموض - نقطة تحول فاصلة فى سير حركة "أمة الإسلام"، حيث هجرها العديد من أتباعها، والتحقوا بجماعة أهل السنة، وعرفوا الدين الحق. وبعد وفاة "إليجا محمد"، تغيرت أفكار الحركة، وتولى "والاس" ابن "إليجا محمد" رياسة الحركة، وتُسمَّى "وارث الدين محمد"، وعمد إلى تصحيح أفكار الحركة، حيث غير اسمها إلى "البلاليين" - نسبة إلى سيدنا بلال بن رباح رضى الله تعالى عنه.

هذا، وقد تولى "لويس فركان" إعادة هيكلة "أمة الإسلام"، واستمر على نهج معلمه "إليجا محمد" متجاهلا "وارث الدين محمد" الذى توفى عام ٢٠٠٨، فيما لا يزال "لويس فركان" يترأس منظمة "أمة الإسلام" إلى يومنا هذا.

٤٨- على مدار خمسينيات القرن العشرين، عرف عن "روسى نصار" كونه ينشط لحساب وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية. وفى كتابه المعنون "ناج من حرب مجهولة: قصة حياة إسحاقيان نارزيكول" - ١٩٩٩ - والذى سبقت الإشارة إليه فى الهامش رقم (١٢) - أورد المؤلف "ستيفن كرين" وصفا لعميل لجهاز الاستخبارات المركزية حوفظ فيه على أن تظل هويته مجهولة، وذلك تحت اسم مستعار هو "صافى أوراز". ويؤمن "كرين" أن "أوراز" هذا ما هو إلا "روسى نصار".

٤٩- Aksakal وتعنى حرفيا باللسان التركى "اللحية البيضاء" ... وترمز إلى كبار السن وحكماء المجتمع. فتاريخيا، كان يطلق اللفظ على زعيم لهذه القرية أو تلك، وذلك حتى بداية العهد السوفييتى بعد الثورة البلشفية (١٩١٧). وكان أولئك الحكماء يضطلعون بأدوار التحكيم والوساطة بين المتنازعين، كذا فقد كان لهم دور بارز فى مجريات العملية السياسية والنظام القانونى بين القبائل ببلدان القوقاز وآسيا الوسطى.

٥٠- قيل إن "شوقاى" قد سُمِّم بأمر من القائد النازى "ألفريد روزنبرغ" ... راجع الهامش رقم (٢٥).

٥١- "فى البدء كانت العبوة" ... عبوة استهدفت محاربة الجوع وإظهار التضامن مع شعوب أوروبا التى مزقتها الحرب الكونية الثانية. ففى أعقاب نهاية الحرب عام ١٩٤٥، انضمت اثنتا وعشرون تعاونية خيرية ... كانت مزيجا من منظمات التضامن المدنى والدينى والتعاونى، فضلا عن جهات عمالية ... حيث قامت جميعها بتأسيس منظمة CARE، والتى تنصرف الحروف الأولى لكلماتها إلى "تعاونيات المساعدات الأمريكية لأوروبا the Cooperative for American Remittances to Europe . وفى عام ١٩٩٣، وفى سعيها لكى تعكس المنظور الأرحب مدى لبرامجها ورؤيتها وتأثيرها، أصبحت اللفظة CAREتعنى "تعاونيات المساعدة والإمداد فى كل مكان" Cooperative for Association and Relief Everywhere.

٥٢- هو عبد الرحمن أفطورخانوف الشيشانى، الذى توفى فى الرابع والعشرين من نيسان/ أبريل ١٩٩٧ فى ميونيخ عن عمر بلغ ٨٨ عاما. كان مؤرخا وعالم سياسة، كذا فقد كان ممن شاركوا فى إنشاء "راديو الحرية" فى أعقاب الحرب الكونية الثانية، فضلا عن اشتراكه فى تأسيس "معهد دراسات الاتحاد السوفييتى".

٥٣- ليلة البلور، والتى تعرف أيضا بليلة الزجاج المهشم ... هى مذبحة اتخذت صورة سلسلة من الاعتداءات المنظمة والممنهجة ضد اليهود على امتداد ألمانيا النازية وأجزاء من النمسا، فى التاسع والعاشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٣٨، والتى قام بها الجناح شبه العسكرى التابع لكتيبة العاصفة، وكذا بعض المدنيين غير اليهود. أما السلطات الألمانية فقد راقبت الأحداث دون أن تحرك ساكنا. هذا، وتأتى التسمية (ليلة البلور) نظرا لشظايا الزجاج المهشم الذى أمطر الشوارع من فرط غزارته بعد أن تم تحطيم واجهات المحال والبنايات والمعابد اليهودية.

٥٤- قانون الإعارة والتأجير هو تشريع أمريكى يسمح بتأجير، أو تسليف، أو نقل، أو مبادلة المعدات والتجهيزات التى تحتاجها أية دولة تعتبر ذات أهمية حيوية فى ضمان أمن الولايات المتحدة الأمريكية والدفاع عنها. هذا، وقد اعتمد "القانون" فى الحادى عشر من آذار/ مارس ١٩٤١ بعد عام ونصف العام من اندلاع الحرب الكونية الثانية، وقبل تسعة أشهر من دخول الولايات المتحدة الحرب. وقد تم بمقتضى هذا القانون تسليم كميات ضخمة من المعدات الحربية للمملكة المتحدة، وقوات فرنسا الحرة، والاتحاد السوفييتى، والصين، والعديد من دول الحلفاء ما بين

عامى ١٩٤١ و١٩٤٥ .

٥٥- المعرض العالمى فى نيويورك (١٩٣٩) ... جرت فعاليات هذا المعرض على موسمين اثنين (اعتبارا من نيسان/ أبريل وحتى تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٣٩ وهو الموسم الأول، وكذا خلال الفترة ذاتها من عام ١٩٤٠، وهو الموسم الثانى). هذا، وقد شارك العديد من بلدان العالم فى هذا المعرض الذى شهده أكثر من ٤٤ مليون شخص. وكان "معرض نيويورك" هذا (١٩٣٩ - ١٩٤٠) المعرض الأول المنبنى على اهتمام بالمستقبل واستشراف إمكانياته، وذلك تحت شعار "فجر يوم جديد" ... إذ دعا جميع الزائرين إلى إلقاء نظرة على "عالم الغد".

أما "قصة" المعرض فهى أنه فى عام ١٩٣٥، حين كان "الكساد الكبير" فى أوجه، قرر بعض رجال الأعمال من "نيويورك سيتى" تدشين "معرض عالمى" لانتشال المدينة، وكذا الولايات المتحدة الأمريكية بأسرها من هوة الكساد الضارب أطنابه هنا وهناك.

ولم يمض وقت طويل إلا وأسس رجال الأعمال هؤلاء شركة "معرض نيويورك العالمى" ... تلك الشركة التى شغلت مكاتبها واحدا من الأدوار العليا ببناية "إمبايرستيت" الشهيرة.

هذا، وقد تم تدشين المعرض فى صبيحة الأحد الموافق الثلاثين من نيسان/ أبريل ١٩٣٩ ... ذلك اليوم الحار الذى شهد حضور نحو ٢٠٦٠٠٠ زائر.

٥٦- جناح "الاتحاد السوفييتى" ... من ضمن ما اشتمل عليه جناح "الاتحاد السوفييتى" تصميم لمحطة مترو "ماياكوفسكايا" فى موسكو، من الداخل ... إحياء لذكرى الشاعر الروسى "فلاديمير ماياكوفسكى (١٨٩٣ - ١٩٣٠)، الذى انتحر بعد فشله فى حياته العاطفية وعدم تحقيق الثورة طموحاته وأحلامه. وأشهر قصائد "ماياكوفسكى" - غيمة فى سروال (١٩١٥). هذا، وقد استخدمت بعض محطات المترو، كمحطة ماياكوفسكايا، كملاجئ من الغارات (١٩٤١ - ١٩٤٥). وقد نال مصمم المحطة (الكسى دسكين) الجائزة الكبرى لمعرض نيويورك العالمى (١٩٣٩).

٥٧- تم القبض على "غالينا" بتهمة إقامة علاقة مع ملحق عسكرى أمريكى، ومحاولة الهرب من الاتحاد السوفييتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية بطريقة غير قانونية. هذا، وقد أمضت "غالينا" عدة سنوات فى معتقلات سيبيريا. وإذ تدور الأيام وتمضى، يأتى عام ١٩٩٤ ليشهد اتصالا ما بين "دريهر" و"غالينا" ثانية ... بعد عقود طوال فرقت بينهما.

٥٨- تعد جمعية - Phi Beta Kappa - أقدم جمعية شرفية خاصة بالفنون الحرة والعلوم، ولها ٢٨٣ فرع فى أرجاء الولايات المتحدة كافة.

وباعتبارها أكثر الجمعيات الشرفية المرموقة فى الولايات المتحدة، فإن الجمعية تهدف إلى تحفيز الإجادة والتميز فى الفنون الحرة والعلوم، كذا فهى تهدف إلى إمداد الكليات الجامعية الأمريكية بأفضل الطلبة وأمهرهم. وتعد الجمعية، والتى أسست فى الخامس من كانون الأول/ ديسمبر ١٧٧٦، إحدى أوليات الجمعيات الأخوية الجامعية. وفضلا عن ذلك، تظل الجمعية الأكاديمية الفخرية الأقدم ... والتى ما تزال قائمة حتى يومنا هذا. وتعنى Phi Beta Kappa - "حب الحكمة والتعلم والمعرفة".

٥٩- الصديق هو "بيتر ماكس زيشل Peter Max F. Sichel"، وهو تاجر خمور أمريكى ذو أصول ألمانية ولد فى "ماينتس" بألمانيا عام ١٩٢٢، وارتحل إلى الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق إسبانيا، وذلك فى أعقاب الحرب الكونية الثانية ليعمل لدى وكالة الاستخبارات المركزية فى برلين وواشنطن وهونغ كونغ، وذلك حتى عام ١٩٦٠ حين استقال من منصبه قائلا: "إننى تركت المنصب لأن وكالة الاستخبارات المركزية قد اقترفت أمورا لا أرضى بها كإرسال أناس إلى أوكرانيا للانضمام إلى جماعات مقاومة وهمية ... لقد كانوا يساقون إلى حتوفهم".

٦٠- دين غودرهام آتشيسون ... Dean Gooderhan Acheson (1893 - 1971) سياسى أمريكى بارز من الحزب الديمقراطى، تولى منصب وزارة الخارجية فى بلاده فى الفترة ما بين ١٩٤٩ و١٩٥٣ ضمن فترة حكم الرئيس "هارى ترومان". ولقد نبعت أهمية "آتشيسون" من الدور المحورى الذى اضطلع به فى بناء السياسة الخارجية الأمريكية أثناء "الحرب الباردة" - أى فى أعقاب الحرب الكونية الثانية. وقد اضطلع "آتشيسون" بدور هام فى إقامة التحالف الغربى المناوئ للكتلة الشرقية التى يتزعمها الاتحاد السوفييتى.

ويعتبر "آتشيسون" من أبرز مهندسى العديد من المنظومات الدولية فى حقبة ما بعد الحرب الكونية الثانية ... فقد أسهم بشكل بارز فى إنشاء حلف "الناتو"، و"صندوق النقد الدولى"، و"البنك الدولى"، و"مشروع مارشال لإعادة إعمار أوروبا"، فضلا عن إنشاء منظمات أخرى تطورت لاحقا لتشكل "الاتحاد الأوروبى"، و"منظمة التجارة العالمية". ولعل أشهر ما قام به "آتشيسون" إقناعه الرئيس "هارى ترومان" فى حزيران/ يونيو ١٩٥٠ بخوض الحرب ضد

كوريا. كذا، فقد قام "آتشيسون" بإقناع "ترومان" بإرسال مساعدات ومستشارين لمعاونة القوات الفرنسية التى كانت تحارب فى فيتنام، لكنه فى نهاية المطاف أشار على الرئيس "ليندون جونسون" - عام ١٩٦٨ - بعقد مفاوضات سلام مع فيتنام الشمالية. وخلال أزمة الصواريخ الكوبية، لجأ الرئيس "جون كينيدى" إلى "آتشيسون" طلبا للمشورة.

٦١- كان الحزب الشيوعى الإيطالى أقوى الأحزاب الشيوعية فى أوروبا، وكاد يصل إلى الحكم، وهو الاحتمال الذى أفزع الولايات المتحدة الأمريكية وحلفاءها، فأولوا اهتماما خاصا بإيطاليا وبذلوا كل ما فى وسعهم - حتى عمليات الإرهاب والقتل - للحيلولة دون هذا الأمر. ونظرا لكون إيطاليا تتمتع بموقع جغرافى شديد الأهمية لقربها من منطقة البلقان، وكونها دولة مطلة على البحر الأبيض المتوسط، ومن ثم قدرتها على تهديد طريق المواصلات بين مضيق جبل طارق وبين قناة السويس ... لذا، فإن أية حكومة شيوعية منحازة إلى المعسكر الشيوعى فى إيطاليا لتكون ذات خطورة قاتلة لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية، ومصالح العالم الغربى بأسره، مما يقلب موازين القوى فى تلك المنطقة الملتهبة.

هذا، ونرى ذلك المعنى واضحا جليا فى الوثيقة الرسمية الصادرة عن اللجنة الوطنية للأمن القومى الأمريكى بتاريخ العاشر من شباط/ فبراير ١٩٤٨، إذ جاءت التوصية أو التحذير التالى:

(على الولايات المتحدة الأمريكية القيام بكل ما فى وسعها من الناحية السياسية والاقتصادية، بل والعسكرية للحيلولة دون وقوع إيطاليا - نتيجة لنشاط الشيوعيين - تحت نفوذ الاتحاد السوفييتى).

وقد وضعت الولايات المتحدة خطة لإنزال عسكرى على جزيرتى صقلية وسردينيا، ومساعدة الحكومة الإيطالية فى حالة نشوب حرب أهلية فى إيطاليا بين الحكومة الإيطالية وبين الشيوعيين، وقيام الحكومة الإيطالية "الشرعية" بطلب يد العون من الولايات المتحدة. إن تدخلا عسكريا كهذا كان ليبدو قانونيا أمام الرأى العام العالمى، كونه سيتم بطلب من الحكومة الإيطالية الشرعية.

بيد أن الخطر الداهم الماثل للعيان بعد انقضاء الحرب الكونية الثانية كان احتمال قيام جبهة ديمقراطية موحدة فى انتخابات السادس عشر من نيسان/ أبريل ١٩٤٨ - مؤلفة من الحزب

الشيوعى الإيطالى (الذى بلغ مجموع أعضائه أكثر من مليون عضو)، وبين الحزب الاشتراكى وبقية الأحزاب اليسارية الصغيرة ضد الحزب الديمقراطى المسيحى الإيطالى. وقد كان احتمال قيام هذه الجبهة ثم فوزها فى انتخابات ١٩٤٨ يعد طامة كبرى للغرب، لأنه كان يعنى وصول الشيوعيين إلى الحكم عن طريق قانونى، سيما فى تلك الأعوام التى انضمت "يوغوسلافيا" فيها إلى المعسكر الشرقى، وتراجعت إنكلترا عن مساعدة كل من اليونان وتركيا (لأنها لم تعد قادرة على تقديم أية مساعدات اقتصادية لهما). وكان الكونغرس الأمريكى، والذى كان تحت سيطرة الجمهوريين آنذاك، قد قرر اتباع سياسة الكف عن إعطاء المساعدات الاقتصادية للدول الأخرى.

لقد أضحى احتمال وصول الحزب الشيوعى الإيطالى إلى الحكم عن طريق قانونى هاجس سياسة الولايات المتحدة الأمريكية على امتداد ثلاثين عام منذ عام ١٩٤٨، لأن تحقق مثل هذا الاحتمال كان سيقلب، بلا شك، موازين القوى التى تأسست فى مؤتمر "يالطا"، ومن ثم إضعاف المعسكر الغربى كثيرا.

ونقرأ فى وثيقة أخرى صادرة عن اللجنة الوطنية للأمن القومى الأمريكى فى الثامن من آذار/ مارس ١٩٤٨: "لو تمت الانتخابات هذا اليوم، فمن المحتمل إحراز الجبهة الديمقراطية أغلبية ضئيلة، ولكن إن سارت الأمور سيرها الحالى حتى موعد الانتخابات، فليس من المستبعد إحرازها أغلبية كبيرة، وما لهذا الأمر من ضرر بليغ لمصالح الولايات المتحدة الأمريكية فى البحر الأبيض المتوسط. كذا، فإن اشتراك الشيوعيين فى الحكومة عقب فوز كهذا فى انتخابات نيسان/ أبريل سيؤدى إلى سيطرتهم الكاملة على الحكومة، وتحول إيطاليا إلى حكومة ديكتاتورية مرتبطة بموسكو ... وهو ما يعنى إضرارا بالمصالح الأمريكية. لذا، فإن أعضاء اللجنة الوطنية للأمن القومى يهيبون بالحكومة الأمريكية تقديم جميع المساعدات الممكنة للحكومة الإيطالية الحالية، كى لا تقع فى مصيبة كتلك فى الانتخابات القادمة".

ولم تتأخر حكومة الولايات المتحدة الأمريكية فى تطبيق هذه التوصيات، فقررت وضع خطة لمساعدة الحكومة الإيطالية ضد الحركة الشيوعية. وتهدف الخطة إلى مساعدة القوى المعادية للشيوعيين مساعدة مالية وعسكرية وكذا محاولة إبعاد الاشتراكيين عن الشيوعيين، وسلوك كل السبل، ومنها التعاون مع اليمين المتطرف لإحداث قلاقل فى البلاد، وإلصاق تبعتها باليسار المتطرف. آنذاك، كان لدى الشيوعيين خمسون ألف مسلح، وكانوا يرتكنون إلى مليون من الأنصار، وذلك وفقا لويليام دون William Dunn سفير الولايات المتحدة فى روما. لذا، لم

يكن قيام حركة شيوعية مسلحة أمرا مستبعدا، وهو الاحتمال الذى دفع وزير الداخلية الإيطالى، أنذاك، ماريو سكلبا Mario Scelba إلى إجراء ضوابط لمقاومة الشغب اشترك فيها عشرون ألف شرطى مع العربات المدرعة، وذلك قبل أسبوع واحد من موعد الانتخابات.

وفى السادس عشر من نيسان/ أبريل ١٩٤٨ جرت الانتخابات الإيطالية، والتى فاز فيها الحزب المسيحى الديمقراطى بأكثرية ٤٨ مقعدا، أى تم تجاوز الخطر الذى كانت الولايات المتحدة وبريطانيا تخشيانه. بيد أنه يجب ألا ننسى أن الولايات المتحدة الأمريكية قد اضطلعت بدور بارز للوصول إلى نتيجة كتلك. ففى الحادى والثلاثين من أذار/ مارس ١٩٤٨ (أى قبل موعد الانتخابات بأسبوعين فقط) تمت المصادقة على مشروع "مارشال" لإعادة إعمار أوروبا ... حيث شرعت البواخر الأمريكية، التى تحمل على متنها المواد الغذائية والأدوية والأجهزة والمستلزمات الطبية، تصل إلى الموانئ الإيطالية هدية من الشعب الأمريكى إلى الشعب الإيطالى!! كذا، فقد كانت إذاعة "صوت أمريكا" Voice of America (VOA) تقوم ببث دعاية قوية فى مدح نظام "العالم الحر"، فضلا عن تشكل فرق عديدة من المتخصصين فى العلاقات الجماهيرية بتوصية من وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية للعمل فى هذا الاتجاه. كذا، فقد تدفقت ملايين الدولارات إلى الحكومة الإيطالية ... فقد وافق "الكونغرس" الأمريكى فى شهر آذار/ مارس ١٩٤٨ على تخصيص ٢٢٧ مليون دولار أمريكى لإيطاليا كمساعدة خاصة. أما الصحف الأمريكية، فقد ذكرت أنه تم صرف ٢٠ مليون دولار أمريكى ضد الجبهة التى شكلها الشيوعيون.

٦٢- Mighty Wurlitzer... ذلك النعت الذى أطلقه "ويزنر"، والتقطه "هيو ويلفورد" ليكون عنوانا لكتابه The Mighty Wurlitzer: How the CIA Played America ì Harvard University Press,2008.

٦٣- للمزيد عن "إسحاق باتش" - يرجى مراجعة الفصل الرابع.

٦٤- هى الاتفاقية التى تم التوصل إليها خلال المؤتمر الذى عقد فى مدينة "بوتسدام" الألمانية فى الفترة (١٧ تموز/ يوليو - ٢ آب/ أغسطس ١٩٤٥) بين الرئيس الأمريكى "هارى ترومان"، والزعيم السوفييتى "جوزيف ستالين"، ورئيس الوزراء البريطانى "ونستون تشرشل" (الذى خلفه "كليمنت أتلى" فى حضور المؤتمر حيث اسندت إليه رئاسة الوزارة البريطانية خلال انعقاد

المؤتمر). وقد نصت الاتفاقية على نزع سلاح ألمانيا، ومحاكمة مجرمى الحرب، وإعادة النظر فى الحدود الألمانية/ البولندية، وتنفيذ ما كان الحلفاء قد اتفقوا عليه فى مؤتمر "يالطا" من تقسيم ألمانيا إلى أربع مناطق محتلة (أمريكية، وسوفييتية، وبريطانية، وفرنسية).

٦٥- حدود نهرى الأودر والنايسه ... خط اتفق الحلفاء فى مؤتمر "بوتسدام" على اعتباره الحد الفاصل بين بولندا وألمانيا الشرقية، وبذلك عوضت بولندا عن أراضيها الشرقية التى ضمت إلى الاتحاد السوفييتى بإعطائها أراض ألمانية نقلت حدودها مع ألمانيا الشرقية إلى نهرى "الأودر" و"النايسه".

٦٦- سيليزيا: منطقة تاريخية فى أوروبا الوسطى، تغطى الأجزاء الجنوبية الغربية من بولندا وبعض أجزاء من ألمانيا والتشيك. تقع على جبال "السوديت" ويخترقها نهر "الأودر". أما أكبر مدنها فمدينة "قروتسواف" البولندية. وتضم "سيليزيا" إقليمين: سيليزيا السفلى وسيليزيا العليا.

٦٧- بوميرانيا ... منطقة تقع فى شمال بولندا وألمانيا على الساحل الجنوبى لبحر البلطيق.

٦٨- فروتسواف ... انظر هامش (١٩).

٦٩- كونيغسبرغ (كالينينغراد حاليا) ... كانت عاصمة لبروسيا الشرقية فى أواخر العصور الوسطى، وقد أسست المدينة عام ١٢٥٥، واستمرت تابعة لحكم الإمبراطورية الألمانية، ومن ثم حكم "أدولف هتلر" حتى سقوطها عام ١٩٤٥ . وفى عام ١٩٤٦، قامت الحكومة السوفييتية بتدمير كل البنى التحتية حيث هاجر غالبية الشعب الألمانى منها على نحو نهائى. وقد أطلق على المدينة "كالينينغراد" تخليدا لذكرى "ميخائيل إيفانوفيتش كالينين" (١٨٧٥ - ١٩٤٦)، الثورى البلشفى، والرئيس "الشرفى" للاتحاد السوفييتى فى الفترة ما بين (١٩١٩ - ١٩٤٦) ... الذى كرمه الاتحاد السوفييتى، بعد وفاته، بإقامة جنازة رسمية مهيبة له ليتم دفنه فى مقابر "الكرملين".

٧٠- انتفاضة وارسو ... انظر هامش (١٨).

٧١- وإن كان "ايرلنغ فون منده" قد ذهب إلى عدم صحة تلك الرواية.

٧٢- لعل الجانب الغامض من حياة "نور الدين نمنقانى" يخص الفترة الزمنية التى أمضاها فى تركيا. فوفقا لسيرته الذاتية، كتب "نمنقانى" أنه ذهب إلى تركيا فى الفترة الممتدة من عام ١٩٤٧

وحتى عام ١٩٥٠، وذلك لأغراض الدراسة. أما "غرهارد فولفروم"، الضابط المتقاعد الذى خدم فى صفوف أسراب الدفاع الألمانية، فقد ذكر أن "نمنقانى" قد ذهب إلى "أضنة" بتركيا فى عام ١٩٥٤، ليعود إلى ألمانيا عام ١٩٥٦ امتثالا لرغبة "فون منده".

٧٣- حركة التعزيز الذاتى ... أسفرت هزيمة الصين فى حرب الأفيون الأولى (-) (١٨٣٩ - ١٨٤٢) فى أحد جوانبها - عن بداية التحول الفكرى نحو ضرورة تبنى تقنيات الدول الغربية، أما هزيمتها فى حرب الأفيون الثانية (--) (١٨٥٦ - ١٨٦٠)، وقيام سلسلة من الحركات الثورية المعادية (---) التى أوصلت حكومة "المانشو"، وجهازها البيروقراطى، إلى حافة الهاوية ... فقد جعلت العديد من المفكرين وحكام الأقاليم والمقاطعات يدركون مدى أهمية ذلك التحول فى تعزيز قوة الدولة وإعادة هيمنتها من خلال الاستعانة بالتقنيات الغربية وبهدف إيجاد جبهة عسكرية تمكنها من القضاء على الحركات الثورية، ولتظهر نفسها أمام الدول الغربية بشكل يحد من تماديها فى مطالبها الاستعمارية فى الصين.

(-) شنت كل من بريطانيا وفرنسا هذه الحرب على الصين فى عام ١٨٣٩ بسبب إيقافها تجارة الأفيون، ورفضها معاملة هذين البلدين - اللذين وصفاها بالبربرية - على قدم المساواة. وقد أسفرت تلك الحرب عن هزيمة الصين، وإجبارها على توقيع معاهدة "نانكنغ" عام ١٨٤٢، والتى نصت على فتح ٥ مؤانئ للتجارة الخارجية، هى: "نانكنغ"، و"فوتشو"، و"شنغهاى"، و"كانتون"، و"أموى". وقد وضعت تلك المعاهدة حجر الأساس لانفتاح الصين فى علاقاتها الخارجية على العالم الخارجى بعد عزلة طويلة امتدت لأكثر من قرنين.

(--) أدركت بريطانيا التى شهدت فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر توسعا كبيرا فى إنتاجها الصناعى، وازدادت حاجتها للمواد الأولية اللازمة لاستدامة صناعتها، ولأسواق لتصريف بضائعها ... أن معاهدة "نانكنغ" لم تعد لتفى بالغرض، وأنه لابد من أن تنفذ إلى المناطق الداخلية من الصين، فكان أن شنت حربا على الصين وأجبرتها على التوقيع على معاهدة "تيان تسن" ١٨٥٨، ومن ثم اتفاقيات بكين ١٨٦٠ التى وافقت الصين بموجبها على فتح ١٠ موانئ جديدة للتجارة، واعترفت بشرعية تجارتى الأفيون والعمال، والإقرار بحرية ممارسة المبشرين لأعمالهم.

(---) كان من أهمها ثورات المسلمين فى المناطق الشمالية الغربية من الصين، والتايبينغ فى

وسط الصين وجنوبها.

٧٤- جريدة "العروة الوثقى": أصدرها جمال الدين الأفغانى فى باريس بالتعاون مع الإمام محمد عبده. وقد سميت الجريدة باسم الجمعية التى أنشأتها، وهى جمعية تألفت لدعوة الأمة الإسلامية إلى الاتحاد والتضامن والأخذ بأسباب الحياة والنهضة، ومجابهة الاستعمار، وتحرير مصر والسودان من الاحتلال. هذا، وقد اشترك الأفغانى ومحمد عبده فى تحرير جريدة "العروة الوثقى"، والتى رفعت شعار إيقاظ الأمم الإسلامية، والدفاع عن حقوق الشرقيين كافة، ودعوتهم إلى محاربة الاستعمار الأوروبى، والجهاد فى سبيل الحرية والاستقلال. وقد ذاعت الجريدة فى أنحاء العالم الإسلامى، وأقبل عليها الناس فى مختلف الأقطار، ولكن الحكومة الإنكليزية أقفلت دونها أبواب مصر والهند، وشددت فى مطاردتها واضطهاد من يقرؤها، وبلغ بها السعى فى مصادرتها أن أوعزت إلى الحكومة المصرية بتغريم كل من توجد عنده "العروة الوثقى" خمسة جنيهات إلى خمسة وعشرين جنيها، وأقامت الموانع دون استمرارها، فلم يتجاوز ما نشر منها ثمانية عشر عددا.

٧٥- يعتبر محمد رشيد رضا مفكرا إسلاميا من رواد الإصلاح الإسلامى الذين ظهروا مطلع القرن الرابع عشر الهجرى. وبالإضافة إلى ذلك، كان صحافيا وكاتبا وأديبا، وهو أحد تلاميذ الإمام محمد عبده. أسس رضا مجلة "المنار" على غرار جريدة " العروة الوثقى".

وقد صدر العدد الأول من "المنار" فى آذار/ مارس ,١٨٩٨ هذا، وقد حرص رضا على التأكيد على أن هدفه منها هو الإصلاح الدينى والاجتماعى للأمة، وبيان أن الإسلام يتفق مع العقل والعلم ومصالح البشر، وإبطال الشبهات الواردة حول الإسلام، وتفنيد ما يعزى إليه من خرافات.

وقد أفردت "المنار" إلى جانب المقالات التى تعالج الإصلاح فى ميادينه المختلفة، باباً لنشر تفسير الإمام محمد عبده للقرآن الكريم، إلى جانب باب لنشر الفتاوى والإجابة عن ما يرد المجلة من أسئلة فى أمور عقدية وفقهية. وقد أفردت "المنار" أقساما لأخبار الأمم الإسلامية، والتعريف بأعلام الفكر والحكم والسياسة فى العالم العربى والإسلامى.

ولم تكد تمضى سنوات خمس على صدور المجلة حتى أقبل عليها الناس، وانتشرت انتشارا واسعا فى العالم الإسلامى، واشتهر اسم صاحبها حتى عرف بصاحب "المنار". وعرف الناس

قدره وعلمه، وصار ملجأهم في ما يعرض لهم من مشكلات، وجاء العلماء يستزيدون من علمه، وأصبحت مجلته - "المنار" المجلة الإسلامية الأولى فى العالم الإسلامى، وموئل الفتيا فى التأليف بين الشريعة والعصر.

٧٦- محمد فريد عبد الخالق ... من مواليد عام ١٩١٥ بفاقوس بمحافظة الشرقية. كان "عبد الخالق" عضو الهيئة التأسيسية ومكتب الإرشاد ومسئول قسم الطلبة فى عهد "حسن البنا" ... حيث تخرج فى كلية التربية وعمل مدرسا للرياضيات فى المدرسة الخديوية الثانوية، ثم نال ليسانس الحقوق عام ١٩٥٧، ودبلوم الشريعة، ثم دبلوم القانون العام. كذا، فقد عمل "عبد الخالق" رئيسا لدار الكتب المصرية ووكيلا لوزارة الثقافة. أما العام ٢٠٠٩، فقد شهد حصوله على درجة الدكتوراه، وكان عمره حينها ٩٤ عاما ... محققا رقما قياسيا فى موسوعة "غينيس" العالمية ... وكانت أطروحته للدكتوراه حول "الحسبة على ذوى السلطان والجاه". وقد توفى "محمد فريد عبد الخالق" فى الثانى عشر من نيسان/ أبريل ٢٠١٣ .

٧٧- جماعة شباب محمد ... أسسها مجموعة من قادة "الإخوان المسلمين" وشبابها الذين انشقوا عن الجماعة عام ١٩٣٩، وعلى رأسهم "محمود أبو زيد عثمان"، وحددوا خلافهم مع "الإخوان" فى عدة نقاط أبرزها عدم أخذ قيادة الإخوان بمبدأ الشورى فى اتخاذ القرارات، وذلك بالمخالفة لتعاليم السياسة الشرعية الإسلامية، وكذا عمل جماعة "الإخوان المسلمين" تحت لواء الحاكمين بغير ما أنزل الله تعالى على حد تعبير الجماعة المنشقة، ويعنون به رضا جماعة "الإخوان المسلمين" بالعمل السياسى فى إطار القانون الوضعى السائد، والذى يحكم العمل الحزبى والنقابى.

وكانت جماعة "شباب محمد" تؤمن بأنه لا سبيل إلى نهضة الأمة الإسلامية والخلاص من مشاكلها إلا بإقامة الخلافة الإسلامية والعودة للإسلام الصافى ومنابعه كما كان عليه النبى محمد. وهى فى ذلك مثل سائر الجماعات الإسلامية السابقة واللاحقة، لكنها زادت عليها شيئا جديدا، وهو أنها حددت أنه لا سبيل إلى تنفيذ ذلك إلا بالتشدد والتعصب للإسلام بمعنى عدم المهادنة أو اللين، وكذا استخدام الجهاد المسلح. وقد أعلنت جماعة "شباب محمد" ذلك فى أدبياتها، وعلى رأسها مجلة "النذير" التى آلت إليها ملكيتها من "الإخوان المسلمين" بعدما انشق صاحب امتيازها (وهو "محمود أبو زيد عثمان" نفسه) مع من انشق، وشارك فى تكوين جماعة "شباب محمد".

وقد بلغت جماعة "شباب محمد" مبلغا لا بأس به من الانتشار والقوة إبان حرب فلسطين عام ١٩٤٨، إذ أرسلت ذات مرة ما يعادل ٢٠٪ من كتائب المتطوعين الذاهبين لفلسطين، فيما أرسل "الإخوان المسلمون" نحو ٧٠٪ من الكتائب، واشتركت جميع الأحزاب والجمعيات الأخرى فى ال ١٠٪ المتبقية.

ومع مجىء "جمال عبد الناصر" إلى الحكم، تقلصت الحريات، وبمرور السنين تقلص وجود جماعة "شباب محمد" حتى لم يعد منها شىء فى نهاية سبعينيات القرن العشرين عدا بعض الكتيبات والمنشورات التى كانت تصدرها من حين إلى آخر بإشراف "محمد عطية خميس" المحامى - رئيس جماعة "شباب محمد" آنذاك. وبوفاة "محمد عطية خميس" فى أوائل الثمانينيات، انتهى أى ذكر لجماعة "شباب محمد" فى الشارع الإسلامى والسياسى بمصر.

٧٨- "العامل الدينى" ... للمزيد - انظر الفصل الخامس من الكتاب.

٧٩- تشارلز دوغلاس جاكسون ... انظر الهامش رقم (٣٢).

٨٠- وذلك وفقا لفؤاد علام، اللواء المتقاعد والوكيل الأسبق لجهاز مباحث أمن الدولة فى مصر ... والذى التقاه "مؤلف الكتاب" فى القاهرة بتاريخ الخامس عشر من ايلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ .

٨١- كاتدرائية السيدة العذراء ... هى أكبر كنيسة تقع وسط ميدان "مارين بلاتس" بميونيخ. يبلغ ارتفاعها عند أعلى نقطة لها ١٠٩ مترا. تم تدشين الكاتدرائية، التى بنيت وفقا للطراز القوطى، فى عام ١٤٩٤، وأضيف برجاها عام ١٥٢٤ . أما المهندس الذى قام بتصميمها فيدعى "يورغ فون هالسباخ". هذا، وتعتبر الكاتدرائية كاتدرائية لأبرشية مدينة ميونيخ ومقرا لرئيس الأساقفة، وأحد أكبر المعالم جذبا للسياح. وتسيطر الكاتدرائية على وسط المدينة حيث يمكن رؤية برجيها من جميع الجهات بسبب انخفاض الأبنية المجاورة، إذ حظرت مدينة ميونيخ - وفقا لاستفتاء شعبى أجرى عام ٢٠٠٤ - تشييد المبانى لأعلى من ٩٩ مترا بوسط المدينة. ويمكن للزائر صعود البرج الجنوبى للكنيسة والاستمتاع برؤية وسط مدينة ميونيخ القريبة من قمم جبال الألب.

٨٢- محمد عبد الكريم برنارد (قريم) (١٩٣٣-٢٠٠٩) ... هو داعية إسلامى ألمانى، وأحد مؤسسى جمعية الألمان المسلمين فى "هامبورغ" و"برلين". كان (قريم Grimm) قد أعتنق الدين الإسلامى فى الخمسينيات، وأسهم فى جهود نصرة القضايا الإسلامية وكفاح الشعوب العربية،

فقد كان وراء افتتاح مكتب لدعم الثورة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسى فى مدينتى "كولونيا"، و"هامبورغ" ... كذا، كان أحد الذين أسهموا فى تأسيس قسم الإسلام فى مجلس الشورى الأوروبى، إضافة إلى نشاطات كثيرة فى مجال الدعوة. و"قريم" هو الزوج الثانى لفاطمة قريم بعد زوجها الأول "عمر عبد العزيز". وفاطمة (١٩٣٤-٢٠١٣)، أو "هيلغا ليللى فولف" هى ابنة "كارل فولف" الذى كان لواء فى أسراب الدفاع النازية إبان الحرب الكونية الثانية، والذى خدم أيضا سنوات كثيرة كقائد أركان النازى "هاينريش هيملر". ويذكر أن "كارل فولف" قد حذا حذو ابنته، فاعتنق الإسلام قبل فترة وجيزة من وفاته عام ١٩٨٤, أما "هيلغا"، والتى كانت تعمل مترجمة وكاتبة، وتعد مرجعا فيما يخص الكتابات حول الإسلام والجهاد ... فقد ولدت بميونيخ عام ١٩٣٤، واعتنقت الإسلام فى الخامس والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٦٠، ليصبح اسمها "فاطمة"، وفى الأول من نيسان/ أبريل ١٩٨٤ تزوجها محمد عبد الكريم "قريم" ليصبح اسمها "فاطمة قريم". هذا، وقد اضطلعت "فاطمة قريم" بعدة مسئوليات فى العمل الإسلامى منها أنها كانت:

- عضو فى لجنة المركز الإسلامى فى مدينة ميونيخ (مسجد ميونيخ).
- مسئول مجلة "الإسلام" التى كانت تصدر باللغة الألمانية عن المركز الإسلامى بميونيخ.
- سكرتيرة تنفيذية بالمركز الإسلامى بميونيخ (حتى عام ١٩٨٤).
- شاركت ولمدة ١٦ عاماً فى ترجمة معانى القرآن الكريم الصادر عن دار بافاريا.
- متحدثة حول مواضيع تتعلق بالإسلام والحوار بين الأديان محليا ودوليا.
- عضو فخرى فى المجلس المركزى للمسلمين فى ألمانيا.

كذا، فقد أصدرت عدة مؤلفات نذكر منها:

- السلام الداخلى (ميونيخ ١٩٩٥).
- الإسلام بعيون امرأة (ميونيخ ١٩٩٩).
- المرأة والحياة الأسرية فى الإسلام (ميونيخ ١٩٩٩).

٨٣- للمزيد عن دريهر ... انظر الفصل السادس.

٨٤- مبدأ أيزنهاور ... أصدر "أيزنهاور" قرارا عرف باسم "مشروع أيزنهاور" أو "مبدأ أيزنهاور" - وهو المشروع الذى عنى بوقف المد السوفييتى فى منطقة الشرق الأوسط، والذى وضعه وزير

الخارجية الأمريكى - آنذاك - "جون فوستر دالاس" ... ووضع "أيزنهاور" من خلاله السياسات العامة للولايات المتحدة الأمريكية فى إقليم الشرق الأوسط - حيث وافق عليها "الكونغرس" فى الخامس من كانون الثانى/ يناير ١٩٥٧ . وكان المشروع يهدف أيضا إلى أن تبذل الولايات المتحدة المزيد من الجهد والمساعى لملء الفراغ الاستعمارى الإنكليزى والفرنسى. ومما تضمنه هذا المشروع - تفويض الرئيس الأمريكى سلطة استخدام القوة العسكرية فى الحالات التى يراها ضرورية لضمان السلامة الإقليمية، وحماية الاستقلال السياسى لأية دولة أو مجموعة من الدول فى منطقة الشرق الأوسط، إذا ما طلبت هذه الدول تلك المساعدة لمقاومة أى اعتداء عسكرى سافر قد تتعرض له من قبل أى مصدر تسيطر عليه الشيوعية العالمية، وتقديم المساعدة العسكرية لأية دولة أو مجموعة من دول المنطقة إذا طلبت ذلك، وتقديم المعونات الاقتصادية لهذه الدول - دعما لقوتها الاقتصادية وحفاظا على استقلالها الوطنى.

٨٥- للمزيد عن "فرانك ويزنر" ... انظر الفصل السادس.

٨٦- هولاند هيل سارغنت (١٩١١-١٩٨٤) ... التحق سارغنت بوزارة الخارجية الأمريكية ليصبح - فى عام ١٩٤٧ - أحد مساعدى نائب وزير الخارجية الأمريكى للشئون العامة، كذا فقد كان عضو الوفد الأمريكى إلى "اليونسكو". وفى عام ١٩٥٢، قام الرئيس الأمريكى، آنذاك، "هارى ترومان" بترشيح "سارغنت" لمنصب نائب وزير الخارجية للشئون العامة ليشغل هذا المنصب فى الفترة ما بين شباط/ فبراير ١٩٥٢ وكانون الثانى/ يناير ١٩٥٣ كذا، فقد كان "سارغنت" أول رئيس لراديو الحرية، وظل يشغل هذا المنصب حتى عام ١٩٧٥ (أما راديو الحرية فقد تم دمجه فى راديو أوروبا الحرة عام ١٩٧٦). هذا، وقد توفى "سارغنت" فى التاسع والعشرين من شباط/ فبراير ١٩٨٤ .

٨٧- للمزيد حول انتفاضة هنغاريا ... راجع هامش (٤٤).

٨٨- فى عام ١٩٥٢، عمدت الولايات المتحدة الأمريكية إلى تأسيس "برنامج الولايات المتحدة للاجئين"، أو "برنامج الرئيس للاجئين" - وذلك لمساعدة النازحين من المعسكر الشيوعى (مواطنون من بولندا، وتشيكوسلوفاكيا، وهنغاريا، وألبانيا، وبلغاريا، ودول البلطيق، والاتحاد السوفييتى) على الفرار من القمع واليأس فى بلدانهم إلى بلدان الغرب الأوروبى، حيث كانت إدارة العمليات الخارجية بوزارة الخارجية الأمريكية هى المسئولة عن تنفيذ البرنامج. إلا أن

البرنامج كان له هدف خفى ... إذ رأت الولايات المتحدة إمكانية توظيف النازحين فى الأغراض الاستخباراتية، وكذا فى المهام الدعائية. وكان بعض هؤلاء قد منح أموالا للعودة إلى أوطانهم والقيام بالتجسس لحساب الغرب.

هذا، وقد أظهر تحقيق أوردته وكالة "الأسوشييتد برس" مؤخرا أن "الوكالة الدولية للخدمات التدريبية" قد اضطلعت بدور ومهام فى ذلك البرنامج، حيث قامت بالتجسس على هؤلاء النازحين ومراقبتهم انصياعا لأوامر الحكومة الأمريكية. أما "الوكالة الدولية للخدمات التدريبية" تلك، فكانت تتبع الصليب الأحمر منذ عام ١٩٥٥ .

٨٩- اندلعت ثورة للمسلمين الأتراك بآسيا الوسطى ... تلك الثورة التى كانت عميقة الأثر وبعيدة الغور، إذ نشبت عام ١٩١٦ - وذلك قبل عام واحد من اندلاع الثورة البلشفية، وكانت ردة فعل صارخة ضد السياسات الجديدة للقيصر التى حاولت إجبار المسلمين على الالتحاق بصفوف الخدمة العسكرية، كذا فقد كانت صرخة ضد مظالم وشكاوى أخرى ارتبطت باقتصاد الحرب الكونية الأولى. وقد استمرت تلك الثورة، والمعروفة بثورة "باسمشى"، مندلعة وواصلت انفجارها طيلة عشرة أو خمسة عشر عاما تالية داخل المناطق الأوزبكية والطاجكية، بصفة عامة، مدفوعة فى ذلك بتطلعات وآمال قومية ودينية جديدة للاستقلال ضمن صفوف العديد من مسلمى آسيا الوسطى الذين أضحوا شديدى العداء للديكتاتورية السوفييتية الملحدة. وفى الوقت الذى تم فيه سحقها على يد الجيش الأحمر، إلا أن الثورة قد كشفت جليا عن المظالم بعيدة الغور التى تعرض لها المسلمون الروس. وقد كانت تلك الثورة، أيضا، بإيعاز من المسئولين العسكريين الأتراك المتقاعدين، فضلا عن دعم الاستخبارات البريطانية لها ... الأمر الذى وصم المسلمين بتهمة الولاء للقوى الأجنبية.

٩٠- للمزيد عن "سينكيانغ" ... انظر هامش (٣٣).

٩١- الكومينتانغ ... هو الحزب الوطنى الشعبى الصينى، الذى تأسس فى بكين فى الخامس عشر من آب/ أغسطس ١٩١٢ .

٩٢- أول رئيس جمهورية للصومال هو آدم عبد الله عثمان دار، والذى امتدت فترة رئاسته ما بين الأول من تموز/ يوليو ١٩٦٠ والعاشر من حزيران/ يونيو ١٩٦٧ .

٩٣- عبد الرشيد على شارماكى. فى عام ١٩٦٠ أصبح شارماكى أول رئيس وزراء للصومال

المستقل، وذلك حتى عام ١٩٦٤ . وفى عام ١٩٦٧، انتخبه البرلمان الصومالى رئيسا للبلاد خلفا لآدم عبد الله دار، وتم اغتيال شارماكي فى الخامس عشر من تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٩ .

٩٤- القناصل الفخريون ليسوا دبلوماسيين مهنيين، أى أنهم لا يمتهنون الدبلوماسية لاكتساب المعاش. وعادة ما يحيا هؤلاء القناصل فى البلدان التى يعملون بها، حيث يعملون عملا تطوعيا لا يتقاضون عليه راتبا، بل يدفعون الضرائب المقررة فى تلك البلدان إلى أن تنتهى مدة تكليفهم بالمنصب.

والقناصل الفخريون عادة ما يطلب إليهم أداء مهامهم من قبل الدول التى ينتمون إليها، إلا أنه فى بعض الحالات لا يكون أولئك القناصل من مواطنى الدولة التى تكلفهم بمهامهم. كذا، فعادة لا يكون لديهم جواز سفر دبلوماسى، ولا يتمتعون بحصانة دبلوماسية، ولا يحظون بمعاملة ضريبية تفضيلية. هذا، ويتم اختيار أولئك القناصل الفخريين، الذين يكون لهم شرف خدمة البلدان التى يمثلونها، وفقا للكفاءة والأهلية.

٩٥- وذلك فى خطاب أرسله نور الدين نمنقانى إلى فيلهلم بورمايستر - مدير الأمن فى بافاريا، بتاريخ ١٩٦٢/٣/١٩، تضمن مذكرة توضيحية من سبع صفحات.

٩٦- "تجمع الطلبة المسلمين فى كولونيا" ... تم إمداد التجمع بستة آلاف مارك ألمانى، وخطط "فون منده" لقسط إضافى من الأموال (أربعة آلاف مارك)، إلا أنه توفى قبل القيام بذلك ... وقد ارتأى خلفاؤه ألا يتم دفع المبلغ المذكور.

٩٧- وذلك وفقا لخواطر الشيخ يوسف القرضاوى، والتى أوردها الصحافى مشارى الذايدى فى صحيفة "الشرق الأوسط" السعودية فى حلقات دراسية له حملت إحداها عنوان "الإخوان المسلمون والعرش الهاشمى ... صداقة الضرورات"، بتاريخ التاسع من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٥ . ويذكر القرضاوى فى مذكراته أن كامل إسماعيل الشريف، ذلك المصرى المنتمى إلى مدينة العريش، والذى احتضنته المملكة الأردنية الهاشمية ... قد أصبح نائبا لسعيد رمضان فى المؤتمر الإسلامى للقدس. وكان الشريف قد تولى حقيبة وزارة الأوقاف الأردنية، كذا فقد عين سفيرا وعضوا فى مجلس الأعيان الأردنى، وكان من أصحاب فكرة إنشاء رابطة العالم الإسلامى فى مكة، حيث قام هو وسعيد رمضان وآخرون من قيادات "الإخوان المسلمين" بعرض الفكرة على الملك سعود بن عبد العزيز الذى وافق عليها.

٩٨- من الجلى أن كان إبراهيم كوجا أوغلو وزوجته وراء مزاعم الفساد تلك. هذا، وقد تم تصوير النزاع من وجهة نظر يزدانى فى خطاب أرسله إلى وزير الشئون الاجتماعية البافارى فى الحادى والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٧٠ , ويبدو أن الاتهامات لم يكن لها أدنى أساس ترتكن إليه ... ونظرا لضعف مصداقية كوجا أوغلو، كان جليا أن الاتهامات لم تكن دقيقة أو محددة.

٩٩ - وردت تلك الواقعة تفصيليا فى كتاب "الأب الروحى"، أسرار حياة يوسف ندا ... المفوض السياسى للإخوان المسلمين ... تأليف: شارل فؤاد المصرى. يقول ندا: "فبجوار منزلنا فى الإسكندرية، كانت توجد شعبة من شعب الإخوان، وذات يوم وأنا أغادر البيت كانت هناك "خناقة" فى الشارع بدأت بشخص سب شخصا آخر ... وتحولت الخناقة معركة بين عائلتين، وامتلأ الشارع عن آخره. واحتدمت المعركة وفوجئت بمجموعة من الأشخاص يلبسون ملابس الكشافة يتدخلون، وبدءوا فى فض المعركة وتهدئة الناس وطلبوا مشروبات ... وجاءوا إلى داخل "الشعبة" بالمتعاركين ليقبلوا رءوس بعضهم البعض. وأنا أقف بعيدا أتفرج وكأنه فيلم سينمائى ... وأثناء ذلك أذن لصلاة المغرب، وقام الكل يصلى جماعة وقام المتعاركون باحتضان بعضهم البعض، وانتهت الحكاية ... وبدأت فى سؤال نفسى: من هؤلاء؟ ومن يكونون؟ وقمت بالسؤال عنهم، وجاءت الإجابة أن هؤلاء "جماعة الإخوان".

بعدها بأيام قليلة، قام هؤلاء الأشخاص بتنظيم محاضرة وحضرتها، وبدءوا فى إعطائى كتبا لأقرأها، وبدأت أتعرف إليهم أكثر، وكنت كأى شاب صغير أندفع تجاه أية أفكار تأتينى ... وازداد الاندفاع للمعرفة والقراءة والمتابعة. لأنهم صنف من الناس فيهم حنان، والكبار فيهم يعطفون على الصغير، ويتكلمون معه ليس على أنه صغير، ولكن على أنه كبير ... وشعرت أننى أجد احتراما منهم، رغم صغر سنى، وبدأت الحكاية فى التصاعد".

١٠٠- قيلت العبارة المذكورة فى لقاء جمعنى بمهدى عاكف فى الرابع عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠٤ بالقاهرة.

101- Gilles Kepcl: Le Prophete et Pharaon, les mouvements islamistes dans l'Egypte Contemporaine . La Decouverte, 1984.

١٠٢- كان اجتماع "لوغانو" برعاية العالم الاقتصادى الدكتور محمود أبو السعود ... وكان من بين الحضور: د/ إسماعيل راجى الفاروقى، د/ خورشيد أحمد، د/ أحمد العسال، د/ التيجانى

أبو غديرى، د/ عبد الحميد أبو سليمان، د/ أحمد توتونجى، د/ أحمد القاضى، د/ جمال برزنجى، د/ هشام يحيى الطالب، د/ منذر قحف، د/ محمود رشدان، د/ رشيد بن عيسى، د/ طه جابر العلوانى، د/ يوسف القرضاوى، د/ جمال الدين عطية محمد، د/ المهدى بن عبود، د/ جعفر شيخ إدريس محمد صالح بابكر، أ/ عبد الحليم محمد أبو شقة، أ/ محمد المبارك.

١٠٣- عدنان أوكطار المعروف باسم "هارون يحيى" ... كاتب وباحث تركى يكتب تحت اسم مستعار. وقد استخدم أوكطار الاسم المستعار "جاويد يالجن" فى بعض كتبه. كذا، فإن له اسما آخر هو "عدنان خوجة".

١٠٤- الأرواحية ... مذهب حيوية المادة، وهو الاعتقاد بأن لكل ما فى الكون، وحتى للكون ذاته، روحا أو نفسا ... والاعتقاد بأن الروح والنفس هى المبدأ الحيوى المنظم للكون.

١٠٥- الطريقة السليمانية: التى أسسها سليمان حلمى طوناخان (١٨٨٨ - ١٩٥٩) والذى يعرف أحيانا بـ"سليمان على رسول"، وتنتمى عائلته إلى الطريقة النقشبندية ... ويرجع نسب تلك العائلة (خوجة زادلر) إلى السلطان محمد الفاتح. اتسمت السليمانية فى مراحلها الأولى بطابع سرى نظرا لموقف النظام المتشدد إزاء الحركات والطرق الدينية، وأخذت على عاتقها مهمة إرساء نظام ثقافى تعليمى مواز للإجراءات العلمانية التى انتهجها أتاتورك ... وذلك من خلال برنامج إصلاحى ارتكن إلى دعائم ثلاث:

- إحياء القرآن الكريم من خلال إنشاء كتاتيب لتحفيظ القرآن وبشكل سرى خاصة فى القرى والمناطق النائية.

- نشر اللغة العربية بين الأتراك باعتبارها لغة القرآن الكريم.

- إحياء العلوم الإسلامية من فقه وحديث وتفسير.

١٠٦- فى عام ١٥٣٦، وعلى يد قس كاثوليكى اسمه "مينو سايمنز" ... تأسست حركة "المينونايت" فى أوروبا - والتى وحدت وبلورت حركة "الأنابابتيست" (يطلق على حركة الأنابابتيست حركة المسيحيين الجدد ... وهى حركة تستلهم تعاليمها من الإنجيل، إذ يؤمن أفرادها بالانعزال عن العالم الخارجى، ومحاربة أية محاولات لدمجهم أو خلطهم بمجتمعات أوتعاليم أخرى). وفى عام ١٦٩٣، أسس "يعقوب عمان"، القس النصرانى، طائفة "الآميش" والتى انفصلت فيما بعد

عن "المينونايت". هذا، ولم تتوقف ملاحقة هذه الحركات من قبل الكاثوليك والبروتستانت مما حدا بها إلى الفرار بدينها من جبال جنوب سويسرا وجنوب ألمانيا إلى أمريكا، وبالتحديد "بنسلفانيا" - نظرا لكون أمريكا، حينذاك، بلدا غير مأهول بشكل كبير. هذا، ولا تؤمن طائفة "الآميش" بالتغيير، إذ تلتزم بالعيش كما جاء بالإنجيل الذى بين أيديها بحذافيره. ولدى الطائفة مجلس "فتوى" من كبار السن المتدينين ... يدرسون أى طارئ ويصدرون فتاوى وفقا لتعاليم إنجيلية تتبع حرفيا.

١٠٧- أحمد محمود خليفة ... ولد عام ١٩٥٠ فى الإسكندرية. وحصل على شهادة الثانوية العامة عام ١٩٦٧، وتخرج فى قسم ميكانيكا الجرارات والآلات الزراعية بكلية الزراعة/ جامعة الإسكندرية. كذا، فقد نال درجة الماجيستير من الجامعة ذاتها. ارتحل "خليفة" إلى ألمانيا لدراسة الدكتوراه عام ١٩٧٧ حيث التحق بجامعة "شتوتغارت"، وخلال فترة إقامته فى الجامعة أسس مع زملائه "الجمعية الإسلامية للطلبة"، وهيئوا مكانا للصلاة، وتم تأسيس المركز الإسلامى فى "شتوتغارت" عام ١٩٨١، وكان "خليفة" مديره حيث بقى هناك حتى عام ١٩٨٣ . وفى هذه الأثناء، كان يزور المركز الإسلامى فى ميونيخ القريبة من "شتوتغارت". وفى عام ١٩٨٣، انتقل خليفة إلى ميونيخ حيث تولى رئاسة المركز الإسلامى بها خلفا لمحمد مهدى عاكف الذى غادر ألمانيا عائدا إلى مصر.

١٠٨- ممدوح محمود سالم ... وكنيته "أبو هاجر العراقى" - ولد فى السودان عام ١٩٥٨ من أبوين عراقيين. اعترف "ممدوح سالم" فى تحقيقات ١٩٩٨ بأنه تعرف إلى أسامة بن لادن فى باكستان عام ١٩٨٦، ولكنه أنكر انخراطه فى تنظيم القاعدة، فى حين اعترف بأنه عاد إلى السودان عام ١٩٩١، وعمل فى إدارة مؤسستين لأسامة بن لادن بالخرطوم، فيما حاول بعد ذلك - وفى عامى ١٩٩٧ و١٩٩٨ - الدخول فى استثمارات عقارية بأذربيجان، وترك ذلك ليقيم فى "دبى" التى حصل منها على تأشيرة الدخول لألمانيا، التى دخلها بعد جولة زار خلالها تركيا وإسبانيا ليستقر فى "شتوتغارت" فى زيارته الخامسة لألمانيا فى ثلاث سنوات حيث استضافه المدعو "وليد عواد".

كذا، فقد اكتشفت الشرطة الألمانية فى تحرياتها لملف تحقيقاتها مع "ممدوح سالم" صلاته الوثيقة بكل من "مأمون دركزنلى"، وهو تاجر تصدير واستيراد من مواليد سوريا، وطبيب سودانى يدعى "العطار"، و"وليد عواد". وثلاثتهم تزوجوا ألمانيات وأدلوا باعترافات مفادها أن

"سالم" طلب إليهم تسهيل زواجه من ألمانية. هذا، ويتيح الزواج من ألمانية للزوج حرية الحركة وممارسة العمل التجارى وحمل جواز السفر الألماني. وأوضحت مصادر أخرى فى الشرطة الألمانية أن "عواد" و"العطار" قد أرسلا زوجتيهما الألمانيتين إلى السودان وأفغانستان قبل تفجيرات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١، ولحقا بهما فيما بعد.

١٠٩- مأمون دركزنلى (أبو إلياس السورى) ... هو رجل أعمال سورى، ولد فى الرابع من آب/ أغسطس ١٩٥٨ (اختلف حول محل مولده - فمن قائل فى "دمشق" إلى قائل فى "حلب") مقيم فى "هامبورغ" بألمانيا الغربية، ويعتبر الممول الرئيسى لتنظيم القاعدة. وكانت الاستخبارات الأمريكية قد قامت منذ عام ١٩٩٩ بمراقبة "دركزنلى" الذى تعتبره أهم رأس خلف "مجموعة هامبورغ" بزعامة "محمد عطا"، والتى قامت بتنفيذ هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١.

إلا أن استياء شديدا قد ساد الأوساط السياسية الحكومية والمعارضة فى برلين بعد الكشف عن خطة أعدتها "وكالة الاستخبارات المركزية" وشركة "بلاك ووتر للخدمات الأمنية" لقتل "دركزنلى" وفقا لتقرير نشرته مجلة Vanity Fair الأمريكية فى عددها صدور كانون الثانى/ يناير ٢٠١٠.

١١٠- محمد عطا (١٩٦٨ - ٢٠٠١) ويدعى أيضا محمد عطا السيد، ومحمد محمد الأمير عوض الساجد ... منفذ إحدى هجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١.

ولد محمد عطا فى الأول من أيلول/ سبتمبر ١٩٦٨ فى كفر الشيخ، ونشأ فى القاهرة حيث حصل على شهادة فى الهندسة المعمارية من جامعة القاهرة. قام عطا بالسفر إلى ألمانيا عام ١٩٩٣ وواصل دراسته فى جامعة "هامبورغ" فى مجال تخطيط المدن، وأكمل دراسته فيها عام ١٩٩٩.

أثناء وجوده فى ألمانيا، بدأت أفكاره تنحو منحى إسلاميا، حيث سافر إلى الأراضى الحجازية لأداء مناسك الحج فى عام ١٩٩٥، ويذهب البعض إلى كونه قد انضم إلى تنظيم القاعدة أثناء تلك الزيارة.

فى تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٩٨، انتقل عطا إلى إحدى الشقق السكنية فى "هامبورغ"، وتقاسم العيش مع اثنين من أعضاء تنظيم القاعدة هما: "سيد بهيجى"، و"رمزى بن الشيبة".

ويعتبر البعض هذه نواة نشوء خلية القاعدة فى "هامبورغ". وقد كان لهذه الخلية اتصالات مع "خالد شيخ محمد" الذى يعتبره البعض الشخص الذى رسم الخطوط العريضة لهجمات الحادى عشر من أيلول/ سبتمبر ٢٠٠١ . وفى عام ١٩٩٨، قرر الثلاثة السفر إلى الشيشان لمحاربة الروس ولكن حدث تعديل فى اللحظات الأخيرة ... فقرر ثلاثتهم السفر إلى أفغانستان بدلا من الشيشان. وفى أفغانستان، التقى الثلاثة أسامة بن لادن زعيم تنظيم القاعدة، وانخرطوا فى أحد المعسكرات التدريبية.

وضع عطا تحت المراقبة من قبل "وكالة الاستخبارات المركزية" الأمريكية بعد عودته إلى ألمانيا حيث تمت مراقبته. والمثير فى الأمر أن الوكالة أنهت مراقبتها لعطا فى الثالث من كانون الثانى/ يناير ٢٠٠٠ لأسباب لا تزال تثير الكثير من الجدل.

111- www.youssefnada.ch

١١٢- هيرفيه تيريل ... هو اسم مستعار ل"برنار غودار" - مسئول إدارة الأديان بوزارة الداخلية الفرنسية. ولد "غودار" عام ١٩٥٠ بالمملكة المغربية، وبعد حصوله على دبلوم الاجتماع من جامعة "تولوز" (١٩٧٣)، التحق بالشرطة الوطنية حيث أمضى نحوا من عشرين عاما يعمل فى أقسام الشرطة الباريسية. وفى الفترة الممتدة ما بين عامى ١٩٩٧ و٢٠٠٢ - عهد إلى "غودار" بملف "الإسلام" بوزارة الداخلية. كذا، فإنه يعتبر من بين الذين خططوا لإنشاء "المجلس الفرنسى للدين الإسلامى".

١١٣- وذلك من خلال "جمعية الطلبة المسلمين" بفرنسا، والتى أسهم فى تأسيسها الدكتور/ محمد حميد الله عام ١٩٦٥، والتى كان من أهم أعضائها "مروان قنواتى" من سوريا، و"حسن الترابى" من السودان، وكان من أشهر المتعاونين معها: "حسن بنى صدر" من إيران، و"راشد الغنوشى" من تونس، و"مالك بن نبى" من الجزائر.

أما "محمد حميد الله"، فقد ولد فى سلطنة حيدر آباد بالهند فى التاسع عشر من شباط/ فبراير ١٩٠٨ ... وبدأ تعليمه على يد والده، وحفظ القرآن الكريم فى سن مبكرة. تعلم "حميد الله" فى عدة مدارس محلية، ثم واصل دراسته فى أوروبا، فحصل على الدكتوراه فى القانون من جامعة "بون" الألمانية فى عام ١٩٣٢ حول "مبدأ الحياد فى الفقه الإسلامى"، ثم نال شهادة دكتوراه أخرى فى التاريخ من جامعة "باريس" فى عام ١٩٣٥ حول "الدبلوماسية فى عهد

النبى محمد (صلى الله عليه وسلم)، والخلفاء الراشدين". عاد "حميد الله" بعد ذلك إلى بلده ليقوم بالتدريس فى جامعة "العثمانية" بحيدر آباد لعدة سنوات، ومنها كان يراسل المجلة الاستشراقية الفرنسية des etudes Islamiques revue لصاحبها المستشرق "لوى ماسينيون" - بمقالات عن النشاط العلمى والفكرى فى شبه القارة الهندية تنشرها له هذه المجلة فى ركنه الخاص: "رسالة الهند". وفى عام ١٩٤٧، لجأ "حميد الله" إلى فرنسا بسبب إنهاء النظام الإسلامى فى هذه السلطنة التى ضمتها إليها الهند عنوة، حيث لقى معظم أفراد عائلته حتوفهم خلال المعارك التى دارت آنذاك.

ومنذ عام ١٩٥٠، اشتغل الدكتور حميد الله باحثا بالمركز الوطنى للبحث العلمى بباريس، فقام بفهرسة المخطوطات العربية المحفوظة فى أكبر المكتبات العالمية وحقق بعضا منها، وقام أيضا بالتدريس فى بعض الجامعات العربية والإسلامية.

وقد أسهم "حميد الله" فى تأسيس العديد من الجمعيات، أشهرها "المركز الثقافى الإسلامى" بالحى اللاتينى بباريس عام ١٩٥٢، والذى استقطب العديد من الطلبة والمثقفين العرب منهم: "مالك بن نبى"، و"محمود بوزوزو"، و"أحمد طالب الإبراهيمى" من الجزائر، و"محمد عزيز الحبابى" من المغرب، و"نجم الدين بامات" من القوقاز، و"عبد الغفور فرهادى" من أفغانستان.

كذا، فقد أسهم فى تأسيس "المركز الإسلامى" فى جنيف عام ١٩٦٤ مع الدكتور سعيد رمضان، و"أبى الحسن الندوى"، و"محمود بوزوزو"، وغيرهم.

ومن مؤلفات "محمد حميد الله":

- "القرآن الكريم ومعانيه" ... بالفرنسية.
- "نبى الإسلام (صلى الله عليه وسلم) ... حياته وأعماله" - بالفرنسية.
- "التعريف بالإسلام" - بالفرنسية، له عدة طبعات وترجم إلى ٣٢ لغة.
- "ست رسائل دبلوماسية لنبى الإسلام" - بالفرنسية.
- "مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة" - بالعربية.
- "مدخل إلى الإسلام".
- "المسجد الأقصى".

وقد توفى الدكتور "محمد حميد الله" فى السابع عشر من كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٢ بالولايات المتحدة الأمريكية.

١١٤- ولدت "دنيا بوزار" فى "غرينوبل" بفرنسا عام ١٩٦٤ لأبوين مهاجرين من المغرب والجزائر. ويدعى والدها "دومينيك"، وتدعى والدتها "أمينة". و"دنيا بوزار" هى عالمة أنثروبولوجيا فرنسية متخصصة فى الشئون الدينية، ولها العديد من المقالات والكتب فى مسارب شتى. اعتنقت "بوزار" الإسلام حين بلوغها السابعة والعشرين، وذلك فى عام ١٩٩١ .

١١٥- "المجتمع الموازى" مصطلح يشير إلى التنظيم الذاتى لأقلية دينية أو إثنية، والتى تكون - فى الغالب - جماعات مهاجرة ... وذلك بقصد تحجيم احتكاكها الثقافى والاجتماعى بمجتمع الأغلبية القائم فى البلد المهاجَر إليه. هذا، وقد وضع هذا المصطلح عالم الاجتماع الألمانى "فيلهلم هايتماير"، حيث قدمه إلى فعاليات الجدل الذى دار حول موضوعى "الهجرة" و"الاندماج"، وذلك فى أوائل تسعينيات القرن العشرين ... كذا، فقد راج استخدام "المصطلح" فى الخطاب الأوروبى العام فى أعقاب مقتل المخرج الهولندى "تيو فان جوخ" ... المعروف بإساءاته للإسلام.

١١٦- "ميشيل بريفو" ... بلجيكى مسلم حصل على بكالوريوس "تاريخ الشعوب الشرقية والفيلولوجيا (علم اللغة المقارن) - تخصص تاريخ الأديان والعربية المقارن. كذا، فقد نال "بريفو" درجة الدكتوراه فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية من جامعة "لييج" البلجيكية ... ويشغل الآن منصب مدير الشبكة الأوروبية لمناهضة العنصرية.

١١٧- "مركز نيكسون" ... هو أحد المراكز البحثية الأمريكية. أسس المركز الرئيس الأمريكى الراحل "ريتشارد نيكسون" بالعاصمة الأمريكية واشنطن فى العشرين من كانون الثانى/ يناير ١٩٩٤ وذلك قبل ثلاثة أشهر فقط من وفاته، تحت اسم "مركز نيكسون للسلام والحرية"، ليتغير اسمه إلى "مركز نيكسون"، وذلك فى عام ١٩٩٨ .

١١٨- ولد "خورشيد أحمد" فى الثالث والعشرين من آذار/ مارس ١٩٣٢ فى "دلهى" بالهند، وهو عالم واقتصادى وكاتب وناشط إسلامى - يحمل درجة الليسانس فى القانون وعلم التشريع، ودرجة الماجستير فى الاقتصاد والدراسات الإسلامية، فضلا عن دكتوراه فخرية فى الاقتصاد الإسلامى وأخرى فى التعليم، وله العديد من الكتب والمقالات والحلقات الدراسية. (تأليف

وتحرير حوالى ٧٠ كتابا بالإنكليزية والأردية، والمشاركة فى أكثر من ١٠٠ مؤتمر دولى وحلقة دراسية).

هذا، ويترأس "خورشيد" معهد الدراسات السياسية فى إسلام أباد بباكستان. كذا، فإنه يشغل منصب نائب أمير الجماعة الإسلامية بباكستان ... فضلا عن شغله للعديد من المناصب من بينها:

- عضو مجلس الشيوخ الباكستانى (منذ ٢٠٠٢ وحتى الآن).
- وزير التخطيط والتطوير، ونائب رئيس لجنة التخطيط الباكستانية (١٩٧٨ - ١٩٧٩).
- أستاذ فى جامعة "كراتشى".
- رئيس المعهد الدولى للاقتصاد الإسلامى بالجامعة الإسلامية الدولية بإسلام أباد (١٩٨٣ - ١٩٨٧).
- نائب رئيس المؤتمر اليهودى - المسيحى - الإسلامى فى برلين ولندن (١٩٧٤ - ١٩٧٨).
- عضو بالمجلس الاستشارى لمركز الدراسات الإسلامية والعلاقات المسيحية الإسلامية ببرمنغهام بالمملكة المتحدة (١٩٧٦ - ١٩٧٨).
- عضو بلجنة الخبراء القانونيين لتقييم القوانين الإسلامية فى السودان (١٩٨٦ - ١٩٨٧).
- مؤسس ورئيس كل من معهد دراسات السياسة بإسلام أباد والمؤسسة الإسلامية بليستر بالمملكة المتحدة.
- عضو هيئة أوصياء المركز الإسلامى بنيجيريا والجامعة الإسلامية الدولية بإسلام أباد والمجلس التأسيسى للأكاديمية الملكية للحضارة الإسلامية بالعاصمة الأردنية عمان.

كذا، فقد تم منحه جائزة مصرف التنمية الإسلامية الأولى للاقتصاد عام ١٩٨٨، وجائزة الملك فيصل العالمية عام ١٩٩٠ .

١١٩- تخرج "خرم جاه مراد" فى قسم الهندسة المدنية بجامعة كراتشى عام ١٩٥٢، ونال درجة الماجستير فى التخصص ذاته من جامعة "مينيسوتا" الأمريكية عام ١٩٥٧ . شغل "مراد" منصب المدير الفنى للشركة الفنية الباكستانية فى دكا ببنغلاديش (١٩٦٥-١٩٧٠)، وكان مديرا لها أيضا فى طهران والرياض ... حيث كانت الشركة تشرف على أعمال توسعة الحرم المكى وتعديل "زمزم" وأعمال الكهرباء وإصلاح المطاف. انتقل "مراد" إلى مدينة "ليستر" البريطانية مديرا عاما للمؤسسة الإسلامية (١٩٧٧-١٩٨٦).

و"مراد" أديب إسلامى وباحث له كتب ومؤلفات بالإنكليزية والأردية ... كذا، فقد عمل محررا فى مجلة "ترجمان القرآن" وهى مجلة شهرية كان "أبو الأعلى المودودى" قد أسسها عام ١٩٣٢ فى سلطنة "حيدر أباد".

١٢٠- "ممدوح محمود سالم" ... انظر هامش (١٠٨).

١٢١- ولد "داوود صلاح الدين" فى العاشر من تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩٥٠ فى ولاية "نورث كارولاينا" الأمريكية ... وهو أمريكى من أصول إفريقية. حين ولادته كان اسمه "ديفيد تيودور بيلفيلد". نشأ الفتى فى نيويورك فى عائلة تختلف إلى الكنيسة حيث كان له ثلاثة إخوة وأخت واحدة. ووفقا لديفيد، فإن أسوأ ما تعرض له هو الشعور بالمهانة والعار لكونه أسود، لا أبيض. كذا، فقد وجد "ديفيد" جاذبية فى "الإسلام" نظرا لعدم تمييزه بين أبيض أو أسود ... فالكل لديه سواسية. لذا، فقد اعتنق ديفيد الإسلام، وهو فى الثامنة عشرة من عمره، ثم أخذ يختلف إلى مركز للطلبة الإيرانيين يديره "بهرام ناهيديان". وخلال أوائل السبعينات، أمضى "داود صلاح الدين" وقته فى زيارة السجون الموجودة فى محيط العاصمة واشنطن "لنشر رسالة الإسلام بين السود". وفى عام ١٩٧٥، التقى صلاح الدين سعيد رمضان الذى أصبح معلمه فيما بعد. ووفقا لمقالة وردت فى مجلة "النيويوركر" بتاريخ الخامس من آب/ أغسطس ٢٠٠٢، فإن "صلاح الدين" قد ذهب إلى القول بأنه "كأمريكى أسود غاضب، كانت كبرى طموحاتى ومبلغ آمالى أن أرى الولايات المتحدة وهى تجثو على ركبتيها، إلا أننى لم أدر كيف السبيل".

هذا، وقد عمل "صلاح الدين" كأحد أفراد طاقم الحراسة والأمن فى بعثة دبلوماسية إيرانية إلى واشنطن، وذلك فى عام ١٩٨٠، فى أعقاب اندلاع الثورة الإسلامية فى عام ١٩٧٩ ... حيث قبل تكليفا من الحكومة الإسلامية بطهران باغتيال الدبلوماسى الإيرانى "على أكبر طبطبائى"، وهو عضو سابق فى نظام الشاه المخلوع كان يحيا فى ولاية "ماريلاند" الأمريكية ... حيث كان مستشارا إعلاميا سابقا فى السفارة الإيرانية بواشنطن. وبعد سقوط الشاه، أصبح "طبطبائى" من أكبر المعادين لنظام الخمينى، حيث قام بإنشاء "مؤسسة الحرية الإيرانية".

ووفقاً للمقالة الآنفة الذكر، فقد سعى "صلاح الدين" فى البداية إلى إقناع أولئك الذين كلفوه

باغتيال "طبطبائى"، باغتيال أشخاص أمريكيين أكثر شهرة وأهمية من أمثال "هنرى كيسنغر" أو "كيرميت روزفلت - الابن (وهو حفيد الرئيس الأمريكى تيودور روزفلت) ... و"كيرميت" هذا هو الذى خطط للمؤامرة التى أطاحت الدكتور محمد مصدق رئيس الوزراء الإيرانى، وذلك فى عام ١٩٥٣ . أما "طبطبائى" - فى منفاه الأمريكى - فكان يعقد اجتماعات فى بيته بماريلاند لجماعة مناهضة للثورة الإسلامية فى إيران ... حيث أرادت الحكومة الإسلامية اغتياله.

وفى الثانى والعشرين من تموز/ يوليو ١٩٨٠، وقف "صلاح الدين" بباب "طبطبائى" متنكرا فى زى ساعى بريد، حيث أخبر مساعد "طبطبائى" أن بحوزته طردا يستلزم تسليمه توقيع "طبطبائى" الشخصى. وما أن أهلّ "طبطبائى" حتى عاجله "صلاح الدين" بثلاث طلقات فى البطن ولاذ بالفرار. أما "طبطبائى"، فمات من فوره، وأما "صلاح الدين" ففر إلى إيران عن طريق سفره إلى كندا ومنها إلى سويسرا فإيران.

وقد عمل "صلاح الدين" فى جهات كثيرة، فقد عمل مدرسا للغة الإنكليزية، كذا فقد كان مراسلا حربيا قاتل مع المجاهدين الأفغان أثناء صدهم للعدوان السوفييتى عليهم ... بل لقد عمل ممثلا فى أحد أفلام المخرج الإيرانى الشهير "محسن مخملباف" - وهو فيلم "سفر إلى قندهار"، حيث منحت "اليونسكو" مخملباف ميدالية "فيللينى" لعام ٢٠٠١ تقديرا لإنسانية هذا العمل. كذا، فقد عمل صلاح الدين لحساب الاستخبارات السورية فى منطقة سهل البقاع فى لبنان، فضلا عن عمله مشرفا على الموقع الالكترونى لتلفزيون "برس تى فى" الإيرانى.

والافتراض الأساسى الذى طرحه كثيرون ممن حققوا فى عملية الاغتيال، أنها لم تكن لتتم من دون تنسيق الاستخبارات وأجهزة الأمن الأمريكية. إذ ذهبوا إلى أن الاستخبارات الأمريكية قد غضت الطرف عن عملية الاغتيال، وتغافلت عن الهروب الكبير لداود صلاح الدين (القاتل) من الولايات المتحدة، فى إطار خطة من إدارة الرئيس الأمريكى الأسبق "جيمى كارتر" - حينذاك - تقضى بمحاولة استرضاء الخمينى، واستخدام كل وسيلة ممكنة فى إطار محاولاتها للإفراج عن الرهائن الأمريكيين الذين كانوا قيد الاحتجاز فى السفارة الأمريكية فى طهران - آنذاك - ... قبل موعد انتخابات الرئاسة الأمريكية.

١٢٢- توفى "سعيد رمضان" فى آب/ أغسطس ١٩٩٥، ودفن بمصر بعد أن رفضت المملكة العربية السعودية دفنه بالمدينة المنورة كما كانت رغبته.

١٢٣- ثورة "باسمشى" انظر هامش (٨٩).

بعد انتهاء الحرب الكونية الثانية، قرر "باى ميزا هاييت" مواصلة تعليمه حيث التحق بجامعة "مونستر" بألمانيا الغربية فى ذلك الوقت لدراسة الاستشراق، والتاريخ، والعلوم الإسلامية ... حيث نال درجة الدكتوراه عام ١٩٥٠، وكان موضوع الأطروحة:

"الحكومة الوطنية لقوقند والآش أوردا". هذا، وقد استقر الدكتور "هاييت" فى كولونيا بألمانيا بعد زواجه من طبيبة تدعى "روث"، لتنجب له ابنين هما "ارتاى"، و"ميرزا"، وابنة هى "ديلبار".

لم ينحصر نشاط "هاييت" فى ألمانيا وحدها، وإنما حاضر فى العديد من الجامعات المرموقة حول العالم، حيث عمل محاضرا فى جامعة لندن، وكمساعد محاضر فى جامعة هارفارد ... كذا، فقد عمل فى جامعة اسطنبول وجامعة مرمرة التركيتين. وقد ألف "هاييت" خمسة عشر كتابا ترجم معظمها إلى التركية، وبعضها إلى الإنكليزية، بالإضافة إلى كم هائل من المقالات والمحاضرات التى ألقاها طوال حياته العملية. ومن أهم مؤلفاته: "تركستان فى القرن العشرين"، و"السياسة السوفييتية تجاه الشرق - تركستان أنموذجا"، و"تركستان بين روسيا والصين"، و"باسمشى". وتقديرا لجهوده وأبحاثه، تم منحه شهادة الدكتوراه الفخرية من جامعة اسطنبول التقنية عام ٢٠٠٤ . توفى الدكتور "باى ميرزا هاييت" فى الحادى والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٦ فى كولونيا بألمانيا.

المحتويات

المحتويات

منافذ بيع مكتبة الأسرة
الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم
١١٩٤كورنيش النيل – رملة بولاق
مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب
القاهرة
ت: ٢٥٧٧٥٠٠٠ ـ ٢٥٧٧٥٢٢٨
٢٥٧٧٥١٠٩ داخلى ١٩٤

مكتبة مركز الكتاب الدولى
٣٠ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت: ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو
١٩ ش ٢٦ يوليو ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف
٣٦ش شريف ـ القاهرة
ت: ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى
٥ ميدان عرابى ـ التوفيقية ـ القاهرة
ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين
مدخل ٢ الباب الأخضر ـ الحسين ـ
القاهرة
ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان
١٣ش المبتديان ـ السيدة زينب
أمام دار الهلال ـ القاهرة

مكتبة ١٥ مايو
مدينة ١٥ مايو ـ حلوان خلف مبنى
الجهاز

مكتبة الجيزة
١ ش مراد ـ ميدان الجيزة ـ الجيزة
ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة
خلف كلية الإعلام ـ بالحرم الجامعى
بالجامعة ـ الجيزة

مكتبة رادوبيس
ش الهرم ـ محطة المساحة ـ الجيزة
مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون
ش جمال الدين الأفغانى من شارع
محطة المساحة ـ الهرم
مبنى أكاديمية الفنون ـ الجيزة

مكتبة ساقية عبدالمنعم الصاوى
الزمالك ـ نهاية ش ٢٦ يوليوو
من أبوالفدا ـ القاهرة

مكتبة الإسكندرية

٩٤ ش سعد زغلول ـ الإسكندرية

ت : ٠٣/٤٨٦٢٩٢٥

مكتبة الإسماعيلية

التمليك ـ المرحلة الخامسة ـ عمارة ٦

مدخل (أ) – الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٢١٤٠٧٨

مكتبة جامعة قناة السويس

مبنى الملحق الإدارى ـ بكلية الزراعة ـ

الجامعة الجديدة ـ الإسماعيلية

ت : ٠٦٤/٣٣٨٢٠٧٨

مكتبة بورفؤاد

بجوار مدخل الجامعة

ناصية ش ١١، ١٤ ـ بورسعيد

مكتبة أسوان

السوق السياحى ـ أسوان

ت : ٠٩٧/٢٣٠٢٩٣٠

مكتبة أسيوط

٦٠ش الجمهورية ـ أسيوط

ت : ٠٨٨/٢٣٢٢٠٣٢

مكتبة المنيا

١٦ ش بن خصيب ـ المنيا

ت : ٠٨٦/٢٣٦٤٤٥٤

مكتبة المنيا (فرع الجامعة)

مبنى كلية الآداب ـ جامعة المنيا ـ

المنيا

مكتبة طنطا

ميدان الساعة ـ عمارة سينما أمير ـ

طنطا

ت : ٠٤٠/٣٣٣٢٥٩٤

مكتبة المحلة الكبرى

ميدان محطة السكة الحديد

عمارة الضرائب سابقًا ـ المحلة

مكتبة دمنهور

ش عبدالسلام الشاذلى ـ دمنهور

مكتب بريد المجمع الحكومى ـ توزيع

دمنهور الجديدة

مكتبة المنصـورة

٥ ش السكة الجديدة ـ المنصورة

ت : ٠٥٠/٢٢٤٦٧١٩

مكـتـبـة مـنـوف

مبنى كلية الهندسة الإلكترونية

جامعة منوف

توكيل الهيئة بمحافظة الشرقية

مكتبة طلعت سلامة للصحافة والإعلام

ميدان التحرير ـ الزقازيق

ت : ٠٥٥/٢٣٦٢٧١٠

ت: ٠١٠٠٦٥٣٣٧٣٣٢



سلسلة تعنى بنشر الحقول المعرفية، التى تهتم بدراسة الإنسان وتاريخه وطبيعته وبيئته وقدراته الإدراكية وواقعه الاجتماعى والثقافى والسياسى، بالإضافة إلى النواحى المختلفة من النشاط البشرى وما ينشغل به البشر من إشكاليات حياتهم ومجتمعهم، وأنساق ثقافاتهم وقيمهم فى علوم مختلفة مثل: التاريخ والفلسفة والأنثروبولوجيا والاقتصاد والنقد الأدبى والقوانين والتشريع والعلوم السياسية إلى غيرها من المعارف العامة، التى يترقبها المتلقى، ويحرص على متابعتها؛ لتساعده فى تكوين مرجعيته الثقافية العامة.

ISBN# 9789779103082



